

مجموعة من المقالات المختارة

للمؤتمر العالمي الحادي عشر للوحدة الإسلامية

ربيع الأول ١٤١٩هـ. ق

الجزء الاوّل

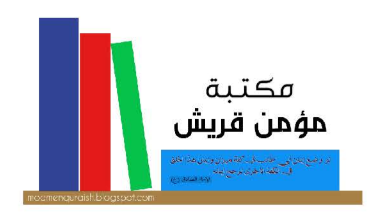
بسم الله الرحمن الرحيم

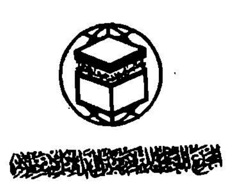
خصائص الإسلام العامة

(الجزء الاول)

مجموعة من المقالات المختارة
للمؤتمر العالمي الحادي عشر للوحدة الإسلامية
١٣٧٧هـ‍.ش
١٤١٩ هـ‍.ق

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية





اسم الكتاب: .... خصائص الإسلام العامة

الناشر: .... المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

الإشراف: .... سيد جلال الدين ميرآقائي

تنضيد الحروف و الاخراج الفني: .... علي الكتبي

تقويم النص والمراجعة: .... سيد علي الهاشمي

باهتمام: .... عبدالحميد الطالبي

الطباعة و الشؤون الفنية: .... دارالهدى للتوزيع و النشر الدولي

تاريخ الطبع : .... ١٤٢٠ هـ ق ـ ١٣٧٨ هـ ش ـ الطبعة الأولى

عدد المطبوع : .... ١٠٠٠ نسخة

الجزء : .... الأوّل

ISBN:* ....*964 - 472 - 169 - 1

التوزيع :المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية - طهران - ص . ب ١١٣٦ - ١٣١٨٥

رقم الهاتف : ٨١٥٣٢٦٣ - ٨٨٤٨٩٧٥ ٠٠٩٨ رقم الفاكس : ٨٨٤٨٩٧٤ ٠٠٩٨

الفهرست

فصل (٣) الإنسانية ٢٥٧

المقـــدمـــة

✍ الأستاذ محمد واعظ زاده الخراساني

الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله واصحابه ومن والاه، اما بعد:

لا أجد عندي كلمة تعبّر عن سروري وابتهاجي حين وقفت على مجموعة مطبوعة من الأوراق والبحوث التي قُدّمت الى المؤتمر الدولي الحادي عشر من مؤتمرات الوحدة الإسلامية التي يقيمها «المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية» كل عام في أسبوع الوحدة احتفالاً بالمولد النبوي الشريف، وطبعت تلك الابحاث القيمة في مجلدين باللغة العربية وسيصدر مجلد آخر يحتوي الابحاث باللغة الفارسية بإذن الله تعالى.

مداخلات وأبحاث كل مؤتمر إذا نشرت فقد أنجزت أهم ثمرات

المـؤتـمـر، هـذا من دون ان نقلل من أهمية نفس اجتمـاع المفكـرين والمخلصين من الأئمة والقـادة والعلمـاء المسلمين حـول طـاولة البحث ولا نقـدر ما سيتحقق في مثل هذه الملتقيات من التعارف بين الباحثين ومن تبـادل الآراء وتقارب الإنتماء والتآلف بين القلوب وتبلور الأخوة والمحبة بين الصدور.

موضـوع المؤتمـر الحـادي عشر، وهو «خصائص الإسلام العامة»، كان من أهم المـواضيع المطـروحة في مؤتمـراتنـا السنوية باعتبـاره دراسة أهم أبعـاد الإسـلام وأصـولـه وهي الإلهية، والـواقعية، والإنسانية والشمـولية والخاتمية. وهـذه الخمسة من أركـان الإسـلام وأصـولـه التي اتفقت عليها المـذاهب الإسـلامية التي نحن في المجمع بصدد التقريب بينها. وقد اكّدنا ونـؤكـد دائمـاً أن المـذاهب الإسـلامية يجب أن يتفقوا قبل كل شيء على الأصـول الإسـلامية التي هي معيـار الإيمـان والكفـر، تمهيـداً للخوض في تقريب وجهـات النظـر في المسائل التي اختلفت المذاهب فيها، فإنها فروع تفـرّعت عن تلك الأصـول ومـادام لا تعرف الأصول ليس لنا مجال للتطرق إلى الفروع.

فقد شمل الأصل الأول، أي الإلهية كل نواحي العقيدة في الله وصفاته والـوحي والنبوة والمعاد والعبادات، وسلوك العباد للقاء ربهم والمعاملات والأحكام وساير أقسام الشريعة كدستور رباني لسلوكهم مع بعضهم البعض. والأصل الثاني، وهـو الـواقعية، كفيل بمسايـرة الإسـلام مع العقل والفطـرة

والوسطية وطريقة الاعتدال، ومواكبته مع تطورات الأزمان والاعصار، وتفاعله مع الحالات والمستجدات والأصل الثالث وهو إنسانية الإسلام يرافق كرامة الانسان وشخصيته وحقوقه الفطرية وينفي كل ظلم وتعصب واجحاف وتبعيض بين الأنام وكذا يرفض غلواء العنصرية والتفوق القومي، مع الاعتراف بحقوق الشعوب وثقافاتهم وتقاليدهم ما لم تمس روح الإسلام ولاتعارض الحق والعدل.

وأما الأصلان الرابع والخامس، وهما الشمولية والخاتمية، فيتكفلان شمولية الإسلام لجميع عرصات الحياة، الفردية والاجتماعية والسياسية، وكذا تضمنان توحيد العبادة والقانون وتوحيد الحكومة والدستور وشموله لواجبات الإنسان في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة. فالمسلمون متفقون بحمد الله في هذه الأصول. فلابد أن يتخذوها معيارا لشخصيتهم الإسلامية ولا يتجاوزوها في مذاهبهم مهما اختلفت في الفروع الجانبية، سواء في ناحية العقيدة كالمسائل التي جرت في الصفات وافعال العباد ونحوها بين المعتزلة والامامية والزيدية والأباضية من ناحية وبين أهل السنة والسلفية والأشعرية او بين تلك الفرق نفسها من ناحية أخرى.

أو على صعيد الشريعة كالمسائل الكثيرة في أبواب العبادات والمعاملات والمواريث والمناكح وغيرها، فإنها فروع نشأت عن أصول متفق عليها في كل باب والباعث للاختلاف هو الإجتهاد النابع من رؤى واستنباطات خاصة في فهم آية او حديث او توثيق متفاوت للاحاديث

والسنن، أو من مغايرة الأعراف والعادات، أو اختلاف تقدير لمصالح العباد ومقاصد الشريعة.

فـاذا اتفقنـا نحن معاشـر المسلمين في الأصول فلا ضير في الاختلاف في الفـروع بل فيـه خيـر كثيـر للعبـاد والبـلاد، وشطر منه لابد منه فإذا كان الاجتهـاد، هـو مثـار الاختلاف مع المحافظة على الأصول، فالآراء الناشئة عنـه كلهـا مقبولة وكلها إسلامية ما لم تخرج عن دائرة الأصول وعن نطاق الإسلام العام.

فعلى الأئمة والأتباع ان ينظروا إلى مذاهبهم كمدارس إسلامية تبحث عن الإسـلام، وكطرق مختلفة تنتهي الى مقصد واحد. ولهذا سميت مذاهب وليست اديانا.

كما انه فرض على أئمة المذاهب:

اولاً: ان يراقبـوا آراءهم وأعمـال أتبـاعهم لكيـلا تخـرج عن نطـاق الإسلام إلى خلافه، ولا تصادم الكتاب والسنة.

وثانيـاً: أن لا يجعلـوا مـذاهبهم وآراءهم الخاصة بهم اصلاً من أصول الاسـلام فيخلطـوا الأصـول بالفروع، ويتعاملوا مع الفروع معاملة الأصول فيـدور الايمـان والكفـر عندهم مدار المذهب بدل أن يدوران مدار الأصول المتفق عليهـا، وعلى أثـر ذلك تصبح المـذاهب أديانـا شتى فتسـد وتغلق أبـواب الـوحـدة وفي نفس الـوقت أبواب الرحمة، وينقلب أتباع المذاهب بـدل كونهم أمة واحـدة متـآخية إلى أمم متعددة أجنبية بعضهم عن بعض.

وهذا مع الأسف الشديد قد وقع بين بعض المذاهب من أجل غفلة وسكوت الأئمة وجهل وتعصب الأتباع وأصبح كل من هذا وذاك سدا منيعاً وحائلا رفيعاً أمام المصلحين، فلا تسمع اصواتهم ونداءهم إلى الوحدةوالتقريب، وبدل التلبية لهذه الدعوة المباركة رفع البعض نعيقه بأنه ليس بين الإسلام والكفر وحدة ولاتقريب!!

ومهما شذت شرذمة قليلة وتخلفت عن هذا الركب، فنرى ان كوكبة غفيرة من أئمة المذاهب والمفكرين قد لبوا ندائنا وبادروا الى الإشتراك في المؤتمر من أقصى البلاد ومن كل فج عميق وأقبلوا إلى المداخلة في الابحاث وهذه المجموعة شاهد على صدق الدعوى.

كما أن البيان الذي صدر في الختام شاهد آخر فقد جاء فيه ... تم عقد المؤتمر الدولي الحادي عشر للوحدة الاسلامية.. بحضور جمع غفير من العلماء والمفكرين من شتى الأقطار الإسلامية، وقد تدارس المشاركون في المؤتمر محوراً مهما من المحاور التي يتفق عليها المسلمون، وهو موضوع «خصائص الإسلام العامة»... حيث لاحظوا الإجماع على هذه الخصائص، كما تدارسوا الوضع الإسلامي العام في عصرنا الحاضر، ومدى التآمر الدولي الذي يقوده الاستكبار العالمي على قضية الوحدة الإسلامية باعتبارها خصيصة كبرى للأمة الإسلامية...

ومن جملة توصيات المؤتمر:

أولا: أن الإسلام دين الفطرة ورسالة الله إلى البشر جمعاء تضمن لها

مسيرتها التكاملية...

وثانيا: ان الوحدة الإسلامية خصيصة قرآنية مقدمة لحياة هذه الامة وحماية قيمها ومسيرها وان مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية تمثل.. خطوة كبرى على الطريق الصحيح لتحقق وحدة الأمة بشكل عملي... إلى آخر البيان وقد جاء في صدر هذه المجموعة.

وفي الختام نشكر المشاركين والقائمين بعقد هذاالمؤتمر العظيم وخاصة الإخوة العاملين معنا في المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وفي رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية وأخص بالذكر الأخ السيد جلال الدين ميرآقايي وكيل المجمع للشؤون الدولية وأمين الهيئة العلمية للمؤتمر والمشرف على طبع هذا المجلد والأخ عبدالحميد طالبي القائم بأعمال المؤتمر، نسأل الله تعالى للجميع كل خير وبركة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين.

محمد واعظ زاده الخراساني
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب
بين المذاهب الإسلامية

البيان الختامي للمؤتمر العالمي
الحادي عشر للوحدة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد للّـه رب العالمين والصلاة والسلام على محمّد و آله الطاهرين وصحبه المنتجبين

وبعد...

بمناسبة ذكرى ولادة الرسول الكريم سيّد البشرية وفخرها محمّد **(صلى الله عليه و آلـه)** وكـذلك ولادة حفيـده الإمـام الصادق**(عليـه السلام)** وحلول إسبوع الوحدة الإسـلامية، تم عقـد المؤتمـر الـدولي الحادي عشر للوحدة الإسلامية في طهران عـاصمة الجمهـورية الإسلامية الإيرانية بحضور جمع غفير من العلماء والمفكرين من شتىٰ الأقطـار الإسلامية، وقد تدارس المشاركون في المؤتمر محوراً مهماً من المحـاور التي يتّفق عليهـا المسلمـون وهـو موضوع (خصائص الإسلام العامة) والتي تُميّـزه عن غيـره من الأديان والمدارس الفكرية والحركية والعملية الاخرىٰ حيث لاحظـوا الإجمـاع الكـامل على هـذه الخصـائص، كمـا تدارسـوا الـوضع الإسـلامي العـام في عصرنـا الحاضـر ومدىٰ التآمر الدولي الذي يقوده الأستكبار

العـالمي علىٰ قضيّة (الوحدة الإسلامية) باعتبارها خصيصة كُبرىٰ للأمة الإسلامية واستعـرضـوا السُبل الكفيلة بتقويتهـا باستمـرار، والـرّد علىٰ مَن يعملـون علىٰ تقويض دعائِمها.

هـذا وقـد حظي المشاركـون بلقاء سماحة آية الله السيد علي الخامنئي قائد الثـورة الإسـلامية وولي أمـر المسلمين واستمعوا إلى كلمته الحكيمة وإرشاداته الـرصينة في مجال الوحدة الإسلامية وخصائص الإسلام مشيراً بشكل خاص الى التـآمـر الـدولي على فلسطين وبـالتحديـد الى مسـألة تهويـد القدس عبر توسعة الاستيطـان. وقد استمع المؤتمرون الى الكلمة الترحيبية التي القاها حجة الاسلام والمسلمين السيد محمد الخاتمي رئيس الجمهورية الإسلامية والتي اكد فيها على اهمية الـوحـدة الإسـلامية واشـادبـدور المجمع العـالمي للتقريب بين المذاهب الإسـلامية في هـذا المجـال، كما استمع المشاركون إلى الكلمة الافتتاحية القيّمة التي ألقـاهـا سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ الهاشمي الرفسنجاني والتي ركّز فيها علىٰ عُنصر الفطرة ودعا إلى رَص الصفوف في مواجهة الأعداء.

هـذا وقـد سبق عقـد المؤتمـر العام، قيام المشاركين بعقد لجنتين منفصلتين لـدراسة الموضـوعـات المطروحة وتدارس القضايا العامة والابحاث المقدمة الى المؤتمر.

وقد أصدر المشاركون في ختام جلساتهم التوصيات التالية:

أولاً: إنّ الإسـلام دين الفطـرة ورسـالة اللـه إلى البشرية جمعـاء تَضمَن لهـا مسيرتها التكاملية إلى تحقيق أهداف خِلقَتها الانسانية المنشودة، وهي تتمتع بكل الصفـات التي تحقق ذلك من (الإلهية، والـواقعية، والانسانية، والمـرونة والتوازن والتـرابط والخلـود والشمـول لكل جوانب الحياة) مما يؤهلها لإشباع الحاجات

الـروحية والمـادية للإنسـان وإقـامة نظـام رباني عـالمي عادل يستوعب مختلف الظـروف الزمانية والمكانية ويُؤمّن المسيرة المتكاملة فضلاً عن تأمينه لكل حقوق الإنسان بأجلىٰ مظاهرها.

ومن هنـا فإن علىٰ العلمـاء والمفكرين أن يقوموا بتوعية الجماهير الإسلامية بهـذه الخصـائص، كمـا أن عليهم أن يوصلـوا هذه الحقائق لكل الشعوب لِتعلوَ كلمة اللّه ويتحقق الأمل المنشود في إقامة المجتمع المؤمن المتكامِل.

ثانيـاً: إن **الـوحـدة الإسـلامية** خصيصة قرآنية مقـومة لحياة هذه الأمة وحماية قيمهـا ومسيرهـا وإن مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية تمثل ـ الى جانب الخطوات الوحدوية الاخرى ـ خطوةً كُبرى على الطريق الصحيح لتحقيق وحـدة الأمة بشكل عملي، ولـذلك فإن المجتمعين يُثمّنـون ـ بكل تقدير ـ عمل المجمع العـالمي للتقريب بين المـذاهب الإسـلامية والـذي تمّ إنشـاؤه بامر من سمـاحة قائـد الثـورة الإسلامية ـ كما يُعلِنونَ عزمهم على نشرِ هذه الفكرة القيّمة بين العلمـاء وتثقيف الجماهير بثقافة التقريب والوحدة صوناً لها من التآمر الدولي على مكـاسبهـا الوحـدوية ـ ويـؤكـدون ضـرورة تشكيل جماعات التقريب في مختلف البلاد. كما يقترحون تخصيص جائزة عالمية باسم (جائزة الامام الخميني للـوحـدة الاسـلامية). وعلىٰ كل المسلمين أن يعملـوا علىٰ تحقيق هذه الوحدة ورفع الموانع من أمام طريقها، ونَبذ كلِ نَعرةٍ مفرّقة للمسلمين.

ثالثـاً: ايمانـاً من المشـاركين بأن الغد الإنساني هو غد تطبيق الإسلام على شتىٰ جوانب الحياة فإنهم يدعون كل المخلصين لبذل أقصىٰ جهودهم للتعريف بالإسلام وخصائصه الإنسانية لكي يتم الاسراع في تحقيق الاهداف المنشودة.

رابعـاً: يُثمّن المشاركـون كل الخطوات التي قامت بها الثورة الإسلامية في

ايـران نحـو تطبيق تعـاليم الإسـلام على كل شؤون الحياة ويعلنون شجبهم لكل المؤامرات التي يحيكهاالأستكبار العالمي وعلى رأسه امريكاوالصهيونية العالمية لعرقلة هذه المسيرة الظافرة.

خامساً: يُعلن المشاركـون وقوفهم الى جانب الشعب الفلسطيني المظلوم في جهـاده المتواصل وانتفاضته المباركة ضد العدو الصهيوني ويشجبون الكيان الصهيوني ومحـاولاتـه الآثمة لتـركيـز الاحتـلال وقمع العمل الجهادي والحركة الاسـلامية التحـررية، وإهانة الأنبيـاء (عليهم السلام) وتوسعة بناء المستوطنات اليهودية والتآمر على الأهداف الإسلامية الأصيلة للشعب الفلسطيني المجاهد.

كمـا يحيّ المؤتمـر جهاد الشعب اللبناني لتحرير الأرض من رجس الصهاينة ويـدعم المقـاومة الإسـلامية وكل المجـاهـدين الذين يدافعـون عن الأرض ويواجهون الإحتلال الإسرائيلي.

سادساً: يعتبر المؤتمرون الاجراءات الصهيونية الاخيرة لما يسمى بتوسيع القـدس بهـدف تهويـدهـا، عدوانـاً إجـرامياً خطيـراً على مقدسـات المسلمين ويـدعـون الامة الاسـلامية للقيـام بواجبهـا لاستنقـاذ المسجـد الاقصى المبارك والقـدس الشريف وسـائـر المقدسات الاسلامية في فلسطين. كما يؤيدون مبادرة سمـاحة حجة الاسـلام والمسلمين السيـد محمـد الخاتمي رئيس الجمهـورية الاسـلامية الايـرانية رئيس منظمة المؤتمـر الاسـلامي لعقد اجتماع كامل لوزراء خارجية الدول الاسلامية لاتخاذ الموقف الاسلامي المناسب.

سابعـاً: نـدد المـؤتمـر بكل المحـاولات التي تجـري في العـالم العربي والإسـلامي للتطبيع والتعـاون مع العـدو الصهيـوني في المجـالات العسكرية والسيـاسية والاقتصـادية واعتبرهـا مرفوضةً ومحكوماً عليها بالفشل الذريع، لأنها

تتعارض مع مصلحة الأمة الإسلامية وتتنافى مع مقاصدها النبيلة، وتُركّز الإحتلال البغيض.

ثامناً: يوجه المشاركون نداءَ حاراً لكل الفصائل الأفغانية المتصارعة لإيقاف نزيف الدم المستمر بينها والقيام بمفاوضات سلمية للتوصل إلى حل نهائي لهذه القضية يكفل التمثيل الشعبي، ويحقق الأهداف الكبرى التي عمل لأجلها المجاهدون الأفغان في صراعهم الأول ضد الإحتلال السوفيتي ومنها إقامة الحكومة الإسلامية العادلة وهو عمل يثّمنه الجميع ويقدرونه.

تاسعاً: يشجب المؤتمر كل المحاولات التي تعمل على ضرب عناصر الصحوة الإسلامية وإخماد صوتها ويُعلن أن مسيرتها مستمرة حتى تحقيق أهداف الإسلام الكبرى وبناء الحياة على أساس تعاليمه الخالدة، وفي هذا الصدد أبرز المؤتمر ضرورة الإهتمام بمعالجة الحالة الصعبة في العراق بالسعي لإيقاف الجرائم المرتكبة فيه و آخرها قتل علماء الدين الكبار وكذلك الاهتمام بالحالات المفجعة في الجزائر والصومال وكشمير و البوسنة وتركيا وغيرها. كما يشجبون حملة الإبادة الجماعية التي يقوم بها الصرب ضد الشعب الالباني المسلم في كوسوفا.

عاشراً: يُعلن المؤتمر عن قلقه الشديد للمحاولات التي تبذلها بعض الجهات لتوسعة حركة التنصير في بعض المناطق الإسلامية وخصوصاً في آسيا الوسطى والقفقاز وافريقيا وغيرها مؤكداً على ضرورة صيانة عقيدة الشعوب المسلمة والاحتفاظ بشخصيتها الايمانية مع التأكيد ايضاً على ضرورة التعايش بين أتباع الرسالات السماوية انطلاقاً من عقيدة التوحيد والقيم الإنسانية التي تؤمن بها هذه الرسالات، والدفاع عن هذه القيم لتحقيق ما تصبو إليه البشرية من

عالم يسوده العدل وتحكمه القيم الإنسانية الحقة.

حـادي عشـر: يدعـو المشاركون كل الغيارى في العالم الاسلامي لتحمل مسـؤوليتهم الكبـرى تجـاه الاقليات المسلمة في العالم واتخاذ الخطوات اللازمة لحماية شخصيتهـا الإسلامية وتربية النشىء الجديد على التعاليم والقيم الإسلامية وتأمين حقوق هذه الاقليات في البلدان التي يقطنونها.

ثاني عشر: يُقدّم المشاركون شكرهم الجزيل للجمهورية الإسلامية الإيرانية ممثّلة بقيـادتهـا الإسلامية الرشيدة وشعبها المخلص المعطاء على الحفاوة البالغة التي أولوها لهذاالمؤتمر ويؤكدون وقوفهم إلى جانب المسيرة الإسلامية الظافرة في ايران.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

طهـران في السابع عشـر من ربيع الاول من العـام التـاسع عشر بعد الاربعمائة والالف للهجرة النبوية.

١ ـ الإلهيـــــة

١ - واقع التشريع الإسلامي، معالمه و ملامحه — آية الله جعفر السبحاني

٢ - إلهية المصدر (الوحي - القرآن - السنة الشريفة) — الدكتور ابو بكر صديق

٣ - إلهية المصدر، الوحي — ابراهيم الخزرجي

واقع التشريع الإسلامي

معالمه وملامحه

آيت الله جعفر السبحاني

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

التشريع أحد أركان الحضارة فلا تجد مجتمعا حضاريا الا وعنده قوة التشريع والتقنين وهذا مما لاكلام فيه.

وإنما الكلام في الاصل الذي يعتمد عليه التشريع ويستمد منه. فهناك منهجان:

منهج يعتمد في التحليل والتحريم على رأي الاكثرية فما صوبته الاكثرية يصبح قانونا محترما لدى الكل وما لم تصوبه الأكثرية يكون مرفوضا.

ومنهج يعتمد في التشريع على الواقعيات والمصالح والمفاسد فما كان واقعيا وصالحا للبشرية فهو القانون السائد، وما لم يكن كذلك لايعبر ابدا.

والاسلام في تشريعه يتبع المنهج الثاني لان التشريع بيد الله سبحانه وتعالى وحده فلا حاجة اذا الى رعاية التصويت والتصويب. وتتجلى واقعية التشريع الاسلامي في ملامحه ومعالمه.

فالتشريع الاسلامي يتميز بملامح بينما هي ملامح ثبوتية ترجع الى مادة

التشريع وروحه، وبينما هي ملامح اثباتية ترجع الى دلالة التشريع.

فما يرجع الى القسم الاول يتلخص في امور ستة:

١ ـ الفطرة الانسانية هي المقياس في التقنين.

٢ ـ التشريع حسب المصالح والمفاسد الواقعية.

٣ ـ النظر الى المادة والروح على سواء.

٤ ـ النظر الى الحقائق دون الظواهر.

٥ ـ المرونة في التشريع.

٦ ـ العدالة في التقنين.

فلنأخذ كل واحد بالبحث واحداً تلو الآخر ثم نرجع إلى بيان ملامح التشريع الاسلامي في مقام الدلالة والاثبات.

أما الملامح الثبوتية فهي عبارة:

١ ـ الفطرة هي المقياس

إنّ للانسان مع قطع النظر عن الظروف الموضوعية المحيطة به شخصية تكوينية ثابتة لاتنفك عنه عبر الزمان، فالغرائز السفلية والعلوية هي التي تكوّن شخصيته ولا تنفك عنه مادام الانسان انسانا، فجعل الاسلام الفطرة معيارا للتشريع، فكل عمل يجاوب وينساق مع الفطرة فقد أحلّه، وماهو على موضع الضد منها فقد حرّمه.

فقد ندب الى الروابط العائلية وتنسيق الروابط الاجتماعية، كرابطة الولد بوالديه، والاخ بأخيه، والانسان المؤمن بمثله، كما قدحذر عما ينافي خلقه وادراكه العقلي، كتحريمه الخمر والميسر والسفاح، لما فيها من افساد للعقل

الفطري والنسل والحرث.

فالاحكام الثابتة في التشريع القرآني تشريع وفق الفطرة.

٢ ـ التشريع حسب المصالح

نعم ثمة ميزة اخرى للتشريع القرآني، وهو انه مبني على المصالح والمفاسد الواقعية. فلا واجب الا لمصلحة في فعله، ولا حرام الا لمصلحة في تركه، قال سبحانه: (إنما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون).[١] وقال سبحانه: (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر).[٢]

وعلى هذا الاساس فقد عقد فقهاء الشيعة بابا خاصا باسم تزاحم الاحكام في ملاكاتها حيث يقدّم الاهم على المهم، ويتوصل في تمييزهما بالقرائن المفيدة للاطمئنان.

٣ ـ النظر إلى المادة والروح على حد سواء

آلف القرآن بتعاليمه القيمة بينهما مؤالفة تفي بحق كل منهما حيث يفسح للانسان ان يأخذ قسطه من كل منهمابقدر ما يصلحه.

لقد غالت المسيحية (الغابرة) بالاهتمام بالجانب الروحي من الانسان حتى كادت أن تجعل كل مظهر من مظاهر الحياة المادية خطيئة كبرى، فدعت الى الرهبانية والتعزب، وترك ملاذ الحياة، والإنعزال عن المجتمع، والعيش في

---

(١) المائدة: ٩١.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

الأديرة وقلل الجبال والتسامح مع المعتدين.

كما غالت اليهودية في الانكباب على المادة حتى نسيت كلّ قيمة روحية، وجعلت الحصول على المادة بأي وسيلة كانت، المقصد الاسنى، ودعت الى القومية الغاشمة.

لكن الاسلام اخذ ينظر الى واقع الانسان بما هو كائن ذو بعدين، فالبعد المادي لايستغني عن المادة، وبالبعد الروحي لايستغني عن الحياة الروحية، فأولاهما عنايته، فدعا الى المادة والالتذاذ بها بشكل لايؤثرها على حياته الروحية، كما دعا الى الحياة الروحية بشكل لايصادم فطرته وطبيعته؛ وهكذا فقد قرن بين عبادة الله وطلب الرزق وترفيه النفس، فندب الى القيام بالليل واقامة النوافل، وفي الوقت نفسه ندب الى طلب المعاش وتوخي اللذة، قال سبحانه:

(والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما)[1] وقال ايضا: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق).[2]

وقال علي امير المؤمنين(ع): «للمؤمن ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، و ساعة يروم فيها معاشه، وساعة بينه وبين لذاتها».[3]

٤ ـ النظر إلى المعاني لا الظواهر

ان التشريع القرآني ينظر الى الحقائق لا الى القشور، فلا تجد في الاسلام مظهرا خاصا من مظاهر الحياة يكون له من القداسة ما يمنع من تغييره ويوجب

(١) الفرقان: ٦٤.
(٢) الاعراف: ٣٢.
(٣) نهج البلاغة: باب الحكم، الحكمة ٩٣.

حفظه الى الابد بشكله الخاص، فليس هناك تناقض بين تعاليمه والتقدم العلمي.

فلـو كـان التشريع الاسلامي مصرا على صورة خاصة من متطلبات الحياة لما انسجم مع الحيـاة، فمثـلاً ينهى الاسلام عن اكل الاموال بالباطل، وعلى هذا فرع الفقهـاء حرمة بيع الدم لعدم وجود منفعة محللة له في تلك الاعصار الغابرة بيد ان تقـدم العلـوم والحضـارة اتـاح للبشر ان يستخدم الدم في منافع محللة لم يكن لها نظير من قبل، فعادت المعاملة بالدم في هذه الاعصار معاملة صحيحة لا بأس بها، وليس هـــذا من قبيل نسخ الحكم، بل من بـــاب تبـدل الحكم بتبـدل موضـوعـه كانقلاب الخمر خلا.

فالاســلام حــرم أكل المــال بالباطل، فما دام بيع الدم مصداقا لتلك الآية كان محكـومـا بالحـرمة، فلمـا اتيح للبشـر ان يستفيد منه في علاج المرضى خرج عن كونــه مصداقا للآية، وهذا هو الذي عبرنا عنه في عنوان البحث بأن الاسلام ينظر الى المعاني لا الى القشور.

٥ ـ المرونة في التشريع

ان من مــلامح التشريع القــرآني مرونتــه وقـابليتــه للانطبـاق على جميع الحضــارات الانسانية، ومـا ذلك الا لأنـه جـاء بتشريعات خاصة لهادور التحديد والـرقابة على سائـر تشريعاتـه، وهذا التشريع اعطى للدين مرونة و منعطفاً جديداً قال سبحانه : (وما جعل عليكم في الدين من حرج).[1] وقال: (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون).[2]

(١) الحج ٧٨.
(٢) المائدة: ٦.

وقال رسول الله(ص):(لاضرر ولا ضرار).[١]

فحدد كل تشريع بعدم استلزامه الضرر والضرار، فأوجب التيمم مكان الوضوء اذا كان استعمال الماء مضرا، كما اوجب الافطار على المريض والمسافر لغاية اليسر، قال سبحانه: (ومن كان مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر يريد الله بكم اليسر و لايريد بكم العسر).[٢] الى غير ذلك من الآيات والروايات التي لها دور التحديد والرقابة.

وجاء في الحديث عن الصادع بالحق انه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة».[٣]

وقال الامام الصادق(ع): «ان هذا الدين لمتين، فأوغلوا فيه برفق، لا تكرهوا عبادة الله لعباد الله».[٤]

٦ ـ العدالة في التقنين

ومن ملامح التشريع القرآني، العدالة حيث تراها متجلية في كافة تشريعاته، خاصة فيما يرجع الى القانون والحقوق، قال سبحانه: (ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين).[٥]

وقال تعالى: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم).[٦]

وقال تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا و أصلح فأجره على الله انه

---

(١) الوسائل: الجزء ١٦.
(٢) البقرة: ١٨٥.
(٣) احمد بن حنبل: المسند: ٥/٢٦٦.
(٤) الكافي: ٢/٧٠ ح ١.
(٥) البقرة: ١٩٠.
(٦) البقرة ١٩٤.

لا يحب الظالمين).[١]

وقال سبحانه: (ولا تزر وازرة وزر اخرى).[٢]

وقال سبحانه: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف).[٣]

الى غير ذلك من الآيات التي تدل على ان هيكل التشريع الاسلامي بني على اساس العدل والقسط.

هذه الملامح ترجع الى سمات القانون الاسلامي ثبوتا.

ملامح التشريع الاسلامي في مقام الاثبات

اما سماته في عالم الاثبات والدلالة فهي عبارة عن الامور التالية:

أ. شموليته لعامة الطبقات.

ب . سعة آفاق دلالة القرآن والحديث.

ج. التدريج في التشريع.

أ . شمولية التشريع

أخذ القرآن الانسان محورا لتشريعه، مجردا عن النزعات القومية والوطنية والطائفية واللونية واللسانية، فنظر الى الموضوع بنظرة شمولية وقال: (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير).[٤]

---

(١) الشورى ٤٠.

(٢) الانعام: ١٦٤.

(٣) البقرة: ٢٢٨.

(٤) الحجرات: ١٣.

التشريع القرآني تشريع من جانب رب العالمين الى نوع البشر، فالوطن والقوم والقبيلة لم تؤخذ بنظر الاعتبار، والكرامة للانسان وحده، ولا فضل لانسان على آخر الا بالمثل والاخلاق.

فترى انه يخاطب المجتمع الانساني بقوله: (يا ايها الناس) او (يا بني آدم) او (يا ايها المؤمنون) وما ضاهاها، فكسر جميع الحواجز والقيود التي يعتمد عليها المفكر المادي في التقنين الوضعي، والذي يقتفي اثر اليهود في مزعمة الشعب المختار.

ان النبي (ص) هو القائل بأنه ليست العربية بأب والد، وانما هو لسان ناطق، وفي الوقت نفسه لايعني بكلامه هذا ان العلائق الطبيعية، كالانتماء الوطني او القومي بغيضة لا قيمة لها، وانما يندد باتخاذها محاور للتقنين، وسببا للكرامة والمفخرة، او سبيلا لتحقير الآخرين، وايثارها على الدين والعقيدة، يقول سبحانه: (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون).(١)

والعجب انه قد صدر هذا من لدن انسان امي نشأ في بيئة تسودها خصلتان على جانب الضد من هذا النمط من التشريع، وهما:

الامية والتعصب.

وهذا الانسان المثالي صان بأنظمته كرامة الانسان، ورفعه الى الغاية القصوى

---

(١) المجادلة: ٢٢.

من الكمال، واخذ يخاطب ضميره الدفين، ومشاعره النبيلة، ويكلفه بما فيه صلاحه، ويقول:

(هذا بيان للناس).[١]

(هذا بلاغ للناس).[٢]

(بصائر للناس وهدى ورحمة).[٣]

(يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور).[٤]

وإذا قورن هذا النوع من التشريع الذي ينظر الى الانسان بنظرة شمولية وبر أفة ورحمة، دون فرق بين عنصر و آخر، بالتقنين الوضعي السائد في اعصارنا في الشرق والغرب، الناظر الى الانسان من منظار القومية او الطائفية وغيرهما من النزعات المقيتة، لبان ان التشريع الاول تشريع سماوي لا صلة له بتلك النزعات، والآخر تشريع بشري متأثر بنظرات ضيقة تجود لانسان وتبخل لآخر، وكفى في ذلك فرقا بين التشريعين.

ب ـ سعة آفاق دلالة القرآن والحديث

ان من تمعن في القرآن الكريم وتدبر في معانيه ومفاهيمه، لوقف على سعة آفاق دلالته على مقاصده، غير ان ثلة من الفقهاء مروا على القرآن مرورا عابرا مع انه سبحانه يعرف القرآن بقوله: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى

---

(١) آل عمران: ١٣٨.
(٢) ابراهيم ٥٢.
(٣) القصص ٤٣.
(٤) يونس ٥٧.

ورحمة وبشرى للمسلمين).[١]

وعلى ضوء ذلك لا غنى للفقيه عن دراسة آيات الاحكام دراسة معمقة ثاقبة، ليجد فيها الجواب على اكثر المسائل المطروحة، ولا ينظر اليها بنظرة عابرة.

وقد استدل ائمة اهل البيت(ع) بالقرآن على كثير من الاحكام التي غفل عنها فقهاء عصرهم، ونذكر هنا نموذجا على ذلك:

قُدّم الى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد ان يقيم عليه الحد، فأسلم، فقال يحيى بن اكثم: الايمان يمحو ما قبله، وقال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود. فكتب المتوكل الى الامام الهادي(ع) يسأله، فلما قرأ الكتاب، كتب: «يضرب حتى يموت». فانكر الفقهاء ذلك، فكتب المتوكل الى الامام الهادي(ع) يسأله، فلما قرأ الكتاب، كتب: «يضرب حتى يموت». فانكر الفقهاء ذلك، فكتب اليه يسأله عن العلة فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين* فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون).[٢] فأمر به المتوكل، فضرب حتى مات.[٣]

تجد ان الامام الهادي(ع) استنبط حكم الموضوع من آية مباركة، لايذكرها الفقهاء في عداد آيات الاحكام، غير ان الامام لوقوفه على سعة دلالة القرآن، استنبط حكم الموضوع من تلك الآية، وكم لها من نظير. ولو ان القارىء الكريم جمع الروايات التي استشهد بها ائمة اهل البيت على مقاصدهم استشهادا تعليميا

(١) النحل ٨٩.
(٢) غافر ٨٤-٨٥.
(٣) ابن شهر آشوب: مناقب آل ابي طالب ٤/ ٤٠٣-٤٠٥.

لا تعبديا لو قف على سعة آفاق القرآن.

وها نحن نذكر مثالين على سعة آفاق دلالته:

١ ـ ان الاصوليين تحملوا عبئا ثقيلا لاثبات كون الامر موضوعا للوجوب ومجازا في الندب، فاذا ورد الامر في الكتاب احتاجوا في استفادة الوجوب منه الى نفي المدلول المجازي، باجراء اصالة الحقيقة.

ولكن هذا النمط جار في المحاورات العرفية، والقرآن في غنى عنها في اغلب الموارد او اجمعها، فان لاستفادة الوجوب او الندب في الاوامر الواردة في القرآن طريقا آخر، وهو الايعاز بالعذاب او النار كما نجد في كثير من الواجبات مثل الصلاة والزكاة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال سبحانه: (ما سلككم في سقر ﴾ قالوا لم نك من المصلين).[١]

وقال سبحانه: (وسيجنبها الاتقى ﴾ الذي يؤتي ماله يتزكى)[٢] بل كل ما اوعد على فعله او تركه يستفاد منه الوجوب او الحرمة.

٢ ـ اختلف الفقهاء في وجوب الكتابة في التداين بدين والاستشهاد بشاهدين الواردين في قوله سبحانه: (وليكتب بينكم كاتب بالعدل... واستشهدوا شهيدين من رجالكم).[٣]

فمن قائل بالوجوب اخذا بأصالة الحقيقة، وقائل باستحبابه مستدلا بالاجماع، ومعتذرا عن الاصل المذكور بكثرة استعمال صيغة الامر في الندب، مع ان الرجوع الى نفس الآية وما ورد حولها من الحكمة يعطي بوضوح ان

(١) المدثر ٤٢ـ٤٣.
(٢) الليل ١٧ ـ ١٨.
(٣) البقرة: ٢٨٢.

الامرين لا للوجوب ولا للندب، بل الامران ارشاديان لئلا يقع الاختلاف بين المتداينين فيسد باب النزاع والجدال. قال سبحانه: (ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم).[١]

ويدل على سعة دلالته ايضا ما رواه المعلى بن خنيس، قال: قال ابو عبدالله(ع): «ما من امر يختلف فيه اثنان الا وله اصل في كتاب الله عز وجل، ولكن لاتبلغه عقول الرجال».[٢]

وقال الامام امير المؤمنين(ع): «ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق لكم، اخبركم عنه ان فيه علم ما مضى، وعلم ما يأتي الى يوم القيامة، وحكم ما بينكم، وبيان ما اصبحتم فيه تختلفون، فلو سألتموني عنه لعلمتكم».[٣]

وقال الصادق(ع): «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وفصل ما بينكم، ونحن نعلمه».[٤]

والسابر في روايات ائمة اهل البيت(ع) يقف على انهم كانوا يستنبطون من الآيات نكاتا بديعة ومعاني رفيعة عن مستوى الافهام.

وربمايتصور الساذج ان هذا النوع من التفسير تفسير بالرأي وفرض على الآية، ولكن بعد الامعان في الرواية والوقوف على كيفية استدلالهم(ع) يذعن بأن لها دلالة خفية على ذلك المعنى الرفيع الشامخ وقد غفل عنه.

مثال ذلك ما رواه العياشي في تفسيره، عن زرقان صاحب ابن ابي دؤاد: أن

---

(١) البقرة ٢٨٢.
(٢) الكافي: ١/٦٠-٦١، باب الرد الى الكتاب والسنة، الحديث ٦ و ٧ و ٩.
(٣) الكافي: ١/٦٠-٦١، باب الرد الى الكتاب والسنة، الحديث ٦ و ٧ و ٩.
(٤) الكافي: ١/٦٠-٦١، باب الرد الى الكتاب والسنة، الحديث ٦ و ٧ و ٩.

سارقا اقر على نفسه بالسرقة وسأل الخليفة تطهيره باقامة الحد عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد احضر محمد بن علي(ع) فسألنا عن القطع في اي موضع يجب ان يقطع، فقال الفقهاء: من الكرسوع، لقول الله في التيمم: (فامسحوا بوجوهكم وايديكم).[1]

فالتفت الخليفة الى محمد بن علي فقال: ما تقول في هذا يا ابا جعفر؟ فأجاب: «انهم اخطأوا فيه السنة، فان القطع يجب ان يكون من مفصل اصول الاصابع، ويترك الكف» قال: لِمَ؟

قال: «لقول رسول الله(ص) السجود على سبعة اعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين، فاذا قطعت يده من الكرسوع لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك و تعالى: (وأن المساجد لله) يعني به الاعضاء السبعة التي يسجد عليها: (فلا تدعوا مع الله احدا) وما كان لله لم يقطع».

فأعجب المعتصم ذلك، فأمر بقطع يد السارق من مفصل الاصابع دون الكف.[2]

وروي عن الامام امير المؤمنين(ع) انه كان اذا قطع السارق ترك الابهام والراحة، فقيل له: يا امير المؤمنين تركت عليه يده؟ قال: فقال لهم: «فان تاب فبأي شيء يتوضأ؟ لأن الله يقول: (والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما) - الى قوله: - (فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم).[3] »[4]

فهذا النمط من الاستدلال يوقف القارىء على سعة دلالة الآيات القرآنية،

---

(١) النساء ٤٣.

(٢) الوسائل: ١٨، الباب ٤ من ابواب حد السرقة، الحديث ٥ و ٦.

(٣) الوسائل: ١٨، الباب ٤ من ابواب حد السرقة، الحديث ٥ و ٦.

(٤) المائدة ٣٨-٣٩.

وان ائمة اهل البيت(ع) هم السابقون في هذا المضمار، يستنبطون من القرآن مالاتصل اليه الافهام.

واما عدد آيات الاحكام فقد ذكر الفاضل المقداد في تفسيره «كنز العرفان» ما هذا نصه:

اشتهر بين القوم ان الآيات المبحوث عنها نحو خمسمائة آية، وذلك إنما هو بالمتكرر والمتداخل، والا فهي لاتبلغ ذلك، فلا يظن من يقف على كتابنا هذا ويضبط عدد ما فيه، انا تركنا شيئا من الآيات فيسيء الظن به ولم يعلم ان المعيار عند ذوي البصائر والابصار، انما هو التحقيق والاعتبار لا الكثرة والاشتهار.[(١)]

ويظهر من البعض ان عدد آيات الاحكام ربما تبلغ ٣٤٠ آية، قال عبدالوهاب خلاف:

ففي العبادات بأنواعها نحو ١٤٠ آية.

وفي الاحوال الشخصية من زواج وطلاق وارث ووصية وحجر وغيرها نحو سبعين آية.

وفي المجموعة المدنية من بيع واجارة ورهن وشركة وتجارة ومداينة وغيرها نحو سبعين آية.

وفي المجموعة الجنائية من عقوبات وتحقيق جنايات نحو ثلاثين آية.

وفي القضاء والشهادة وما يتعلق بها نحو عشرين آية.[(٢)]

ولكن بالنظر الى ما ذكرنا من سعة آفاق دلالته يتبين ان عددها ربمايتجاوز عن الخمسمائة، اذ رب آية لا تمت الى الاحكام بصلة، ولكن بالدقة والامعان

(١) جمال الدين المقداد السيوري: كنز العرفان في فقه القرآن: ١/ ٥.
(٢) عبدالوهاب خلاف: خلاصة تاريخ التشريع الاسلامي: ٢٨-٢٩.

يمكن ان يستنبط منها حكم شرعي.

فمثلا سورة المسد، اعني قوله سبحانه: (تبت يدا أبي لهب وتب * ما اغنى عنه ماله وما كسب...)[١] بظاهرها ليست من آيات الاحكام، ولكن للفقيه ان يستند اليها في استنباط بعض الاحكام الشرعية، وقد حكي عن بعض الفقهاء انه استنبط من سورة «المسد» قرابة عشرين حكما فقهيا، كما استنبطوا من قوله سبحانه: (قال اني اريد ان انكحك احدى ابنتي هاتين على ان تأجرني ثماني حجج فان اتممت عشرا فمن عندك...)[٢] احكاما شرعية.

وهذا بالنسبة الى ما ذكرناه من سعة آفاق دلالة القرآن ليس بغريب.

التدرج في التشريع

نزل القرآن تدريجيا قرابة ثلاث وعشرين سنة لاسباب ودواع مختلفة اقتضت ذلك، واشار إليها الذكر الحكيم في غير واحد من الآيات:

قال سبحانه: (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)[٣] اي فرقنا نزوله كي تقرأه على الناس على مهل وتريث.

كما اشار في آية أخرى الى داع آخر، قال سبحانه: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)[٤] فتثبيت فؤاد النبي (ص) احد الاسباب التي دعت الى نزول القرآن بين الحين والآخر

(١) المسد: ١-٢.
(٢) القصص: ٢٧-٢٨.
(٣) الاسراء ١٠٦.
(٤) الفرقان: ٣٢.

وفي غضون السنين، شاحذا عزمه(ص) للمضي في طريق الدعوة بلا مبالاة لما يتهمونه به.

والآية تعرب عن ان الكتب السماوية الاخرى كالتوراة والانجيل والزبور نزلت جملة واحدة، فرغب الكفار في ان ينزل القرآن مثلها دفعة واحدة.

وليست الدواعي للنزول التدريجي منحصرة فيما سبق، بل ان هناك اسبابا ودواعي اخر دعت الى نزوله نجوما، وهي مسايرة الكتاب للحوادث التي تستدعي لنفسها حكما شرعياً، فان المسلمين كانوا يواجهون الاحداث المستجدة في حياتهم الفردية والاجتماعية ولم يكن لهم محيص من طرحها على النبي(ص) بغية الظفر بأجوبتها، وقد تكرر في الذكر الحكيم قوله سبحانه: (يسألونك) قرابة خمس عشرة مرة وتصدى النبي(ص) للاجابة عنها، وتختلف تلك المواضيع بين الاستفسار عن حكم شرعي، كحكم القتال في الشهر الحرام، والخمر، والميسر، والتصرف في اموال اليتامى، والاهلة، والمحيض، والانفال، وغير ذلك؛او الاستفسار عن امور كونية كالروح والجبال والساعة.

وهناك شيء آخر ربما يؤكد لزوم كون التشريع امرا تدريجيا، وهو ان موقف النبي(ص) تجاه امته كموقف الطبيب من مريضه، فكما ان الطبيب يعالج المريض شيئا فشيئا حسب استعداده، فكذلك الطبيب الروحي يمارس نشاطه التربوي طبقا لقابليات الامة الكامنة بغية الاستجابة، لئلا تثبط عزائمهم ويطفأ نشاطهم ويثقل كاهلهم.

ومع ذلك فان كانت الظروف مهيئة لنزول تشريع اكثر تفصيلا واوسع تعقيدا وافاهم الوحي به، كما في قوله سبحانه: (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا و لا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم

وإيّاهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولاتقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون).(١)

وقال سبحانه: (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون).(٢)

حيث تجد ان الآيتين تتكفلان تشريع عشرة احكام تعد من جوامع الكلم، وقد روى امين الاسلام الطبرسي، قال: روى علي بن ابراهيم، قال: خرج اسعد بن زرارة وذكوان الى مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الاوس، وكان اسعد بن زرارة صديقا لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه، فقال له: انه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم، فقال عتبة: بعدت دارنا عن داركم ولنا شغل لانتفرغ لشيء، قال: وما شغلكم وانتم في حرمكم وامنكم؟! قال له عتبة: خرج فينا رجل يدعي انه رسول الله، سفه احلامنا، وسب آلهتنا، وافسد شبابنا، وفرق جماعتنا، فقال له اسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبدالله بن عبدالمطلب، من اوسطنا شرفا، واعظمنا بيتا؛ وكان اسعد وذكوان وجميع الاوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم ابناء «النضير» و «قريظة» و «قين قاع» ان هذا اوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجره بالمدينة لنقتلنكم به يامعشر العرب، فلما سمع ذلك اسعد وقع في قلبه ما كان سمعه من اليهود، قال: فأين هو؟ قال: جالس في الحجر، وانهم لايخرجون من شعبهم الا في الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلمه، فإنه ساحر يسحرك بكلامه، وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب،

---

(١) الانعام: ١٥١.

(٢) الانعام: ١٥٢.

فقـال لـه اسعـد: فكيف اصنع وانا معتمر لابد لي ان اطوف بالبيت؟ فقال: ضع في اذنيك القطن، فـدخل اسعـد المسجـد وقـد حشـا اذنيه من القطن، فطاف بالبيت ورسول الله (ص) جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم،فنظر اليه نظرة، فجازه.

فلمـا كـان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما اجد اجهل مني ايكون مثل هذا الحديث بمكة فـلا اعرفـه حتى ارجع الى قومي فاخبرهم، ثم اخذ القطن من اذنيه ورمى بـه، وقـال لرسـول اللـه: انعم صباحا، فرفع رسول الله رأسه اليه وقال: «قد ابـدلنـا الله به ما هو احسن من هذا تحية اهل الجنة: السلام عليكم» فقال له اسعد: ان عهدك بهذا لقريب الى م تدعو يا محمد؟ قال: «الى شهادة ان لا اله الا الله واني رسول الله، وادعوكم:

(الا تشـركـوا بـه شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نـرزقكم وايـاهم ولاتقربـوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ولاتقتلوا النفس التي حـرم اللـه الا بـالحق ذلكم وصـاكم بـه لعلكم تعقلون ✻ ولا تقربوا مال اليتيم الا بـالتي هي احسن حتى يبلغ اشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون).[1]

فلمـا سمع اسعـد هـذا قـال: اشهـد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له، وانك رسـول اللـه. يـا رسـول الله بأبي انت وامي انا من اهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين اخـوانـا من الاوس حبـال مقطوعة، فان وصلها الله بك فلا اجد اعز منك، ومعي رجل من قـومي فـان دخل في هذا الامر رجوت ان يتمم الله لنا امرنا فيك،

---

(١) الانعام: ١٥١–١٥٢.

والله يا رسول الله لقد كنا نسمع من اليهود خبرك، وكانوا يبشروننا بمخرجك، ويخبروننا بصفتك، وارجو ان تكون دارنا دار هجرتك، وعندنا مقامك، فقد اعلمنا اليهود ذلك، فالحمد لله الذي ساقني اليك، والله ما جئت الا لنطلب الحلف على قومنا، وقد اتانا الله بأفضل ما اتيت له.(١)

ومع ذلك كله فالتدرج هو المخيم على التشريع، خاصة فيما اذا كان الحكم الشرعي مخالفا للحالة السائدة في المجتمع، كما في شرب الخمر الذي ولع به المجتمع الجاهلي آنذاك، فمعالجة هذه الرذيلة المتجذرة في المجتمع رهن طي خطوات تهييء الارضية اللازمة لقبولها في المجتمع.

وقد سلك القرآن في سبيل قلع جذور تلك الرذائل مسلك التدرج.

فتارة جعل السكر مقابلا للرزق الحسن، وقال: (ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا).(٢)

فاعتبر اتخاذ الخمر من التمور والاعناب - في مجتمع كان تعاطي الخمر فيه جزءا اساسيا من حياته - مخالفا للرزق الحسن، وبذلك ايقظ العقول.

وهذه الآية مهدت وهيئت العقول والطبائع المنحرفة لخطوة اخرى في سيرها نحو تحريم الخمر، فتلتها الآية الثانية معلنة بأن في الخمر والميسر اثما ونفعا، ولكن اثمهما اكبر من نفعهما، قال سبحانه: (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما).(٣)

ان هذا البيان وان كان كافيا الا ان جماهير الناس لايقلعون عن عادتهم

---

(١) الطبرسي: اعلام الورى: ٥٥-٥٧.
(٢) النحل: ٦٧.
(٣) البقرة ٢١٩.

المتجذرة ما لم يرد نهي صريح حتى وافتهم الآية الثالثة، قال سبحانه: (يا ايها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون).[١] فالآية الكريمة جاءت بالنهي الصريح عن شرب الخمر في وقت محدد، أي عند ارادة الصلاة بغية الوقوف على ما يتلون من القرآن والاذكار.

فهذه الخطوات الثلاث هيئت ارضية صالحة للتحريم القاطع الذي بينه سبحانه في قوله: (يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون).[٢]

وادل دليل على ان التشريع القرآني كان يتمتع بالتدرج، تتابع الاسئلة على النبي(ص) في فترات مختلفة بغية اجابة الوحي عنها، قال سبحانه:

١ ـ (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين).[٣]

٢ ـ (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير).[٤]

٣ ـ (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير).[٥]

٤ ـ (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو).[٦]

٥ ـ (ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير).[٧]

٦ ـ (ويسألونك عن المحيض قل هو اذى).[٨]

---

(١) النساء: ٤٣.
(٢) المائدة: ٩٠.
(٣) البقرة: ٢١٥.
(٤) البقرة ٢١٧.
(٥) البقرة ٢١٩.
(٦) البقرة ٢١٩.
(٧) البقرة ٢٢٠.
(٨) البقرة ٢٢٢.

٧ - (يسألونك ماذا احل لهم قل احل لكم الطيبات).[(١)]

٨ - (يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول).[(٢)]

وقد جاء في بعض الآيات لفظ الاستفتاء بدل السؤال: قال سبحانه:

٩ - (ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن).[(٣)]

١٠ - (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة).[(٤)]

ومما يدل ايضا على ان التشريع القرآني اخذ لنفسه صورة التدرج هو ان الآيات المتضمنة للاحكام الشرعية منبثة في سور شتى غير مجتمعة في محل واحد، وهذا يوضح ان التشريع لم يكن على غرار التشريع في التوراة الذي نزل دفعة واحدة يقول سبحانه: (وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك ياخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين).[(٥)]

وقال: (ولمّا سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون).[(٦)]

هذا بعض الكلام في ملامح التشريع الاسلامي ثبوتا واثباتا قدمتها للمؤتمر العالمي الحادي عشر (ربيع الاول١٤١٩) للوحدة الاسلامية، عسى ان يوفق اصحابنا لجمع شمل المسلمين وتقريب خطاهم.

---

(١) المائدة ٤.

(٢) الانفال ١.

(٣) النساء ١٢٧.

(٤) النساء ١٧٦.

(٥) الاعراف ١٤٥.

(٦) الاعراف ١٥٤.

إلهية المصدر

(الوحي ـ القرآن ـ السنة الشريفة)

✍ الدكتور ابو بكر صديق
استاذ اللغة العربية جامعة داكا ـ بنغلاديش

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم اللـه الـرحمن الـرحيم، الحمـد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد و على آله وصحبه اجمعين، وبعد،

معالي رئيس الجلسة...

أصحاب المعالي...

أصحاب السعادة ...

أيها الاخوة الكرام...

أحييكم بهـذه التحية المبـاركة الطيبة، تحية الايمان، تحية الاسلام، تحية الله لعباده في الجنة، تحية عباده المؤمنين فيما بينهم في الدنيا والآخرة.

في البـداية أشكـر الامانة العـامة للمؤتمـر الـدولي الحـادي عشـر للـوحـدة الإسـلامية بطهـران لانعقـاد هـذاالمؤتمر تحت شعار «خصائص الاسلام العامة» بحيث اللـه سبحانـه وتعـالى يقـول: «واعتصمـوا بحبل اللـه جميعـاً ولاتفرقوا». (سورة آل عمران، آية١٠٣).

تمهيد:

المصدر التشريعي

لايجد المؤمنون مشقة في معرفة الاصل التشريعي، لأن الكتب السماوية كلها تتحدّث عن آدم عليه السلام باعتباره الانسان الاول، الذي سكن هذه الارض، وتلقى عند نزوله اليها كلمات من ربه هدت طريقه الى تنظيم حياته وحياة ذريته، حتى خرجت تلك الذرية على ما انزله الله على آدم، فجاءتهم انبياء توالوا على الامم يربطونهم بالله تعالى عبادةً وسلوكا واخلاقا وتعاملا. ومن هنا فإن الانسان الاول نزل ومعه من التوجيهات الالهية ما به تستقيم حياته. فلم يكن في حاجة الى ان يتعلم في المجال التشريعي عن طريق التجربة والخطأ، لان الوحي كفاه هذه المهمة.

ولكن المفكرين الذين لم يستضيئوا بنور الوحي، ولم ينظروا الى الدين النظرة الدقيقة التي من شأنها ان تنير سبيلهم الى معرفة نشأة الاصل التشريعي للقوانين التي سارت عليها البشرية. منذ ان بدأ التسجيل لتاريخها، هؤلاء اضطروا الى ان يبحثوا عن تعليل مقبول يربطون به وجود القوانين والتشريعات التي عرفتها البشرية في تاريخها الطويل.

ومن هنا برزت في تاريخ علم الاجتماع والقانون النظريات التي ظن هؤلاء المفكرون انها الاساس الذي ادى الى ظهور القوانين، وترقيها من قوانين يسيرة تنظم حياة جماعة صغيرة من الجماعات الى القوانين الاكثر تقدما وتطورا والتي اصبحت تسود الحضارات غير الاسلامية الحالية.

ومن ابرز هذه النظريات تلك النظرية التي قال بها روسو وهي نظرية العقد

الاجتماعي. فهو يرى ان الانسان كان يحيا في جماعات صغيرة وحاجاته الاساسية كانت محدودة. الا انها حين تطورت اخذت المصالح الشخصية تتعارض مع بعضها البعض. وتفادياً للصدام والتنازع اخذت هذه الجماعات في تنظيم حياتها على اساس التنازل عن بعض الحقوق، مقابل ان يحظى الجميع بحياة يسودها السلام والاستقرار.

وفي مقابل هذه النظرية، كانت هناك النظرة الواقعية التي ترعرعت في الفلسفة الانجليزية، وهي نظرية المنفعة. هذه النظرية تقول ان المنفعة هي اساس النشاط البشري. وكثيرا ما تتعارض مصالح الاشخاص، وهذا وضع من شأنه ان يثير النزاع المستمر، فرأت الجماعات المتطورة ان تجعل مقياسا عاما يلتزم به الافراد بحيث يمكنهم من تحقيق منافعهم مع القضاء على التعارض الذي ينشأ عن اختلاف المنافع، ومن هنا اخذ المشرّعون يسنون من القوانين ما يمكنهم من تحقيق اكبر قدر من المصلحة لاكبر عدد من الناس، وان ادى ذلك الى التعارض مع بعض المصالح الفردية؛ لان المصلحة العامة لها الاولوية في الاعتبار.

هذه اهم النظريات التي تحدثت عن التطور الاجتماعي وما صاحبه من تطور تشريعي يحقق مصالح تلك المجتمعات.

ومما لاشك فيه ان هؤلاء المفكرين كانوا يهدفون الى اكتشاف الاصل القانوني الذي يحكم المجتمعات، حتى يستطيعوا على ضوئه ان يحددوا العلاقات الانسانية في المجتمعات الحديثة، املا في القضاء على التسلط و السلطان المطلق، الذي كانت تتمتع به الاسر الحاكمة في اوروبا. وقد كانوا في سعيهم هذا مدفوعين بالمصلحة الاجتماعية كما تصوروها، فإن هذه المصلحة محددة بحدود الفكر الانساني مكانا وزمانا، ولذلك تغيرت التشريعات القائمة

على هـذه النظريـات من جيل لجيل، ومن جمـاعة الى جمـاعة اخـرى، ومن فترة حضارية الى فترة حضارية مختلفة. فالتشريعات التي تناسب اصحاب الاقطاع غير تلك التي تتناسب مع اصحاب رؤوس الاموال. والتي تتناسب مع ازدهار الصناعة وانتقـال الثقل السياسي والاجتماعي الى اصحابها تختلف عن سابقتها، وهي في الـوقت نفسه تختلف عن تلك التي تناسب التطور الاجتماعي في البلاد الصناعية وحصـول الطبقـات العـاملة على حقـوق ضمنتها التشريعات التي وقفوا وراءها مؤيدين ومطالبين.

وهكـذا تختلف التشريعـات لأن مصدرها الانسان المحدود بحدود الزمان و المكان والوضع الاجتماعي.

التشريعات الالهية:

امـا التشريعـات الالهية فهي تصـدر عن الخالق جل وعلا. وقد شاءت ارادته تعالى ان تتدرج هذه التشريعات مع التدرج البشري، وانتشار المجتمعات البشرية. وهي وان كانت واحدة في اصولها: وحدانية الله تبارك و تعالى، وقانون الاخلاق الكريمة التي يلتـزم بهـا النـاس جميعا، واليقين بمصير الانسان الى ربه، وبين ذلك شـؤون الحيـاة وتنظيماتهـا، الا انهـا كانت تـراعي التطور الانساني سعةً وانتشارا ومعـرفة. ولـذلك كانت شريعة آدم كـافية للوضع الاجتماعي الذي صاحب رحلة الانسـان الاولى على وجـه البسيطة. ثم جـاءت شريعة نـوح عليـه السلام ناسخة التشريعـات المـؤقتة في شريعة آدم، موسعة نطاق الالتزام فيها متعددة الجوانب، وهكذا تدرجت التشريعات الالهية حتى وصلت الى مرحلة النمو الانساني الكامل عنـد نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخوطبت فيها الانسانية

جمعاء.

قال الله تعالى: واوحى الى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ. (سورة الانعام، آية ١٩٠).

وقال الله سبحانه وتعالى: تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا. (سورة الفرقان، آية١).

وقال الله عز وجل: وما ارسلناك إلاّ رحمة للعالمين.(سورة الانبياء، آية١٠٧).

وجاء مسك الختام فيها في ذلك الموقف التاريخي الذي اجتمع فيه لرسول الله صلى الله عليه و سلم اكبر تجمع بشري تشهده عرفات في تاريخها الماضي، حيث احتشد فيها ما يزيد على مائة الف، ونزل عليه قول الله تبارك وتعالى: اليوم اكملت لكم دينكم و اتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا. (سورة المائدة، آية٣).

فكان هذا الاعلان الرباني الخاتم الالهي على كمال الشريعة الاسلامية وصلاحيتها لقيادة الانسانية الى ان يرث الله الارض ومن عليها.

الشريعة الاسلامية:

واذا كان الوحي هو السمة الاساسية في شرائع الانبياء فان شريعة النبي محمد صلى الله عليه و سلم امتازت بالثوابت التي لاتتغير من جيل الى جيل او من بيئة الى بيئة، كما وضح فيها عناصر المرونة والتيسير، ورفع الحرج ومراعاة مصالح المجتمع الانساني. فهي بثوابتها تحول دون التذبذب والتأرجح و الخضوع للاهواء والاغراض البشرية، كما انها بالمرونة التي تتمتع بها تستطيع ان تستوعب المستجدات في المجتمع البشري مهما اختلفت درجة رقيه او تعقدت

علاقاته العامة.

وهـذا مرجعـه الى انهـا شريعة جـاءت من عند الله الذي يعلم من خلق، وما يصلح لمـا خلق، كمـا سيتضح ذلك من بحثنـا في مصادر الشريعة الاسلامية، تلك المصـادر التي اعتـرف جهابـذة الفكـر التشريعي الغربي بأنهـا غنية المـادة واسعة الأفـاق، قـادرة على استيعـاب حاجـات المجتمع الانساني في اعلى درجـات حضارته الانسانية.

وممـا لاريب فيـه ان الآثـار المبـاركة المترتبة على الصحـوة الاسـلامية التي تشهـدهـا امة الاسـلام في وقتنـا الحاضر ان فاءت كثير من الدول الاسلامية التي تأثرت في تشريعاتها وانظمتها بالقوانين الاوروبية الى البحث من جديد عن اسس التشريع الاسـلامي التي شكلت المجتمعـات الاسـلامية على مـدى مـا يزيد على الالف عام.

وقـد حفظ المولى جلت حكمته المصدرين الاساسيين لهذه الشريعة الخالدة البـاقية ما بقيت السماوات والارض من التحريف والتبديل، حتى يرجع المسلمون اليها لتصحيح مسارهم اذا انحرفت بهم السبل.

وقـد اسهم رجـال العلم في اثراء الشريعة الاسلامية بناء على الاصول العامة التي جـاءت في الاصلين الاسـاسيين فبنـوا للاجيـال من بعدهم صرحا عاليا من التفكيـر التشريعي المستقبلي، مضبـوطـا بالقواعـد والاصول التي تحفظ للشريعة الاسـلامية حدودهـا ومعالمها الواضحة، حتى لاتضل بهم السبل، كما تعمل على تشجيع روح الاجتهاد والاستنبـاط حتى تستجيب هذه الاصول للمستجدات في حيـاة الامة الاسـلامية، بما يحقق صالح الجماعة ويدفعها الى الرقي والازدهار في غير خروج عن المعنى العام والروح الحقة في شريعة الاسلام.

وفي بحثنا هذا سنتناول اصول هذه الشريعة بالبحث والتجلية لنبين الاسس التي قامت عليها حضارة تشريعية ازدهرت فيها الصناعات والرياضيات والعلوم التجريبية، كما ترسخ فيها الالتزام الاخلاقي الذي يعتبر الاساس المتين للحفاظ على سلامة تطبيق الشرائع.

مصادر الشريعة الاسلامية

لابد لكل قانون من القوانين سواء اكان سماويا ام وضعيا من مصادر يستقي منها احكامه، وتستند اليه قواعده، والشريعة الاسلامية قد اعتمدت على مصدر يفوق جميع المصادر الاخرى، وهو الوحي السماوي.

والاصل لهذا الوحي هو الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، فهذان هما المصدران الاصليان للشريعة الاسلامية ويجانبهما مصادر فرعية ترجع اليهما.

ويذكر الاصوليون ان مصادر الشريعة الاصلية والفرعية او المصادر التبعية هي: كتاب الله العزيز الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد، والسنة المطهرة، والاجماع والقياس والاستحسان، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، والعرف، وشرع من قبلنا، وقول الصحابي والاستصحاب، والاباحة الاصلية.

وللعلماء طرائق مختلفة في تقسيمها؛ ففريق يقسمها الى مصادر اصلية وهي الكتاب والسنة،ومصادر فرعية وهي الباقي، وبعضهم يقسمها الى مصادر متفق عليها، وهي: الكتاب والسنة والاجماع،ومصادر مختلف فيها وهي الباقي، وبعضهم يقسمها الى مصادر مستقلة بنفسها في التشريع وهي الكتاب والسنة والاجماع وما يرجع اليها من الادلة الاخرى كالاستحسان، والى مصادر لاتستقل

بنفسهـا في التشريع وهي القياس، وبعضهم يقسمها الي نقلية وعقلية؛ فالنقلية هي الكتـاب والسنة والاجمـاع ويلحق بهـا العرف وشرع من قبلنا ومذهب الصحابي، والعقلية هي القياس والمصالح المرسلة وسد الذرائع والاستحسان.

وارجح هـذه التقسيمـات في نظرنـا هو التقسيم الاول، وسنتكلم بايجاز عن هذه المصادر للشريعة التي تبنى عليها احكامها، ولا يوجد لها مصادر سواها:

١ - الكتاب الكريم:

وهـو القـرآن الكريم، وقد عرفه الاصوليون بتعريفات كثيرة ابرزها: أنه كلام اللـه تعالى المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم باللفظ العربي المنقول بالتـواتـر والمكتـوب في المصـاحف، المبـدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه. ويمتاز القرآن بخصائص تميزه عن الكتب السمـاوية السابقة، وعن السنة الـواردة عن الرسـول صلى اللـه عليـه وسلم.

وهذه الخصائص هي:

١ ـ ان القرآن الكريم قد نزل بألفاظه ومعانيه باللغة العربية من عند الله.

٢ ـ ان القرآن الكريم قطعي الثبوت بلا خلاف بين المسلمين.

٣ ـ انـه اشتمل على نظـام كامل تناول جميع شئون الحياة المتعلقة بالعقيدة والاخلاق والنظم الاقتصادية الى جانب القواعد التي تنظم حياة جميع الناس بما يحقق المصلحة والعـدالة، ولا يجـوز العـدول عن القـرآن الى غيـره من الادلة او المصادر الا اذا لم ينص فيه على حكم الحادثة التي يراد معرفة حكمها.

ونحب ان ننبه هنا الى امرين:

الاول: ان دلالـة الكتـاب الكـريم على الاحكـام ظنية في الجملة. بمعنى ان بعض نصـوصـه تـدل على الحكم دلالة قطعية، والبعض الآخـر يـدل عليها دلالة ظنية، فـاذا كـان لفظ النص لايحتمل الا معنى واحـدا كانت دلالتـه على الحكم قطعية، ويبطل الاجتهـاد فيه، وذلك كالآيات الواردة في المواريث والحدود، وان كـان اللفظ يحتمل معنى آخـر كانت دلالتـه على الحكم دلالة ظنية، وكـان النص محـلا للاجتهاد وذلك كلفظ (قروء) في قوله تعالى: والمطلقٰت يتربصن بأنفسهن ثلٰثة قروء. (سورة البقرة، آية ـ٢٢٨).

فـان هـذا اللفظ يحتمل معنيين هما الحيض والطهر، فتكون دلالته على احد المعنيين بخصوصه ظنية لاقطعية.

الثاني: ان طريقة تشريعه للاحكام تتنوع الى نوعين:

النـوع الاول: تشريع تفصيلي جـزئي، وقد جاء هذا في تشريع احكام العقائد والاخـلاق، وبعض الاحكـام العملية الثابتة كأحكـام المـواريث ونظـام الاسـرة، والسر في ذلك انها لا تتغير بتغيير الزمان او المكان او البينات، وان كثيرا من احكام العقـائـد لايستقل العقل بأدراكهـا وحـده، ولذلك تولى الله سبحانه وتعالى بيانها بنفسـه على سبيل التفصيل في الكتـاب الكريم، ويلاحظ ان الاحكام العملية التي جـاءت مفصلة في الكتـاب الكريم قليلة بـالنسبة لبقية الاحكـام العملية واحكـام العقائد والاخلاق.

والنـوع الثاني: تشريع كلي اجمـالي صيغ في مبـادىء عـامة وقـواعـد كلية ينـدرج تحتهـا كثيـر من الجـزئيـات، مثل قولـه تعـالى: يا أيهـا الذين آمنوا اوفوا بالعقود. (سورة المائدة، آية١).

وقـال سبحانه وتعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا

ان تكون تجٰرة عن تراض منكم. (سورة النساء آية٢٩).

وقد جاء هذا النوع في الاحكام العملية غير الثابتة التي تتغير فيه المصلحة بتغير الزمان، وتختلف باختلاف الاماكن والمجتمعات.

٢ ـ السنة المطهرة:

وهي ماأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد بعثته من قول او فعل او تقرير. وتنقسم السنة الى ثلاثة اقسام:

١ ـ سنة قولية: وهي الاحاديث التي قالها النبي صلى الله عليه و سلم في المناسبات المختلفة والاغراض المتعددة، وتنقسم السنة القولية الى احاديث قدسية، واحاديث نبوية.

٢ ـ سنة فعلية: وهي ماصدر عن النبي صلى الله عليه و سلم من افعال كالوضوء والصلاة ومناسك الحج وغيرها.

٣ ـ سنة تقريرية: وهي سكوت النبي صلى الله عليه و سلم عن انكار فعل او قول صدر في حضرته او في غيبته وعلم به فأقره، كسكوته عن انكار اكل الصحابة من الضب حين رآهم يأكلونه، فان ذلك يدل على جواز اكل لحم الضب ومن السنة التقريرية ايضا اقرار النبي صلى الله عليه وسلم بعض النظم التي كان العرب عليها قبل الاسلام، كاقراره عقود بعض الشركات كالمضاربة وغيرها.

وتنقسم السنة بحسب روايتها ووصولها الينا الى قسمين:

١ ـ سنة متواترة: وهي مارواها مجموعة من الرجال عن مثلهم في كل عصر حتى وصلت الينا ممن يستحيل اتفاقهم على الكذب. وينقسم الحديث المتواتر الى قسمين: متواتر لفظي: وهو ان يكون ما يرويه كل واحد متفقا في اللفظ والمعنى مع ما يرويه الآخر مثل حديث: «من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من

النار». (اخرجه البخاري في كتاب العلم، ومسلم في كتاب الزهد) ومتواتر معنوي وهو ان يكون اللفظ المروي مختلفا، مع الاتحاد في المعنى مثل حديث رفع اليدين عند الدعاء.

٢ ـ سنة آحاد: وهي ما رواها عدد من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم ورواها عنهم في العصور التالية عدد لايبلغ حد التواتر حتى وصلت الينا، وقد تنوعت سنة الآحاد باعتبار مقدار الثقة في روايتها الى احاديث صحيحة، وحسنة، وضعيفة، كما تنوعت باعتبارات اخرى الى احاديث موصولة، ومنقطعة، ومرفوعة، ومرسلة، وموقوفة والى غير ذلك مما هو مقرر في مصطلح علم الحديث.

وعلى ضوء ما تقدم يتبين لنا ان السنة ظنية الثبوت فيما عدا المتواتر منها، اما دلالتها فهي في ذلك مثل الكتاب: بعضها يدل على الحكم دلالة قطعية و بعضها يدل عليه دلالة ظنية. والسنة النبوية مصدر للاحكام وحجة يجب العمل بها باجماع المسلمين، وسند الاجماع قوله تعالى: واطيعوا الله واطيعوا الرسول. (سورة المائدة آية٩٢).

وقوله تعالى: من يطع الرسول فقد اطاع الله. (سورة النساء آية٨٠).

وقوله عز وجل: وما آتكم الرسول فخذوه (سورة الحشر آية٧) وغيرها من آيات القرآن الكريم.

منزلة السنة من القرآن:

السنة مع القرآن على ثلاثة اوجه:

احدها: ان تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على

الحكم الواحد من باب توارد الادلة وتظافرها.

الثاني: ان تكون بيانا لما اجمل في القرآن وتفسيرا له.

الثالث: ان تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن ايجابه او محرمة لما سكت عن تحريمه، ولاتخرج عن هذه الاقسام، فلا تعارض القرآن بوجه ما. (اعلام الموقعين ٢/٢٣٧).

واذن فمهمة السنّة ووظيفتها هي البيان بكافة طرق البيان وانواعه، فقد تأتى موافقة للكتاب وتكون حينئذ واردة مورد التاكيد كما في قوله عليه الصلاة والسلام: لايحل مال امرىء مسلم الا بطبيب من نفسه فانه موافقة لقوله تعالى: ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل.(سورة البقرة آية١٨٨).

وقد تأتي مبينة لمجمل الكتاب كالاحاديث التي بيّنت كيفية الصلاة و اوقاتها، وعدد الصلاوات في كل يوم، وعدد ركعات كل صلاة،وسائر ما يتعلق بتفاصيل الصلاة، والاحاديث التي بيّنت نصاب الزكاة في كل نوع من انواع الزكاة،والمقدار الذي يؤخذ من كل نوع منها، وكل ما يتعلق بتفاصيل الزكاة، فان هذه الاحاديث قد بينت الاجمال الوارد في قوله تعالى: واقيموا الصلوة وآتوا الزكوة. (سورة المزمل آية ٢٠) الذي لم يتعرض لشيء من هذه التفاصيل وقد تأتي موضحة للمشاكل كبيان النبي صلى الله عليه و سلم الخيط الابيض والخيط الاسود في قوله تعالى: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر. (سورة البقرة، آية١٨٧). بأنه بياض النهار وسواد الليل.

وقد تأتي مخصصة للعام كتخصيصه عليه الصلاة والسلام الظلم الوارد في قوله تعالى: الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون (سورة الانعام، آية٨٢) بأنه الشرك.

وقـد تأتي مقيـدة للمطلق كتقييـده عليه الصلاة والسلام اليد في قوله تعالى: والسـارق والسـارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكلا من الله. (سورة المائدة، آية٣٨) باليمين.

وقـد تأتي نـاسخة لحكم ثبت بالكتـاب كقوله عليه الصلاة والسلام: لاوصية لوارث فانه ناسخ لوجوب الوصية للوالدين والاقربين الوارد في قوله تعالى: كتب عليكم اذا حضـر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين. (سورة البقرة آية ١٨٠).

وقـد تـأتي مثبتة لحكم سكت عنـه القـرآن فلم يذكـره صـراحة، وذلك مثل الاحـاديث الـدالة على رجم الـزاني المحصن، والشفعة وصـدقة الفطر والحد من الخمـر، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها او خالتها، واعطاء الجدة السدس، وانه يحـرم بالـرضـاع مـا يحـرم بـالنسب، وتحريم كل ذي نـاب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير الى غير ذلك من الاحكام.

٣ - الإجماع:

هـو اتفاق المجتهدين من امة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في عصر من العصـور على حكم شرعي. فلايعتبر من الاجماع: اتفاق العوام. واتفاق من لم يبلغ درجة الاجتهـــاد، واتفـاق اكثـر المجتهدين، واتفـاق المجتهدين في امة من الامم السـابقة، واتفـــاق المجتهـدين في عصـره صلى اللـه عليـه وسلم، واتفـاق المجتهدين على حكم لغـوي او عقلي او وضعى فـان كل هذه الاتفاقات لاتعتبر من الاجماع.

ويلجـــأ الى الاجمـــاع اذا لم ينص على الحكم في الكتـــاب الكريم او السنة

النبوية او نص عليـه فيهما، ولكن كان النص ظنيا فيرفع الاجماع الحكم من الظنية الى القطعية.

ومن امثلة الاحكـام الثـابتة بالاجمـاع: تحريم زواج المسلمة بغيـر المسلم، توريث الجد السدس عند عدم الاب مع وجود الابن.

وينقسم الاجماع الى اجماع صريح والى اجماع سكوتي:

فالاجمـاع الصريح هـو ان يتفق كل المجتهدين بالقـول او الفعل على حكم شـرعي مجتهـد فيـه، ولا خـلاف في اعتبـار هـذا النوع مصدرا من مصادر الفقه، ويؤيـد هـذا قولـه تعـالى: ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله، ما تولى ونصله، جهنم وساءت مصيرا.(سورة النساء آية ١١٥).

وقـولـه عليه الصلاة والسلام: لا تجتمع امتي على ضلالة. (رواه الامام احمد والطبراني، ينظر كشف الخفاء ـ ٢/٤٨٨).

والاجمـاع السكوتي هـو ان يبـدي بعض المجتهدين رأيـه في مسـألة من المسـائل، ويعلم به باقي المجتهدين في عصره فيسكتون ولا يكون منهم اقرار ولا انكـار، وذلك كفتـوى الخليفة الـراشـد عثمان رضي الله عنه بتوريث المطلقة في مـرض المـوت من زوجهـا، وهـذا القسم الاخيـر من الاجمـاع محل خلاف بين الفقهـاء هل يمكن اعتبـاره دليلا اولا والصحيح انه دليل معتبر، ولابد للمجتهدين من دليل يعتمـدون عليـه في الحكم الـذي يجمعـون عليـه، وهـو ما يعرف بسند الاجمـاع وقـد يكـون هذا السند من الكتاب العزيز او السنة المطهرة او القياس او المصلحة المرسلة.

فمثـال الاجمـاع المستنـد الى الكتـاب هو الاجماع على حرمة التزوج ببنت البنت فانـه يستنـد الى قوله تعالى: حرمت عليكم امهٰتكم وبناتكم. (سورة النساء،

آية ٢٣).

ومثال الاجماع المستند الى السنة هو الاجماع على اعطاء الجدة السدس في الميراث فانه يستند الى المروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه اعطاها السدس.

ومثال الاجماع المستند الى القياس هو الاجماع على خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه فانه كان بالقياس على امامته في الصلاة، يدل على ذلك قولهم: رضيه النبي صلى الله عليه و سلم لديننا افلا نرضاه لدنيانا.

ومثال الاجماع المستند الى المصلحة المرسلة هو الاجماع على جعل الاراضي المفتوحة ملكا للدولة، وعدم تقسيمها بين الفاتحين، وجمع القرآن في مصحف واحد فإن ذلك اساسه المصلحة.

٤ - القياس:

هو إلحاق امر لم ينص على حكمه في الكتاب او السنة او الاجماع بأمر نص عليه في احدها لاشتراكهما في علة الحكم، فاذا وجدت حادثة لم ينص على حكمها، أو يجمع عليه، ولها شبه بحادثة اخرى قد نص على حكمها، فإنه يثبت حكم الحادثة المنصوص عليها للحادثة التي لم ينص على حكمها اذا وجدت علة الحكم فيها.

وأركان القياس اربعة: الاصل وهو المقيس عليه، والفرع وهو المقيس و العلة وهي وجه الشبه بين الاصل والفرع، والحكم وهو ما اثبته النص في الاصل ومن امثلة ذلك:

١ - قرر العلماء حرمان الموصى له من الوصية اذا قتل الموصي قياسا على

حرمـان الـوارث من الميـراث اذا قتل مورثـه، لقوله عليه الصلاة والسلام: لا يرث القاتل، وعلة الحرمـان هي استعجال القاتل للميراث قبل أوانه بفعل محرم، فقاس الفقهـاء على ذلك قتل المـوصى لـه المـوصي فحـرمـوه من الـوصية لوجود علة الحـرمـان وهي استعجـال الشيء قبل اوانه بفعل محرم، فالاصل هو قتل الوارث مورثه، والفرع هو قتل الموصى له الموصي، والحكم هو الحرمان من الحق الذي كان ثابتا، والعلة هي استعجال كل منهما الحق قبل اوانه بفعل محرم.

٢ ـ قـرر العلمـاء عـدم جـواز الاجـارة على الاجـارة، لقـولـه عليـه الصلاة والسلام: لايبيع احدكم على بيع اخيه ولا يخطب على خطبته حتي يذر. (اخرجه البخـاري في كتـاب النكـاح، وفي كتـاب البيـوع، ومسلم١٨٩/٩)، فقاس العلماء الاجـارة على الاجـارة والخطبة على الخطبة والبيع على البيع لوجـود العلة وهي الحاق الضرر بالمستأجر الاول.

والقيـاس من الطرق التي تدل على ان احكام الشريعة عامة كلية فالمثال الاول يفيـد ان كل من استعجل الشيء قبل اوانـه بفعل محـرّم فإنه يعاقب بالحرمان منه، والمثال الثاني يفيد ان كل مايضر بالغير فهو محرم.

اهداف الدعوة

ممـا تقـدم تتضح لنـا اهمية التضـامن الاسـلامي كـأعظم هـدف من اهداف الـدعـوة الاسـلامية، وانكم مدعـوون اليوم للعمل لتعزيز هذا التضامن باخلاص وصدق.

وترتيبـا على ذلك نقـول ان اهـداف الدعـوة تتفرع الى شقين نجملهما فيما يلي:

الشق الاول: يتعلق بأمور المسلمين انفسهم كافة نحو الاسلام وتطبيقه.

الشق الثاني: يتعلق بنشر الاسلام بين غير المسلمين في مشارق الارض ومغاربها وتعميق الاسلام في نفوس المسلمين.

١ - اهداف الدعوة فيما يتعلق بالمسلمين:

قال الله تعالى وهو اصدق القائلين: ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. (سورة الرعد، آية١١).

وقال تعالى: وسكنتم في مسكن الذين ظلموا انفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال. (سورة ابراهيم، آية٤٥).

وقال تعالى: لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء. (سورة آل عمران، آية٢٨).

وقال تعالى: قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الاّ تشركوا به، شيئا وبالوالدين احساناً، ولاتقتلوا اولٰدكم من املق، نحن نرزقكم واياهم، ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ولاتقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق، ذلك ما وصٰكم به، لعلكم تعقلون، ولاتقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده، واوفوا الكيل والميزان بالقسط، لانكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله اوفوا، ذلكم وصٰكم به، لعلكم تذكّرون وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصٰكم به، لعلكم تتقون. (سورة الانعام، الآيات١٥١-١٥٢-١٥٣).

واخيرا وليس آخرا قوله تعالى: إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون. (سورة الانبياء، آية٩٢).

فاذا نظرنا للآيتين الاولى والثانية نجد ان الله سبحانه و تعالى تنبأ للمسلمين

وقت نزولهما بما يحدث لهم في هذه الايام من ضياع وذل وتفكك بعد عزة وقوة ومنعة واتحاد، لأنهم غيّروا ما بأنفسهم من اتباع تعاليم الإسلام ولم يتبعوا ما أمرهم الله به وينتهوا عمّا نهاهم الله عنه، وخالفوا قول رسول الله صلى الله عليه و سلّم حين قال: لقد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا ابدا: كتاب الله و سنتي.

فاذا شاء المسلمون ان يعودوا الى ما كانوا عليه من عزة ومنعة وقوة فعليهم ان يعودوا الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم.

ونرى في الآية الثالثة تحذيرا من الله سبحانه وتعالى للمسلمين بأن لايتخذوا من غير المسلمين اولياء لهم لانهم سيخدعونهم ويضرونهم بدعوى انهم ينفعونهم، ويحرضون بعضهم على بعض فتضعف شوكتهم فينقضوا عليهم ويمزقوهم وهم متفرقون بعد ان استحال عليهم ضربهم وهم متحدون وهذا حال المسلمين اليوم.

واذا نظرنا الى الايات التالية نجد ان الله سبحانه و تعالى يأمر المسلمين بعد اسلامهم بالاحسان الى الوالدين وان لايقتلوا اولادهم من الفقر وامنهم على ارزاقهم معهم وامرهم بألا يقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن، وحرّم قتل النفس واكل مال اليتيم، وان يفوا بالكيل، وان يزنوا بالقسطاس المستقيم، و كل ذلك جاء مفسرا لقوله تعالى: ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر. (سورة العنكبوت، آية ٤٥).

لأن معنى الصلاة انها هي تطبيق معاني هذه الآيات من امر ونهي.

واذا تأملنا الآية الاخيرة التي تقول: «ان هذه امتكم امة واحدة». نجد انها تقرير وتأكيد بأن الله سبحانه و تعالى اراد لهذه الامة الاسلامية كيان الامة

الـواحـدة بارادتـه وبأمـره، لكي تكون في وحدتها هذه قوة تحمي نفسها من كل معتـد عليها من خارج دائرتها، فكل من عمل او يعمل على تمزيق هذه الوحدة او إضعـافهـا فهـو فاسق عن امر ربه وعدو لله ومحارب لارادته التي ارادها في قوله تعـالى: «ان هذه امتكم امة واحدة». والدليل على ذلك ان الله سبحانه و تعالى أكّد هـذا المعنى لارادتـه في آيتين كريميتن بنفس الصفة للتوكيـد فجاء في احداهما: «ان هـذه امتكم امة واحـدة» وفي الاخـرى «وان هـذه امتكم امة واحدة»... آيتان كريمتـان لم ينـزلهمـا اللـه سبحانـه وتعالى في كتابه الكريم بنفس الصيغة وبنفس المعنى وبنفس الاسلـوب إلا لتبليغ المسلمين وإعلانهم بأنـه اراد لهم كيان الامة الـواحـدة، وانه يكلفهم بالحفاظ على وحدة هذه الامة، ومعنى هذا انهم مكلفون بمحاربة كل من يحاول تفكيكها او اضعافها باعتباره خارجا عن جماعة المسلمين وعدوا لله ولهم ولقد أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله وهو اصدق القائلين: واعتصمـوا بحبل اللـه جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم اذ كنتم اعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا.(سورة آل عمران، آية١٠٣).

ومفهوم هذه الآية الكريمة ان الله سبحانه و تعالى يأمر المسلمين بالبقاء على وحـدة امتهم وان يعتصمـوا بحبل اللـه واختـار لهم صيغة جميعـا لتفيـد معنى الشمـول للكـافة ثم يأمـرهم بالحفـاظ على وحدة امتهم مرة اخرى بألا يتفرقوا و يذكرهم بأنهم كانوا قبل هذه الوحدة اعداء متفرقين، فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمتـه اخوانـا، فكل من يحاول ان يفرّق بينهم انما يحاول ان يعيدهم الى ما قبل الاسـلام من جـاهلية عميـاء في قبائل متفرقة ليعودوا الى الضعف والتفرق فيضيع بتفرقهم الاسلام.

فوحدة الامة الاسلامية إذن هي جسد الاسلام والاسلام روحه ولا اثر لروح

بـلا جسد كما انه لاحياة لجسد بلا روح والدليل على ذلك قول رسول الله صلى اللـه عليـه و سلم: مثل المـؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحـد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمّى. وقوله عليه الصـلاة والسـلام: لا يـؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه. وقوله: حب لاخيك ما تحب لنفسك.

ومن اجل الحفـاظ على وحـدة الامة الاسـلامية من التفكك حدد الله لهم ما ينبغي عليهم ان يقوموا به لكي تبقى وحدتهم متماسكة، فقال سبحانه و تعالى في كتابـه العزيـز: وان طائفتـان من المـؤمنين اقتتلـوا فأصلحـوا بينهمـا، فـان بغت احديهمـا على الاخـرى فقتلـوا التي تبغي حتى تفيء الى امـر اللـه، فـان فـاءت فاصلحـوا بينهمـا بالعدل واقسطوا، ان الله يحب المقسطين، انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم.(سورة الحجرات، الآيتان٩ـ١٠).

٢ - الدعوة بالنسبة لغير المسلمين:

وتنحصـر الـدعـوة بـالنسبة لغير المسلم في التبليغ وما على الداعية الا القيام بدعـوة غير المسلم الى الاسلام لقوله تعالى: «وما على الرسول الا البلاغ» و ليس معنى ذلك ان يتوجه الداعية الى غير المسلم ويطرق بابه او يعترضه في الطريق ثم يخـاطبـه بلهجة غليظة قائـلا اسلم والا دخلت النـار فمثل هذا الاسلوب الجاف وتلك الطـريقة المنفـرة تعطي غيـر المسلم صـورة غيـر لائقة بسجايـا المسلم في آداب الحديث وحسن الخطـاب مع انـه مكلف بـأن يكون مهذبا في ابلاغ دعوته دمث الخلق في اعلانـه عنهـا، لأن اللـه سبحانـه وتعالى قال لموسى عليه السلام ولاخيـه هـارون عندما ارسلهما الى فرعون: «اذهبا الى فرعون انه طغى، فقولا له قـولا لينـا لعلـه يتذكر او يخشى».(سورة طه، الآيتان٤٣ـ٤٤) فالله سبحانه وتعالى

امرهما بالرغم من علمه بطغيان فرعون ان يقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى، مع ان اللـه سبحانـه وتعـالى قـادر على ان يخسف به الارض. لكنه مع ذلك طاوله وامهلـه في الـدعـوة حتى اغرقـه وقومه ونجى موسى ومن معه. ودليل آخر على ضـرورة تحلي الـداعية بلين العريكة والكيـاسة في الخطـاب قولـه تعالى: ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.(سورة النحل ، آية١٢٥).

وقـولـه: فبمـا رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك.(سورة آل عمران، آية١٥٩).

وقـول الـرسـول صلى اللـه عليـه وسلم: امـرت ان اخاطب الناس على قدر عقــولهم. ذلك لان الــداعية سيلتقي في مجــال نشـر دعوتـه الوثني والمشـرك والكتابي، وكل من اولئك قد درج على اسلوب معين في العبادة والاعتقاد، منهم المتعصب والمـزعـزع العقيـدة والمنحل والعـالم والـدارس، وقد يكون كاهنا او راهبا، لذلك قال سبحانه و تعالى: ولاتجدلوا اهل الكتب الا بالتي هي احسن.

واخيـرا لدينا كلمة وجيزة يجب ان نقولها من اجل اعلاء كلمة الحق والدين، وهي اننـا نرى اليوم وقد تحولت افريقيا والبلادغير الاسلامية الاخرى الى ميدان للصـراع التبشيـري. اصبحنـا في مواجهة تحدي التبشير المسيحي للإسلام، واننا ملتـزمـون بحق الاسـلام علينـا كأمانة في اعناقنا نحن رجال الدعوة لقبول ذلك التحدي ولخوض غمار ذلك المضمار بكل طاقاتنا وامكاناتنا المادية والادبية.

ونحن مع الشعـوب الاسـلامية نبـارك بـاسم الاسلام كل حاكم مسلم حمى بيضة الاسـلام، ونـدعـو اللـه لكل حـاكم قصر في حقه ان يلهمه الرشد بعد الزيغ، وينفث في صـدره غيـرة الـراشدين على الاسـلام، وليكن نبراسنـا الى ذلك قوله سبحانـه وتعـالى: كنتم خيـر امة اخـرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن

المنكر وتؤمنون بالله. (سورة آل عمران، آية١١٠).

وقولـه تعالى: ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. (سورة آل عمران ، آية١٠٤).

واخيـرا ليس من المـروءة في الاسـلام بعد ان قال الله سبحانه وتعالى: اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاســلام دينـا. (ســورة المائدة، آية٣).

في عهـد رسـولـه الكريم، ان ننقص في زماننـا بأعمالنـا ما كان قد اكتمل من اسـلافنـا وأئمة دين اللـه من نعمتـه علينـا في تلك الآية الكريمة... لاننـا مكلفـون بالمحـافظة على كمـال الاسـلام، كما اكمله الله لنا لنحظى بتمام نعمته عليها كما اتمها علينا من قبل، يوم نزلت هذه الآية على رسوله الكريم.

واخر ما نوصي به شعوب المسلمين في مواجهة كل حاكم في كل زمان قوله سبحانـه وتعـالى: ان هـذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون. (سورة الانبياء، آية٩٢).

وقـولـه تعـالى: واعتصمـوا بحبل اللـه جميعا ولاتفرقوا، واذكروا نعمت الله عليكم اذ كنتم اعـداء فـألف بين قلوبكم فـأصبحتم بنعمتـه إخوانـا. (سورة آل عمران، آية ١٠٣).

خطة المواجهة:

ان عنصـر الحيـاة في كل امة من الامم هـو الايمـان والمعرفة، وبدونها تصبح مفككة ضـائعة، ولو كانت حرة مستقلة... ومن هنا تجيء ضرورة العمل الاسلامي المشتـرك الجـاد والمخلص، وعلى اهل الغيرة والنخوة من رجال الاسلام علماء

وروادا ان يلبسوا صوت هذا النفير، وان يلتفوا حول راية الاسلام وقد ظهرت امامهم ووضحت علامات الطريق.

وعلى هؤلاء واجبان: الواجب الاول يتمثل في كشف الاعيب الاستعمار الغربي وبعثاته التبشيرية وارسالياته والرد عليهم بما ينسخ حججهم ويكشف اباطيلهم وافتراءاتهم على الاسلام. والواجب الثاني التبصير بتعاليم الاسلام السمحة والتبشيرية بكل الوسائل قديمها وحديثها دون كلل او ملل، بما في ذلك من ايفاد البعثات الدعوية الاسلامية المزودة بالوسائل الاعلامية الحديثة وطرق الترغيب، بما في ذلك تقديم الاعانات المالية لمن ينفتح قلبه للاسلام وهو فقير حتى لايدفعه الفقر الى الوقوع في براثن اولئك المبشرين حتى يتعمق الاسلام في صدره ويصبح في مأمن بايمانه من لطمات الفقر وتأثير المغريات، وليس في ذلك شيء عجيب، فالرسول عليه افضل الصلاة والسلام كان يؤثر المؤلفة قلوبهم وهم الذين اعتنقوا الاسلام ولم ينقض عليهم فيه وقت عهد طويل. يؤصّله ويعمّقه في نفوسهم بكثير من المزايا كالهبات وزيادة الانسبة من الغنائم وما الى ذلك ليحببهم في الاسلام، مثل هذه الرخص في الدين ينبغي الاخذ بها في مجال الدعوة اليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بشروا ولا تنفروا ويّسروا ولا تعسروا.

واذا وضعنا في اعتبارنا ما هو حقيقة واقعة ان هدف الحركات الاستعمارية التي تحمل عناوين تبشيرية عريضة هو تقويض الاسلام في بلاده، نرى ان مقاومة هذا اللون من العدوان الغربي ليس واجبا اسلاميا فحسب، بل انه بالضرورة واجب عربي في الوقت نفسه ذلك لأن العلاقة بين العروبة والاسلام علاقة وثيقة لا انفصام لها، ومرتبطة برباط عميق يجمع بينهما كارتباط الروح بالجسد، ولأننا لايخالجنا ادنى شك لي ان العروبة جسد الاسلام، وان الاسلام روح العروبة،

يؤيـد ذلك قوله رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذا ذل العرب ذل الاسلام، كما اننـا نـؤمن ايمانـا عميقـا بـأن الاخطبـوط الاستعمـاري المختفي وراء العنـوان التبشيـري المسيحي يستهدف من ورائه تمزيق وزعزعة الوعي الوطني واضعافه، كما يهدف في الوقت نفسه الى زعزعة الوعي الديني، كما انه يجب علينا ان نفهم ان منـاهضة ذلك الـداء العضال من اوجب الواجبات الانسانية ذاتها للحفاظ على حرية العقيـدة للانسـان... ذلك لان هـذا الضـرب من التبشيـر يقوم على التضليل والغش وتشويـه الحقـائق ولايبـالي في سبيل الـوصـول الى هدفـه بسلـوك اقذر الطـرق، وهـذا الاسلـوب فضـلا عن همجيتـه، يعتبـر مصـادرة لحريـات النـاس الشخصية في اخص مـا تحـرص عليـه من معتقدات، وقد اكد القرآن الكريم هذا الشعار في حريةالاعتقاد حيث يقول: «لا اكراه في الدين، قد تبيّن الرشد من الغي، فمن يكفـر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم. اللـه ولي الذين آمنـوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات، اولئك اصحاب النار، هم فيها خالدون». (سورة البقرة، آية٢٥٦ـ٢٥٧).

وقوله تعالى وهو اصدق القائلين: «انك لاتهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء».(سورة القصص، آية٥٢).

وقـولـه تعـالى: من اهتـدى فانمـا يهتدي لنفسه، ومن ضل فانما يضل عليها، ولاتـزر وازرةوزر اخـرى، ومـا كنا معذبين حتى نبعث رسولا. (سورة الاسراء، آية١٥).

وقـولـه تعالى: قل انما انابشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد فمن كان يرجـوا لقـاء ربـه، فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا.(سورة الكهف،

آية ١١٠).

وقوله تعالى: ما على الرسول الا البلاغ. (سورة المائدة، آية٩٩).

وقوله تعالى ايضا: وما انت عليهم بوكيل. (سورة الانعام ، آية١٠٧).

كل هذه الآيات البينات تؤكد حرية الانسان في الاعتقاد لذلك كان واجبا علينا ازاء ايماننا بما امرنا به الله عز وجل في كتابه الكريم ان لانسمح بالاكراه في الدين بأية وسيلة من الوسائل، واذا كنا ملتزمين بذلك الدفع عمن يدين بغير الاسلام فنحن مطالبون من باب اولى بدفع الاكراه عن اهل ديننا، ونحن في مواجهة ذلك احوج الناس الى دعاة يصدق فيهم قوله سبحانه و تعالى: وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون. (سورة التوبة، آية١٢٢).

وقوله تعالى: ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين. (سورة فصّلت، آية٣٣).

وقوله تعالى: ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، واولئك هم المفلحون. (سورة آل عمران، آية١٠٤).

فما احوجنا الى من يحسنون التذكر بالدعوة لقوله تعالى: قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحن الله وما انا من المشركين. (سورة يوسف، آية١٠٨).

وقوله تعالى: قل انما امرت أن أعبدالله ولا اشرك به ، اليه ادعوا واليه مئاب. (سورة الرعد، آية٣٢).

وقوله تعالى: وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم. (سورة المؤمنون، آية٧٣).

مثل هؤلاء الدعاة ما كان احوج الاسلام اليهم اليوم ونحن على هذه الحال

ولا يمكن ان يرجى من دعوتهم ثمرة الا اذا كانت لدى قدراتهم الطاقة على تحقيق الامرين اللازمين اللذين استلزما وجوبهما: الاول تطهير بلاد المسلمين من سموم اولئك الاستعماريين من المستشرقين والمبشرين وجماعات الارساليات الغربية، والثاني نشر دعوة الاسلام والتبشير بها بعد تطهير البلاد من سمومهم.

وينبغي لاختيار الداعية الاسلامي من بين اولئك الدعاة ان تتوافر في تصورنا الشروط والمواصفات المثالية التي يمكن لنا ان نجملها فيما يلي:

اولا: ان يكون الداعية في سن تؤهله للقيام بأعباء الدعوة ومسؤولياتها، فلا هو بالشاب الناشيء، ولا هو بالشيخ الهرم حتى لا تقعد به همته للراحة قانعا بما يبذله من جهود.

ثانيا: ان يكون ذا صحة وحيوية ونشاط وذا بنية سليمة تعينه على القيام بما تتطلبه الدعوة من جهد واعباء على نشر تعاليم الاسلام.

ثالثا: ان يكون متحليا بسلوك الاسلام وتعاليمه واخلاقه متصفا بآدابه واحكامه، وبالاختصار ان يكون قدوة حسنة واسوة لغيره.

رابعا: ان يكون مطّلعا على ألوان مختلفة من الثقافات الدينية والاجتماعية متفقها في الدين عارفا بفلسفات الشرق والغرب، وقارئا متخصصا في مجال المؤلفات التبشيرية وخاصة لكتابات المستشرقين حتى يكون لديه الاستعداد الكافي للرد على ما قد يفاجأ به من عقد علمية او موضوعات دينية معقدة تحتاج لسرعة بديهة ولباقة في تحليلها واسكات المجادل بالرد الحاسم المقنع.

خامسا: ان يكون متفقها في اللغة العربية عارفا بأسرارها لانها مفاتيح التفسير للقرآن وشرح آياته. ومدخل ابواب تعاليم الاسلام ودليله الى منابعها الاصلية، وبالاضافة الى ذلك كله يلزمه ان يكون مجيدا للغة البينة التي يبشر فيها بدين الاسلام العظيم. وما توفيقي الا بالله العلي العظيم.

الهية المصدر

الوحي

ابراهيم الخزرجي

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

الوحي لغة :

عُرِّف الوحي في اللغة بأنه يشمل كل من الكتاب النازل من السماء والكتابة والرسالة والالهام والكلام الخفي، قال في الصحاح :

«الوحي : الكتاب، وجمعه وحي، مثل حلي ... والوحي أيضاً : الاشارة والكتابة والرسالة والالهام والكلام الخفي، وكل ما القيته الى غيرك، يقال: وحيت اليه الكلام و أوحيت، وهو ان تكلّمه بكلام تخفيه»[1].

و فرّق بعضهم كما عن الفروق بين الوحي والايحاء، فقال:

««الفرق بين الوحي وأوحى: ان وحي جعله على صفة كقولك مسفرة، و أوحى جعل فيها معنى الصفة، لأن افعل أصله التعدية ...»»[2].

وكأنه أخذ الفرق في ذلك من الكتاب العزيز إذ فيه ما يصرّح أو يشعر بالفرق

---

١) الصحاح ٦ : ٢٥٢ .

٢) الفروق اللغوية: ٧٥٠ .

المذكور، قال تعالى:

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من شياطين الانس و الجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً)[١].

قال في الميزان :

«والوحي هو القول الخفي باشارة و نحوها»[٢].

و بهذا المعنى فسّرها القرطبي فقال:

«وسمّي وحياً لأنه انما يكون خفية»[٣].

و ورد الوحي بمعنى التكليم الخفي أيضاً في قوله تعالى:

(إذ يوحي ربك للملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا)[٤].

فقد ذكر المفسرون انه تعالى أوحى الى الملائكة بأنه معهم أو مع المؤمنين[٥]، ويحتمل قوياً أن يكون ذلك تكليماً خفياً لهم .

ثم ان الوحي قد يشترك في حقيقته اللغوية مع الالهام وهو النكت فيا لقلب بفعل الخير والارتداع عن فعل الشر بغير واسطة بخلاف الوحي فانه قد يكون معها، قال في الفروق:

«ان الالهام ما يبدو في القلب من المعارف بطريق الخير ليفعل و بطريق الشر ليترك»[٦].

---

١) الانعام : ١١٢ .

٢) تفسير الميزان ٧ / ٣٢١ .

٣) الجامع لاحكام القرآن ٧ / ٦٧ .

٤) الانفال : ١٢ .

٥) انظر التفسير الكبير ١٥ : ١٣٥ .

٦) الفروق اللغوية : ٦٨ .

وقال في الفرق بينه و بين الوحي:

قيل: الالهام يحصل من الحق تعالى من غير واسطة الملك ، والوحي من خواص الرسالة، والالهام من خواص الولاية .

و أيضاً: الوحي مشروط بالتبليغ كما قال تعالى:

(يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل اليك من ربك) دون الالهام .

ومنهم من جعل الالهام نوعاً من الوحي، وقال في الغريب : يقال لما يقع في النفس من عمل الخير الهام، ولما يقع من الشر وما لا خير فيه: وسواس، ولما يقع من الخوف الجاش .

وقال بعض المحققين: الوحي فيضان العلم من الله الى النبي بواسطة الملك، والالهام: الالقاء في قلبه ابتداءً، والاول يختص بالانبياء عليهم السلام، وقد يطلق الوحي على الالهام كما في قوله تعالى:

(و إذ أوحيت الى الحواريين)[1].

فانهم لم يكونوا أنبياء، وقوله تعالى :

(وأوحينا الى أُم موسى)[2].

وقوله تعالى :

(و أوحى ربك الى النحل)[3].

وهذا الاطلاق أما بحسب اللغة أو على سبيل التجوّز[4].

---

١) المائدة : ١١١ .

٢) القصص : ٧ .

٣) النحل : ٦٨ .

٤) انظر الفروق اللغوية : ٦٩ - ٧٠ .

الوحي بالمعنى الأعم:

يستفاد من أكثر من آية في القرآن الكريم الايحاء الى غير الانبياء من البشر كقوله تعالى:

(وماكان لبشرأن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء انه عليم حكيم)[١].

لكن مع الفرق المذكور في الآية المباركة من ان التكليم بأقسامه المذكورة ـ الايحاء و التكليم من وراء حجاب أو ارسال الرسول ـ يختلف عن انسان لآخر حسب مرتبته الوجودية، فان استماع النبي(ص) من الوحي غير استماع غيره من الرسول، فانه ـ أي ايحاء الرسول ـ ايحاء أيضاً لكنه بواسطة الرسول، قال صدر المتألهين في تفسير الآية:

والثالث : ـ أي قوله تعالى: «أو يرسل رسولاً ....» اشارة الى أدنى الكلام . وهو النازل الى اسماع الخلائق و آذان الانام بواسطة الملائكة والناس من الرسل [٢].

ويظهر من كلامه ـ رحمه الله ـ ان الرسول أعم من النبي والملك، وان النازل الى اسماعهم يختلف بحسب مراتب ا لانبياء الوجودية.

و قال أيضاً في الفرق بين السماعين:

و اياك أن تظن أن تلقي النبي (ص) كلام الله بواسطة جبرئيل و سماعه منه كاستماعك من النبي (ص) أو تقول ان النبي كان مقلداً لجبرئيل كالامة للنبي (ص)، هيهات، أين هذا من ذاك ؟ هما نوعان متباثنان، فان التقليد لا يكون علماً أصيلاً ولا

---

١) الشورى : ٥١ .

٢) الاسفار الأربعة ٧ : ٩ .

سماعاً حقيقياً أبداً[١].

هذا ولكن يرى أكثر المفسرون ان قوله تعالى: (أو يرسل رسولا ...) هو ما يوحى باذنه مشافهة الى الناس .

و فسّر الوحى في قوله تعالى: (وماكان لبشرٍ أن يكلمه الله إلاّ وحياً ...) بالنفث في الروع أو الرؤيا التي يراها في المنام أو بما يسمعونه نطقاً و يرونه عياناًكماكانت حال جبرائيل عليه لاسلام إذا نزل بالوحي على النبي صلى الله عليه و آله .

وأما الرسول ـ حامل الوحي ـ فقد اختلفوا في انه هو الملك أو النبي من البشر، فقيل هو جبرئيل عليه السلام، و قيل : هو النبي بقرينة التبليغ الذي هو من وظائف النبي لا الملك .

لكن يرى العلامة الطباطبائي رحمه الله ان المراد من الرسول هو الملك والوحي النازل بالامر الالهي لا خصوص الرسول في البشر ولا الاعم منه ومن الوحي الملك و ذلك لان تبليغ النبي صلى الله عليه و آله و مشافهته بالامر الالهي للناس لا يقال له وحي، قال:

«ان المراد به ـ أي الوحي ـ التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطة بينه تعالى و بين النبي أصلاً، وأما القسمان الآخران ـ التكليم من وراء حجاب و ارسال الرسول ـ ففيهما قيد زائد وهو الحجاب أو الرسول الموحي، وكل منهما واسطة، غير أن الفارق: ان الواسطة الذي هو الرسول يوحي الى النبي بنفسه والحجاب واسطة ليس بموحٍ وانما الوحي من ورائه فتحصل ان القسم الثالث: (أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء) وحي بتوسط الرسول الذي هو ملك الوحي فيوحي ذلك الملك باذن الله ما

---

١) المصدر السابق .

يشاء الله سبحانه[١].

ولما كان للوحي في جميع هذه الاقسام نسبة اليه تعالى على اختلافها صح اسناد مطلق الوحي اليه بأي قسم من الاقسام تحقق، وبهذه العناية أسند جميع الوحي اليه في كلامه، كما قال:

(إنّا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده)[٢].

ثم ذكر في الميزان رداً على من قال بأن المراد من بالرسول هو النبي بأن المتعين منه هو الملك لا الرسول، فقال: و أما قول بعضهم ان المراد بالرسول في قوله: (أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء)

هو النبي يبلغ الناس الوحي فلا يلائمه قوله : «يوحي» إذ لا يطلق الوحي على تبليغ النبي[٣].

حقيقة الوحي :

عرّف الوحي - بغير ما عرّف به في اللغة - بأنه عبارة عن مشاهدة الحقائق والمعارف الكاملة التي لا يشوبها الريب والنقص، والمشاهدة لتلك الحقائق تارة يكون بسبب حصول العلم الحضوري في النفس واخرى بسبب العلم الحصولي .

ولا ريب في تحقق العلم الذي يكون منشأه و مصدره الله تعالى - المحيط علمه بكل شيء والذي لا يتطرق اليه الغفلة والنسيان - والجائي به الوحي الامين والقابل له والمستعد لنزوله قلب النبي المعصوم عليه السلام، وهذا الأمر يجعل من الوحي قطعي التحقق خالياً عن شوب الخطأ مكللاً بالعصمة، فانه لا يمكن التعويل على شيء ما لم

---

١) تفسير الميزان ٨ : ٧٣ .

٢) النحل : ٤٣ .

٣) تفسير الميزان ١٨ : ٧٤ .

يكن صدوره قطعي و تحققه ثابت، نظيره في ذلك اعتماد الانسان على ما يستدل به بواسطة العقل على الامور الاعتقادية، فلو لم يكن ما يحتج به و يستند اليه بـواسـطة العقل حجة لماكان للاستدلال به معنى ولما سارت عليه سيرة الناس من العقلاء .

و بذلك يخرج الوحي الظني والتخميني وكذلك العقل الظني عن حيطة البـحث، نعم هما حجة إذا قام على اعتبارهما أو اعتبار أحدهما الدليل القطعي .

و بذلك يظهر عدم معارضته الدليل الظني للدليل القطعي من الوحي والعقل، بل ويظهر عدم معارضته الدليل القطعي من الوحي -كالكتاب العزيز - للبرهان القطعي العقلي، وانهما يجتمعان فيما إذاكان الكتاب ظاهر و ليس بنص .

خصائص الوحـــي القطعي:

لابد في الوحي من توفر شروط، وهي :

١ - أن يكون صادراً و متلقىً عن المعصوم مباشرة .

٢ - أن يكون قطعي الدلالة .

٣ - أن يكون الغرض من صدوره ابلاغ الحكم الواقعي الالهي، لا لتقية وما شاكل ذلك. وعليه: فلو ظن في تحقق واحدة من هذه الثلاثة لم يكن الوحي قطعياً، ويكون العقل القطعي مقدماً عليه عند اختلاف الدلالة وتعارضها .

ثم انه لا يشمل التعارض بين الدليل النقلي الظني والبرهان القطعي العقلي موارد العلوم الطبيعية كعلم الهيئة والنجوم والعلوم التجريبية التي قـد يـظهر للـباحث بـدواً امكان القطع بها، فيرجح حينئذ العقل على النـقل، ليـقال: ان الوحـي مـناف للـعلم ومعارض له، وانه مخالف لمنطق العقل!

وعلى ذلك لا يمكن الاكتفاء بالظهورات اللفظية النقلية في مثل العلوم التجريبية الخارج علمها عن حدود نطاق التكاليف من الابتغاء واللا ابتغاء .

حجية الاستدلال بالعقل على اثبات الوحي :

بامكان العقل اثبات الوحي و ضرورته و كونه خالياً عن شوب الخطأ والسهو، و أيضاً بامكانه الاحتجاج به عليه بالادلة العقلية القطعية، وهذا من جهة يكشف عن اعتضاد أحدهما بالآخر وعن عدم وجود التعارض بين الدليل العقلي القطعي والوحي القطعي من جهة أخرى، مما يجعلهما ذلك كالشيء الواحد، الامر الذي يمنع من ترجيح أحدهما على الآخر، لان في الترجيح كذلك انهدامهما معاً لاستنادهما معاً الى أصل واحد، وهو امتناع اجتماع النقيضين، وحيث ان مرجع جميع الادلة القطعية - سواء كان ذلك عبارة عن تعارض الوحي القطعي مع وحي قطعي آخر، أو أحدهما مع الدليل العقلي القطعي، أو هو مع دليل عقلي قطعي آخر - الى أصل عدم التناقض يكون علاج ذلك التعارض أمراً مستحيلاً .

ترجيح الوحي والعقل القطعيين على الوحي والعقل الظنيين

لا ريب في تقدم الوحي القطعي على الوحي الظني، وكذا في تقدم و ترجح الدليل العقلي القطعي على العقلي الظني، لكن هل يمكن تقديم الوحي الظني على العقل القطعي أو العكس ؟

لما كان الدليل الظني مستنداً في اثباته في كثير من الموارد الى الدليل القطعي لا يمكن أن يكون بذاته حجة ومعتبراً، وهذا بخلاف الدليل القطعي فهو بذاته حجة ولا يحتاج في اثبات حجيته الى مثبت آخر، و حينئذ يكون الدليل الظني واقعاً في طول الدليل القطعي لا في عرضه، وعليه: فلا يتحقق التعارض بينهما، وذلك لأن شرط التعارض بين دليلين كون أحدهما واقعاً في عرض الآخر، والمفروض في المقام عدم كون أحدهما واقعاً في عرض الآخر .

ثم لا يخفى ان الدليل العقلي يقل الاستدلال به في غير النظرة الكونية والفلسفة

والرياضيات لانتفاء مورده في مثل العلوم التجريبية والطبيعية والطب والنجوم .

وعليه : فلا يمكن حصول اليقين بأمر ـ غير ما ذكرنا ـ إلاّ عن طريق الوحي و ذلك بعد تحقق جملة من المقدمات والقواعد التجريبية وما شابه واللجوء الى العقل الظني و ترجيحه على النقل، لكن النظر الى العقل الظني والوحي القطعي من هذه الزاوية سيرتب نتيجة فاسدة وهي ان الوحي ينافي العلم والعقل، وهذا ما لا يساعد عليه العقل السليم ولا يعضده النقل الصحيح، وهذا لا يعني الجمود على الظهور ـ اللفظي في غير العلوم التجريبية، وأما الاستدلال به في دائرة العلوم التجريبية فخارج تخصصاً لعدم كونها من التكاليف التي يعبر عنها ـ بالحكمة العملية ـ .

وقد حاول بعض المستشرقين تصوير التعارض المذكور بين الوحي القطعي والعقل القطعي بأنها مختلفة واتبعهم على ذلك بعض المسلمين، فقالوا بأن الوحي يتصادم مع حقائق الكون وان دور الدين انتهى واليوم قد بدأ عصر العلم، ونحن في مقام الجواب نقول:

لا خير عليكم استدلوا للعلم بالعقل ان امكن فان المنهج المتبع فيه هو منهج التجربة والاختبار لا منهج النص والنقل، و ان لم يمنع من اعتضاد ما توصل اليه العقل والتجربة بالنقل والوحي الظني أو القطعي.

فليس من الصحيح تحميل الوحي ما لا يتحمل لأنه هو الدليل الحقيقي ـ الذي يمكن الاستهداء بنوره ـ على صحة أو عدم صحة العلم، فالعلم الذي يتناقض مع الوحي القطعي كاذب وغير صحيح[1].

بناءً على ذلك لا يمكن الاستغناء عن الوحي والاستقلال بالعقل والبرهان القطعي

---

١) انظر معجزة القرآن الكريم للشعراوي : ٨٤ .

لأنه ان اصطدم عقله بعقبة هي فوق قدرة هذا العقل أفقدته كل شيء، فان الدين والنظام قائم على استخدام العقل منهما فيما خلق من أجله، لكن ليس معنى ذلك اننا سنستطيع أن نصل و نرقى بالعقل الى أشياء لم يخلق العقل لها ولم يمكنه ادراكها .

العقل السليم بمنزلة الوحي :

يعد العقل السليم بمثابة الوحي في ما يتعلق بالعقيدة و فلسفتها، فهل العقل حجة في ما يدركه بالنسبة للفلسفة الاولى والنظرة التكوينية المرتبطة بالاصول الاعتقادية الثلاثة المتلخصة في التوحيد والنبوة والمعاد ؟

لابد في مقام الجواب بأن للعقل أن يبرهن على الامور المذكورة و يحتج على امكانها أو ضرورتها او استحالتها، لكن ليس البرهان لوحده كافيا في اثبات ذلك أو نفيه، بل لابد للعقل أن يستهدي بنور الوحي للتوصل الى حقيقة هذه الامور، ومن هنا قد يتراءى للباحث وقوع التعارض بين العقل القطعي والوحي القطعي الذي تقدمت الاشارة الى استحالته، وانه على فرض وقوعه فهو ليس بمستقر، وأما لو فرض استقراره و عدم امكان الجمع و العلاج فلابد من الاعتراف بانهدام اصول هذين القطعين لان افتراض تقدم أحدهما على الآخر معناه انهدام أصل امتناع التناقض و بانهدامه ينهدم القطعان معاً .

ثم ان للعقل السليم أحقية اثبات الوحي والنبوة والبرهنة عليها ولو بالاستناد الى القضايا البديهية، و ذلك أنه يفرّق بين المعجزة ـ التي يراها الوحي أمراً ضرورياً للنبي في اثبات نبوته ـ وبين السحر والشعبذة والكهانة وغيرها، و يرى العقل ان الفرق بينها جوهري، و ذلك ان المعجزة التي هي آية النبوة والرسالة تتحدى كل ما يشبّه للرائي انه مثلها و تحكم عليه بالفساد و البطلان .

فلو حكم العقل القطعي بثبوت الوحي والنبوة وضرورتها وتمكن من وضع

الحلول المناسبة لجميع أو أغلب المسائل النظرية والمعقّدة في ظل الوحي حينئذ لا يمكن رفع اليد عن هذا البرهان العقلي القطعي لصرف ظهور - دليل لفظي - الذي هو عبارة عن الوحي الظني - وذلك لأن معنى رفع اليد عنه سلب الحجية عن العقل القطعي وهدم جميع ما يثبت بسببه من المسائل الاعتقادية، وهكذا الامر بالنسبة لتعارض الوحي القطعي مع العقل القطعي، فانه لو رجح الوحي القطعي عليه لزم من ذلك سلب الحجية والاعتبار عن العقل القطعي، وبالاخرة عدم اعتبار جميع ما يثبت بالبرهان القطعي العقلي من المسائل الاعتقادية، فان المنكر لحجية العقل القطعي نظير من يرقى السلّم الى السطح، ثم ينكر وجود ما رقى به السطح، و هكذا الحال في المقام، فلو أنكر حجية ما هو أصل في اثبات الوحي فكيف يمكنه القول بأن الوحي والنبوة حق ؟!

الوحي والعقل في الكتاب والسنّة الشريفين :

لماكان العقل القطعي هو المثبت لضرورة الوحي والنبوة و سائر ما يرتبط بالعقيدة لاحقة نجد في كثير من الآيات والروايات الدعوة الى الاخذ بما يثبته العقل القطعي و يبرهن عليه و يراه حجة، و بذلك يكون الوحي معتضداً بالعقل .

ان الكتاب العزيز و السنّة المطهّرة مشحونتان بالدعوة الى التفكر والتدبر وتحصيل العلم و اليقين والنهي عن الاخذ والعمل بالظن والحدس والتخمين والحرص خاصة فيما يتعلق بالامور الاعتقادية والمعارف الحقة، بل يجد الباحث ان القرآن الكريم يبين أصول الاستدلال المنطقي المستند الى البرهان العقلي في مقام الاحتجاج على المنكرين والمعاندين من المشريكن وغيرهم.

ثم ان الظن و الحدس والتخمين لا ينسجم كل منها مع حقيقة القرآن التي عبر فيها عن نفسه بأنه هدى و نور، فان الهدى وا لنور - اللذين هما كناية عن الوضوح وعدم

الريب - لا يتلائم مع الشك والظن، وهذا خير شاهد على ان القرآن يدعو دعوة حق الى التعقل والتدبر ، قال تعالى :

(بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله)[١].

وقال الصادق عليه السلام (... ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق)[٢].

وعن الامام الكاظم عليه السلام انه قال: «بشر الله ... ثم قال: ان لله على الناس حجتين، حجة ظاهرة و حجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء وأما الباطنة فالعقول»[٣].

وقال الامام الرضا عليه السلام : «العقل يعرف به الصادق على الله فيصدقه و الكاذب على الله فيكذبه »[٤].

فجعل عليه السلام العقل القطعي حجة على الوحي الالهي و معياراً يعرف به الصادق على الله من الكاذب عليه، فيكون بالعقل مصدقاً أو مكذباً. إلاّ أن المشركين والمنكرين حرّفوا طريق الاستدلال على الوحي واستبدلوه بمشيئة الله، فقال:

(لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم إلاّ يخرصون * أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مهتدون)[٥].

---

١) يونس : ٣٩.

٢) الكافي ، كتاب العلم، باب النهي عن القول بغير علم .

٣) الكافي ، كتاب العقل و الجهل .

٤) المصدر السابق .

٥) الزخرف : ٢٠ - ٢٢.

و قوله تعالى :

(قال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلاّ البلاغ المبين)[١].

وخلاصة هذا التعليق على المشيئة الالهية في كلام المشركين والقياس الاستثنائي الوارد في الآيتين ان الله تعالى لو شاء و تعلقت ارادته بأن لا نشرك به ما كنا لنشرك به أحداً ولم نحرّم من دونه من شيء، و حيث اننا نشرك به غيره و نحرّم من دونه الاشياء علمنا بأن ارادته لم تتعلق بالتوحيد ونفي الشرك، و أيضاً لم تتعلق ارادته ببعث الانبياء والوحي والكتب، وأخيراً يكون الشرك حق و بعث الرسل والوحي باطل، فكان جواب القرآن لهؤلاء هو الاحتجاج عليهم بما لديهم من علم فيما يقولون فقال:

(هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلاّ الظن وان أنتم إلاّ تخرصون)[٢].

ومن ذلك كله يتحصل ان الشرك يستند في اثباته الى ضرب العقل عرض الجدار أولاً وبالمباشرة ومن ثم نفي الوحي.

تنبيـه :

مما تقدم يظهر للمتأمل بطلان ما استدل به المشركون - من القياس الاستثنائي - على شركهم، وان ذلك كان بارادة الله ومشيئته، ويظهر أيضاً بطلان محاولتهم انكار الوحي وذلك لعدم تفريقهم بين الارادتين التكوينية والتشريعية، فان ارادة الله التشريعية تعلقت بأن يكون الا نسان من أهل التوحيد، وهذه الارادة تتحقق على يد

---

١) النحل : ٣٥.

٢) الانعام : ١٤٨.

الانسان وهي التي أشار اليها بقوله :

(إنّا هديناه النجدين).

فلا يمكن أن يقال بأن ارادته تعالى التشريعية لو تعلقت بالتوحيد ونفي الشرك وتصديق الوحي والنبوة لم يكن مشرك على وجه البسيطة، وأما ارادته التكوينية فهي تأبى عن التخلّف والاختلاف وان كانت تستتبع الجبر العلي والمعلولي .

و الحاصل : لا يلزم من التلازم بين المقدم و التالي في هذه القضية الشرطية التي طرحها المشركون سوى النتيجة الفاسدة .

فالشرك من وجهة نظر القرآن مفهوم لا يقبل التوجيه العلمي والعقلي بعد تعلق الارادة التشريعية بضرورة الاحتراز عنه و تركه، وان كان تحقق تلك الارادة بيد الانسان نفسه، قال تعالى:

(وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما)[1].

والسر في عدم امكان التوجيه العلمي للشرك هو ان الشرك من المفاهيم العدمية التي لا واقعية لها، وحيث ان الله تعالى عالم بكل شيء يكون ما لا يعلمه عدم محض قال تعالى:

(أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات والأرض)[2].

وقال على لسان نبيه صلوات عليه :

(... و أشرك به ما ليس لي به علم)[3].

والحمد لله ربّ العالمين

---

١) لقمان : ١٥ .

٢) يونس : ١٨ .

٣) المؤمن : ٤٢ .

٢ ـ الواقعيـــــة

١ - من مظاهر الواقعية الإسلامية (التوازن، المرونة، الأخلاقية) آيت الله محمدعلي التسخيري

٢ - الواقعية والوحدة الإسلامية (الفكر والتطبيق) خميس بن راشد بن سعيد العدوي

٣ - الواقعية في الإسلام، دراسة و تحليل ماجد سعيد

من مظاهر الواقعية الاسلامية

التوازن، المرونة، الاخلاقية

✍ آيت الله محمد علي التسخيري
رئيس رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية
طهران - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

من مظاهر الواقعية الاسلامية
١ - التوازن ٢ - المرونة ٣- الاخلاقية

المظهر الأول التوازن

وتوجد هنا مقدمتان:

الاولى: اسلوب الاعداد المفهومي والصياغة التصورية:

تتميز التربية الاسلامية بخاصة قد لانجدها في غيرها، وهي ما يمكن تلخيصه باسلوب الاعداد المفهومي والصياغة التصورية، وذلك بتغيير الصورة المنحرفة عن الواقع، واعطاء النظرة النافذة وتأصيلها في النفس عن الوجود، والكون، والحياة، والانسان، بفطرته، وتأريخه، وقوانين هذا التاريخ، وحاضره، ومستقبله، فاذا تم هذا التأصيل البناء عاد الاسلوب الاسلامي ليثقف المسلم بالهدف

مباشـرة، وبشكل مجمل، ليركـز عليـه ـ ولـو من خلال مسيرة الاجيال، بحيث لايشكل هـو الا خطـوة من هـذه المسيـرة ـ ثم يـرسم بعـد ذلك امـامـه الصـورة التفصيلية والتشريعية، فيضمن بذلك اندفاعا للعمل من جهة، واداء اروع له بعد ان تركزت في نفس العامل كل ابعاد الصورة والاطار الذي يجب ان يتم فيه، من جهة اخـرى. ونلحظ لهـذه الحقيقة الكثيـر من المصـاديق، ومنهـا مسألة التوازن الذي يعمل الاسلام على تركيزه في النفس الانسانية بشتى الاساليب، كما نرى.

الثانية: التوازن العادل الحكيم:

قبل كل شيء يجب ان نركـز على ان المقصود بالتوازن ليس ما قديتبادر الى الأذهـان لأول وهلة من التسـاوي بين الجانبين، او مـا إلى ذلك، وانمـا يقصد منه ملء الـواقع بـالشكل العـادل بحيث يـوضع الشيء في محله دون ان يلحق حيف بأجزاء الواقع، وبحيث يشكل هذا الملء، افضل حالة لصالح الكمال. وهو ما يمكن ان نطلق عليـه اسم: (التـوازن الحكيم) او (التـوازن العادل) فمثلا لو اننا لاحظنا جانب الغـرائـز الانسانية فاننا نجد انها تحتاج الى اشباع معين، وهي قد تتطلب ما يزيـد على اشبـاعهـا الصحيح، فيؤثر هذا على اشباع الغرائز الاخرى. فاذا اعطيت اكثـر ممـا يتطلبـه واقعهـا وهـدفهـا فقـد اختل التوازن في اشباع الغرائز فالتوازن لايعني ان تشبع كل غريزة بالمقدار الذي تشبع به الغرائز الاخرى.

وعنـدمـا يتضح هـذا المفهـوم، نستطيع القـول بأنـه لايحتاج في اجماله الى استـدلال فـان نظرية خلق الكـون بحكمة واحكام، وكون التشريع حكمة تشريعية تنسجم مع الحكمة الكونية، هي من اوضح النظريـات القـرآنية التي يتكرر التصريح والاشارة اليها في مختلف الآيات القرآنية.

واذا شئنا بعد هاتين المقدمتين ان نستعرض مجالات التوازن نجدها مجالات تصورية وتشريعية.

التوازن في التصور الاسلامي عن الواقع:

ان الاسلام يحاول ان يغير الوجود الانساني الى الشكل المراد، فيبني التشريع على اساس تصوري محكم حدد له فيه موقعه من التشكيلة الكونية ليكون على هدى من امره: «قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعن».(١) وهانحن نشير الى جوانب من تلك الصورة التي رسمها عن الواقع، فيقول تعالى عن:

١ ـ التوازن الكوني: «انا كل شيء خلقناه بقدر».(٢)

ويقول عز وجل: «والسماء رفعها ووضع الميزان».(٣)

٢ ـ التوازن بين الاطلاق في المشيئة الالهية: «انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون».(٤) والثبات في القوانين الكونية: «لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر و لا الليل سابق النهار».(٥) «ولن تجد لسنة الله تبديلاً».(٦)

٣ ـ التوازن بين الارادة الالهية المطلقة والارادة الانسانية المحدودة التي حصلت بمشيئة الله: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، وقد افلح من زكاها، وقد خاب من دساها».(٧)

٤ ـ التوازن بين الرحمة الواسعة والعقوبة الشديدة يقول تعالى:

«نبىء عبادي: اني اناالغفور الرحيم ❋ وان عذابي هو العذاب الاليم».(٨)

فان تصور الرحمة الواسعة يبعث في الانسان املا واسعا دافعاً نحو العمل، وتصور العقوبة الشديدة يمنع ذلك الامل من الانقلاب على هدفه ويضبطه

ويحوله الى عمل في سبيله، فيتحقق نوع متكامل من التوازن البناء.

٥ ـ التوازن بين صورة الدنيا وصورة الآخرة، بحيث تترابطان الى حد الوحدة، وتتميزان الى حد التباين.

٦ ـ التوازن بين طرق الخير وطرق الشر المعروضة امام الانسان، مما يفتح امامه سبيل الاختيار الحر، وهناك نصوص شريفة تركز على هذه الحقيقة.(٩)

٧ ـ التوازن بين قوى الانسان والاهداف المنشودة التي خلق لاجلها.

علما ان الصورة التي يرسمها الاسلام عن الواقع لايمكن ان نجدها لدى اي مذهب.

التوازن في تعامل المسلم مع الواقع:

وعلى ضوء من النظرة المتوازنة الى الواقع يرسم الاسلام للمسلم مواقف متوازنة منه، اي من الواقع.

١ ـ الموقف المتناسق من الكون المتناسق.

ذلك أن التصور السابق يدفعه للانسجام مع الكون ليتحقق الهدف المنشود من الخلقة. وهنا تبدو العلاقة الرائعة بين التسخير والشكر، فالتسخير انسجام تكويني، والشكر انسجام ارادي من قبل الانسان:

«وسخر لكم الليل والنهار ۞ وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ان الانسان لظلوم كفار».(١٠) وكذلك «سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين».(١١)

٢ ـ موقف العبودية المطلقة والشكر لله مع الاعتراف بفضل المخلوق...

فالاسلام، على ضوء ما سبق، دعا لجعل الشكر المطلق لله تعالى باعتباره

المنعم التـام، دون ان يهمل الـدعـوة لشكر المخلوقين باعتبارهم اعملوا ارادتهم الخيرة لتحقيق الهدف الخير.

«ووصينـا الانسـان بوالديـه حملتـه امه وهنا على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك الي المصير».(١٢)

وعنـه(ص) في حديث قـدسي: «واني قـد آليت على نفسي ان لا اقبل شكـر عبد لنعمة انعمتها عليه حتى يشكر من ساقها من خلقي اليه».(١٣)

٣ ـ موقف الامل بالله تعالى مع الاطمئنان ببقاء السنن الكونية.

٤ ـ موقف التوكل على الله والثقة بالنفس.

٥ ـ موقف العلو على المشاكل التاريخية مع تقدير دور كل عامل.

٦ ـ موقف الدقة في اختيار سبيل الخير مع الحذر من سبل الشر.

٧ ـ موقف الخوف والرجاء.

فعن الامـام الصـادق(ع) انه قال: كان ابي يقول: «ليس من عبد مؤمن الا وفي قلبـه نـوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا».(١٤)

ومن الواضح ان هذه الخاصة تنعكس على السلوك تماما.

يقـول الامـام الصـادق(ع): «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو».(١٥)

٨ ـ الموقف المتوازن من الدنيا والآخرة.

يقــول تعــالى: «وابتغ فيمـا آتـاك اللـه الـدار الآخـرة ولا تنس نصيبك من الدنيا».(١٦)

ويقول الامام علي(ع) في كتابه الى محمد بن ابي بكر رضي الله عنه:

«واعلمـوا عباد الله، ان المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا اهل الدنيا في دنياهم ، ولم يشاركهم اهل الدنيا في آخرتهم».

٩ ـ موقف التوازن بين البرهنة وطلب الدليل من جهة، والتعبد والتسليم، من جهة اخرى.

وهناك نماذج اخرى للمواقف المتوازنة من الواقع لايسعنا فعلا التعرض لها.

التوازن والتشريع:

هناك اسلوبان من البحث في هذا المجال:

الاول: التوازن بين التشريع وارضيته المناسبة له.

وهـذه السمة تنسجم مع مبـدأ ضرورة ربط المسألة الاجتماعية (وهي مجال التشريع) بالمسـألة الفلسفية (وهي مجـال الارضية الروحية المناسبة). فعلى ضوء نـوعية العقيـدة، والمفـاهيم المبتنية، والعـواطف المتفـرعة عنهـا، يأتي التشريع المنسجم.

٢ ـ الوحدة والتوازن في تطبيق كل الانظمة الاسلامية.

ذلك ان الحيـاة متـرابطة، والحلـول لها مترابطة، فمن الطبيعي ان يتم التناسق في التطبيق.

٣ ـ الموازنة بين الالزام التشريعي والتطوع الفردي او الاجتماعي.

٤ ـ التـوازن بين التحـديـد في المجـالات الثابتة والمـرونة في المجـالات المتطورة.

٥ ـ الموقف المتوازن من الحرية الانسانية.

فـلايعمل الاسـلام على الفتح المطلق، ولايسمح بالتحديـد التـام، وانمـا يتم

تخطيط واقعي سليم.

الثاني: بتناول كل نظام من النظم الاسلامية والعمل على اكتشاف جنبات التوازن فيه، ونشير هنا مثلا الى ان نظام العبادات، عندما يتم التركيز عليه، يعرض علينا اروع صور التوازن، تارة بين الحرية الانسانية والعبودية لله.

واخرى في مجال الاشباع المتوازن لغريزة التدين،

وثالثة بين عزل المسجد عن الحياة وحصرها فيه،

ورابعة بين المصلحة الذاتية والمصلحة العامة،

وخامسة بين الاتجاه العقلي المحض والاتجاه الحسي المحض،

وسادسة بين الغيبية، من جهة، ووعي المصالح، من جهة اخرى، ولكل من هذه الجوانب حديث مفصل.

الخاتمة:

المجتمع الاسلامي بين العلمنة والتطرف:

بعد هذه الجولة السريعة في ميادين التوازن، نود ان نقف قليلا عند الحد الوسط الاسلامي في الفرد والمجتمع.

ان الحد الوسط في الفرد والمجتمع يتلخص في تطبيق التعاليم الاسلامية، والتحلي بمكارم الخصال، والقيام بالمسؤولية الرسالية الشاهدة الملقاة على عاتق الفرد والامة.

فاذا آمن الفرد بأصول العقيدة واصلها التوحيد،

واذاسار التوحيد في كيانه حتى غمر وجوده ووجه حياته،

واذا فجر التوحيد عواطفه وصاغها اسلامية تبدأ من حب الذات حبا طبيعيا

وتنتهي الى حب اللـه تعالى و الذوبان فيه، واذا كانت هذه العقيدة والعاطفة روحا لكل التزام يقوم به بأحكام الشريعة فلا يبصر الا من خلال القرآن، ولا يسمع الا من خلال القـرآن، ولا يستهـدف الا اهـداف القـرآن، ولا يستهـدي الا هدى القرآن والرسول العظيم(ص)، ولا يتخلق الا بأخلاقهما فذلك هو الفرد الوسط الشاهد.

واذا سرت روح الايمان في المجتمع، واتجهت العواطف وجهة منسجمة فيه مع الايمـان، وشكـلا معـا ارضية منـاسبة لتطبيق الطـروحـات الاسـلامية في كل مجـالات الحيـاة: الحقـوقية، والاجتمـاعية، والعبـادية، والسياسية، والاقتصادية، والاخلاقية، والتربوية، والجزائية، والادارية، وغيرها.

وكـان معيار السير الحياتي هو رضا الله تعالى لاغير، وهو الكفاح المرير ضد الطغيـان ومظـاهـر الطاغوت، سواء على الصعيد الداخلي في قلب الامة، او على الصعيد الخارجي في مجال العلاقات الدولية، وانتفت كل المعايير اللااسلامية من حيـاة المجمع من قبيل الامتيـازات المـادية، والعنصرية، والجغـرافية، والقـومية، والطبقية، وامثالها، فان ذلك المجتمع هو المجتمع الرسالي الوسط والشاهد.

وامام هذه الصورة الوسط المتوازنة حالتان منحرفتان:

الحالة الاولى: العلمنة - اذا صحت صياغة هذاالمصدر واقل ما يقال في هذه الحـالة هـو ان يعـود المجتمع غير مكترث بالقوانين الاسلامية، وغير آبه بتطبيقها التطبيق السليم، وان يعمل النظـام الحـاكم فيه على استيراد القوانين من الشرق او الغـرب، وتـرويج انمـاط من الحرية الكـاذبة التي لايرضـاهـا الاسلام وترتفع هذه الدرجة حتى تصل الي مستوى الصراع ضد الاسلام ومظاهره العبادية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها وهنا تكمن الطامة الكبرى ويكون الكفر بعينه، على رغم بقاء المظهر الاسلامي الاسمي.

والحالة الثانية:

ان يتخـذ المجتمع سبيل تـرجيح احد طرفي انماط التوازن التي اشرنا اليها ـ او التي لم نوفق للاشارة اليها ـ ليتم نوع من الافراط في ذلك.

ولنضرب مثلاً على ذلك:

باتخـاذ المـرء مـوقف الثقة بـالنفس الى الحـد الـذي ينسيه التوكل على الله ويـوقعـه في الغـرور القاتل، او مـوقف الـرجـاء الكبير بالله مع نسيان الخوف من عقابه، او مـوقف الـرهبنة والتـركيـز على الآخـرة، واهمال الدنيا، مما يقعده عن اتخـاذ دوره الحضـاري المطلوب، او موقف البرهنة وطلب الدليل في كل شيء. والا ترك الايمان به ـ وهو موقف خطير يفقد الانسان المسلم اولى خواصه، وهي خاصية التسليم المطلق لله جل وعلا ـ وامثال ذلك.

لا اريد هنا ان اسوغ السلوكات المنحرفة والتصورات السخيفة، وانما اريد ان نمنح كل شيء حقه بقدر، وان نفسح المجال لاختلاف الرأي، وان نبقى نعتقد ان الخلاف الذي نهينا عنه ليس الخلاف الفكري مطلقا، كيف والقرآن كتاب الفطرة، وكتـاب الـدليل، والنظر، وهو منسجم مع كل الحالات الطبيعية، ومنها الاختلاف الفكـري. واذا كـان قـد نهانا عن الخلاف فهو يشير الى التنازع العملي المقيت بلا ريب، ويدعونا للاعتصام بحبل الله جل وعلا.

اعـود فأقـول ان الحـالتين معـا منحرفتـان عن الخط الاسلامي الوسط. واذا اردنـا ان ندين، كـان علينـا ان ندينهمـا معـا: ندين حالة العلمنة وكل اولئك الذين يقفون وراءها محتجين بحجج واهية من قبيل:

ملاحظة مقتضيات التطور والتعقيد الاجتماعي،

ولزوم استخدام الوسائل والنظريات العلمية،

وجمود المفاهيم والتعاليم الدينية!!

ووجود الاقليات في المجتمع،

وتركيز الدين على خصوص الشؤون الفردية،

وانعدام النظام السياسي في التشريع الاسلامي،

وضرورة الانسجام مع النظام الدولي العام،

والانفتاح على الفكر الحديث في مجال الدولة الحديثة،

وامثال هذه الاقاويل التي ناقشها المفكرون الاسلاميون واثبتوا بطلانها وفساد اللجوء اليها، ثم ندين حالة الافراط، وعدم التوازن،وتجاوز الحد، والتطرف، من جهة اخرى، آخذين على دعاته انهم لاينسجمون مع الطروح الاسلامية الوسط، وملاحظين ان ادعاءاتهم من قبيل:

ان مجال العمل الطبيعي لتطبيق الاسلام معدوم ـ نظرا للوضع القائم.

وان الاخذ بالشدة ضروري ليتم لنا الحد الوسط،

وان الحدة والرسالية تقتضيان هذه المواقف المتشددة،

وان العدو جارح فيجب الرد بالمثل عليه،

وان القرآن ينهي عن المساومة، فلكم دينكم ولي دين،

كل هذه الادعاءات ربما كانت صحيحة في مواردها، الا انها لاترسم لنا خطا عاما يدعونا لعدم التزام التوازن الاسلامي المطلوب، ونسيان الخلق الاسلامي الحميد، في الوقت الذي نقسو فيه على اعداء الله، ونتبرأ منهم، ونقارع سلطانهم الكافر، ونعمل على اجتثاث بنيانهم من الاساس.

الروابط بين وضع الانسان والنعم الالهية والحضارة عموماً

انـا لـو تتبعنـا الآيـات القـرآنية التي تتحـدث عن الجانب الحضـاري، ومنه المادي للشعوب، نجدهاتركز على كيفية تعالم الانسان مع الدين ومع الله، اي مع وظيفتـه تجـاهـه تعـالى فتجعل نوعية التعامل سببا للرقي والنصر ان كانت ايجابية وللانهيار والضياع ان كانت سلبية، وهذا ما تؤكده الآيات القرآنية، منها:

«ولـو ان اهل القـرى آمنـوا واتقـوا لفتحنـا عليهم بركـات من السمـاء والارض».[١٧]

«وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون»[١٨]

فاذا كان الانسان هو المغير اولاً....

واذا كـان الـذي يقبل التغييـر، هـو الشكل العام، لا القوانين الواقعية ـ ومنها الفطرة بمقتضياتها ـ ثانياً....

فان من الطبيعي ان نتوقع للاسلام الخلود بعد ان كان:

يعمل على تربية الانسان ـ ارادة وتعقلا ـ في مختلف الحالات،

ويعمل على ان يضع لـه القـواعـد العـامة والمفـاهيم المستمدة من تصورات واقعية، كل ذلك في سبيل ان يقـوم (الانسـان الاعلى فكـرا من غيـره والمنزه من الانحرافات، ونعني به الامام وفي طوله الحاكم الشرعي المجتهد العادل) بتطبيق تلك القـواعـد على الجانب المتغيـر، او فقل مـلاحظة مـدى امكانية الصـورة من الحيـاة الملائمة مع الواقع الثابت، ومدى مساهمتها في تحقيق الاهداف الانسانية العالية. فيقبلها او يرفضها على ضوء ذلك.

يخـاطب نوح (ع) قومه فيقول: «استغفروا ربكم انه كان غفارا، يرسل السماء عليكـم مـدرارا، ويمـددكم بأمـوال وبنين ويجعل لكم جنـات ويجعل لكم

انهارا».[١٩]

ويخاطب هود(ع) قومه فيقول: «ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولاتتولوا مجرمين».[٢٠]

وهكذا تتلازم الزيادة في النعمة الالهية مع الشكر: «لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد».[٢١]

المظهر الثاني المرونة الاسلامية:

نستهدف في هذا البحث جلاء قابلية الاسلام الخارقة على النفوذ الى الفطرة، وبالتالي قابليته على البقاء والخلود، بقاء الفطرة وخلودها.

ويشمل:

أ ـ عنصر المرونة الاسلامية في التشريع.

ب ـ عنصر المرونة الاسلامية في التطبيق والتبليغ.

وقبل كل شيء نود ان نشير الى حقيقتين:

الاولى:

ان المرونة لاتعني التنازل المبدئي مطلقاً ولا الميوعة التنظيمية، فان كلا منها يتنافى مع عقائدية المبدأ المرن وواقعيته العملية، ذلك ان العقائدية والواقعية ـ خصوصاً اذا تصورنا حقيقتهما وانسجامهما الكامل مع حركة الكون والتاريخ والانسان بتركيبته الفطرية الاصيلة ـ توجبان ثبات الاسس العقائدية والمفاهيم التصورية عن الواقع من جهة، وثبات النظم والبناء العلوي الذي يقوم على اساس من ذلك التصور الرصين، الأمر الذي لايدع مجالا لما اسميناه بالتنازل المبدئي او

الميوعة التنظيمية.

فماذا تعني المرونة اذن؟ انها تعني:

اولا - تكتيكا وتدرجا واقعيا يلحظ ضغوط الواقع ولكنه يستهدف تعميق التصور الاصيل، والوصول الى تطبيق الصورة التنظيمية المثلى.

ثانياً: قدرة النظام على استيعاب التحولات الزمانية والمكانية والتعقيدات الاجتماعية كلها، ووضع العلاج الواقع لها في اطار الاطروحة العامة للتنظيم.

وما اشرنا اليه من قبل هو المعنى الثاني، اما المعنى الاول فهو ما نحن بصدد الحديث عنه.

الثانية:

وهي منسجمة مع الحقيقة الاولى وملخصها هو: انه لايمكن تصور المرونة في العقيدة، فالمرونة نعني اتخاذ موقف مؤقت يتغير بتغير الحالة وذلك للمحافظة على الموقف العام.

والعقيدة - بما هي صفة نفسية - لاتتغير تحت ضغط الواقع، الذي يعلم الانسان بأنه منحرف والعقيدة بما هي الأساس والخط العام لايمكن التنازل عنها بل يجب ان تبقى الروح التي تميز كل التصرفات ومن هنا نجد ان القرآن يعرض علينا صورا لبعض المساومات العقائدية التي حاول فيها الطرف الكافر ان يجبر النبي(ص) على اعتناق بعض مبادئه ولو لبعض الوقت في مقابل مصلحة كبرى للدعوة الاسلامية نفسها، وفي مقابل ان يؤمن الطرف الآخر بالاسلام ايضا لفترة اخرى. الا ان الوحي يجابه اولئك بالموقف الحدي الصارم، الذي لاتنازل عنده باعتبار ان المصلحة لايمكنها ان تبرر هذا الموقف.

بسم اللـه الـرحمن الرحيم ـ «قل يا ايها الكافرون ❁ لا اعبد ما تعبدون ❁ ولا انتم عابـدون مـا اعبـد ❁ ولا انا عابد ما عبدتم ❁ ولا انتم عابدون ما اعبد ❁ لكم دينكم ولي دين».(٢٢)

وقـد وقف الاسـلام من مسألة الشرك هذا الموقف على طول الخط حتى انه حرم تشريعياً صناعة الاشياء المجسمة لان فيها ظلا من الفكرة الصنمية.

بعد هذا لنلاحظ بعض تطبيقات عنصر المرونة الاسلامية على النحو التالي:

أ ـ عنصر المرونة الاسلامية في التشريع.

ان هدف كل النظم ـ لاريب ـ يكمن في تحقيق السعادة للانسان.

وان مشكلة الانسـانية الاجتمـاعية الكبـرى، تكمن في معـرفة النظـام الاصلح الـذي يتكفل تحقيق تلك السعـادة، وان هذا النظام الاصلح، لن يستطيع ان يكون الاصلح، الا اذا وافق الواقع وقوانينه،

كل هـذا متفق عليـه في المبـادىء الـواقعية. ولكن يبـدأ الخـلاف بينهـا في تحديد نوعية هذا الواقع القائم اولاً واسلوب مطابقته وعلاج مضاعفاته ثانيا.

ولكي نقف تفصيليـا على كيفية التـوازن الـذي يوجـده الاسـلام بين انماط الاشبـاع الفطري من جهة والمتطلبات الواقعية للحد من تطلعات الغرائز من جهة اخـرى، فاننـا نحتـاج الى دراسة تفصيلية عن هـذه العملية ـ ولا اجد الآن مجالا للحديث عنهـا ـ ولكن يبقى ان نحاول اكتشاف سر امكانية خلود الاسلام وبقائه، في حين ان الكل يـدرك حصـول التطـورات الاجتمـاعية الهـائلة التي لايمكن انكارها.

فهل يمكن للاسـلام ان يستـوعب هـذه التطورات؟ او لايقيم لها وزنا فيفقد واقعيته التي آمنا بها اجمالا؟

الثابت والمتغير في حياة الانسان:

ـ الثابت:

انـا لو رجعنا الى وجداننا اولا، واستقرأنا التاريخ المشترك للبشرية ثانياً، آمنا بوجـود جانب ثـابت في الانسـان لا يمكن للانسـان ان يتخلص منـه وان امكن تحريف آثاره الى فترة من الزمن بواسطة الشبهات او الوضع الاجتماعي الفاسد او غير ذلك من العوامل لكنه يبقى في اعماق الانسان يلح عليه كلما رجع الى نفسه.

وكمثل على هـذا فـان حب الام لولدهـا غريزة يشهد به الوجدان ويشهد لها استقـراء التـاريخ والانسـان، فاذا ما رأينا امهات يحاولن قهر هذا الحب، عرفنا ان تلك الحالات استثنائية، سرعان ما تزول بزوال اسبابها، وتعود الام محبة والهة.

وهكـذا غريـزة الجنس، وغريـزة الغضب، وحب الكمـال، وغيـر ذلك وفوق ذلك حب الذات وما يتفرع منها من غرائز ـ فهي امور اصيلة لا يتبدل الاصل فيها، ومن هنا كانت بعض المبادىء خيالية حين انكرت بعض هذه الغرائز، في حين ان المـذهب الـواقعي هـو الذي يعترف بها ويدرك مدى خلق التوازن بينها ولا يركز على احـدهـا على حسـاب الاخـرى كمـا فعلت الـرأسمـالية وكمـا ادعى فرويد وغيرهما.

هذا جانب ثابت في حياة الانسان.

والجانب الثابت الآخر هـو ما يحيطه من قوانين وامور واقعية تتطلب اوضاعا ثابتة لكي تقوم بأداء دورها في حياة الانسان.

ـ المتغير:

ولكن لحيـاة الانسان جانبها المتغير ايضا، وهذا التغيير يشمل، التقدم العلمي،

والتعقد الاجتماعي، وتعاظم المسؤوليات الاجتماعية، مما ينشىء مشاكل جديدة لم تكن متوفرة في الجيل السابق.

والاسلام لاحظ هذين الجانبين ووضع لهما ما ضمن له خلوده وبقاءه.

فاما الجانب الثابت فقد وضع له نصوصاً محددة لامجال فيها للتخيير، فالخمر مثلا محرمة على ضوء اضرارها الواقعية التي تتنافى وسير الانسان السالم نحو السعادة.

ان قتل الانسان بلا سبب يرتبط بمصلحة الانسانية ككل، ولن يكون في يوم من الايام امراغير مهم فتتغير اهميته بتقدم الانسان والزمان، كلا، فانه سيظل جريمة دائما ويحتاج الى عقوبة ثابتة دائمة، في كل ظرف و آن.

وهذا مثال من الحياة الاقتصادية يذكره كتاب اقتصادنا فيقول: (فهناك في الحياة الاقتصادية علاقات الانسان بالطبيعة او الثروة التي تتمثل في اساليب انتاجه لها وسيطرته عليها. وعلاقات الانسان بأخيه الانسان، التي تنعكس في الحقوق والامتيازات التي يحصل عليها هذااو ذاك.

والاسلام - كما نتصوره - يميز بين هذين النوعين من العلاقات. فهو يرى ان علاقات الانسان بالطبيعة او الثروة تتطور عبر الزمن.. واما علاقات الانسان بأخيه، فهي ليست متطورة بطبيعتها.. ولاجل ذلك يرى الاسلام: ان الصورة التشريعية التي ينظم بها تلك العلاقات- وفقا لتصوراته عن العدالة - قابلة للبقاء والثبات من الناحية النظرية لانها تعالج مشاكل ثابتة. فالمبدأ التشريعي القائل مثلا: ان الحق الخاص من المصادر الطبيعية يقوم على اساس العمل ويعالج مشكلة عامة يستوي فيها عصر المحراث البسيط وعصر الآلة المعقدة. لأن طريقة توزيع المصادر الطبيعية على الافراد، مسألة قائمة في كلا العصرين.

.... ولكن هـذا لا يعني جـواز اهمال الجانب المتطور، وهو علاقات الانسان بـالطبيعة، واخـراج تأثيـر هذا الجانب من الحساب، فان تطور قدرة الانسان على الطبيعة ونمـو سيطرتـه على ثرواتهـا يطـور وينمي باستمـرار خطـر الانسان على الجمـاعة ويضع في خدمتـه باستمـرار امكانـات جديدة للتوسع ولتهديد الصورة المتبناة للعدالة الاجتماعية).[٢٣]

امـا الاخلاق فهي ايضا تمثل جانبا ثابتا لا معنى لتغيره بعنوانه ـ وان اختلفت المصاديق التي تتبع العرف احيانا ـ وعليه فقد جاءت النصوص الاخلاقية الثابتة، ووصف المؤمنون بأوصاف لا يمكننا ان ندعي انها يمكن ان تتغير.

فالمسلمـون هم الامة الخيـرة وهم المتعـاونـون في الخيـر، الشديدون على الكفـار، الـرحمـاء بينهم، الكـرام غيـر المهانين، المنفقـون، المتقـون، الصابرون، المـرابطـون، القـائمـون بـالقسط، غيـر الخـائنين، والسـاخرين، والظانين سوءاً، واللاهين... وغير ذلك.

كمـا انـه : يمكننـا ان نمثل للجانب الثابت بحق الانسـان في الطعام والمسكن والملبس والملك والجنس.

اما الحكومة ففيها جوانب:

منهـا جانب التنظيم الاداري ـ ومنهـا جانب تعيين الرأس الاعلى للحكومة، ومنها جانب تعيين الصلاحيات التي تملكها، والواجبات التي يجب ان تؤديها.

فـالجانب الثاني والثـالث امر قد فرغ الاسلام من تعيينه بحدوده الخاصة، ولا معنى للقـول بتغييـر ذلك بعـد ان كان النظام نظاماً يخطط للحياة كلها ويستوعب كل التطورات المختلفة، وكـان الحاكم المفترض انساناً منّزهاً يمثل اعلى درجات التسليم لله في تطبيق النظام وفق المصالح الواقعية.

اما الجانب الاول، فهو جانب متطور يتعقد بتعقد الدولة، ولذا فليس هناك اوامر محددة في هذا السبيل، بل هناك مقاييس عامة تقوم على ضوء المصلحة التي يراها الامام بعد ان تتوفر الشروط المعينة في الموظفين كالكفاءة مثلا.

فلندخل الآن الى الجوانب المتطورة في حياة الانسان لكي نجد علاج الاسلام لمثل هذه الجوانب.

ان التغير انما يطرأ في الصورة، اي في شكل اشباع الحاجات الاساسية، وفي نوعية القوى والسيطرة التي يمتلكها الانسان، وفي شكل التكوين الاجتماعي من التعقيد والبساطة، فالجوانب التنظيمية مثل: نظام المرور، ونظام التسعير، ونظام التجارة الداخلية والخارجية، ونظام التعليم، هي جوانب متطورة لا يمكن تحديدها بقوالب جامدة غير متغيرة.

وهكذا مسألة علاقات الانسان بالطبيعة فانها بلا ريب متغيرة في الغالب من حيث اختلاف نوعية الارض، وملائمة المنطقة لنوع من الانتاج، ومقدار الثروة المتوفرة على ضوء حاجات المجتمع.

وهذا الجانب المتغير، وضع الاسلام لتنظيمه وقواعد عامة يقوم الحاكم الشرعي بتطبيقها على ضوء المصالح التي يراها، وهو يشكل منطقة فراغ تعبر عن مرونة تشريعية عالية، ومن الطبيعي ان صلاحيات الحاكم الشرعي في الامر والنهي تدور في دائرة المباحات ـ او تعبرها في بعض الحالات الى دائرة الامورات الالزامية.

فان كان الحاكم الشرعي هنا هو الامام المعصوم(ع) فهو الادرى بالمصالح، وان كان الحاكم نائبا عنه(ع) فان الشريعة قد فتحت لهذا الحاكم باب الاجتهاد، بعد ان كان قد طوى مراحله الأولية الضرورية قبل صيرورته حاكما شرعيا،

وكـذلك اعطتـه قواعـد محددة يتم على ضوئها استنباط حكم الظرف المتجدد، وارجـاعـه الى اصولـه الاولى، وتطبيقهـا مع تصـورات الاسـلام عن العـدالة الاجتماعية ـ طبعاً مع التشاور في مختلف الامور.

هـذا بالاضافة الى دور فتح ابواب الاجتهاد في مجال معرفة نظريات الاسلام في الجانب الثابت من حياة الانسان ايضا.

واذا وصلنـا الى الحديث عن الاجتهـاد، ينفتح باب واسع لعوامل المرونة في الاسـلام، يشمل كون العقل مدركاً للملازمة بين احكامه واحكام الشرع، مما يفتح للعقل مجـالاً لـه حدوده في ادراك المصالح العامة، كما يشمل تلك القواعد العامة الكثيرة التي تهدي المجتهد في سبيل التعرف على الرأي الاسلامي في البين.

ويستـوعب ايضـا قبـول مـرحلة الحكم الظاهري والحكم الاضطراري ومما يجب ان نؤكد عليه ونكرره، ان كل ذلك يتم وفق قواعد قطعية، اما القواعد الظنية التي لم يقم على اعتبـارهـا دليل قطعي، فهي امـر من الطبيعي ان يرفضه الاسلام، لأنـه لايسمح للفكـر البشري القاصر ان يضيف من ذاتياته للاسلام، وهذا امر خطر جدا لايمكن ان يقبله المبدأ الواقعي.

ومن هنـــا رفض القيـاس والاستحسـان والمصـالح المـرسلة وغيـر ذلك في مـذهب اهل البيت(ع). وهـذا المعنى يثبت لنا ان المرونة الحقة في مجال التشريع العام لها اجلى الصور في مذهب اهل البيت(ع) حيث:

وفـرّ الائمة(ع) بـرواياتهم وسلـوكهم رصيدا ضخما له اثره الكبير في مواكبة الحـوادث المتجـددة واكتشـاف الـرأي الاسلامي فيها، وله اثره الكبير في علاج الحـالات الاستثنـائية، وتعيين الوظائف العملية، كل ذلك ضمن قواعد و ضوابط دقيقة.

ثم فتح باب الاجتهاد للفقهاء كي يستنبطوا الحكم الشرعي وغير ذلك من المؤهلات الكبرى التي تجعلهم مؤهلين لقيادة مسيرة الامة.

ماهو العامل المغير للمجتمع بالاصالة في نظر الاسلام؟

طرحت على الصعيد الفكري البشري نظريات كثيرة في مسألة التغيير والتطور الاجتماعي، فحاول البعض ان يفسر التطور الاجتماعي بالعالم الاقتصادي، واعطى الآلة صفة الاله المغير، في حين فسر البعض الآخر التطور بخصوص العوامل العرقية ونقاء الدم، ونسبته في الشعوب، او الغرائز الجنسية على العموم، او العوامل الجغرافية وغير ذلك.

ومهما تعددت هذه المذاهب فانها تتفق على ابعاد الانسان او بالاصح اعطائه دورا ثانويا في عملية التغيير.

لكن الاسلام ـ كمايبدو من نصوصه وروحه ـ يعطي الانسان دورا رئيسيا في عملية التغيير الاجتماعي والتطوير او التراجع بالحالة التي هو عليها ويجعل نقطة البدء في التغيير.

فالقرآن الكريم يقول: «ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».[(٢٤)]

ويقول: «ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».[(٢٥)]

ان الاسلام يقرر ان للانسان الدور الرئيسي في عملية التغيير، ولذا فقد حمله المسؤوليات الجسام، وركز عليه، الا انه لاينكر تأثيرات العوامل الغريزية والبيئوية في فكر الانسان فذلك امر وجداني لايمكن ان يتغاضى عنه الاسلام، ولذا نراه قد خطط تخطيطا واسعا التوفير الجو الصالح والمنع من التأثيرات المفرطة للغرائز،

وذلك مثل التحفظات التي وضعها لاجل ان لايتحول طغيان الجنس الى عامل مخرب للحضارة الانسانية وهذا ما نشهد آثاره في بعض المجتمعات اليوم.

ولكن لما كان المغير الاساسي هو الانسان، فقد عمل الاسلام على تربية هذا الانسان وتنمية الجانب الارادي والواعي فيه، اذ كلما قوى فيه هذان الجانبان، اشتد تركيز دوره في عملية التغيير.

ان القرآن يعتبر الانسان خليفة لله في ارضه، وانه المكلف باعمار الارض واستثمار خيراتها، لصالحه، وان نعم الله عليه لاتحصى ولاتعد، اللهم الا اذا كان الظلم ناشئا من كفر الانسان بنعم الله وظلمه في توزيعها.

«وآتاكم من كل ما سألتموه، وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها، ان الانسان لظلوم كفّار».(٢٦)

«الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا واحلوا قومهم دار البوار»(٢٧)

ب - عنصر المرونة الاسلامية في التطبيق والتبليغ

يمكننا ان نكتشف المرونة في التبليغ والدعوة اذا عرفنا ان القاعدة الاولى في العمل التبليغي تتضمن هذا العنصر بكل وضوح وتلك هي الآية الشريفة:

«ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة...»(٢٨) ولا يمكننا ان نفسر الحكمة الا باتخاذ اصوب موقف مناسب للظرف الذي يراد التبليغ فيه، بشرطين: احدهما ضمني، والآخر مذكور في الآية الكريمة، وهما: اتباع الطرق الشرعية وعدم الانحراف، واتقان ذلك الطريق بالموعظة الحسنة مهما أمكن.

ولذا يمكن القول بأنه ليس هنا اسلوب محدد لايمكن ان يحيد الانسان عنه في اطار ذينك الامرين في مجال العمل في سبيل الله ونشر الاسلام.

وقد اكد علم الاصول على ان فعل الرسول(ص) لايكتشف منه غير الاباحة

للعمل او الاستحباب على الاكثر ما لم تقم قرينة تجعله يدل على الوجوب. الا ان تلك السيــرة المبــاركة ـ مهما كانت دلالاتها ـ تبقى هي الهدى النير في كل حقل ومجال، ومن هنا فسوف نركز عليها في بحثنا هذا قبل اي شيء آخر.

مظاهر التدرج والمرونة في هذا السبيل:

ويمكن ان نعين اهم هذه المظاهر في النقاط التالية:

الف ـ التدرج في اعطاء الاحكام وتطبيقها.

ب ـ التدرج في توسيع رقعة الدعوة.

ج ـ التدرج في الموقف من اعداء الدعوة.

اما النقطة الاولى: فملخص القول فيها، ان الاسلام بمقتضى مرونته النابعة من واقعيته ادرك انه جاء دينا يقلب الحياة الجاهلية رأساً على عقب، ويغير تصورات النـاس واخلاقهم ويوجه كل سلوكاتهم التوجيه الاكمل، وكما ان الانسان مرتبط بعقيدته كذلك هو مرتبط بعادته السلوكية. بل يمكننا ان نؤكد ان ضعف المستوى العقائـدي عند امة يمكنه ان يتأثر بشكل قوي بالسلوك والعادات والاعراف العامة والخاصة. ومما يؤكد ذلك ان المجتمع الجاهلي استطاع التنازل عن عقيدته ولكنه لم يستطع التخلص تماما من عاداته وسننه القبلية. ومن هنا فان من الصعب جدا ان يحـاول مصلح تغييـر كل ذلك بقانـون واحد، كما فعلت بعض الدول اليوم حين ارادت ان تقتلع من المجتمع عادة اضرت به وفتكت بقواه، فأصدرت قانونا يحرم الخمر وجهّزت لتنفيذ القانون جيشا ضخما من الوسائل الرادعة ولكنها فشلت في نهاية الامر ، لعاملين:

الاول: انها لم تغير النفسية والشخصية.

الثاني: انها واجهت المجتمع المعتاد وارادت ان تقلع عادته بلحظة.

نعم، ادرك الاسلام هذا المعنى فاتخذ الاسلوب التربوي واستعمله في مجال اعطاء الاحكام السماوية، فكان يبدأ اولا بصياغة العقيدة الواضحة والشخصية المتعبدة ثم يهيء الارضية الاجتماعية لصدور الحكم، وهكذا يتدرج حتى يعطي الحكم النهائي في الموضوع. وها نحن نضرب مثلا في هذا المجال، والمثال الذي نختاره تحريم الربا، وقبل الدخول في عرض هذا المثال ينبغي التنبيه الى امرين:

الاول: ان النسخ في القرآن لايمكن ان يتصور قيامه الا على هذا الاساس.

الثاني: ان القرآن المكي غالبا ما كان يقوم بعامل تهيئة المراحل الاولى لعملية التدرج، فبالاضافة الى تركيزه العقائدي وتاكيده على خلق الشخصية المتعبدة كان يشير اشارات عابرة الى الاحكام التي يراد بعد ذلك ان يلتزم المجتمع بتفاصيلها.

وهذا ما يلاحظ في مثل الآيات التالية:

«ونفسٍ وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد افلح من زكاها * وقد خاب من دساها».(٢٩)

«قد افلح من تزكّى * وذكر اسم ربه فصلى»(٣٠) «يا ايها المدثر * قم فانذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر».(٣١)

فهي تركز على تهيئة النفسية التي تتطلب الصلاة وتتقبل ما يفرضه الاسلام عليها من احكام الزكاة، وهي مما يزكي النفس... ومن ثم تأتي الآيات المدنية غالباً لتبين تفصيلات للتشريع وعلى مستواها من التدريج، حتى تصل الى القالب النهائي المقصود من اول الامر.

وكمثال على ذلك تحريم الربا:

وقد ذكرت لهذا التحريم مراحل اربع وهي ـ وان لم نستطع اثبات تسلسلها الزمني مباشرة ـ متسلسلة منطقيا على الاقل مما يوحي بالتسلسل الزمني.

المرحلة الاولى: مرحلة الوعظ الاخلاقي، وبيان ان المرابي سوف لن يحظى بمرتبة رابية عند الله.

«وما آتيتم من ربا ليربوا في اموال الناس فلايربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون».(٣٢)

المرحلة الثانية ـ ايجاد ارضية التحريم بالحديث عن اليهود وصفاتهم الرذيلة التي منها «واخذهم الربا وقد نهوا عنه...).(٣٣)

وهذا يوجد حالة انتظار لعملية التحريم.

المرحلة الثالثة ـ تحريم الربا المضاعف.

«يا ايها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون».(٣٤)

المرحلة الرابعة ـ التحريم النهائي الشامل.

«يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لاتظلمون ولاتظلمون».(٣٥)

وهذا التدرج لم يقتصر على الربا فقط بل اتخذ اسلوباً عاماً في تطبيق الاحكام كما حصل في تحريم الخمر وتشريع الارث وتحويل القبلة ومعالجة قضية الرق وغيرها من الاحكام، اعرضنا عن بيانها تحاشياً من الاطالة.

النقطة الثانية من نقاط التدرج هي الترتيب في توسيع رقعة الدعوة:

وملخصه: ان الاسلام بلاريب كان هو الدين الذي بعث الى العالم جميعا،

وان هذا الهدف كان واضحا لدى الرسول الاكرم (ص) تماما.. بل ان الاسلام خاتم الاديان بمقتضى عالميته واستيعابه لكل الاجيال العرضية والطولية؛ وقد اكدت بعض الآيات الاولى للدعوة على هذا المعنى، كما في الآية الشريفة: «وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون * وماهو الا ذكر للعالمين».(٣٦)

الا انه لما كانت الدعوة تحاول الانطلاق من نقطة الصفر فقد كان التوسيع في نطاق المدعوين يتم وفق طاقات الدعوة، وعلى مراحل.

المرحلة الاولى ـ مرحلة الدعوة الفردية السرية:

يقول هيكل في كتابه حياة محمد(ص): «وكان المسلمون الاولون يستخفون لعلمهم بما تضمر قريض من عداوة لكل خارج على اوثانها، فكانوا اذا ارادوا الصلاة انطلقوا الى شعاب مكة وصلوا فيها، وظلوا على ذلك ثلاث سنوات ازداد الاسلام فيها انتشارا بين أهل مكة، ونزل على محمد(ص) من الوحي مازاد المسلمين ايماناً وتثبيتا وقد اقتصر في هذه المرحلة على دعوة الافراد فردا فرداً».

المرحلة الثانية ـ مرحلة انذار العشيرة علنا «وانذر عشيرتك الاقربين».(٣٧)

المرحلة الثالثة ـ مرحلة انذار مكة ومن حولها.

«وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر ام القرى ومن حولها...».(٣٨)

المرحلة الرابعة ـ مرحلة انذار العرب.

«..وتنذر به قوما لدا»(٣٩) «..لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك..».(٤٠)

المرحلة الخامسة ـ مرحلة انذار الناس جميعاً.

«قل يـا ايهـا الناس اني رسول الله اليكم جميعا..»[٤١] «وما أرسلناك الا رحمة للعاملين».[٤٢] وهنا بعث(ص) رسائله الى الملوك.

النقطة الثالثة: من نقاط التدرج، الموقف من اعداء الاسلام:

وهـو مورد آخر من موارد حكمة الاسلام واسلوبه المدرك للظروف، ونحن نوجـز الحديث فنصور الموقف في أساليبه التي قد تتغاير زمناً وقد يتعاصر بعضها وتختلف ظروفها.

١ ـ اسلوب الدعوة السرية:

اذ مع قـوة الطـرف المقابل المعـادي لايجـد الاسـلام بـداً من التخفي وعدم اطـلاع الآخرين على نـوعية سيـره وهكذا كان الامر، ودامت هذه المرحلة ثلاث سنوات كما مر.

٢ ـ اسلوب المجادلة العلنية:

فبعـد ان امـر النبي(ص) بـأن يعلن دعوتـه، كـان من الطبيعي ان يثور جدل عنيف وتبـدأ الحـزازات والعنـاد. ومن هنا فقد امر المسلمون ـ كتوجيه عام غير مخصوص بزمان ـ بأن يجادلوا بالتي هي احسن، ويدعو الى سبيل ربهم بالحكمة والمـوعظة الحسنة، ويـدفعـوا بـالتي هي احسن، فجاءت الآيات التالية: «ادع الى سبيل ربك بـالحكمة والمـوعظة الحسنة، وجـادلهم بـالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ظل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين».[٤٣]

«... ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم».[٤٤]

ونجد كتطبيق لذلك: النماذج التالية:

١ ـ «قل من يـرزقكم من السمـوات والارض؟ قل اللـه، وانـا أو أيـاكم لعلى هدى او في ضلال مبين».[٤٥]

فـالآية ـ اولا تحاول تحريك فطرة المخالفين وتنبيهها الى الرزاق، ثم تحاول التشكيك في مـوقفهم فيبـدو المؤمن وهو المعتقد بأحقية ما يعتقده مرددا فيقول للمخـالف: ان الامـر لايعدو ان يكون احد منا على الحق اما هو او مخالفه، وهذه الروح الموضوعية تساعد على دفع العناد.

٢ ـ قـال تعـالى: «قل انمـا اعظكم بواحـدة ان تقـومـوا للـه مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد».[٤٦]

وهذا الاسلوب هو اسلوب اعادة الجماهير الى وعيها. وتخليصها من العقل الجمعي المسيطر عليها بدعوتها الى التفرق والتفكير مثنى وفرادى.

٣ ـ «قل يـا اهل الكتـاب تعـالـوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».[٤٧]

«ولاتجـادلـوا أهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم، والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون».[٤٨]

ويـلاحظ فيهمـا التـاكيـد على نقـاط الالتقـاء قبل بيـان مـواطن الاختلاف. ويمكننـا ان نجـد في اسلـوب دعـوة الانبيـاء لقومهم ومجادلتهم لهم خير مرشد للمسلمين في مجـادلتهم، وهـذه هي احـدى فوائـد قصص القرآن وماكثر تلكم الفوائد.

ومن تلك الآيـات ما ورد في سورة الانعام، الآيات٧٥ـ٧٩، و الآيات٥١ـ٦٧ من سورة الانبياء، والآيات٤٣ـ٤٤ من سورة طه، وغيرها.

٣ - اسلوب الموقف السلبي:

وهذا الموقف يقوم على اسس واقعية اصيلة، سواء كان في مجال العقيدة او

العمل او العـواطف، ويشتد هذا الموقف صرامة في حالات عناد الطرف الآخر او عملـه على سلوك طرق المساومة او اثارته الماكرة للروابط العاطفية الى غير ذلك، وهـذه المقاطعة قد ادت دورا كبيرا في اعطاء المسلمين شخصية مستقلة، وشلّت تأثيـر الكفـار في إغـواء بعض الأفـراد واستغـلال الـروابط العاطفية في ذلك. اما المقـاطعة الفكرية فتركزهـا الآية الكريمة: «قل يا ايها الكافرون * لا اعبد ما تعبدون *... لكم دينكم ولي دين»[٤٩] فليس هنـالك اي نقطة التقـاء في العقيـدة ولامعنى للمسـاومة العقائدية. ولايعني الالتقاء الا تنازل الاسلام عن عقائده، واما المقاطعة العملية ـ اي عـدم الركـون والتعامل العملي مع الظالمين ـ فالآية القرآنية الاخرى تشير الى ذلك: «ولاتركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار...».[٥٠]

واخيـراً، فالمقـاطعة العـاطفية لأجل ان تبتني عـواطف المسلم على اسس عقائدية، جاءت الآية الكريمة:

«لاتجـد قومـا يؤمنـون باللـه واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانـوا آبـاءهم او ابنـاءهم او اخـوانهم او عشيرتهم...».[٥١] وتبقى دائـرة البحث تشمل اللـه والـرسـول والائمة(ع) وصـالح المـؤمنين، وقد استعمل الاسلام هذا الاسلـوب في المجـال الـداخلي ايضـا. واقصـد بـه انـه استعمله كعقاب لاولئك المسلمين المتقـاعسين عن واجبهم الاسـلامي كما في قضية الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهـاد، وامـر المسلمين بمقـاطعتهم وكانت المقـاطعة شـاملة حتى ضـاقت عليهم الارض بما رحبت ثم جاءهم العفو الالهي.

والمقـاطعة السلبية عنصـر مهم واسلـوب اصيل في مسـألة الامـر بالمعروف والنهي عن المنكر كما هو مبين في محله.

٤ - اسلوب الجهاد:

ونعني به المقابلة المسلحة من قبل المسلمين في مواجهة العدو. والذي نجده في هذا الاسلوب انه كان ممنوعا منعا باتا في الفترة التي مرت على المسلمين وهم في مكة، ولعل مبررات ذلك بعض الأمور التالية او مجموعها، وقداشار اليها الكتّاب المسلمون، وهي:

أ ـ ضعف الدعوة الاسلامية واحتمال القضاء عليها تماما لو تطور الامر الى مجابهة مسلحة.

ب ـ كون تلك الفترة فترة اعداد تربوي للقادة، وهي تتطلب جوا قد لايتوفر في حالات المجابهة بالسلاح. وعلاوة على هذا فان قريشا وان استعملت كل وسائلها في سبيل منعه(ص) من التبليغ الا انها فشلت في ذلك، فلم يكن طريق التبليغ مسدوداً تماما في وجه المسلمين.

ج ـ قوة نظام الثأر العشائري والذي يؤلب على المسلمين مختلف القبائل العربية.

د ـ ان المجابهة كانت تعني حدوث المعركة الدامية في كل بيت. ومن آثار ذلك قوة الاشاعات والتقولات التي تستغل الجانب العاطفي فتزعم للناس ان النبي(ص) جاء لضرب وحدة الناس وشق عصا الجماعة الواحدة. وهذا ما شهدناه قويا موثرا في بعض الساذجين، وشهدنا القرآن الكريم يعرض قصة «آل يس» هادفاً ـ فيما يهدف ـ السخرية من اولئك الذين يطلقون هذه الاشاعات ويعتبرون مجيء الانبياء موجبا للتشاؤم والتطير.

فكيف يكون الحال لو امر النبي اخا ليقتل اخاه؟ وماهو تأثير ذلك في النفوس والدعوة الاسلامية ضعيفة كل الضعف؟ ثم ان هذاالامر سيكون ذا وطأة ثقيلة لاتتحملها الا النفوس المشبعة بأفكار العقيدة والتي صيغت عواطفها على

اساسها.

هـ ـ ان المجابهة المسلحة ستحرك القبائل البعيدة ضد المسلمين، اذ ستخرج عن اطار كونها دعوة محلية وحركة داخلية فتحسس باقي القبائل بالخطر الذي يتهددها في المستقبل القريب فتمد يدها لمعارضي الاسلام كي يسهل لهم القضاء على نبتته الضعيفة، وقد رأينا ان تلك القبائل قد شكلت خطرا كبيرا بعد ذلك حينما احست بالخطر يحدق بها من قريب.

و ـ ان اتخاذ دور المظلوم المقهور المعتدى عليه من قبل زعماء قريش كان يدفع الكثيرين للدفاع عن الدعوة بدافع النخوة العربية التي تنتصر للمظلوم، فلم ننس بعد ان الكثير من هؤلاء المتحمسين لهذا الامر كانوا قد تجمعوا في تلك الفترة تقريبا لاجل تشكيل حلف يدافع عن المظلومين« حلف الفضول» وقد اشترك فيه النبي(ص) وكان يذكره بتبجيل فيما بعد.

ز ـ هذا بالاضافة الى ان الاسلام كان ينظر نظرة بعيدة فيتوقع لهؤلاء المعارضين ان يكونوا في المستقبل في طليعة حاملي الاسلام العالمي، وكذلك بالاضافة الى طبيعة الاسلام الخيرة التي تتجنب ايصال الاذى مهما امكن لعله لكل هذه الاسباب ولغيرها قد منعت المجابهة المسلحة في الفترة المكية قبل وفي فترة يسيرة بعد الهجرة. واذ اشتدت وطأة الكافرين امر الرسول(ص) بالهجرة.

ولكن الاسلام امر بالقتال حين احس بضرورته من جهة وبضعف المبررات التي منعت من جهة اخرى.

وكان اول لواء عقد لحمزة(رض) في رمضان الشهر السابع للهجرة ثم تتابعت السرايا، وكانت سرية عبدالله بن جحش في رجب الحرام، وهنا نزلت الآية الكريمة: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير...»[٥٢] ثم كانت

غزوة بدر وهكذا.

شبهة السيف:

وهي شبهة انطلقت اول ما انطلقت من المستشرقين - فيما نقدر - وكان الغرض منها تشويه سمعة الاسلام والانتقاص من قدراته الذاتية على التوسع، فادعى بأن الاسلام انما انتشر بالسيف وقد قام كتّاب اخذتهم الغيرة على الاسلام، ودافعوا عن ذلك قائلين: بأن حروب الاسلام كانت كلها حروبا دفاعية فلم يهاجم الاسلام احداً مطلقا، والحقيقة اننا لانستطيع المجازفة بذلك اولا ولانجد داعيا للقول به ثانيا.

ان من ينظر الى طبيعة الاسلام العقائدية والعالمية، والى اهداف الاسلام في قيادة العالم وايصاله الى الكمال، ثم ينظر الى ضراوة الكفار وتوسلهم بكل وسيلة للقضاء عليها، يجد ان من الطبيعي ان يحمل الاسلام السيف.

فلم يكن الاسلام دين افراد بل كان دين الانسانية. ولم يكن الاسلام مجموعة افكار بل كان فكرة عن الكون، ونظاما يقوم على اساس تلك الفكرة، لايقوم الا بتملك السيطرة على تطبيقه، والقضاء على من يقفون حجرة عثرة في ذلك، والدليل على ذلك واضح من استقراء تاريخ اي دعوة تملك هذه الطبيعة. وقد بيّنت الآيات القرآنية مبررات القتال:

«الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا».(٥٣) «قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر...»(٥٤) «وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله...»(٥٥)

ان الهدف هو تكوين البشرية المؤمنة، وان يكون الدين كله لله، باعتبار ان

اللـه تعالى خالق البشرية، علم ان الاسلام هو دواؤها، فالذي يقف حجر عثرة في سبيل كمال الانسانية ولا يرضى بالتسليم على الاقل للحكومة الاسلامية ويعمل على تقويض عملية انتشار الاسلام، مثل هذا الانسان يعتبر جرثومة سارية للانسانية جميعاً.

نعم، لايكره الاسلام على العقيدة الا في حدود الايمان بالله، ولكنه لن يدخر وسعاً في تعميم حكومته على الارض فلن تصلح الارض مع وجود مقاييس مختلفة واهداف متوزعة.

واذا تم هذا نقول: ان حمل السيف ضروري في بعض الاحيان ولكنه فرق بين يد تحمل السيف لتحرير الانسان من كل العبوديات المذلة له وتجعله عبدا لله فقط، ويد تحمله لاجل اذلاله واستغلال موارده وطاقاته.

على انه لايفوتنا هنا ان نشير الى ان امما كثيرة اسلمت بواسطة التبليغ والدعوة. كما لايفوتنا ان ننبه الى ان المسلمين الاوائل كلهم اسلموا بالدعوة، وانه حتى الاراضي التي فتحت عنوة بقيت مسلمة حتى بعد زوال الضغط الاسلامي عنها، وغير ذلك...

٥ - اسلوب الهجرة:

وهو ايضا احد الاساليب المهمة التي اتبعها المسلمون للحصول على مكاسب كبرى في تاريخهم الاول، وقد تمت الهجرة اولا على صعيد محدود، وان كانت الى بلد بعيد وهو الحبشة، ثم كانت على نطاق شامل الى يثرب؛ اما الهجرة الاولى الى الحبشة فقد حققت بعض الاهداف بنجاح، وذلك انها:

١ - انقذت بعض المسلمين من العذاب المر الشديد الذي كان قد يودي بحياتهم.

٢ ـ اكدت مظلومية المسلمين وجبروت قريش للعرب وغيرهم ممازاد في عطف الغير عليهم.

٣ ـ احدثت هزة كبرى في ذلك المحيط مما وجه الانظار نحو الدعوة الجديدة ومعرفة حقيقتها.

٤ ـ كان لتلك الهزة اثرها الكبير في اضعاف عزائم الاعداء امام ذلك الاصرار الهائل.

٥ ـ يمكن ان نعتبر الهجرة دورة تدريبية على التشبع بروح العقيدة وصياغة الحياة وفق اوامرها وتركيزها في النفس.

٦ ـ نقل اشعاعات الدعوة الاسلامية الى الخارج بأسلوب بسيط.

وكانت الهجرة الثانية الى يثرب، وهي الهجرة العامة والحدث التاريخي الكبير الذي احس الكل بقيمته المهمة، فابتدأ تاريخ المسلمين من الهجرة مشعراً بعظمتها.

ان هذه الهجرة كانت تمتلك النتائج السابقة بصورة اقوى واعمق. بالاضافة الى كون المدينة تمتلك آفاقاً ارحب يمكن للدعوة الاسلامية فيها ان تتنفس ويبدأ المجتمع الاسلامي اولى مراحله، بعد ان كادت قريش تخنقها بضغطها العنيف، وبعد ان مات نصيرا الاسلام العظيمان، ابو طالب وخديجة.

وهنا نود ان نشير الى ان البعض اعتبر الهجرة نوعا من الموقف السلبي، وهذاامر لانقبله بل هي ـ بالنظر الى طبيعتها ونتائجها ـ عمل ايجابي فعّال.

٦ - اسلوب المعاهدة والصلح:

وهو اسلوب آخر من اساليب الاسلام في تحديد موقفه من غير المسلمين عامة والاعداء منهم بصورة خاصة، وقد كان لهذادور مهم في حماية ظهر الدعوة

الاسلامية وفي بسط نفوذها والتمهيد لانتصارها النهائي. ولا يسعنا الحديث عن الفوائد المختصة بكل عهد.

٧ - الحرب الفكرية المضادة:

وهذا ما اضطلع بحمله القرآن الكريم الذي كان يضعف عزائم العدو بآياته المتدرجة ويحكي قصص الأمم التي تشابه الامة المعارضة وكيف وصلت الى الخسران وغير ذلك.

كانت هذه هي اهم الاساليب التي اتخذها الاسلام في مجال موقفه من اعداء الدعوة.

واخيرا، فان من الضروري ان نتعرض الى اهم فوائد نزول القرآن التدريجي، فان لها تأثيراً كبيراً على استكمال الصورة في هذا الموضوع.

الانزال التدريجي للقرآن وفوائده:

يمكننا ان نتصور لذلك فوائد كثيرة اهمها:

١ ـ تفادي الصدمة ـ وذلك لان العقائد كانت تعبث بها الصنمية والطبقية وغير ذلك، وتسود المجتمع الزعامات القبلية، وفي مثل هذا الجو يكون التعدي على فرد واحد موجدا لروح الثأر فكيف بنسف العقائد والزعامات مرة واحدة. ان ردود الفعل ستكون قوية جدا مما يتوقع معه القضاء على الدعوة الاسلامية وهكذا الامر بالنسبة لضرورة التدرج في اعطاء الاسلام.

٢ ـ تفهم القرآن بروحه ـ اذ ان فهم القرآن ليس امرا يسيرا كما انه غالبا ما يرتبط فهم الآية بالموقف النفسي، فالمحارب يشعر بقيمة الآية التي تطمئنه وجوها، غير ما يشعر به الجالس في بيته.

ان الفهم يحتاج الى فرصة كافية ليتعمق المسلم في معاني الآيات. وخصوصا اذا تنبهنا الى ان العملية تبدأ من الصفر.

يروي ابن مسعود: «كان الرجل منّا اذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

ومن علل التدرج التي يذكرها مجمع البيان قوله: «ويكونوا اقدر على التأمل والتفكّر فيه» ولذا كان من الضروري ان ينزل تدريجاً.

ان عجزهم عن الفهم ينتج شيئين:

اما الانبهار بالعظمة ـ والانسياق الاعمى وراءه. وهذا مالا يريده الاسلام، لأنه استهدف تربية المسلم الواعي الرصين العقيدة لكي يحق له ان يحمل العقيدة للارض. ولا يريد ان يتحول الى مذهب طوبائي ينفذ اتباعه ما يريده بلاوعي.

او التوقف والتملص من هذه العملية بكاملها. وبتعبير آخر، فان القطرة قطرة هي التي تؤثر تماماً والدفعة تغرق ـ كما يقولون ـ.

٣ ـ تركيز التربية في النفوس ـ فاننا لو لاحظنا الفروق بين المعجزة الاسلامية الخالدة «القرآن» وباقي المعاجز التي جرت على ايدي الانبياء عرفنا ان تلك المعاجز كانت تتصف بما يلي:

أ ـ المحدودية الزمانية والمكانية.

ب ـ انها تجعل الانسان احياناً امام امرين لاثالث لهما، اما الايمان واما العذاب والضلال التام، وهذا مما قد ينتج الايمان الاجمالي.

ج ـ الانفصال بين الرسالة والمعجزة التي توفر السند لها.

د ـ ان اكثرها بل كلها ترتبط بجانب الاعجاز المادي.

هـ ـ انها تعتبر خرقا للنواميس الطبيعية.

الى غير ذلك، في حين نجد القرآن على العكس من ذلك باعتبار انه:

أ ـ ليس اعجازه محدوداً بزمان ومكان خاصين مما يؤكد انه معجزة الرسالة الخالدة.

ب ـ انه يربي الايمان في النفس قطرة قطرة وبكل تأن وروية، وهذا امر تتطلبة عملية التربية الطويلة للاجيال.

ج ـ انه هو الرسالة وهو المعجزة في آن واحد.

د ـ ان اعجازه يرتبط بالجانب المعنوي.

هـ ـ انه يعتبر تكاملا اعجازياً للنواميس لا خرقا لها.

وعلى اي حال، فان اهم ما يميزه هو هذه الصفة التربوية الرائدة المربية للاجيال وهذه الصفة تستدعى ان ينزل القرآن بالتدريج ليصعد بالانسان من مرحلة الى اخرى.

يقول في مجمع البيان معللاً هذا التدريج بانه «ليكون امكن في قلوبهم».

٤ ـ لتركيز الاتصال الحسي المتواصل بالسماء ـ وهذا يلحظ من جوانب:

أ ـ ان هذا التدرج يعمق في نفوسهم عنصر انتظار السماء ورأيها في كل حادثة مما يطبع حياتهم بطابع الصياغة وفق اوامر الله. وهكذا تكون الآيات القرآنية اوامر سماوية يتلقاها المسلمون كما يتلقى الجنود الاوامر اليومية.

ب ـ خلق الصمود والعزة والامل في نفوس المسلمين باعتبار انهم يشعرون ـ حسياً ـ بأن جبار السماوات يسندهم وهو معهم يسدد خطواتهم، فينطلقون مجاهدين باذلين كل ما يملكون في سبيله، فنجد القرآن العظيم:

تارة يسلي النبي(ص) ويأمره بالصبر «فاصبر على ما يقولون»(٥٦) «فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل»(٥٧) وينهاه عن الحزن «ولا يحزنك قولهم»(٥٨)

ويذكره بأن الكافرين يعاندون الحق لمصالحهم «قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون»[٥٩] ويسدد خطواته فيقول: «عفا الله عنك لم اذنت لهم»[٦٠] ويخفف عنه: «طه * ما انزلنا عليك القرآن لتشقى»[٦١] واذ يشعر المسلمون بتسديد قائدهم من قبل السماء يحسون بالمدد وتزداد عزائمهم وكذلك عندما توجه اوامر القتال او آيات الاسناد الملائكي للمسلمين او آيات الرضوان عنهم، عندما يشعرون بذلك، فلابد ان نتوقع منهم كل التضحيات. ومن هنا يقول في مجمع البيان:

«اذا كان يأتيه الوحي متجددا في كل حادثة، وكل امر، كان ذلك اقوى لقلبه وازيد في بصيرته».

ج ـ ويمكن ان نلتفت الى جانب تأثير ذلك على المنافقين وخطط الاعداء الآخرين اذ تجعلهم جميعاً في حذر شديد من انكشاف مؤامراتهم الحاقدة مما يثبط عزائمهم بلا ريب.

٥ ـ ظهور وجه الاعجاز بصورة اكبر:

وذلك لان القرآن نزل خلال ٢٣ سنة متفرقا هنا وهناك، وفي حالات الحرب والسلم والامن والخوف والنصر والهزيمة والموقف الجاد والمواقف العاطفية وهكذا، وتناول مختلف الشؤون الانسانية، ومع كل هذا التفرق تلحظ الوحدة فيه كاملة «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا».[٦٢]

٦ ـ تركيز الاثنينية بين الله تعالى ـ موحي القرآن ـ وبين الموحى اليه وهو الرسول (ص) في نفوس المسلمين.

فهو تارة ينهاه عن العجلة بقراءة القرآن من قبل ان يقضى اليه وحيه، واخرى يتدثر فتأتيه سورة «المدثر» وتأتيه سورة «اقرأ» ثم يفتر الوحي ثلاث سنوات

ويأتي حديث الافك، ويضطرب الجميع، ويتأخر الوحي فينتظره الجميع حتى ينزل. وهكذا يشتاق النبي(ص) الى الكعبة ويقلب وجهه اشهرا عديدة ولا ينزل القرآن، ثم بعد ذلك تأتي الآية الكريمة: «قد نرى تقلب وجهك...»(٦٣) وهكذا تتابع المواقف التي يوصف فيها بالعبودية ويقف فيها موقف المتأدب امام الله.

وكل هذا يركز - كما يبدو -:

أ - الاثنينية التامة بينه وبين الباري جل وعلا تحرزا من دعوات الانحراف والخلط مما قد يؤدي الى انحرافات كبرى.

ب - دفع الشبهات التي قد تثار - كما اثيرت من قبل البعض، فأن الوحي كان حالة من حالاته(ص) ومن ابداعاته والعياذ بالله وعلى ضوء ما سبق، يمكننا ان نفهم بشكل اعمق مغزى الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث الشريفة التي تحدثت عن الموضوع.

يقول تعالى:

«وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا».(٦٤)

ويقول تعالى:

«وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا».(٦٥)

الخلاصة:

عرفنا مما سبق، ان التدرج في مختلف المواقف كان تعبيرا اصيلا عن مرونة الاسلام التي هي بالتالي تعبير عن واقعية الاسلام.

المظهر الثالث للواقعية ـ الاخلاقية

روح النظام الاسلامي وإطاره العالم

قبل كل شيء يجب ان نحدد ماذا نعني بالاخلاقية، ليتسنى لنا الحديث عن صلتها بروح الاسلام، وكيف تشكل الاطار الاسلامي لكل حكم وسلوك مفصل.

ان الاخلاقية تعني ـ باختصار ـ ذلك الانسجام الكامل بين الفكرة والحكم، وبالتالي بين النظام وهدف الخلقة الانسانية العام وما يقتضيه من قيم عملية ضرورية التحقق حتى يتم تأمين ذلك الهدف.

وهكذا يكون النظام اخلاقيا اذا كان يستمد غاياته من ذلك الهدف وتلك القيم المتفرعة منه، ويركّز ـ من حيث الطريقة ـ على الغور الى الاعماق النفسية وتجليه الدوافع الفطرية، وبناء الداخل الانساني وفقا لتلك الغايات.

ولن يكون اي نظام متمتعاً بهذه الصفة اذا كان يستمد غاياته من ظروف بعيدة عن الانسان وهدف خلقته.

هذا في مجال الغايات، والكلام نفسه يقال في السبل التي تسلكها النظم لتحقيق غاياتها.

وهذه الحقيقة تسوقنا الى الحديث عن الصلة بين الهدف والتركيبة الانسانية بشكل اكثر تفصيلا، ذلك اننا نؤمن على ضوء التأمل الوجداني الواعي في الانفس والآفاق، وعلى اساس من نظرة الاسلام الاصيلة للنفس الانسانية والنصوص الكريمة الناظرة الى هذا المجال، نؤمن (بنظرية الفطرة الانسانية الاصيلة) التي تحدد هوية الانسان وتفصله عن غيره، وعلى اساس من هذا

الترابط تقوم نظرية الفطرة، اما الدين فيعمل على جلاء الفطرة لتعود الى صفائها، ويوضح لها ما تجهله من الحقائق الهائلة، ويعبد لها الطريق نحو هدفها بعد توضيحه لها ورسمه امامها بكل جلاء.

ان الاخلاق تستقي ثباتها واسسها واضواءها من الفطرة، وكل ادعاء خلقي ينفي هذا الثبات في المعايير وهذا الرسوخ في الفطرة، انما هو ادعاء فارغ ودعاية للتصريف المحلي والتمويه على الآخرين.

وقبل الحديث عن اخلاقية النظام الاسلامي المقام في اي مجتمع، ينبغي الحديث عن الارضية التي يوجدها الاسلام في المجتمع ليكون مؤهلاً للتطبيق الاسلامي الجيد. ومثل هذا المجتمع لابد وان تتوفر فيه العناصر التالية:

الاول: العقيدة المتأصلة في النفوس والمتعدية من مجال الايمان المنطقي الى مجال توجيه الوجود الانساني كله.

الثاني: الرؤى والمفاهيم التي تستمد معالمها من العقيدة وتصب مباشرة في السلوك الانساني.

الثالث: العواطف المنسجمة كل الانسجام مع العقيدة والمفاهيم.

فاذا كان المجتمع المتهيىء لتطبيق الاطروحة الاسلامية بهذا النحو، فان ذلك يعني ان الترابط الاخلاقي - بالمعنى الذي طرحناه - يسود كل الحياة الفردية والاجتماعية ويشكل روحها واطارها بلاريب. ويتأكد هذا المعنى عندما نؤمن بحقيقة الترابط التام بين كل اجزاء الاطروحة، فان هذا الترابط يعني ان اي بلورة لاى جانب يتم على ضوء المسيرة المجموعية نحو الهدف الكبير تماما: كما نعتقد بأن اي حركة في هذا الكون الرحيب تترك اثرها على كل المجموعة الكونية الهائلة من خلال هذا الترابط التكويني المشهود والمبرهن. وهذا الترابط

الهادف بين اجزاء الاطروحة وهذا الانسجام بينها وبين الهدف هو الذي اهل الاسلام ليكون دين الفطرة والقيم على كل الحياة.

بعد هذه الحقائق نجد انه ليس من الضروري ان نستعرض مفردات النظام الاسلامي كلها حتى نكتشف مظاهر هذه الروح الاخلاقية فيها، فيكفي ان نلقي نظرة على بعض العينات لنطمئن اليها.

وكمثال على ذلك نقول: اننا نلاحظ تركيز الاسلام القوي على نظامين رئيسين قبل غيرهما معبرا بذلك عن اتجاهه الاخلاقي هذا، وهما: نظام العبادات، والنظام الاخلاقي والتربوي، معتبرا اياهما اساس الحياة الاسلامية وقوامها.

فالصلاة ـ كما تصفها النصوص ـ عمود الدين، ان قبلت قبل ماسواها، وان ردت رد ماسواها. ومكارم الاخلاق وتركيزها في المجتمع تبلغ من القيمة حدا يجعلها هدف البعثة النبوية الشريفة بل يصل الامر الى طرح هذه المعادلة (الدين = الاخلاق).

واذا طالعنا بعض اهداف نظام العبادات وجدناه نظام التربية الخلقية بعينه فهو يستهدف ـ من جملة ما يستهدف ـ اشباع الحاجة الفردية والحضارية الانسانية الى الارتباط بالوجود المطلق بأفضل وجه، والحاجة الحضارية الى الاحساس الذاتي بالمسؤولية الآنية والتاريخية كضمان للتنفيذ، وبالتالي فهو يستهدف اشباع حاجة الانسان الدائمة للتذكير بالحقيقة وانقاذه من مرض الخمول في الطاقة الايمانية، والتقاعس عن الفاعلية الحضارية نتيجة نمط من انماط التخلف (العقلي، النظامي: الفردي و...).

وحتى العبادات المالية نجدها تسير على هذا المنوال اروع سير، اذ انها تستهدف الكمال الانساني كغاية لامحيد عنها فدافع الزكاة لن يقبل منه عمله الا

اذا قصــد التقـرب الى اللـه، والجابي لها يرغب في الدعاء للدافع «خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم...»[٦٦].

ان الشمـولية في العبـادة تعطينـا معنى الشمولية الاخلاقية في الاسلام وتركز في ذهن الانسـان ان يعيش لله دائماً: «قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لاشريك له»[٦٧] (وفي رواية: من وصايا رسول الله (ص) لابي ذر، يا أبا ذر، ان استطعت ان لاتأكل ولاتشرب الا لله فافعل).

ان النظـام الاخـلاقي في الاسـلام يتحلى بالصفة الواقعية، بعيدا عن التطرف الـذهني والخيـال المتصوف، والرياضات الباطلة، ويعلن قبوله بمبدأ حب الذات (النفس) اولا ويستجيب لكثير من متطلباتها واهمها (الحرية)، الا انه يضع مخططا تربويا دقيقا نلخصه بالخطوات التالية ولايشترط فيها ان تأتي بالترتيب:

اولا: يبـدأ قبل كل شيء بتعيين مركز الانسان من الكون. فقد خلقه الله تعالى لان يعمـر الارض من خـلال ممارسة حياة اجتماعية طويلة، ووضع له تشريعا في سبيل ذلك.

ثانياً: وعلى ضوء الخطوة الاولى ينمّي في المسلم حب الله تعالى حتى يصل الى الحد الذي يضحي بذاته في سبيله تعالى.

ثالثا: ثم يربط بين التقرب الى الله والحياة الاجتماعية، ليكون سبيل الله يعني سبيل العمل لصالح الرسالة، وتحقيق رضا الله في الارض ونشر تعاليمه بين الناس، وفي خـدمة المـؤمنين ورفع ادوائهم ونقـائصهم، واشـاعة الاخـلاق الحسنة، بالاضافة الى التكامل الفردي:

«من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له...»[٦٨]

«ولاتقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات، بل احياء ولكن لاتشعرون»[٦٩]

«ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، اولئك يرجون رحمة الله...»(٧٠)

وهكذا يرتبط سبيل الله بخدمة المجتمع خدمة يأذن بها الله ويراها لصالحه.

رابعاً: وعلى ضوء الخطوة الثالثة، يبدأ الاسلام بتربية اخلاقية طويلة المدى، من خلال نظم عديدة (كنظام العبادات، والنظام التربوي والاخلاقي، ونظام الاسرة، وغيرها) كلها تؤكد تنمية الحس الاجتماعي فيه، وتعمل على تربية الوجدان والضمير الاخلاقي في الانسان، وتركز على ان يرتبط بعلاقات مودة كبرى مع مجتمعه المؤمن خاصة، ومع مجتمعه الانساني عامة.

خامساً: وبعد هذا يعمل على ان يذكر الانسان بالثغرات التي تنفذ عبرها غريزة حب الذات فتنمي نفسها وتطغى، وكمثل ذلك: نلاحظ موقف الاسلام من كل من عنصري الغفلة والتكبر، وهما منفذان كبيران للذاتية.

سادساً: ومع كل هذا يأتي دور اصيل يشكل نقطة الحل الرئيسة، وهو الدور الذي يجعل المسألة الفردية والمسألة الاجتماعية امراً واحدا، وذلك بتركيز الاعتقاد بالآخرة، واعطاء صورة واضحة عنها. وحينذاك، فالذات الانسانية واحدة في كلا الحالين، وعندها يكون التنازل البسيط المؤقت في هذه الحياة القصيرة عن اللذات لصالح المجتمع الذي يحبه، ولصالح رقي الانسانية وهو عضو منها، موجباً لاشباع النفس والتذات عينها بأسمى أنواع الاشباع بدخولها جنة الخلد والرضا، وخلاصها من عذاب الخلد في النيران.

وقد كانت الآيات الشريفة دقيقة غاية الدقّة عندما ضربت على وتر اشباع الذات اشباعاً خالداً في قوله تعالى: «... وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين، وأنتم فيها خالدون».(٧١)

«وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله...»(٧٢)

وهكذا يتحول العمل الصالح لصالح المجتمع ولصالح النفس في الوقت نفسه. ويكون المتاع الدنيوي المنحرف ظلماً وبغياً على النفس:

«... يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا...»(٧٣)

فالنفس تباع في الدين لله وللرسول وللمؤمنين ليعوض عنها بالجنة:

«ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة...»(٧٤)

وما اكثر الايات والاحاديث الواردة في هذا المعنى، وكلها تنتج هذا الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية المستعصية. فلايبقى ـ والحال هذه ـ الا طريق الاسلام المتوازن تماماً فحسب.

وعندما نرد النظم الاسلامية الاخرى نجد الجانب الاخلاقي متجلياً فيها بمستوى اساس:

فالنظام الاقتصادي الاسلامي يجسد الصفتين الآنفتين: (الاخلاقية والواقعية) تمام التجسيد في غاياته وفي وسائله.

انه لايضمن العامل لانه اداة انتاج اذا اصيبت اصيب الانتاج نفسه، وانما يضمنه لانه انسان قدر ان يعمل ام لا.

وانه عندما يريد تقسيم الربح لايجعل الانسان الى جانب الحجر وانمايعتبر ادوات الانتاج خادمة للانسان. وانه عندما يضع خطته التنظيمية يجعل (العدالة الاجتماعية) احد اكبر الاهداف الاقتصادية للفرد والدولة ويعمل على تحقيق التوازن في مستوى المعيشة بين الافراد، دونما توجيه اية ضربة للدوافع الذاتية، لتؤدي دورها الاقتصادي المطلوب.

والنظام الحقوقي في الاسلام يسعى ليستلهم الحقوق الفطرية الانسانية

ويعكسهـا على الصعيـد التشريعي معادلا بين الحقوق والواجبات «.... ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف...».(٧٥)

والنظـام الجنـائي ايضـا يمتاز بهذه الصفة الاخلاقية التي تميزه تماماً عن باقي النظم الاخرى.

ان الاسـلام ينظـر لكل مـا يخـالف التكـامل الروحي للانسان باعتباره جريمة يعـاقب عليهـا عقابـا دنيويـا كـالحنث بـاليمين والخيانة: او يوكل امر العقاب الى الآخـرة كما في الغيبة والنميمة والحسد والحقد، وعدم رد السلام والتكبر وامثال ذلك، بالاضافة الى امكان تصور التعزير الدنيوي على هذه المعاصي.

هـذا بالاضـافة الى اعتبـاره الجرائم التي تمس المسيرة الاجتماعية الصحيحة جـرائم اخـلاقية حتى في حـالة عـدم التضـرر الاجتمـاعي بها ـ ظاهراً ـ كما في مسائل شرب الخمر، والاستمناء وامثالهما.

هـذا في حين تعجـز القـوانين الـوضعية عن علاج هذه الامراض الاخلاقية لانهـا لاتقع تحت سلطتهـا بل ربمـا لأنهـا لاتأبـه بهـا. وكثيرا ما تقع هذه القوانين فريسة الضعف البشري والذوق العام، وهي غالبا ما تخدم الطبقات الحاكمة فتبشر باخلاقها، وهو ما وجدناه من التدني الاخلاقي في المجتمعات الوضعية القائمة.

ولانرانا بعد هذا بحاجة لاستعراض باقي النظم الاسلامية كالنظام الاجتماعي المعتمـد على اسـاس (الوحدة العائلية المتوازنة). والنظام التعاملي وغيرهما فان في ما ذكر الكفاية كما نعتقد.

من كل مـا مـر وكـذلك من مـراجعة مجمل الاسس والمظاهـر الاخلاقية في الاسلام نستنتج الظواهر التالية:

اولاً: ان الاخلاقية الاسلامية تشمل الحياة كلها، والانسان المسلم المثالي هو

الاخلاقي المثالي في كل وجوده وسلوكه.

ثانياً: ان الاخلاقية الاسلامية ليست اخلاقية انعزالية عن الحياة والملذات، وانما هي اخلاقية الانهماك في العمل الاجتماعي بروح زاكية مع امتلاك ملكة (الزهد) والقدرة على التحرر من الاسر المادي الوضيع اذا تطلب الموقف ذلك.

ثالثاً: ان معاييرنا الاخلاقية مستمدة من عقيدتنا، وحينئذٍ مهما امتدت العقيدة امتدت هذه المعايير، فلا تتأثر بالابعاد الجسمية، ولا العرقية، ولا المادية، وما الى ذلك، وهي بالتالي تصلح لأن تكون معايير انسانية كاملة.

رابعاً: ان الاخلاقية الاسلامية ليست سطحية عارضة، وانما هي تتعامل مع الفطرة وتستمد منها مسوغاتها وتعمل على تجليتها واسراء مفعولها الى ظاهر السلوك.

خامساً: ان اخلاقيتنا ليست منافية للتغير المادي والرفاه البدني بل هي متلاحمة معه لصنع اهداف معنوية سامية.

سادساً: ان اخلاقيتنا لاتتعامل مع الخيال المفرط وليست طوبائية النظرة، وانما هي واقعية قائمة على اساس من علم الهي بالواقع الانساني والواقع الكوني والعلاقة بينهما، وتقدير دقيق لهدف الخلقة الانسانية. ولذا فهي تتجنب اي تخدير كاذب وتسعى للرقي المعنوي الحقيقي.

سابعاً: ان الاخلاقية الاسلامية لم تطرح اهدافا ومبادىء عليا تاركة اياها دونما تفصيل لها ولكيفية تحقيقها، وانما هي اذ تطرح مفهوم العدالة مثلا تعطي التخطيط الكامل لها وللاساليب العملية التي يتم تحقيقها بها، وعندما تطرح فكرة تزكية النفس تعطي البرنامج العملي الدقيق الذي يحققها لئلا ينحرف السبيل بالانسان عن الهدف الاسمى.

ثامناً: ان اخلاقيتنا ليست اخلاقية مصلحية، اي ترعى مصالح الذات الضيقة، وانما هي اخلاقية انسانية ترمق الهدف العام كله وتحاول. ان تنسق كل اجزاء المسيرة مع هذا الهدف.

تاسعاً: ان اخلاقيتنا اخلاقية متوازنة، فلا هي بالتي تفني الفرد تحت عجلات المصلحة الاجتماعية العليا، ولاهي بالتي تسمح للفرد ان يسحق المصالح الاجتماعية، وانما هي تحاول ايجاد توفيق، وربما اوجدت تلاحما بين المصلحتين فلايحس الفرد العامل لذاته انه منفصل عن العمل لمجتمعه.

عاشراً: وبالتالي فان الاخلاقية الاسلامية ليست مقطعية تنطفىء عندما تصل الى حد معين، وانما هي برنامج تكامل انساني لاينقطع لأنه يسير الى الله تعالى، وهو جل وعلا الكمال الذي يتسامى فوق كل عروج.

هذه هي بعض ملامح الحياة المعنوية في الاسلام.

نفي الشبهات حول الواقعية الاسلامية.

اشرنا في مطاوي البحوث الماضية الى ما يدفع بعض الشبهات المطروحة، ونريد ان نضيف الى ما سبق ـ ان العناصر المعادية للاسلام تسعى ـ بشكل طبيعي ـ لتحويل عناصر القوة فيه الى عناصر ضعف وتشكيك، الأمر الذي يحقق لها مأربها في ضعف الوازع الديني لدى المسلمين الا ان الشبهات مهما كانت مزوقة لن تصمد بوجه الحقيقة الناصعة.

فمن الشبهات التي اثيرت هنا ما يلي:

اولا: ان الاسلام بتقريره نظاما شاملا لمختلف جوانب الحياة وتاكيده على

ضـرورة تطبيقـه في كل العصـور يـؤدي بالانسان الى الجمود وعدم التطوير فهو اذن يقيد حركة التطور الانساني.

ثانيـا: ان الاسـلام اذ يعتـرف بالـواقع يستسلم له ولا يعمل على تطويره نحو الافضل.

ثالثـا: ان الاسـلام من خـلال مرونتـه اقـر بنوع من الميوعة النظامية وهو امر لاينسجم مع طبيعة النظام التي يجب ان تقف احياناً بكل صلابة امام الانحراف.

والحقيقة هي مـا اشرنـا اليـه من قبل من ان الانسـان يمتلك جـوانب ثابتة في حياته لاتتغير باختلاف الظروف كما يمتلك علاقات تتأثر بالظروف المختلفة.

فانسـانية الانسـان وفطرتـه، وعـلاقة الانسـان بخـالقـه، والاخـلاق الانسانية والعـلاقـات التكوينية مع الموجـودات الاخرى، واصول العلاقات الاجتماعية، كالعـلاقة العائلية، ونشر مبدأ العدالة والتعاون والرحمة وامثال ذلك، هي امور في اصولهـا ثابتة لاتتغير الا بتغير الانسان نفسه الى موجود آخر، ولذا فان النظم التي تتعامل مع هذه الجوانب يجب ان تكون ثابتة في حين تكون النظم التي تتعامل مع العـلاقـات المتغيـرة نظمـاً مرنة تستـوعب مختلف الظروف دون ان تفقد اسسها النظامية.

وعليـه فـلا معنى لوصف النظام الذي يلحظ الواقع ويخطط له بدقة بالجمود اوالميـوعة او التسليم للـواقع كيف ونحن نجـد الاسـلام يحـرك في الانسان كل عناصر التطوير والتغيير في الجوانب القابلة له.

انـه يحـرك وينظم ويـدفع قواه العقلية للسير في الارض واستكناه المجهول، والتفـوق على مصـاعب الطبيعة وشكر النعم الالهية باكتشافها والاستفادة الافضل منها واعمار الارض، وعدم اهدار القوى الطبيعية وعدم التبذير او الاسراف فيها،

فاذا تخلف عن ذلك عاد ظلوما كفارا.

والتاريخ نفسه يشهد لهذه الامة انها طورت الحضارة الى اسمى مراتبها ولكنها فقدت دورها الحضاري عندما فقدت التزامها بالاسلام واصوله.

وختاماً:

فاننا نود ان نشير الى مسألة هامة وهي ان المذاهب الاسلامية لاتختلف مطلقا حول خصائص الاسلام العامة وان اختلفت اجتهادا في بعض التفاصيل، فلتكن هذه الخصائص احدى النقاط التى نتجمع حولها وننسق اعلامنا في مجالها ونجمع الامة حولها، وصولاً الى اهدافنا المرجوة في وحدة اسلامية شاملة.

الهوامش :

١ - يوسف /١٠٨
٢ - القمر /٤٩
٣ - الرحمن /٥
٤ - النحل /٤٠
٥ - يس /٤٠
٦ - الاحزاب /٦٢
٧ - الشمس /٧-١٠
٨ - الحجر /٤٩-٥٠
٩ - يراجع مثلا كتاب (الخصال) للشيخ الصدوق
١٠ - ابراهيم /٣٣-٣٤
١١ - الحج /٣٧
١٢ - لقمان /١٤
١٣ - سفينة البحار / مادة الشكر
١٤ - وسائل الشيعة / ج١١، ص١٧
١٥ - نفس المصدر / ج١١، ص ١٧
١٦ - القصص /٧٧
١٧ - الاعراف /٩٦
١٨ - القصص /٥٩
١٩ - نوح /١٠-١٢
٢٠ - هود /٥٢
٢١ - ابراهيم /٧
٢٢ - سورة الكافرون
٢٣ - اقتصادنا / ص(٦٣٨-٦٤٠)
٢٤ - الرعد /١١
٢٥ - الانفال /٥٣
٢٦ - ابراهيم /٣٤
٢٧ - ابراهيم /٢٨
٢٨ - النحل /١٢٥
٢٩ - الشمس /٨
٣٠ - الاعلى /١٤-١٥
٣١ - المدثر /١-٥
٣٢ - الروم /٣٩
٣٣ - النساء /١٦١
٣٤ - آل عمران /١٣٠
٣٥ - البقرة /٢٧٨-٢٧٩
٣٦ - القلم /٥١-٥٢
٣٧ - الشعراء /٢١٤
٣٨ - الانعام /٩٢
٣٩ - مريم /٩٧
٤٠ - القصص /٤٦
٤١ - الاعراف /١٥٨
٤٢ - الانبياء /١٠٧
٤٣ - النحل /١٢٥
٤٤ - فصلت /٣٤
٤٥ - سبأ /٢٤
٤٦ - سبأ /٤٦
٤٧ - سورة الكافرون
٤٨ - هو /١١٣
٤٩ - البقرة /٢١٧
٥٠ - النسا /٧٦
٥١ - التوبة /٢٩
٥٢ - البقرة /١٩٣
٥٣ - طه /١٣٠
٥٤ - الاحقاف /٣٥
٥٥ - يونس /٦٥
٥٦ - الانعام /٣٣
٥٧ - التوبة /٤٣
٥٨ - طه /١-٢
٥٩ - النساء /٨٢
٦٠ - البقرة /١٤٤
٦١ - الاسراء /١٠٦
٦٢ - الفرقان /٣٢
٦٣ - التوبة /١٠٣
٦٤ - الانعام /١٦٢
٦٥ - البقرة /٢٤٥
٦٦ - البقرة /١٥٤
٦٧ - البقرة /٢١٨
٦٨ - الزخرف /٧١
٦٩ - البقرة /١١٠
٧٠ - يونس /٢٣
٧١ - التوبة /١١١
٧٢ - البقرة /٢٢٨
٧٣ - آل عمران /٦٤
٧٤ - العنكبوت /٤٦
٧٥ - المجادلة /٢٢

الواقعية والوحدة الإسلامية

(الفكر والتطبيق)

✍ خميس بن راشد بن سعيد العدوي
سلطنة عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمـد لله رب العالمين، الحمد لله الواحد الاحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولـد، ولم يكن لـه كفوا احد، والصلاة والسلام على النبي الاكرم، الذي جاء برسـالة التوحيـد الى امته، وعلى صحبه الكرام، وآله الاطهار ومن تبعهم بإحسان الى يوم يقوم الناس.

اشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له، واشهد ان محمدا عبده و رسوله.

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته، وبعد...

فـواقع المسلمين اليـوم نـزل الى الـدرك الأسفل من التمزق والتشرذم، وحل محل التسـامح، وتقطعت الاواصـر، فلم تعـد هنـاك وشـائج تربط بين طـوائف المسلمين وشعوبهم، بل اصبح غاية احـدهم ان يلتقط الخـلاف من هنـا و هنـاك ليبثـه عبـر وسائل الاعلام المتاحة وما اكثرها في هذا الزمن، لتتقد نار الفتنة ويهيج

اوارهـا وتضطـرم نارهـا واللـه تعالى يقول:(والفتنة اشد من القتل)[١] ويقول جل ثنـاؤه: (والفتنة اكبر من القتل)[٢] وقد تنزل القارعة بطائفة من المسلمين فيفرح بها بنـو جلدتهم في حين تبكي عـدوهم، ويشمت بهم اخـوانهم ويغيثهم اعداؤهم، وهـذا من بـلاء الزمـان وذهاب الريح والرضا بالقليل، لم نعد امة وسطا كما ارادها اللـه تعـالى (وكـذلك جعلنـاكم امة وسطـا لتكونـوا شهـداء على النـاس ويكون الرسول عليكم شهيدا).[٣]

وللحق هـذا الامـر لم يكن وليـد الساعة، ولا كله نتيجة المؤامرات الخارجية، فهـذا الواقع الذي وصلنا اليه[٤] ضارب في القدم، متشعب في المراجع، واصله ـ ولاريب ـ الفتنة التي حدثت بين المسلمين في الصـدر الاول بعـد العهـد النبوي والـراشـدي، وليس لنا ان نحاكم التأريخ فالاحكام التي ستصدر فيه لن تطبق عليه بل سيكتـوي بنـار شدتهـا واقعنـا المريـر، وسيـزداد الامـر سـوءاً والرمضاء لهيباً والعطش سعـاراً، وانمـا علينـا ان نطـوي تلك الصفحـات المـؤلمة ونقيل عثرتنا بالاخـــذ من علمهم واقـــوالهم وآرائهم التي تخـــدم الـدين في عقيدتـه وفكـره وشريعته.

لقد نزلنا من جراء هذه الفتنة من الحركة الفاعلة للاسلام بقرآنه العظيم وسنّته المطهّـرة الى الجـدل والنقاش الحاد والردود المتكررة التي لاتغني ولا تسمن من

---

(١) البقرة ١٩١.

(٢) البقرة ٢١٧.

(٣) البقرة ١٤٣.

(٤) هـذا ماهو طافٍ على السطح، ولا يتنافى مع الدعوات الموجودة الى الوحدة الاسلامية، فهي اصبحت من القلة بحيث لاتكـادتـرى، وانـا آسف على هـذا المـدخل الذي قد يجعلني في عداد المتشـائمين، فتصرفات المسلمين الحاضرة تزرع عدم التفاؤل في القلوب، ومع هذا فستجد في ثنايا البحث ما يعالج الموضوع، وستجد مايدعو الى التفاؤل ايضا ان شاء الله.

جوع، بل هي سراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجد عنده شيئا.

واصبح الفكر الاسلامي يتململ طيلة قرون عديدة ـ ما عدا مواقف محدودة زمانا ومكانا جديرة بالفخر والاستفادة منها ـ يبحث عن حل لازمته هذه، حتى جاء عصر الصحوة الاسلامية وبدأت مراجعة ما كتب على جميع المستويات، وخرج لنا علماء افذاذ ومفكرون اقطاب بكتابات مستنيرة وآراء سديدة وتشخيص للقضايا دقيق وحلول ناجعة لامراض الامة، وما جاء به هؤلاء وان كان جديدا في ثوبه مبتكرا في عرضه، الا انه قديم في تأصيله، فهو منطق القرآن الكريم منذ نزل به الامين جبريل عليه السلام على قلب الامين محمد عليه الصلاة والسلام، وهو التطبيق العملي الذي سار عليه الرسول(ص) وصحابته الكرام.

فخصائص الاسلام موجودة فيه منذ هبوط الوحي على رسول الله(ص) بل هي اقدم من ذلك، فهي موجودة كخصائص في شرائع الانبياء السابقين وان كانت غير مكتملة لعدم اكتمال شرائعهم.

وما قام به هؤلاء العلماء والمفكرون هو صياغته في قوالب علمية وقوانين واقعية واكتشاف جديد لهذه الخصائص.

اثر هذا الكشف في واقع الصحوة الاسلامية واعطاها دفعة نشاطة نحو الأمام، وكادت ان تؤدي الصحوة اطيب ثمراتها وتكسي المسلمين ازهى حللها وهي الوحدة او الجامعة الاسلامية، لو لا انها وئدت قبل ذلك من قبل مثيري الفتنة ومن يحب ركود المسلمين ويقدم هدايا مجانية لاعداء دين الله تعالى على حساب دينه واخوانه وبني جلدته، فانا لله وانا اليه راجعون.

فاليكم اتوجه ايها العلماء والمفكرون، واحملكم تبعة الامة وصلاح امرها، وعليكم انتم تقع المسؤولية في بناء الامة واستثمار قوتها الشبابية في الاصلاح

والبنـاء والعمـران الاسـلامي، وبوحـدة كلمتكم وقوة صفكم وصلابة رأيكم في الحق وتسامحكم فيما بينكم تفوّتون الفرصة على اعداء الداخل والخارج.

ليس مثلي من يقـول لكم هـذا الكلام، فأين الثراء من الثريا؟ واين الضريح من الضـراح؟ ولكنهـا خلجـات نفس تحب الخيـر لهـذه الامة وتـود ان ترى الامة امة واحـدة، وكلمتهـا على عدوهـا ظاهرة، تصنع العالم وتقوده، وتضخ فيه الاخلاق العظيمة، اخلاق الاسلام والرسالة (وانك لعلى خلق عظيم).[١]

وعندما رشحت لهذه المهمة من قبل مؤسستي كنت متهيبا الامر، فهذاامر قد تصـدى له عباقرة الامة وافذاذها، ولكن ما شرح صدري للموافقة على الكتابة، هو ـ اولا ـ محبتي للـوحـدة الاسـلامية، وثانيـا رغبتي في التعلم من اعـلام اجلاء وعلماء فضلاء وعاملين نبهاء، فالحمد لله اولا وآخرا.

فرجـائي ان كـان هنـاك مـا ينبغي التنبيـه عليـه في هذا البحث المتواضع ان تنّبهوني عليـه وتعلّموني صوابه من خطئه وصحيحه من سقيمه ولكن بالتي هي احسن، فليس بين ايديكم الا طالب علم صغير.

والله الموفق لما يحب ويرضى.

الاسلام مدارس وليس فرقا

سأكتب عن الواقعية كخاصية من خصائص الاسلام العامة في خدمة الوحدة الاسـلامية، وقبل الـولـوج في هـذا المـوضـوع، اريد ان ابين بأننا علينا ان نعتبر المذاهب الاسلامية مدارس وليس فرقا، لكل مدرسة اساليبها وطرائقها ومناهجها،

---

(١) القلم ٤.

كلهـا تستقي من مصـدر واحـد وتصب في غاية واحـدة، مصدرها الكتاب والسنة والاجماع وغايتها رضوان الله تعالى والسعادة في الدنيا والعقبى.

والاســاليب والطـرائق تختلف من مـدرسة الى اخـرى باختـلاف ظروفهـا وحـاجتهـا، وفي هـذا العصر الذي تداخلت فيه مجريات الحياة وتشابكت مصالح النـاس، علينـا ان نستفيـد من المـدارس جميعهـا، ونحاول ان ننقل الخبرات من مـدرسة الى اخـرى، والـواجب علينـا ـ ايضـا ـ احتـرام رمـوز كل مـدرسة، ولا نستنكف من ان نأخـذ الحق من اي رمز كان، فالحق ضالة المؤمن اين وجدها فهو اولى بها، وعلينا ان ننتصر للدليل لا للرجال، يقول العلامة ابو الحسن البسيوي:[١] (فحصت الاديـان ظهـرا وبطنـا فلم اجد دينا اصفى من ديننا ولو علمنا غيره خيرا منـه لمـا سمحنا لجهنم بأنفسنا، فعلينا في عصرنا هذا وبعد زماننا ان نعتصم بحبل الله).[٢]

فالمؤمن لايضره ان يترك ما في يديه ان كان في تركه له نجاته، كما ان عليه ان يعرض ما عنده على الآخرين حتى يستفيدوا منه، فالعلم ملك للجميع.

من هـذا المنطلق، فمن واجبي نحـو اخوتي المسلمين ان اعـرّفهم بمـا عليه مـدرسة الابـاضية،[٣] كمـا ان من واجبهم ان يعرّفوني بما عليه مدارسهم، لنلتقي

---

(١) هـو العـلامة الامـام ابو الحسن علي بن محمـد بن علي البسيـوي العماني نسبة بسبـا من اعمال ولاية بهـلا، تلميـذ العلامة الكبير الامام ابي محمد ابن بركة البهلوي، وابو الحسن علامة اصولي مجتهـد من اقطـاب المـذهب الاباضي، له العديد من المؤلفات، اهمها جامع ابي الحسن البسيوي، وهو من علماء القرن الرابع الهجري.

(٢) العقـود الفضية في اصـول الابـاضية، سـالم بن حمد الحارثي، ص ١٦٩، ط وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان.

(٣) نحن نستخـدم هنـا و في غيـرهـا من الكتابـات الالقاب المذهبية للدلالة على المدارس ليس اكثـر، من بـاب قولـه تعـالى: «وجعلنـاكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير «الحجرات ١٣».

حول مواطن اللقاء وما اكثرها، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه، ولا اظن اننا اختلفنا الا في الفروع، والفروع مختلف فيها من العهد الاول للاسلام (عهد الصحابة) ولكنه كانت رحمة في ذلك العهد، فلأي شيء ندعها تكون نقمة علينا؟! والعياذ بالله.

وهنا اريد ان افصح عن نظرية علمية قال بها العلامة علي يحيى معمر[1] وهي «المعرفة والتعارف والاعتراف» وإني ادعو المسلمين جميعا للاخذ بها، ولندع العلامة معمر يتكلم عنها: (وانا على يقين في نفسي ان المذهبية في الامة الاسلامية لاتتحطم بالقوة ولاتتحطم بالحجة ولاتتحطم بالقانون، فان هذه الوسائل لاتزيدها الا شدة في التعصب وقوة في رد الفعل، وانما تتحطم المذهبية بالمعرفة والتعارف والاعتراف.

فبالمعرفة: يفهم كل واحد مايتماسك به الآخرون، ولماذا يتمسكون به؟

وبالتعارف: يشتركون في السلوك والاداء الجماعي للعبادات.

وبالاعتراف: يتقبل كل واحد منهم مسلك الآخر برضى، ويعطيه مثل الحق الذي يعطيه لنفسه (اجتهد فأصاب او اجتهد فأخطأ).

وفي ظل الاخوة والسماح تغيب التحديات وتجد القلوب نفسها تحاول ان تصحح عقيدتها وعملها بالاصل الثابت في الكتاب والسنة غير خائفة ان يقال عنها تركت مذهبا او اعتقدت مذهبا.

---

(١) الشيخ علي يحيى معمر من مواليد مدينة تالوت بليبيا سنة ١٩١٩م، تلقى العلم بمسقط رأسه، ثم في جزيرة جربة التونسية، فمعهد الحياة بالقرارة (الجزائر)،ودرس في جربة ومعهد الحياة، ورجع الى بلده ليبيا سنة ١٩٤٥م، كان نشيطا في الحقل الديني والادبي والاجتماعي والتاريخي، له مقالات عديدة في الصحف والمجلات في هذه المجالات، بالاضافة الى ذلك اغنى المكتبة الاسلامية بالعديد من المؤلفات التي تزيد عن ١٧ مؤلفا، توفي عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

ولن نصل الى هـذه الـدرجة حتى يعترف اليوم اتباع جابر وابي حنيفة ومالك والشـافعي وزيـد وجعفـر واحمـد وغيـرهم لمن يقلـدهم النـاس ان ائمتهم ايضا يقفـون في صعيد واحد لامزية لاحدهم على الآخرين الابمقدار ما قدم من عمل خالص لله).[١]

ويعلق الشيخ محمد بن ناصر بوحجام[٢] على هذه النظرية بقوله:

(لهـذا يـرى الشيخ علي ان المعـرفة التي تتـوفـر للمسلمين عن كل مـذهب، والتعـارف الذي يتم بين معتنقي المذاهب، والاعتراف الذي يكون شعار كل فرد في كل المـذاهب، كل ذلك يشعـر الجميع انهم يسيرون في خط واحد، ويهدفون الى غاية واحـدة، وهي خـدمة الاسـلام ورفع كلمة الله، وبالتالي يؤمنون بضرورة التـرفع عن سفاسف الامور، وعدم البقاء في دائرة الامور الهامشية، والارتفاع الى مستوى عظمة الرسالة).[٣]

اعتقـد ان هذه النظرية الموضوعية كفيلة ان تصلح من شأن الواقع وترتقي به الى الاحسن، وقـد قـال بها احد علماء المذهب الاباضي ولو نظرنا الى المذاهب الاسـلامية الاخـرى سنجـد مثل ذلك ايضا، فان مجال الالتقاء واسع، وهو قريب المنال لمن اراده، داني الثمرة لمن استطابه.

ومن الحديث عن الـواقع المـر والامل الحلو الذي ننشده ادخل الى الحديث

---

(١) الابـاضية بين الفـرق الاسـلامية، علي يحيى معمـر، ج١، ص٥-٦، ط وزارة التـراث القـومي والثقافة بسلطنة عمان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٢) الشيخ محمـد ناصـر بوحجـام، كاتب وباحث جزائري، من وادي ميزاب بالجزائر، تتسم مؤلفاته ومقالاته بالدعوة الى الوحدة الاسلامية، مازال يعيش.

(٣) الشيخ علي يحيى معمـر والـدعـوة الى وحـدة المسلمين، محمـد ناصر بوحجام، ص٣٤-٢٥، ط مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب، سلطنة عمان.

عن الـواقعية وعن الـواقع لارتبـاطهمـا الوثيق، متعرضا للجوانب الكفيلة بتقارب المسلمين كخطـوة متينة نحو الوحدة الاسلامية، رابطا كل ذلك بواقعية الاسلام، وسـأعطي من التطبيقـات الابـاضية امثلة في تصحيح مسيـرة الامة تجـاه الوحدة الاسلامية، منتظرا من اساتذتي الباحثين والعلماء الاجلاء ان يقدموا ما يوجد في مـدارسهم، لانني متـأكـد ان خطـوط الالتقـاء ستكون واحدة، وانما تحتاج الى تنظيم لتلتقي في نقطة الاخوة الاسلامية والاتحاد الايماني.

الصحوة كانت البداية

لمـا هبّت ريـاح الصحـوة المبـاركة محملة ببشائر الخير على الامة الاسلامية طفق ابنـاؤهـا الغيـورون يبحثـون عن بـواعث النهضة في دينهم، وينقبـون عن عـوامل الحـركة الفـاعلة في مسيرتهم الاسلامية الطويلة، كما انهم اخذوا ينقدون الـدخيل على النصـوص الشرعية من كلام الناس نقدا بناء فيستفيدون من الصالح ويتركون الطالح بدون تجريح لعالم او فقيه.

وقـد اصـاب المسلمون المفصل عندما ارتفعوا بعقيدة الاسلام وشريعته من الجدل العقيم الى اكتنـاه اسـرارهمـا التي تحـرك النفوس الخامدة وتوقظ الهمم الخاملة وتحرر العقول الجامدة.

وقـد ذكـر المفكـرون الاسـلاميـون مجموعة من الخصائص العامة للاسلام، وهذه الخصائص هي التي تفرد الاسلام كمنهج حياة عن سائر المناهج، فهو منهج يعلـو على سائـر المناهج بعلو خاصيته الالهية السماوية، وتهبط هي عنه بهبوطها الى الوضعية الارضية، وهذه الخصائص هي التي اعطت الاسلام بقاءه واستمراره وصلاحه لكل زمان و مكان.

لم يكن قد بوبت هذه الخصائص قبل عصر الصحوة الاسلامية، ولكنها كانت موجودة ومستقرة في المنهج الالهي، فاذن هي ليست اضافة الى المنهج الاسلامي ولاتطور في مفرداته، فالاسلام قد اكتمل باكتمال الرسالة المحمدية (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا).[١]

هذه الخصائص انما هي اكتشاف وتنظيم وتنسيق وطرح جديد، استفاد منها المسلمون في مسير حياتهم المعاصرة، وقد وعى التربويون فائدة هذه الخصائص في النمو الفكري السليم لدى الاجيال الاسلامية، فأدخلوها في مناهجهم فأتت ثمار الخير واينعت النشاط والحركة والمودة والثقة بين المسلمين، والوعي بهذه الاهمية تعدّى الحركات والمدارس الاسلامية الخاصة التي تعنى بشؤون الصحوة مباشرة الى المدارس الرسمية، وكانت هذه خطوة مباركة في التصحيح والتجديد الاسلامي، واذكر من ذلك المناهج الدراسية في بلدي سلطنة عمان، فقد قررت في المناهج الدراسية للمرحلة الثانوية العامة بمادة التربية الاسلامية،[٢] وفي كتاب العقيدة بمعهد القضاء الشرعي والوعظ والارشاد.[٣]

والحقيقة ان هذاالانتشار المنهجي لتدريس خصائص الاسلام اثمر جيلا من الشباب همه منفعة الاسلام، منفتحا على الفكر الاسلامي الفاعل، رافضا الانغلاق في دائرة الجدل المذهبي، مما هيأ ارضية اسلامية شبابية مشتركة، ليت اولياء الامور (قادة وعلماء) يستثمرونها في صالح الاسلام العام، ويفوّتون بها الفرصة على دعاة المذهبية المنغلقة.

---

(١) المائدة ٣.
(٢) تتبع وزارة التربية والتعليم.
(٣) تتبع وزارة العدل والاوقاف والشؤون الاسلامية (سابقا).

كـان شهيـد الاسـلام سيـد قطب هـو الرائـد الاول في الكتابة عن خصائص الاسلام - فيما اعلم - ومن كتب بعده انما نسج على منواله، ولعله لم يزد شيئا في الفكـرة، وانمـا سـاق الامثلة العديدة وعممها على فروع الاسلام المختلفة بعد ان خصصها سيد قطب في التصوير الاسلامي وهو الاصل.

فبينمـا نجـد في كتابـه «خصـائص التصـور الاسـلامي ومقوماته»[١] يذكر ما يتعلق بالفكـر والعقيـدة من خصـائص وهي: الربانية والثبـات والشمول والتوازن والايجابية والواقعية والتوحيد.

نجـد الـدكتـور يوسف القرضاوي يعممها على العقيدة والشريعة والاخلاق ونحوهـا، ويأتي بأمثلة على كل ذلك، ومن الخصائص التي ذكرها القرضاوي في كتابـه «الخصـائص العـامة للاسـلام»[٢] الربانية والانسانية والشمـول والـوسطية والواقعية والوضوح والتطور والثبات.

ونجـد الدكتور عبدالكريم زيدان يعمل هذه الخصائص في الجانب الدعوي حيث يذكر في كتابه «اصول الدعوة»[٣] خمسا منها: الالهية، والشمول، والعموم، والجزاء الاخروي، والمثالية، والواقعية.

ويقتصـر الشيخـان احمـد بن سليمان الكندي وعاشور كسكاس على ثلاث خصـائص بمـا يتنـاسب مع طبيعة كتابهم المنهجي[٤] وهي: الربانية والتـوازن

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ومقوماته، سيد قطب، ط السابعة، دار الشروق.

(٢) الخصائص العامة للاسلام، الدكتور يوسف القرضاوي، ط الثامنة، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ/١٩٨١م.

(٣) اصول الدعوة، الدكتور عبدالكريم زيدان، ط مكتبة المنار الاسلامية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٤) العقيدة ج١، احمد بن سليمان الكندي وعاشور بن يوسف كسكاس، ط معهد القضاء الشرعي والوعظ والارشاد.

والواقعية.

هذا التداخل والتعدد في الخصائص لايعني التنافر والتناقض، وانما يعني وجود قواعد عامة للخصائص الاسلامية يمكن ان يبني عليها المناهج الاسلامية المختلفة، فهي ضوابط واسعة المجال، يربطها رابط واحد وهو الهية المصدر، يقول رائدها الاول سيد قطب: (هذه الخصائص تتعدد وتتوزع، ولكنها تتضام وتتجمع عند خاصية واحدة، هي التي تنبثق منها وترجع اليها سائر الخصائص... خاصية الربانية.

انه تصور رباني، جاء من عند الله بكل خصائصه، وبكل مقوماته وتلقاه الانسانية كاملا بخصائصه هذه ومقوماته، لا ليزيد عليه من عنده شيئا، ولا لينقص كذلك منه شيئا، ولكن ليتكيف هو به وليطبق مقتضياته في حياته).[١]

اذا، فلماذا لانكيف حياتنا مع المنهج الرباني؟ ولماذا لاتستثمر هذه الخصائص في صالح الوحدة الاسلامية والالتقاء الاسلامي؟

فكما صيغ التصور الاسلامي بعقيدته وفكره بهذه الخصائص، وكذلك الشريعة والدعوة والمناهج، علينا ان نصوغ بها مقومات الوحدة الاسلامية، علينا ان نبحث في ضوء هذه الخصائص ما يؤدي الى الوحدة الاسلامية من الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وكل ما فيهما داع الى الوحدة، منفر من الفرقة.

يقول الحق جل وعلا: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك ليبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون، ولتكن

(١) خصائص التصور اسلامي، ص ٤٠.

منكم امة يدعـون الى الخيـر ويأمـرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات فأولئك لهم عذاب عظيم).

ويقـول سبحانه: (واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين).(١)

وفي كتـاب اللـه تعالى سبيل رتق الفتق وجمع الشمل يقول سبحانه و تعالى: (كـان النـاس امة واحـدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه).(٢)

وقال(ص) : (الجماعة رحمة والفرقة عذاب).(٣)

وقال عليه الصلاة والسلام: (يد الله مع الجماعة).(٤)

وقـال(ص) «ان اللـه تعـالى يـرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا: يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وان تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا...).(٥)

وبعـد نظرنـا في الآيـات الكريمة والاحـاديث الشريفة. ننظـر في كل مـدرسة اسـلامية روح التسامح والوحدة فنلتزمه، اما تلك الاختلافات والدعايات المنفرة فلنذروها مع الرياح حتى تذهب هباء منثورا كأنها لم تكن.

---

(١) الانفال ٤٦.

(٢) الشورى ١٤.

(٣) رواه عبدالله في زوائد المسند، والقضاعي عن النعمان بن بشير – رضي الله عنه – انظر جامع الشمل في احـاديث خاتم الرسل، محمد ابن يوسف اطفيش، خرج الاحاديث الدكتور عبدالرحمن عميرة، ج ٢، ص١٣١، ط مكتبة الاستقامة، روي – سلطنة عمان.

(٤) رواه الترمذي عن ابن عباس، جامع الشمل، ج ٢، ص ١٣١.

(٥) رواه احمد ومسلم عن ابي هريرة، جامع الشمل، ج ٢، ص ١٢٨.

خصائص الاسلام العامة

الاسلام كل متكامل لاينقصه ما ينقص الفلسفات الارضية، حيث لم يفرط في شيء يقول سبحانه و تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)[١] فالعقيدة واضحة وميسرة ومؤثرة لا يوجد بها غموض ولا إلتواء، تخاطب العقل فيسلم لها، ليس تسليم الاعمى؛ بل تسليم المدرك الواعي لسلامتها وصحتها، والشريعة ناضجة راقية تستوعب مستجدات الايام وتقلبات الدهر، والدليل على ذلك؛ ها نحن على مشارف القرن الحادي والعشرين الميلادي وقد قطع العلم والاختراع شوطا كبيرا في الحياة، وكان في شريعة الاسلام الحل لكل معضلة والكشف عن كل مدلهمة، والحكم الذي يعطي كل امر موقعه من الاحكام الخمسة الفقهية.[٢]

وتأتي خصائص الاسلام بتحريرها التيسر لنا الطريق حتى نسير على هدى وبصيرة، ولا يمكن ان نطرح الاسلام كبديل حضاري للفلسفات الارضية بدونها، ولا يمكن ايضا ان نعمل ببعضها ونجمد الآخر، فهذا ايمان ببعض الكتاب وكفر بآخره.

وهذه المسميات التي اصطلح عليها انما هي مسميات تقترب ان تكون اعتبارية لتيسر لنا الفهم والتعامل مع المنهج الرباني وفق نظرة منهجية حديثة، وإلاّ فخصائص الاسلام أعمق وأكبر وأوضح، وهناك مجال رحب للمفكرين ان يقدموا صيغة اكثر نضجا واشمل استيعابا لواقعنا المعاصر، يجب ان لا نجمد عند المصطلحات، فما ضر الفكر الاسلامي الا عندما جمد في قوالب صلبة من قشور المصطلحات التي اخذ المسلمون يتراشقون بها في فترات فتنهم وتشتتهم

---

(١) الانعام ٣٨.

(٢) وهي الواجب والمستحب والمباح والمكروه والحرام.

كمصطلح الايمان والكفر والفسق ونحوها.

ان الاستمرار في اعمال هذه الخصائص في المستجدات الفكرية، وخاصة فيما يخدم الوحدة الاسلامية لهو مطلب ضروري، وهذا فيما احسب ما تفطنت له هذه الندوة المباركة.

لايمكنني ان استقصي كل الخصائص العامة للاسلام وفي جميع المجالات، فهذا بحث يطول وهو خارج عن طاقتي العلمية والزمنية، ولكن بما ان اساس التقاء المسلمين هو العقيدة على وجه الخصوص، فيجدر بي ان استعرض بعض هذه الخصائص من هذا المنطلق، وذلك حتى يتبين لنا اننا لسنا على خلاف في هذا الامر، فقط كل ما نحتاجه هو الاخلاص لله تعالى وصدق النية له تعالى في الاتجاه نحو الوحدة والوئام مبتعدين عن الفرقة والخصام.

ثم بعد الاستعراض السريع لهذه الخصائص اقف عند خاصية الواقعية، فهي الصق ما يكون بواقعنا، فلنبحث من خلالها عن حل لهذا الواقع، ومن المعلوم ان الفرقة المذهبية هي ما يحول غالبا عن التقاء المسلمين، وما ذلك الا بسبب الخوف من ترك المذهب، ولكن عندما نبحث داخل المذهب ما يقرب الى الوحدة ورص الصف، نجد الخوف يزول والعقدة تنحل عند ارباب واتباع ذلك المذهب، فيقدمون مصلحة الاسلام على مصلحة المذهب، ان كان للمذهب مصلحة لاتوجد في الاسلام، ولا اظنها توجد في مذهب سليم صحيح.

لايعني هذا اننا نجبر الناس ان يتخلوا عن عقائدهم التي يعتقدون سلامتها والتي تختلف عندهم عن غيرهم في المذاهب الاخرى، وانما نطلب ان تترك هذه الخلافات منزلة الفروع، هذا اذا لم يوجد الدليل القطعي على رجحان احدهما، وفي حالة وجود الدليل القطعي فلابد لنا من ترك التشبث بما عليه الآباء

والتزام الحق الذي ينضخ به الدليل الشرعي.

لذلك سوف أدعم الواقعية، و علاج الواقع ايضا، بما ورد من آراء واقوال ايجابية في هذا الموضوع عند الاباضية - كما قلت - حتى يتبين للناس ان هذا المذهب الاباضي مستعد فكراً وعلماء واتباعا للوحدة الاسلامية، بل ويسعى اليها اقطابه من قديم الزمان.

والآن مع بيان موجز لبعض خصائص الاسلام العامة كنموذج يسمح به الوقت هنا:

الربانية: هي - كما يذهب سيد قطب - الخاصية التي تربط الخصائص الاخرى،[١] لأن الله سبحانه و تعالى طلب من المؤمنين ان يكونوا ربانيين في حياتهم جميعا بدون استثناء قال تعالى: (قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لاشريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين، قل اغير الله ابغي ربا وهو رب كل شيء...)[٢]

والربانية: تعني ان مصدر التلقي هو من عند الله تعالى وحده، ولايجوز ان نستمد عقيدتنا من اي مصدر كان، بل ان رسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام كانوا نقلة امناء للوحي، لم يشرعوا للناس من هواهم - حاشهم عن ذلك - يقول سبحانه و تعالى: (وما ينطق عن الهوى، ان هو الا وحي يوحى).[٣] ومازال المصدر واحدا والكل مجمع عليه ومجتمع حوله ففيما الخلف بين المسلمين؟! وعندما يكون المصدر والتلقي واحدا فلايكون الاختلاف الا نتيجة اعمال الفكر

---

(١) خصائص التصور الاسلامي، ص ٤٠.
(٢) الانعام ١٦٢-١٦٤.
(٣) النجم ٣-٤.

البشـري في هـذه النصوص، ونحن لانحجر على الانسان التفكير في ذلك، ولكنه بـدون ان يقـودنـا الى الخلاف الممزق للصف، وانما يجب ان يؤدي بنا الى تنوع الفكر داخل الاطار الاسلامي الواحد.

التـوحيـد: بحقيقتـه ان لامعبـود بحق الا اللـه تعالى، فهو المنزه عن النقص والمشابهة لخلقـه (ليس كمثلـه شيء)[١] وهـو سبحانـه و تعـالى الخـالق الـرازق المتكفل بأمــر عبـاده، والمسلمـون متفقـون على تنزيـه اللـه تعـالى، ومن يشب توحيـده بشـائبة شـرك فهـو خـارج عن ملة الاسـلام، حائـد عن دائرة الامة، غير محسوب عليها ولا لها.

إذا؛ التوحيـد هو السياج الذي يربط الامة الاسلامية، فهو الروح الذي يغذي النفوس المؤمنة للالتقاء على مائدة الاخوة الايمانية.

الثبـات: الامة الاسـلامية مجمعة على القضايـا الثابتة التي لاتتغيـر في المنهج الاســلامي، وهناك ثبات في العقائد وحقيقة الالوهية ومصدر التشريع، وثبات في الاخـلاق والقيم الفاضلة، بل وثبات في بعض التشريعات العملية التي يبنى عليها عنصــر الانسـانية الثـابت مثل شــؤون الــزواج والميـراث والطـلاق والحـدود والقصاص.

وهـذه خـاصية حفظت الامة ـ بـرغم اختلافها الواقع ـ من النشوز عن دائرة الاسلام، وكانت حركة الامة (داخل اطار ثابت حول محور ثابت).[٢]

وهــو ـ أي الثبات ـ من أهم المقومات التي تثير فينا الحماس تجاه الوحدة الاسلامية.

---

(١) الشورى ١١.

(٢) خصائص التصور الاسلامي، ص ٧٢، والعبارة عبارة سيد قطب.

الانسانية: خاطب الاسلام الانسان باعتباره انسانا، فلم يعتبره ملكا ولم يعتبره شيطانـا رجيمـا، والانسـان مـركب من عنصر سماوي وهو الروح وعنصر ارضي وهـو الجسد، وبين الروح والجسد تتوزع النوازع الخيرة والشريرة، وجاء الاسلام ليربي الفطـرة الخيرة في هذا الكائن (كل مولود يولد على الفطرة)،[١] كما انه جاء ليستل ضغينة الشر بملقاط الايمان (بسم الله الرحمن الرحيم، والعصر، ان الانسان لفي خسـر، الاالذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بـالصبـر)[٢] وهـذه السـورة الكريمة تقرر صراحة ان الخسران الانساني يجب ان يواجه بمعول الجماعة المؤمنة المتواصية بالحق والصبر حتى يتحطم.

والشريعة الاسلامية اعطت الانسان مجالا ممتدا في فعل الخير بحسب قدرته وهمته، فهناك الفرائض والنوافل والطاعات، وكذلك من خصائص بشرية الانسان الاختلاف النوعي والنسبي يقول الله تبارك و تعالى: (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحـدة ولايزالون مختلفين، الا من رحم ربك ولذلك خلقهم...)[٣] يكاد هذا الاختـلاف يسـري الى كل شيء من نـواحي الانسـان، وخاصة عقله وفكره، كل ذلك حتى ينمـو الكون ويعمر وفق سنن الله تعالى الكونية والنصية، وهنا يجب ان تسقط الاختـلافـات المـذهبية، او بالاحرى تسقط آثارها السيئة، لاننا لو اردنا امة في قالب واحد فينبغي لنا ان نلغي خاصية الانسان منه؛ وهذا لايمكن قطعاً.

وهكـذا لـو تتبعنـا بقية الخصائص الاسلامية سنجدها كلها تصب فيما يقرب المسلمين من بعضهم البعض، كالشمـول والتـوازن والـوسطية والـوضـوح

---

(١) رواه ابو يعلى والطبراني والبيهقي، جامع الشمل، ص ١٢.
(٢) سورة العصر.
(٣) هود ١١٨–١١٩.

والايجابية والمساواة والعموم... ونحوها.

والآن لنأت الى خاصية الواقعية:

تعريف الواقعية:

الواقعية: في الاصل مذهب فلسفي تضاد المثالية.

والمثالية؛ بأبسط صورها الفلسفية واوضحها كذلك؛ هي: المثل الاعلى الذي يتصف بكل كمال ـ طبعاً في حدود نوعه ـ ويمتنع عليه النقص.

هذا؛ وقد حاول صاحب المجموعة الفلسفية ان يفرق بين نوعين من المثال:

الاول: يقال: مثالي؛ على كل ما ينسب الى الفكرة، وبالتالي يوجد في العقل بما هو فكرة، اي يوجد في الذهن ولا يوجد في الواقع.

والثاني: يقال: مثالي؛ بمعنى كامل وتام، فالمثال: هو ما يحقق كمال النوع الذي يندرج فيه ويعبر عنه بالمثل الاعلى.[1]

ولكن عند استقراء نظريات الفلاسفة وكتاباتهم في هذا الموضوع يذوب هذا الفارق ولايكاد يكون له وجود، حيث ان المثل الاعلى نفسه لاوجود له ـ عندهم ـ في الواقع، واقصى ما يراد منه هو محاولة وصول الواقع او مفردات الواقع الى ذلك المثال.

ولذلك عندما ناقشوا الغيبيات اضطربت افهامهم ايما اضطراب، ولايستطيع المرء ان يقف منهم على قول، وهذا يخالف العقيدة الاسلامية التي تؤمن بالغيب الذي اتت به النصوص ايمانا جازما.

---

(١) موسوعة الفلسفة، الدكتور عبد الرحمن بدوي، مادة «المثالية»، ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الاولى ١٩٨٤م.

ومقابل ذلك نجد الواقعية ـ كما قلت ـ تضاد المثالية؛ اي هي: الموجود القائم المدرك بالحواس وهذا الموجود بطبعه ناقص يعتريه الضعف والفساد.(١)

ويوصف الشخص بأنه «مثالي»: اذا كان لايراعي الاحوال الواقعية ويطلب احوالاً سامية لايمكن او يعسر او يستحيل تحقيقها في الواقع، واذا كان لايستند في تصوراته واحكامه الى سند من الواقع الفعلي، وفي هذه الحالة يتصور «المثالي» ان الواقع ناقص، اذ يقيسه بالمثل الاعلى الذي يتخيله.(٢)

وبالعكس يوصف الشخص بأنه «واقعي» اذا تقبل الواقع على علاته ولم يطمح في الوصول الى المثالي.

وخطورة هذا الفهم الفلسفي من جهتين:

الاولى: انه يقسم الامور الى شيئين منفصلين: مثالي وواقعي، وما دام المثالي غير موجود او غير قابل للوجود في الواقع ـ حسب هذه النظرة ـ سيصطدم المرء مع هذا المثال، وبالتالي سيجنح الى الركون الى الواقع، فالله والآخرة والاخلاق الفاضلة والقيم العظيمة لاوجود لها في الواقع، وبالتالي لايصح الركون الى الخيال، وهذه فكرة مرفوضة اسلامياً.

الثانية: نجد ان فلسفة الواقعية بهذا المعنى دخلت جوانب الحياة المختلفة، كالفن والادب والسينما ونحوها.

ولنضرب على ذلك مثالا من السينما؛ فالافلام الواقعية: هي الافلام التي تبرر اخطاء الواقع وحماقاته وتعذر الفرد الذي يرتكب الجرائم لأن واقعه اجبره على ذلك.

---

(١) موسوعة الفلسفة، مادة «مثالي».
(٢) موسوعة الفلسفة، مادة «مثالي».

ولنتصور الملايين من البشر - ومنهم المسلمون - كيف يكون تأثير هذه الافلام على عقولهم وسلوكهم؟!.

اننا نريد اعلاما وفنا وادبا واقعيا ولكن ليس وفق هذه النظرة بل وفق الواقعية الاسلامية.

على انني لا انكر انه توجد هناك واقعية روحية[1] عند الفلاسفة ولكنها لا تكاد تظهر او تستطيع ان تحدد منها موقفا عقليا او عمليا.

اتيت بالتعريف الفلسفي قبل غيره من التعريفات لانه سابق عن غيره في تحديد مصطلح الواقعية، اذ - كما يتبادر لي - ان مصطلحي «المثالية» و «الواقعية»، في المنهج الاسلامي لم يستمدا - مبدئيا - من المعنى اللغوي او الشرعي، بل استعيرا كترجمة لهاتين اللفظتين من الفلسفة الغربية، وهذا ليس بعيب يقدح في رواد هذا التحرير المنهجي من المسلمين، بل هي - في نظري - ميزة، حيث اعطت البديل الاسلامي الشامل والصحيح لتفسير هذين المصطلحين، مما يونعهما عند اصحابهما الغربيين في مأزق القصور في فهم واقعية الكون ومثاليته الصحيحة.

ومن الناحية اللغوية نجد ان الواقع: يعني النازل والحدث، وبما ان الزمن الحادث كله نوازل وحوادث سمي واقعاً.

وعندما نقول: هذا الواقع: اي هذا الحادث والنازل الموجود حديثا وحاضرا، والواقع هو الحادث فعلاً، وامر وقع: اي حدث فعلا وحقيقة، والوقائع: هي الاحداث، وسميت المعارك وقائع لكونها حدثت فعلا.

---

(١) موسوعة الفلسفة، مادة «مثالي».

(ووقع القــول عليهم)[1] وجب القــول، أي حتما وقع؛ ومنه قوله تعالى: (اذا وقعت الواقعة، ليس لوقعتها كاذبة).[2]

يقول ابن منظور في اللسان:

وقع السيف ووقعته ووقوعه: هبته ونزوله بالضربة.

ووقع به ما كره، يقع ووقوعا ووقيعة: نزل.

واوقع ظنه على الشيء ووقعه؛ كلاهما: قدره وانزله.

ووقع بالامر: احدثه وانزله.

ووقع القــول والحكم اذا وجب، ومنــه قولـه تعـالى: (اذا وقع القــول عليهم اخرجنا لهم دابة من الارض).[3]

وقال عز وجل: (ولما وقع عليهم الرجز)[4] معناه اصابهم ونزل بهم.[5]

وحتى تتضح حقيقة كل امــر لابـد من الـرجـوع الى اربابه، فماذا يقولون عن الواقعية الاسلامية؟

من الطبيعي ان نبـدأ بتعريف ابي المنهج الاسـلامي المعـاصـر الشهيـد سيد قطب وخاصة ان من جاء بعده كان عالة عليه في هذا الموضوع.

يعطي سيــد قطب الــواقعية مدلـولين، ويتكلم عنهمـا داخل اطـار التصـور الاسلامي فيقول:

---

(١) النمل ٨٥.

(٢) الواقعة ١–٢.

(٣) النمل ٨٢.

(٤) الاعراف ١٣٤.

(٥) لسـان العـرب، محمـد بن مكـرم بن علي ابن منظـور، مـادة «وقع»، ط دار احيـاء التـراث العربي ومؤسسـة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

(انـه ـ اي التصور الاسلامي ـ يتعامل مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود الحقيقي المتيقن، والاثر الواقعي الايجابي.

يتعامل مع الحقيقة الالهية، متمثلة في آثارها الايجابية وفاعليتها الواقعية.

ويتعـامل مع الحقيقة الكونية، متمثلة في مشاهـدهـا المحسـوسة، المؤثـرة او المتأثرة.

ويتعامل مع الحقيقة الانسانية، متمثلة في الإناسي كما هم في الواقع.[(١)]

واما المـدلـول الثاني للـواقعية في التصور الاسلامي، فيتعلق بطبيعة المنهج الـــذي يقـدمـه للحيـاة البشرية، وواقعية هـذا الكـون مع طبيعة الانسـان، وطبيعة الظروف التي تحيط بحياته في الكون، ومدى طاقاته الواقعية الحقيقية).[(٢)]

نـلاحظ ان سيـد قطب لم يعط تعريفـا محددا لنفس الواقعية، وانما تكلم عن مدلـولاتهـا في التصور الاسلامي، ولعله بهذا يريد ان يفلت من مضيق التعريفات، حيث ان التعريفـات المحـددة هي التي تجعل الفكر يجمد عند المصطلحات فلا يستطيع ان يخـرج عنهـا، فهـو يريد مفهوما اوسع ومقاصد ارحب ومعاني اشمل، وهـذا ما جعله يعلق على ذلك بقوله: (نحن نستخدم هذا بمعناه الذي يعطيه لفظه العـربي، مجـــردا من كل مـا علق بـه من معنى اصطـلاحي تـأريخي في البيئـات الاخرى).[(٣)]

فسيـد قطب ينطلق من اللفظة اللغوية ولكنـه يعطيهـا مدلـولات رحبة، وقابلة لاحتضان عدة معاني ما دامت تلتقي في نفس الهدف، وهذا ما جعل من أتى بعده

---

(١) خصائص التصور الاسلامي، ص ١٦٣–١٦٤.

(٢) خصائص التصور الاسلامي، ص ١٧٦.

(٣) خصائص التصور الاسلامي، ص ١٦٣.

يعملها في جوانب عديدة كالشريعة والاخلاق والدعوة واخيرا الوحدة.

ينطلق سيد من المعنى اللغوي البسيط (التحقيق في عالم الواقع).[١]

ويقترب تعريف الدكتور يوسف القرضاوي من مفهوم سيد قطب، بل في الحقيقة هو نفس المعنى، ولكن بأسلوب اقرب الى التعريف منه الى المدلول والمفهوم.

فبينما نجد سيد ينثر تعريفه نثرا يمتد خلال حديثه عن موضوع الواقعية بأكمله نجد القرضاوي يقرب المفهوم بعبارات متقاربة وفي اسطر محدودة فاصلا الامثلة عن التعريف، ولعله اراد بذلك ان يسهل للقارىء الكريم تكوين المفهوم العام قبل دخوله الى مفردات الموضوع، حيث يدخل الموضوع وهو محمل بتعريف اكثر تحديدا له.

وقد يكون اراد ان يتلافى ما يقع فيه الرواد من عدم اعطاء المصطلحات معانيها لانهم في طور التكوين والانشاء والابداع.

فيعرف الواقعية بقوله:

(نعني بالواقعية: مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة، ووجود مشاهد لذاته، وهو وجود الواجب لذاته، وهو وجود الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا.

ومراعاة واقع الحياة من حيث هي مرحلة حافلة بالخير والشر، تنتهي بالموت وتمهد لحياة اخرى بعد الموت توفى كل نفس فيها ما كسبت وتخلد فيما عملت.

ومراعاة واقع الانسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة، فهو نفحة من

---

(١) خصائص التصور الاسلامي، ص ١٦٣.

روح اللـه في غـلاف من الطين، ففيـه العنصـر السمـاوي والعنصر الارضي، ومن حيث هـو ذكـر او انثى لكل منهما تكوينه ونزعاته ووظيفته، ومن حيث هو عنصر في المجتمع، لايستطيع ان يعيش وحـده ولا ان يفنى تمـامـا في المجتمع، ولهـذا تصطرع في نفسه عوامل الانانية والغيرية).(١)

امـا الدكتور عبدالكريم زيدان فيتناول الجانب الدعوي للواقعية ويسهب في بيـان ذلك، وملخصـه: ان الناس بأشواقهم الروحية وبنوازعهم الارضية يتفاوتون من فـرد الى آخـر في الاستعـداد لبلـوغ المستـوى الـرفيع الذي يرسمه الاسلام، فجعل الاســلام خطـا ادنى لقبـول العمل وهـو فعل الواجبات وترك المحرمات، وهـذه تقع في مقدور الانسان ولاتتعارض مع واقعه البشري، ولكنه ـ اي الاسلام ـ يفتح المجــال للارتقــاء عن طـريق المنــدوبــات والفضـائل وكـذلك بتـرك المكروهـات وسفاسف الامور، وذلك لانه واقع بعض الناس يقتضي هذا المجال السامي للوصول الى الكمال البشري الاعلى.(٢)

ولاتقف واقعية الاســلام عنـد هذا الحد وهو وضعه مستويين للكمال، ادنى واعلى، وانمـا تتعـدى الى ايجـاد المخـارج المشـروعة للمسلم في اوقات الشدة والضيق والحــرج وهي الــرخص وفقــا للقـاعــدة الشـرعية (الضـرورات تبيح المحظورات).(٣)

ومغـزى الـدكتـور زيـدان من هـذا الكـلام ان على الـداعية ان يراعي الواقع الانساني، فـلا يطلب من المدعـو اكثر من الحد الادنى، الا ان كان يرى لديه شوقا

---

(١) الخصائص العامة للاسلام، ص ١٥٧–١٥٨.

(٢) اصول الدعوة، ص ٧٠–٧١.

(٣) اصول الدعوة، ص ٧٣.

الى ذلك وهمة عالية لبلوغه، فلا يعتبر من لم يصل الى الكمال الاعلى مقصرا ينبغي عدم العناية به في الدعوة او عدم الاستفادة منه.

وأخصر التعريفات التي وجدتها هو تعريف الشيخين احمد الكندي وعاشور كسكاس وهو:

الواقعية: التحقيق في عالم الواقع ورد الفطرة الى صراط الله الذي هو اصل كل واقع صحيح.[١]

* وهذا تعريف حسن، حيث اشتمل في كلمات محددة ومعدودة على كل معاني التعريفات السابقة، واشتمل على كل ما يمكنه ان توحي به الواقعية، وهو مدخل جيد للمناهج التربوية التي تعنى باصلاح الشبيبة واعطائهم معاني محددة تلازمهم في طلبهم للعلم، بل هذه طريقة متبعة عند علمائنا منذ قديم الزمان.

لعل القارىء الكريم يلاحظ انني اطلت في سوق التعريفات لمصطلح الواقعية، ولكن في نظري لابد منها حتى تتضح بصورة وافية وجلية في الذهن، ولكي ابين انها تدخل في كل معاني المنهج الاسلامي بتصوره وفكره وشريعته واخلاقه وتربيته ودعوته ووحدته، والواقعية التي ننشدها - وكذلك بقية الخصائص - يجب ان تلامس كل مناحي الحياة.

نستخلص مما مضى ان الواقعية المطلوبة في المنهج الاسلامي هي الواقعية:

١ - التي تراعي الواقع كما هو دون افراط او تفريط سواء بالنظر الى الغيبيات الموجودة كحقيقة الالوهية والآخرة والموت، أو وضع المشاهدات في وضعها الصحيح فلا تركن الى خداع الحواس فيها.

---

(١) العقيدة ج ١، ص ٢٠٧.

٢ ـ والتي لاتتعارض مع المثالية بل هي مكملة لها، فالاخلاق الفاضلة والقيم النبيلة هي من المثل العليا لكن في المنهج الرباني يستطيع البشر ان يتخلقوا بها ويعملوا على نشرها ويغيروا الواقع على مقتضاها يقول الحق جل وعلا: (ان الله لايغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بانفسهم...)[١] ولاجل ذلك نادى مفكرونا بالواقعية المثالية.[٢]

٣ ـ والتي تعني ان المثل والمثالية ليست شيئا خياليا بل هي قائمة وموجودة، او يمكن تحققها ولكن يتفاوت الناس في تحقيقها في انفسهم، ومن الواقعية ان نطلب من كل انسان حسب قدرته وطاقته: (لاتكلف نفس الا وسعها)[٣] ويقول سبحانه ايضا: (لايكلف الله نفسا الا وسعها).[٤]

٤ ـ والتي تراعي الانسان بما هو عليه من قوة وضعف ومنشط ومكره، واتفاق بين افراده واختلاف، واشواق ونوازع، وصحة ومرض، وروح وجسد، وايضا تراعي الكون بمفرداته، فلا تعارض ولا تضارب، ولا قهر للطبيعة ولاغزو ولاتدمير، بل الانسان مسخر في هذا الكون يعمل فيه وفق مطلب مسخره، أي الاحتكام الى منهج الله تعالى في تسيير هذا الكون والاقرار بالحاكمية له سبحانه، يقول الحق جل وعلا: (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة...)[٥] ويقول سبحانه و تعالى: (... ويجعلكم خلفاء الارض...)[٦] ويقول ايضا (آمنوا

---

(١) الرعد ١١.
(٢) خصائص التصور الاسلامي، ص ١٦٣، والخصائص العامة للاسلام، ص ١٥٨.
(٣) البقرة ٢٣٣.
(٤) البقرة ٢٨٦.
(٥) البقرة ٣٠.
(٦) النمل ٦٢.

بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه...).[١]

٥ ـ والتي تعني رجوع الناس الى فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها وفق سنن الله تعالى الكونية، وارشاداتها العظيمة التي جاء بها الانبياء عليهم الصلاة والسلام، ولايكون هذا الا بالعمل بالكتاب والسنة، وكل أنسان مطالب بالرجوع الى الحق، ومصلحة الشرع مقدمة على هوى النفس، لأن في مصلحة الشرع مصلحة النفس، وفي هوى النفس مضرتها.

٦ ـ والتي تصحح مسير الناس ليفلحوا في مصيرهم، اذ ثبت من الواقع ان الناس على مدى التأريخ البشري تنزع الى الابتعاد عن منهج الله تعالى، ولذلك يجب قودهم الى الحق بالتي هي احسن، ولايكون ذلك الا بوجود المؤسسات القادرة على ذلك والضالعة بشؤون اصلاح المجتمعات والافراد، وبالتعاون بين المؤمنين في ارجاع الناس الى جادة الصواب، ولذلك كانت الدعوة مطلبا شرعيا واجبا على كل مؤمن ومؤمنة، يقول الحق جل وعلا: (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون)[٢] ويقول سبحانه (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...).[٣]

تشخيص الواقع في السنة النبوية

هذا معنى الواقعية في التصور الاسلامي، الا ان الواقع غير ذلك، فأثره على

---

(١) الحديد ٧.

(٢) آل عمران ١٠٤.

(٣) التوبة ٧١.

الناس شديد، فهو اشبه بالمغناطيس، يشد الناس اليه بكل خيره وشره، ولا يمكن ان يفلت منه انسان الا ان وعى امر هذا الواقع، وحاول ان يرسم لنفسه منهجا يلتزمه، ملازما فيه هدى الاسلام، صابغا حياته بصبغة الله تعالى، مثيرا في نفسه كوامن الفطرة التي غطى عليها الواقع بغباره، ويتأتى هذابالسير على وفق المنهج الاسلامي، الذي تدخل اوامره ونواهيه وتصوراته وحقائقه تحت الواقعية؛ التي لاتخرج عن قدرة البشرية في فهمها والتزامها بمقتضياتها.

والرسول(ص) قد نبه الى تأثير الواقع على الانسان بأحاديث كثيرة، ولكن نختار حديثا واحدا لشموله لواقع الناس، قال رسول الله(ص): (امتي على خمس طبقات، الطبقة الاولى: اهل علم وهدى، والطبقة الثانية: اهل بر و تقى، والطبقة الثالثة: اهل تواصل وتراحم، والطبقة الرابعة: اهل تدابر وتنافر، والطبقة الخامسة: اهل هرج و مرج).[١]

ويشرح العلامة ابو يعقوب الوراجلاني[٢] هذا الحديث تحت عنوان «نصيب ظروف الزمان في آفة الدين» بقوله: «وانماصار القرن الاول اهل علم وهدى، لانهم اقتبسوا العلم مما سبق لهم من امور الدنيا، يفهمون عن النبي عليه السلام الدين تلقينا علما وهدى، وقبلوه يقينا علما وهدى، فكانت علومهم وبصائرهم اقوى من اعمالهم، فمن استقى من عنصر النبوة من ذات نفسه حصل له العلم

---

(١) الدليل والبرهان، ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني، ج١ ص ٣٢-٣٣، ط وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، والحديث رواه ابن ماجة.

(٢) هو العلامة ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدرتي الوارجلاني، عالم مجتهد من علماء الجزائر يعتبر احد اقطاب اصول الدين واصول الفقه في المذهب الاباضي، كما انه موسوعي فله باع في التاريخ والجغرافيا والرحلات والاستكشاف، والمنطق والرياضيات، وله العديد من المؤلفات المعتمدة في المذهب، توفي عام ٥٧٠هـ.

والهدى بتوفيق الله تعالى وتسديده.

واما اهل الطبقة الثانية: فانما صاروا اهل بر و تقوى لانهم نشأوا في الاسلام من حال الصغر، فالفوا فعل البر وسبقت اليهم المخاوف التي في الآخرة، فغلبت عليهم التقوى.

واما اهل الطبقة الثالثة: اهل تواصل وتراحم، لانهم غلبت عليهم المسودة الظلمة والملوك الفجرة، فحالوا بينهم وبين ما أفاء الله عليهم من الفيء وخراج الارض والغنائم والعطايا، فأعقبهم التراحم بينهم البين والتواصل بماقدر به بعضهم لبعض.

واما الطبقة الرابعة: اهل تدابر وتنافر، وذلك لانهم استولت عليهم الائمة، فلقنوهم الاسم الذي يأتوا به، ولقنوهم بعض احزابهم في مفارقتهم اياهم في بعض مذاهبهم وآرائهم، ولقنوهم ان من لم يكن قويا في دينه ومذهبه ليس منهم على شيء، فوقعت الوحشة بينهم والعداوة والبغضاء، فتنافروا وتدابروا، وعزا كل واحد منهم لصاحبه ما لا يقول، فرجع التدابر والتنافر بينهم البين، بعدما كان بينهم وبين اهل الشرك اعدائهم.

واما اهل هرج و مرج: فحين فتر الايمان عن القلوب وقل العلم وكثر الظلم وقست القلوب لطول المدة وفترت لخلو المادة وانطماس الجادة، فهم يتقلبون في قدرة ابليس، ولم يرض لهم بدون الهرج والمرج.

والله اعلم بمدد هذه الطبقات، وعدد هذه المدات، وما وراء ذلك من التعمق في الفتنات، التي اضطربت بأفاضل هذه الامة في الاوقات).[1]

---

(١) الدليل والبرهان ج١ ص٣٢–٣٣.

ثم يضيف الشيخ ابو يعقوب الوارجلاني بفهمه الثاقب وقدرته على التحليل، يضيف تأثير البيئة والسياسة والصحبة على واقع الناس فيقول:

(واما نصيب ظروف المكان في آفات الدين: فكالذي جرى لبعض التجار مع النصارى في بلاد ارمينية، فلقنوهم مذاهبهم، فقبله من قبله منهم.

وكذلك من جاور اهل البوادي، فان الغالب عليهم الحل والترحال والشقي في اقتناء الاموال والغارات طول الزمان والقتل والقتال.

وآفة اخرى: الملوك الجورة والظلمة الذين يحملون الناس بجورهم على غير دين الله تعالى حتى يتخذ الناس طرائقهم وسننهم دينا، ويألفون ذلك ويحسبون انهم على شيء وليسوا على شيء، كسيرة الوليد بن عبدالملك والحجاج ابن يوسف في الجمعة انهم يؤخرونها الى آخر النهار.

واما الاخوان والاصحاب والاخدان والاتراب، فحسبك فيهم قول الله عز وجل حيث يقول حكاية عن بعض الكفار: (يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلانا خليلا.[١])[٢]

وهذا الحديث ليس حكما قاطعا على مجريات الامور، وانما حكاية واقع، فهو من جهة يكشف عن اثر الواقع على الناس، ومن جهة ثانية يحث على ايجاد البيئة الصالحة، فالبيئة الصالحة تؤثر على افرادها ليكونوا مجتمعا صالحا، ويحذر من البيئة الطالحة منفرا من الوقوع في براثن سيئاتها، وليس في الاسلام الاستسلام السلبي، بل الانسان المسلم هو الذى يصنع نفسه ومجتمعه والعالم اجمع، وكما يعتقد محمد اقبال (ان المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار، وليساير

---

(١) الفرقان ٢٧-٢٨.

(٢) الدليل والبرهان ج١، ص ٣٣-٣٤، باختصار وتصرف غير مخل.

الـركب البشـري حيث اتجـه وسـار، بل خلق ليواجـه العالم والمجتمع والمدينة، ويفرض على البشرية اتجاهه، ويملي عليها ارادته، لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم واليقين، ولأنـه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهاته، فليس مقامه مقام التقليـد والاتبـاع، ان مقامه مقام الامامة والقيادة، ومقام الارشاد والتوجيه، ومقام الآمـر والناهي، اذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة، لم يكن له ان يستسلم ويخضع، ويضع اوزاره ويسـالم الدهـر، بل عليه ان يثور عليه وينازله، ويظل في صراع معه وعراك، حتى يقضي الله في امره.

ويـرى محمـد اقبـال (ان الخضـوع والاستكانة للاحوال القاسرة والاوضاع القاهـرة، والاعتذار بالقضاء والقدر، من شأن الضعفاء والاقزام، فالمسلم الضعيف يعتـذر دائما بالقضاء والقدر، اما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الـذي لايـرد، واذا احسن المـؤمن تربية شخصيتـه وعـرف قيمة نفسه، لم يقع في العالم الا ما يرضاه ويحبه).[١]

واقعنا و الواقعية

من خـلال مـا مـر وممـا نعايشـه، نستطيع بسهـولة ان نـرى واقعنـا غارقا في الواقعية، ولكن في الواقعية الخطأ، وليست الواقعية المطلوبة.

بين عمـوم النـاس؛ الواقعية المستمدة من حركة الواقع الخارج عن منهج الله تعالى، ويشفع لهم الفكر الارجائي المستشري بين المسلمين.[٢]

---

(١) روائع اقبال، ابو الحسن علي الحسيني الندوي، ص ٩٢-٩٣ ط المجمع الاسلامي العلمي لكنهو الهند، الطبعة الخامسة، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

(٢) واقعنـا المعـاصـر، محمـد قطب، ص ٩، ط مـؤسسـة المدينة للصحـافة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

وعلى مستوى النخبة الثقافية؛ الواقعية الفلسفية التي تضاد المثالية.

وعلى مستوى الفن وخاصة السينما؛ الواقعية التبريرية التي تعمق الخلل والواقع بين البشر.

وكذلك الواقعية السياسية والاقتصادية التي انجرف اليها الساسة والاقتصاديون بحكم سيرهم خلف الفكر الرأسمالي واقتصاد السوق الحر، وحجتهم ان الواقع فرض عليهم هذاالفكر بغلبة اصحابه، ونسوا أن المسلم يجب ان يقود لا ان ينقاد، وان يكون متبوعا لا تابعا، حسبما ورد من روائع المفكر الاسلامي الكبير محمد اقبال.

اننا محتاجون الى الواقعية حسب التصور الاسلامي حاجة ملحة.

محتاجون اليها لارجاع الناس الى الصراط المستقيم، وفي كتاب الله تعالى الحل لكل مشاكلنا وهو يراعي مقتضيات الانسان والكون بأسره.

ومحتاجون اليها في اصلاح اوضاعنا السياسية والاقتصادية.

ومحتاجون اليها في تهذيب النفوس وتصفية الضمائر.

ومحتاجون اليها في التنظير والتأطير الفكري والثقافي.

ومحتاجون اليها في الاجتهاد الفقهي والاستنباط الشرعي.

ومحتاجون اليها في لم شعث الامة ورتق فتوقها ورص صفوفها، ومحتاجون اليها في الارتقاء بالامة لتكون امة وسطا بين الناس كما كانت.

ويكون ذلك كله باتباع الواقعية المثالية في القضايا الآتية:

الواقعية في العقيدة الاسلامية:

لابد لنا ونحن نخطو خطوات ثابتة نحو الوحدة الاسلامية ان نبين ملامح في

العقيدة الاسلامية، فالعقيدة اساس الوحدة وبدونها لا وحدة ولا امة ولا اسلام.

العقيدة الاسلامية لها سمات محددة تخرج من مشكاة الواقعية، فبكونها ـ كما قلنا ـ تراعي الحقائق الالهية والكونية والانسانية، فهي لا تؤمن الا بالحقيقة الواقعة.

ولذلك جاءت جميع دعوات الرسل واحدة قال تعالى حكاية عن دعوات الرسل عليهم السلام: (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره)[١] ويقول سبحانه و تعالى: (ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[٢] ويقول سبحانه: (وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون).[٣]

انها حقيقة ثابتة لا يمكن تغيرها بتغير الزمان والمكان، وهذا يدعونا الى تأمل حياة الرسل عليهم الصلاة والسلام، كيف عملوا على نشر هذه العقيدة؟ وكيف جابهوا اقوامهم؛ وتحملوا في سبيل عقيدتهم الاسلامية شتى صنوف العذاب والارهاق؟ وكانت النهاية نصرة لهم ولاتباعهم المؤمنين.

ان تجربة الرسالات السابقة فيها ملامح كثيرة ومعالم واضحة للسالكين في طريق الخير من امتنا، لم ترد اخبارهم واخبار قومهم وصراع الحق والباطل فى القرآن الكريم لمجرد ان نتلذذ بقراءتها، وانما لنعملها في واقعنا، ولا يكاد تحدث قضية الا وفي حياتهم عليهم السلام مؤشرات في التعامل معها، ولا تقع نوازل الا وفي حياتهم كواشف لها.

---

(١) هذه العبارة كانت تتردد على السنة الرسل عليهم السلام انظر سورة هود.
(٢) النحل ٣٦.
(٣) الانبياء ٢٥.

خـذ ـ مثـلا ـ قصة مـوسى و هارون ـ عليهما السلام ـ مع بني اسرائيل في قضية الحفاظ على وحدة شعبهما، أليس فيها ما يذعر بعضنا بعضا بدلا من تشتيت الامة وتفريق صفهـا، قـد تشتـد القيـادة فيما بينها ولكن يجب ان يبقى صف الامة واحدا، وعلى الاطراف ان تسعى الى حل مشكلتها وفي المنهج الالهي.

فلنستمع الى هـذه الآيـات الكريمة وهي تشرح لنا هذا الموقف بكل تداعياته وحلوله، انها القيادة الواعية العظيمة، ولنسأل انفسنا اين منها اولئك الذين يفرقون الصف لاجل قضية فرعية، قد يكون دليلها قول عالم فحسب؟!.

يقـول الحق جل وعلا: (قال: فإنا قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامري، فـرجع مـوسى الى قومـه غضبـان اسفـا، قال: يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا افطـال عليكم العهـد ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدي، قالـوا: ما اخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا اوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك القى السـامـري، فاخـرج لهم عجـلا جسدا له خوار فقالوا: هذا الهكم واله موسى فنسى، أفـلا يـرون الا يـرجع اليهم قولا ولايملك لهم ضرا ولانفعا، ولقد قال لهم هـارون من قبل: يـا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا امري، قالـوا: لن نبـرح عليـه عـاكفين حتى يرجع الينا موسى، قال يا هارون: ما منعك اذ رأيتهم ضلـوا، ألا تتبعن افعصيت امـري، قال: يبنؤم لاتأخذ بلحيتي ولا برأسي اني خشيت ان تقـول: فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي: قال: فما خطبك يا سامـري، قـال: بصـرت بمـا لم يبصـروا بـه فقبضت قبضة من اثـر الرسول فنبذتها وكـذلك سولت لي نفسي، قال: فاذهب فان لك في الحياة ان تقول: لا مساس وان لك موعـدا لن تخلفـه وانظر الى الهك الذي ضلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفـا، انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما، كذلك نقص

عليك من انباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا).[١]

وهذا موقف لايحتاج الى تعليق وانما يحتاج الى تطبيق.

والعقيدة الاسلامية لاتؤخذ الا من وحي الله تعالى الذي نزل على هؤلاء الرسل الكرام قال تعالى على لسان عبده عيسى بن مريم عليه السلام: (ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم).[٢]

اذن؛ العقيدة الاسلامية حقائق كاملة وواقعة، وما يزيد عليها نقصان، لأنها لاتقبل الاضافة من اي كان ولو بلغ من العلم والفضل ما بلغ، يقول العلامة ابو يعقوب الوارجلاني: (ولم يؤثر عن احد من اصحاب رسول الله(ص) انه شرع لاحد من مسائل الاعتقاد شيئا).[٣]

لم يدفع بالامة الى التشرذم والتمزق الا عندما اخترع المسلمون لانفسهم مصطلحات و آراء ثم اعتقدوها عقيدة لايجوز النكوص عنها، يقول العلامة ابو يعقوب الوارجلاني: (اعلم ان الغالب على هذه الامة حيث افترقت وتوزعتها الائمة، الغالب عليها التقليد، فاستبصرت كل فرقة في مذهبها، فأصيبت من جهة التقليد لغير مأمونين من الخطأ والزلل، وتركوا البحث فيما جاءهم عن ائمتهم، عادة الله تعالى في الذين خلو من قبلهم تقليد الآباء والامهات والسلف الصالح والطالح).[٤]

ويقول العلامة احمد بن حمد الخليلي: (وليس هذا النزاع في اصول الدين

---

(١) طه ٨٥–٩٩.

(٢) المائدة ١١٧.

(٣) الدليل والبرهان ج ٢ ص ١٦.

(٤)الدليل والبرهان ج ٢، ص٩٩، بتصرف.

مع وحـدة المصـدر الـذي تنهل منـه العقـول المتنـازعة الا نتيجة لتباين المدارك واختلاف التصورات عند ائمة الفرق، ثم يؤصله تعصب الجماهير لاقوال ائمتهم بحيث تجعل كل طائفة قـول امامها اصلا تطوع له الادلة المخالفة بكل ما تخترعه من التـأويـلات المتكلفة، فتـوزعت الامة شيعـا واحـزابـا (كل حـزب بما لديهم فرحون.[1])[2].

ولو انا تجردنا من هوى الاتباع والتقليد الاعمى، واخذت كل طائفة من الامة تبحث عمـا فيـه نجاتهـا، لوصلنـا الى نتيجة واحـدة تسلمنـا الى الاتفـاق والتواد والتـراحم، وان لم تكن نتيجة واحـدة قـاطعة، فانهـا ـ ولا ريب ـ لاتكون متنافرة متنـاحـرة، فمن يستمـد عقيدتـه من كتاب الله تعالى لايمكن ان تؤدي به الى قطع عـذر اخيـه الـذي يستمـد هو الآخر من كتاب الله تعالى، على اننا نؤكد دائما ان الانسـان مطـالب باتبـاع الـدليل وان خالف ما عليه سلفه، يقول العلامة نور الدين السالمي:[3]

ولا تنـاظـر بكتـاب اللـه ... ولاكلام المصطفى الاواه

معنـاه لاتجعل لـه نظيـرا ... ولو يكون عالما خبيرا[4]

---

(١) المؤمنون ٥٣.

(٢) الحق الدامغ، احمد بن حمد الخليلي، ص ٧، ط ١٤٠٩، مسقط، سلطنة عمان.

(٣) هـو العلامة عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي، عالم مجتهد مطلق، اتسمت مؤلفاته بالتحقيق العلمي الرصين، كـان داعية الى الوحدة والجامعة الاسلامية، حارب الاستعمار الانجليزي حتى استطاع ان يقيم دولة الامامة ١٣٣١هـ لـه تـأليف في معظم الفنـون كأصـول الدين واصـول الفقـه والفقـه واللغة والادب والتـاريخ، وكـان مصلحـا اجتمـاعيـا، ولـد بالحوقين من اعمال الرستاق عام ١٢٨٦هـ وتوفي بتنوف من اعمال نزوى العاصمة العمانية آنذاك عام ١٣٣٢هـ.

(٤) جوهر النظام في علمي الاديان والاحكام، عبدالله بن حميد السالمي، ج ١، ص ١١، ١٩٨٩م.

وهـذا لا يمنع من ان ننظـر الى مـا عند السلف، ولكن ليس بقصد التقليد وانما بقصـد التقييـد، وليس للسلف العصمة فمـا ورد عنهم من خطأ يرد ولا يلتفت اليه يقـول العـلامة ابـو يعقوب الوارجلاني: (اننا اتبعنا اوائلنا وحاسبناهم واتبعناهم تقييدا ولم نتبعهم تقليدا).[١]

لم تتحـول العقيـدة الاسـلامية عن واقعيتها البسيطة السهلة الا عندما دخلها الجـدل واخذ كل فريق يضرب اخاه بقوارع الكلام وافانين السباب، واحيانا بحد السلاح والسنان.

علينا ان نرجع العقيدة الى معينها الصافي ومنبعها الدافق ففيه غنى عن اقوال الرجال، هذا طريق الوحدة ان اردناها حقيقة.

العقيدة الاسلامية عقيدة توقيفية لايجوز فيها الاضافة ـ كما قلت ـ ولا يجوز ايضا فيها القياس، لأن القياس من اعمال العقل الانساني الذي يخالطه الوهم وهو وان كـان محاطاً بشروط وموانع تؤدي به الى الاستنتاج السليم الا ان هذه السلامة نسبيـة وليسـت دائـمـة، والقيـاس يصلح في القضـايـا العملية لا التصـورات والاعتقادات والعلم اليقيني.

ومثلـه مـا يمكن ان يخـالطـه الـوهم والتـدليس والنسيـان والخطأ وهو خبر الآحـاد، فقـد اتفق جمهـور الامة على عـدم الاخـذ به في مجال الاعتقاد، يقول العـلامة المحـدث سعيـد بن مبـروك القنوبي:[٢] (ان الاحاديث الآحادية لا يجوز الاحتجـاج بهـا في مسـائل الاعتقـاد، وذلك لعدم القطع بثبوتها وهذا هو مذهب

---

(١) الدليل والبرهان ج ١، ص ٥٠.

(٢) العـلامة المحـدث سعيد بن مبروك بن حمود القنوبي من شرقية عمان، نابغة في مختلف فنون العلم واخصها علم الحديث، وهو مجتهد، له مؤلفات عديدة، على قيد الحياة.

جمهور الامة).[١]

هـذه ضوابط اقرتها الامة الاسلامية ـ في مجموعها ـ وهي ضوابط ولاشك تؤدي بنا الى التقارب في الفكر والاستنتاج وبالتالي الى الالتقاء.

واقعية العبادات

أهم أسـاس لوحدتنا الاسلامية هو العقيدة، وقد رأينا أن الخطوط الواضحة للعقيـدة متفق عليهـا بين الامة الاسـلامية، والسلوك العملي العبادي لافراد الامة الاسـلامية يعتبـر ثمـرة لهذه الشجرة المباركة التي اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين.

وقـد تيبست طـراوة الحـلاوة الايمانية في العبـادة بفعل الشعور بالعادة فيما يؤتي من العبـادات والشعائر، فالمسلم لرتابة ما يأتيه من العبادة وفي زحمة الحياة ودبيب واقعهـا المادي، يجمد فيه شعور النداوة الايمانية، فتغدو العبادة بالنسبة له عملية عـادية يؤديهـا بدون ان يفكر في مقاصدها، واحيانا بدون ان يشعر بألفاظها واذكارها.

اضف الى هذا عدم الاستشعار بأن ما يجري في الحياة من حركات وسكنات يمكن ان يتحـول الى عبـادة يؤجر عليها، فمن المعلوم ان النية الخالصة لله تعالى تحول العادة الى عبادة.

لابـد من ايقـاظ الشعـور الايماني لدى الناس، ويكون ذلك بالتربية الايمانية،

---

(١) السيف الحاد على يكل من اخذ بالحديث الآحاد في مسائل الاعتقاد، سعيد بن مبروك القنوبي، ص١-٢، ط. مكتبة الضـامـري للنشـر والتـوزيع، السيـب - سلطنة عمـان، الطبعة الاولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

والـدروس المسجدية وحلقـات الذكـر والصفا، وان نربط واقع حياتنا بالصلة بالله تعـالى، وان يلتـزم المـؤمن على الاقل بالحد الادنى من العبادات والشعائر، وهي من واقع المنهج الاسلامي.

فالعبـادات ليس تكليفـا فـوق الطـاقة، بل ضرورة لابد منها حتى يصبح الفرد ربانيا لله تعالى، فالامة التي تترك امر عباداتها لاخير فيها، وسوف تنساق الى مادية مجدبة، كما لا يكفي ان تسطر هذه العبادات بشروطها واركانها ونواقضها في كتب الفقـه، بل يجب ان تتحـول الى حيـاة فـاعلة في نفس المـؤمن تلامس فيه شغاف قلبـه، وتحرك منه نوابغ عقله، وتهز رواكد نفسه، فتصنع منه رجلا عابدا لله تعالى بكل معاني العبوديةله تعالى(وما أُمِروا الاليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء).[1]

والعبـادة الصحيحة المتقبلة عند الله تعالى هي العبادة التي تثمر التقوى، قال تعـالى: (يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)،[2] والتقـوى هي التي تـدفع الانسـان الى المسـارعة الى رضـوان الله تعالى والى تجنب مـا يسخطـه والى حسن معـاشـرة جميع عبـاد اللـه، وإلى ان يستعلي على رغبات نفسه ونزواتها.[3]

والعبـادة جعلهـا الله تعالى مسايرة لمقتضيات حياة الانسان حتى يتمكن من عمـارة هــذا الكـون وهي داخلة في حـدود واقعة، فالاسـلام يـرفض الـرهبانية المنقطعة عن الدنيـا، كمـا انه يرفض المادية المنحلة من كل وازع ديني، فالاسلام

---

(١) البينة ٥.

(٢) البقرة ٢١.

(٣) العبادة وأثرها في حياة المسلم، احمد بن الخليلي، ص ٣٣، ط مكتبة الاستقامة، روي، سلطنة عمان، الطبعة الاولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

دين الوسط.

يقول العلامة الخليلي: (اقتضت حكمة الله عز وجل ان يكون سير هذه العبادات التي يمارسها الانسان بحسب الحاجة اليها، فكما كانت الحاجة ادعى كانت ممارسته ايسر واهون، لان في هذه العبادة تغذية للروح، وكما ان غذاء الجسد يسره الله سبحانه و تعالى بحسب الحاجة اليه، كذلك غذاء الروح يسره الله سبحانه و تعالى بحسب حاجة الروح اليه).[1]

العبادة من طرق الوحدة

والعبادة هي الاخرى تؤدي الى الوحدة الاسلامية، فالمؤمنون يتجهون الى الله تعالى بنفس الشعائر والهيئات، ويقرؤون ذات الاذكار والآيات، وبذلك تتحقق الوحدة الشعورية بين المسلمين، وتتوحد المشاعر، وتتقارب النفوس، وتتحد المصالح الاسلامية.

وقد اكد العلماء المستنيرون على هذه الحقائق، واعتبروا العبادة من اهم دواعي الوحدة الاسلامية وموصلة اليها.

يقول العلامة احمد بن حمد الخليلي: (ان الشعائر الدينية في الاسلام من ابرز العوامل واقوى الوسائل للتآلف والترابط والتواد والتعاطف بين افراد الامة المسلمة الذين يدينون بهذه الشعائر ويمارسونها بأمانة واخلاص نابعين من الشعور بالمسؤولية امام الله سبحانه، ومما يؤكد ذلك الصيغة التعليمية التي جاءت في القرآن لارشادنا وتوجيهنا في توجيه العبادة الى الله عز وجل، فقد

---

(١) العبادة وأثرها في حياة المسلم، ص ٢٤-٢٥.

جـاءت هـذه الصيغة في سورة تتكرر في كل ركعة من ركعات الصلاة التي هي ام العبـادات واقـدسهـا، تلكم الصيغة هي قوله تعالى: (اياك نعبد واياك نستعين) فان ضميـر الجمع فيهـا يبعث في نفس المـؤمن العبـاد المستعين شعورا باندماجه مع سائـر العابدين الذين يشتـركـون معه في هذه العبادة، وليس بخاف ما يترتب على هذاالشعور من التآلف والتراحم، وما ينبعث منه من روح الاخاء الديني).[1]

واذا كـان هذا في مجمل الشعائر التعبدية، فان كلا منها يعمق مفهوم الوحدة والاخاء بين المسلمين.

فالصـلاة تـذيب الفـوارق بين الغني والفقيـر والقـوي والضعيف والحـاكم والمحكـوم، كلهم يصطفـون في صف واحد، يأتمرون بأمرة واحدة، لايختلفون في ركوعهم وسجودهم.

ان معاني الـوحـدة الاسلامية تفيض من روحانية الصلاة؛ هذه الصلاة السهلة الاداء العميقة المعنى، التي تخلو من اي بعد فلسفي او تكلف رهباني، انها الرابط الـذي يشـد القلوب المؤمنة بعضها البعض لتكون بمجموعها موصولة بالله تعالى بوشائج الايمان والتقوى.

هذه القيمة العظيمة التي تأتي في اعلى سلم المثالية التعبدية، تنبض بالواقعية الانسانية.

يقـول العلامة الخليلي: (واشتراك جميع المصلين بين الامة يؤدي الى تفاعل جميع افـراد الامة في اسـرهم ومجتمعاتهم، وبهـذا يتمـاسك جميع اجـزاء الامة فتكـون متحـدة في مبـادئهـا وفي آمالهـا وآلامها، يشد قويهاازر ضعيفها، ويسد

---

(١) عـوامل تقوية الـوحـدة الاسـلامية في الشعـائـر الدينية، احمـد بن حمد الخليلي، ص ٨-٩، ط مكتب المفتي العام لسلطنة عمان، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

غنيها حاجة فقيرها، يوقر صغيرها كبيرها، ويرحم كبيرها صغيرها، وفي ذلك تجسيد لما يدعو اليه قوله تعالى: (انما المؤمنون اخوة)[١] وقوله: (ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون)[٢] وقوله: (ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون.[٣])[٤]

والزكاة ـ وهي العبادة المالية ـ تقدم لعالم الاقتصاد حلا كبيرا لمشاكله، فهي تمنع الاغنياء ورجال المال من الانغماس في مادية الاموال، وتبقي في قلوبهم جذوة الايمان مشتعلة، انها تشعر الانسان المسلم ان المال الذي بين يديه ليس ماله، وانما هو مال الله وهو مستخلف فيه، يقول الحق جل وعلا: (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه).[٥]

والزكاة تمزق الانانية والشح والبخل، وتمنع التقاتل على المال، انها تقدم لعالم المال والاقتصاد المثل الاعلى في التعامل مع الموجودات المسخرة تحت ايديهم، وبالاضافة الى ذلك لم يحلق بهم الاسلام في عالم المثل المعدومة، بل اوجدهم ـ واوجد لهم ـ في مثالية واقعية، طلب منهم قدراً محدداً يقف في اغلب الاصناف عند ٢/٥٪ ولايتجاوزه كثيرا في اصناف قليلة، ولكنه مع ذلك فتح المجال لمن اراد ان يرتقي نحو كمالات النفس المعطاءة والكريمة وذلك بالصدقة غير المحددة، وخاصة في حالات الحاجة الاجتماعية.

نعم، انها تقدم حلولاً للمجتمع تجعله يعيش في تواد والفة وتستل منه

---

(١) الحجرات ١٠.

(٢) الانبياء ٤٢.

(٣) المؤمنون ٥٢.

(٤) عوامل تقوية الوحدة الاسلامية، ص ١٥-١٦.

(٥) الحديد ٧.

السخائم والشحناء، وهي النماء في كل شيء؛ في المال، وفي طهارة النفس، وفي سلامة الاخلاق،واواصر المجتمع، وفي وحدة الامة.

يقول العلامة الخليلي: (ومهما يكن فان الانفاق سواء كان من الزكاة او من غيرها يربي الضمير الانساني، ويجعل الفرد يحس بأحاسيس مجتمعه، يتألم بآلامه ويسر بسروره، فيتجسد في المجتمع معنى حديث رسول الله(ص): (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)[١] وقوله عليه الصلاة والسلام: (لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه).[٢]

وما اعظم سرور الاغنياء عندما يرون اخوانهم الفقراء ينعمون برغد العيش، ويرفلون في حلل النعيم بما اجراه الله لهم على ايديهم من رزق فيما آتاهم الله من مال، فكانوا بذلك سببا لسد حاجة اخوانهم بما يوصلهم الى رضوان الله في الدار الآخرة، وما ينيلهم مودة الناس في الحياة الدنيا، وما اسعد اولئك الفقراء الذين يرون حاجاتهم تقضى وخلتهم تسد على ايدي اخوانهم الذين استخلفهم الله في ماله، ووسع عليهم من رزقه من غير من ولا اذى، ولا تعال ولااستكبار، ومن غير ان يشعروا بذل او صغار.

ان مجتمعاً هذا شأنه حقيق بأن يسوده التواؤم بين افراده، والتلاحم بين طبقاته، وان امة هذه مبادئها لجديرة بأن تسود العالم وان تقود الانسانية،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه الشيخان عن طريق انس رضي الله عنه.

وان تكون رسالتها رحمة للعالمين).[1]

وبالصوم يطمح الانسان دائما نحو السمو النفسي، ويطلب الرقي الروحي، ويسعى للتخلص من الاكدار المادية، ليعرج بروحه من عالم الماديات الى عالم الروحانيات، ومن مصاف المردة الى منازل البررة، حتى اتخذه الروحانيون بمختلف اديانهم معراجاً لهذا السمو، الا ان تلك الاديان ـ ما خلا الاسلام ـ قد غالت فيه حتى انقطعوا عن نعم الدنيا، ونحلت اجسامهم حتى اصبحت اشباحا لا تكاد ترى وهياكل تصطك عظامها، ارادوا ان يحيوا الارواح فقتلوا الارواح والاجساد، وتركوا الدنيا للماديين يعبثون بها كيفما شاءوا، وهم فوق هذا عاشوا لذواتهم فقط منعزلين عن الجماعة.

اما الاسلام فقد انزل الصوم من عالم المثال الخيالي الى عالم المثال الواقعي، فهو لأيام معدودة وعن اشياء محدودة، لاترهق الجسد ولاتطمس شعلة الحركة والعطاء فيه، وجعله شعيرة جماعية تنشد الامة فيها سبيل الفتها ولحمة اخوتها.

ان الاسلام يطلب الوحدة الشاملة، التي ينتظم فيها كل فئات المجتمع وافراده، وعناصر الشعوب وجنسياتها، وتفاوت الثقافات وتباينها، لأجل ذلك جعله ميسرا مستطاعا يعايش الواقع الانساني بأشواقه وطموحه وبقدراته واستطاعته.

يقول العلامة محمد عبده: (ومن وجوه اعداد الصوم للتقوى ان الصائم عندما يجوع يتذكر من لايجد قوتا فيحمله التذكر على الرأفة والرحمة الداعيين الى البذل والصدقة، وقد وصف الله تعالى نبيه بأنه رؤوف رحيم، ويرتضي لعباده

---

(١) عوامل تقوية الوحدة الاسلامية، ص٢١–٢٢.

المؤمنين ما ارتضاه لنبيه(ص)، ولذلك امرهم بالتأسي به ووصفهم بقوله: (رحماء بينهم).[(١)]

وبهذا التعاطف بين الاغنياء والفقراء والاشتراك في الاحاسيس والمشاعر يحصل الانسجام وتتحقق الوحدة المنشودة.

ومن فوائد عبادة الصيام الاجتماعية المساواة فيه بين الاغنياء والفقراء والملوك والسوقة، ومنها تعليم الامة النظام في المعيشة، فالجميع يفطرون في وقت واحد لا يتقدم احد على احد دقيقة واحدة، وقلما يتأخر عنه دقيقة واحدة).[(٢)]

واما شعيرة الحج فمن الواضح تماما انها شعيرة وحدة كما انها شعيرة توحيد، حيث يجتمع المؤمنون من كل فج عميق، في صعيد الاماكن المقدسة، هناك تعرج الارواح شوقا الى باريها، وتتجرد الاجسام من كل زيف دنيوي، ولا تبقى الا بثوب واحد من قطعتين، تردد الالسنة بعبارة واحدة «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك له لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» يؤدي المسلمون نفس الشعائر، ويقفون في صعيد واحد في نفس الوقت، هناك تلاشي العنصرية ويبقى عنصر التوحيد والتلبية وحده، وتنطمس الجنسيات الا جنسية «لا اله الا الله» وتنعدم نعرات الجاهلية المفرقة لترتسم لدى الشعوب المؤمنة نعوت الايمان المعتصمة بحبل الله تعالى، وتدبر الناس عن كل شيء؛ عن الولد والمال والوطن والزخرف، وعن الفقر والغنى، لتعلن من نفسها الفقر امام الغني الواحد جل وعلا، وتتصل بالعروة الوثقى فيما بينها، عارفة لحقيقة التوحيد والوحدة، وان الله تعالى لا ينظر الى القلوب المختلفة.

---

(١) الاحزاب ٢٩.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج ٢، ص ١٤٧–١٤٨، الطبعة الرابعة.

في الحج فـرصة للتعارف بين المؤمنين، وهناك على كل مؤمن ان يقدم نفسه لاخيه المؤمن، وهناك يجب ان تنتقل الخبرات الاسلامية في الاصلاح والتجديد الديني، وهناك ايضا ينبغي الا يستنكف المؤمن من تقبل اخيه المؤمن.

الفرصة العظيمة للانطلاق الى الوحدة الاسلامية تكون من العرصات المباركة والعتبـات المقدسة، وهذاالمؤتمر الاسلامي الكبير لايصعب على المرء حضوره وشهـود وقائعـه، فهو لايجري داخل الصالات المغلقة والردهات الخفية، ولا في البـروج العـاجية، ففيـه تطـرح القضايـا العملية ويشـرح الـواقع كما هو ليطلب له الحلـول الـواقعية ايضـا، فالحلـول في هذاالمؤتمر المفتوح ليست حلولاً تصاغ بمعـزل عن الامة وهمومها، ولاتبتكر وفق فلسفة مثالية غالية، او وفق فلسفة واقعية هشة، ولا تستجـدي من الشـرق والغرب، بل الحلول الاسلامية موجودة ومجربة منـذ مئـات السنين، وفي الحج ينبغي ان تنطلق الامة تحت قيـادة واحدة تدفع بها نحـو الآفاق والمجد والسعادة التي ينشدها المؤمنون، ونحو القيادة والريادة التي تتزعم بها الامة الامم التي ورثتها بحكم كتاب الله تعالى.

يقـول العـلامة الخليلي: (وبمـا ان الحج يجمع اصحـاب الاختصـاصـات المتنـوعة من جميع اقطـار الارض من رجـال الفقـه والفكـر والسيـاسة والادب وغيـرهم، ففيـه فـرصة اللقاء بين افراد كل طبقة من هؤلاء لتدارس مشكلاتهم في مهبط الوحي ومطلع النور ومنطلق الدعوة، على ضوء تعاليم الاسلام، واستنتاج الحلـول النـاجعة من كتاب الله الخالد وسنة نبيه المطهرة ومنهاج السلف الصالح، وبهـذا تتحقق حكمة الحج المشار اليه (ليشهدوا منافع لهم)[١] وما احوج امتنا في

---

(١) الحج ٢٨.

مثل هذا العصر الى هذه اللقاءات التي تمسح الخلاف وترأب الصدع وترتق الفتن وتقيم الناس على سواء الصراط، وانما الامر يقتصر الى شيء من التنظيم لاتاحة مثل هذه الفرص).[١]

فطرية الاخلاق الاسلامية

لقد بعث رسول الله (ص) بالشريعة السمحاء، وسماحة الاسلام داخلة في كل شيء، فهي كالماء الذي يعطي الشجرة طراوتها ونضارتها، والاخلاق الفاضلة بطبيعتها سمحة الا انها تكتسب في الاسلام سماحة فوق سماحتها، فتجتمع فيها سماحة الفطرة وسماحة الاسلام، انه الكمال الاسلامي.

وبعث الرسول(ص) جاء لثلاثة جوانب عامة؛ اصلاح العقيدة، وتيسير العبادة، واكمال الاخلاق، فالاخلاق ثالثة الاعمدة الاسلامية العظيمة، يقول الرسول(ص): (انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق) ويقول الحق في حقه عليه السلام (وانك لعلى خلق عظيم).[٢]

فكل خلق من الاخلاق التي حث عليها الاسلام يناغي جزء من الفطرة التي فطر عليها الانسان، فالكرم والصدق والشجاعة والاحسان... ونحوها، لها بواعث فطرية في النفس السوية، تسلم الانسان الى الاتزان في تعامله مع الحياة، ووضع الامور في مواضعها الصحيحة، وهذا من مقومات الالتقاء الاسلامي المطلوب.

ولاشيء اخطر على الامة من تفشي الاخلاق المرذولة وانتشار الرذائل الفاسدة، وخاصة تلك التي تثير الضغناء والاحقاد، وقد جاء الاسلام محذرا منها

---

(١) عوامل تقوية الوحدة الاسلامية، ص٣١.
(٢) القلم ٤.

التحذيـر الشديـد بقوله جل وعلا: (يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونـوا خيـرا منهم ولانسـاء من نسـاء عسى ان يكن خيـرا منهن ولاتلمـزوا انفسكم ولا تنابـزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظـالمـون، يـا ايهـا الذين آمنـوا اجتنبـوا كثيـرا من الظن ان بعض الظن اثم ولاتجسسـوا ولا يغتب بعضكم بعضـا ايحب احـدكم ان يـأكل لحم اخيـه ميتـا فكرهتموه فاتقوا الله ان الله تواب رحيم، يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عندالله اتقاكم ان الله عليم خبير).(١)

ويقول عليه الصلاة والسلام: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر).(٢)

ومن الـدليل على فطرية هذه الأخلاق، ان جميع البشر متفقون على تصنيف الاخـلاق الى فـاضلة ومـرفـوضة، فالشجـاعة والجـود والشهامة واغاثة المحتاج ونصـرة المظلوم والعدل، اخلاق محبوبة من كل الناس، والظلم والكذب والرياء والنفـاق ونحـوهـا، اخـلاق منبـوذة كـذلك عند كل الناس، وإن اختلفت نسب الاخـذ بهـا او تركها، وهي على ذلك ـ وستبقى ـ ما دامت لم تدخلها التفسيرات المـادية ولم تلوهـا الفلسفات المستهجنة، لتجعل من الاخلاق السامية مثلا صعبة المنال ومن الاخلاق السافلة واقعا لامفر منه.

والاسلام يلزم الفرد الالتزام بالاخلاق الحميدة كما انه يطلب من المجتمع ان يوفر البيئة الصـالحة لرسوخ المبادىء والقيم والاخلاق النبيلة، وان يجفف منابع الـرذائل والسلـوك الخاطىء، وان يكون ذلك بالسير على هدي الله تعالى وهدي رسوله(ص)، وهكذا تتحقق المثالية الواقعية في الاخلاق الاسلامية.

---

(١) الحجرات ١١-١٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم وابن ماجة.

ومن دلائل فطرتها ايضا ان الاسلام التزم بالتعامل بهذه الاخلاق مع جميع الناس، بغض النظر عن اديانهم واجناسهم، فالمسلم لايظلم وان كان خصمه كافرا، ولايكذب ولو على فاجر، ولايثير الفتنة ولو في مجتمع غير اسلامي.

فدائرة الاخلاق دائرة انسانية، جاء الاسلام ليحميها من الانحرافات التي قد تطرأ عليها من المرضى نفسياً واجتماعياً واخلاقياً.

يقول الشيخ الداعية محمد الغزالي: (قد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له، ولاشك ان في الاسلام طاعات معينة، الزم بها اتباعه وتعتبر فيما بينهم امورا مقررة لاصلة غيرهم بها.

غير ان التعاليم الخلقية ليست من هذاالقبيل، فالمسلم مكلف ان يلقى اهل الارض قاطبة بفضائل لاترقى اليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم... الخ).[1]

انها الرسالة العالمية التي تسعى الى الانتشار والعموم بين البشر، لم يأت الاسلام ليبق في صومعة او مسجد، او ينحصر داخل التكايا والزوايا، بل ليعم خيره البشرية، ولا نستطيع ان نبشر بهذه الفضائل وهي غير متحققة بين المسلمين بعضهم البعض، فهل يتقبل من امة تضع نصالها في رقابها، وتحز غلاصمها بمداها؟! وهل يتقبل ممن يتراشقون بقوارع الكلام وبهتان السباب؟! قطعا لا، واذا اختفت الشحناء والضغائن وصفت النفوس لايكون بين اتحاد الامة والتئام تصدعها الا قاب قوسين او ادنى.

---

(١) خلق المسلم، محمد الغزالي، ص٣١، ط دار القلم، دمشق، سوريا، الطبعة السادسة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

السماحة الاسلامية

مـا استعـرضنـاه من الجوانب العقدية والعبادية والاخلاقية، رأيناه كله يدعو الى الـوحـدة الاسـلامية ويقارب بين المشاعر الاخوية، ولكن ما بالنا في واقع من التناحر مرير، وظلمة من القطيعة يكاد لاترى فيها سناء الاخاء.

في رأيي راجع هذا الحال المتدني الى المثالية الغالبية التي يعيش فيها أرباب المـذاهب، فهم يعتقـدون بصحة مـا لديهم ويرونـه وحده الاسلام، وما عداه كفر وانحراف وزيغ وضلال وبدعة يخرج صاحبها من الدين، هذه المثالية التي يعيش فيهـا هؤلاء منفصلة تمام الانفصال عن واقع المسلمين، ومنبترة عن سماحة الدين ورشده وهديه.

ونحن لاننكـر عليهم تعلقهم بمـذاهبهم وآرائهم فذلك لهم - وان كنا نقول بوجـوب التـزام الدليل الشرعي - لكننا نطالبهم ان تكون لهم خصوصيتهم داخل اطـار الاسـلام العـام، علينـا كلنا ان ندور حول محور الاسلام ونرتع في حظيرة الايمان.

يجب علينــا ان نخطـو خطـوة جريئة وايجابية ونقـول بصـراحة: ان اتبـاع المـذاهب ليس ممـا يكفر به المسلم ويخرجه عن ربقة الاسلام، فالمذهب مدرسة داخل الجـامعة الاسـلامية الكبـرى، وللنـاس عقول في اختيار من اي المدارس، يقـول العـلامة ابـو يعقـوب الـوارجلاني: (واما المذاهب: وهي طريقة الامة في الشـريعة من الفقهيـات ومـذاهبهم في التفسيـر ومـا يـؤول الى ذلك، لاتفسيق ولا تضليل، وهو سائغ الاخذ به، والعمل للخاصة والعامة التخيير بين المذاهب).[1]

---

(١) الدليل والبرهان ج٢، ص٦.

ولـو نظرنـا الى حقيقة الامر لرأينا ما يتشبث به دعاة الفرقة والاختلاف قشورا والفاظا ليس لها في حقائق المعاني وزن، وكم جرت الالفاظ على امتنا من التمزق والتصـدع؟ وعنـدمـا نريـد ان نحـاسب الآخرين نحاسبهم على اصطلاحنا لهذه الالفـاظ! مع ان القـاعـدة (لكل قـوم اصطلاحهم ولامشاحة في الاصطلاح) فهل يعـذر بعضنا بعضا في هذه الاصطلاحات، ولانتشدد فيها؟ فإن مرونة الدين وواقع المسلمين يطلب منـا ذلك، وقـد حـذر قديمـا العلامة ابو يعقوب الوارجلاني من التشتت النـاشيء عن الاختـلاف اللفظي، حيث يقول: (في الخطأ الموهوم فيما اختلف فيـه الامة من الاسمـاء والتسميـات في الدين والاسـلام والايمان، والكفر والشـرك والنفـاق، والاسـامي كمـؤمن وكـافـر ومسلم ومنافق ومشرك، و اسماء الابـدان واسمـاء الافعال وخلق القرآن، واسماء الله وصفاته، وامثالها، وليس الا الخطـأ فيهـا، والخطـأ محمول لمن عري من الشروط المهلكة، وهي الاعتقاد انها دين الله،اوقطع الشهادة على احد في ذلك، أوهدم قاعدة من قواعد الاسلام).[١]

واود هنـا ان اعلن من طـرف المـدرسة الابـاضية اننـا كنـا ومـازلنـا على اتم الاستعـداد الى الالتقـاء مع اخـواننـا المسلمين بروح التسامح والمرونة والمودة، ونـدعـو الى طـرح التشنج والتنابـز جانبـا، وللابـاضية على مر التأريخ مشروعهم الحضـاري الذي يلخصه العلامة احمد الخليلي ـ وهو قطب اقطاب الاباضية في هذا الوقت ـ في كتابه الحق الدامغ بقوله:

(ان الابـاضية ـ أهل الحق والاستقـامة ـ تمتاز عقيدتهم وتتسم طريقتهم في فهم اصـول الدين بثلاثة امـور... ـ نذكر منها هنا ما يخصنا ـ ... المرونة والتسامح

---

(١) الدليل والبرهان، ج ٢، ص ٦-٧.

في معاملة سائر فرق الامة وان بلغ الخلاف بينهم وبينهم ما بلغ، اذ لا يتجرأوا على اخراج احد من الملة وقطع صلته بهذه الامة ما دام يدين بالشهادتين ولا ينكر شيئا مما علم من الدين بالضرورة بغير تأويل، اما من استند الى التأويل - وان كان اوهى من نسج العنكبوت - فحسبه تأويله واقيا له من الحكم عليه عندهم بالخروج عن حظيرة الامة، وخلع ربقة الملة من عنقه، ومن هذا المنطلق صدر ذلك الاعلان المنصف - الذي رسم مبدأ الاباضية في نظرتهم الى الامة - من اشهر قائد اباضي وهو ابو حمزة المختار بن عوف السليمي، في خطبته التي القاها على منبر رسول الله(ص)، فأصاخ لهم الدهر، وسجلها الزمن، وخلدها التأريخ، اذ قال فيها - رحمه الله -: (الناس منا ونحن منهم الا ثلاثة: مشركا عابد وثن، او كافرا من اهل كتاب، او اماماً جائراً).[1]

وقد مشى الاباضية في هذا النهج السليم، والتزموا هذا المبدأ القويم في معاملتهم لسائر طوائف الامة كما يشهد بذلك التأريخ، ونجد هذه النبرة المنصفة تتردد في اصوات قادة الفكر منهم في الخلف كما كانت عند السلف، فهذا الامام نور الدين السالمي - رحمه الله تعالى - يجدد لنا موقف الاباضية من سائر الامة بقوله:

ونحن لانطالب العبادا	فوق شهادتهم اعتقادا
فمن أتى بالجملتين قلنا	اخواننا وبالحقوق قمنا
الا اذا ما نقضوا المقالا	واعتقدوا في دينهم ضلالا
قمنا نبين الصواب لهم	ونحسبن ذلك من حقهم

(١) الاغاني، علي بن الحسين الاصفهاني، ج ٢٠، ص ١٠٤، ط بولاق.

فمــا رأيتــه من التحريــر   في كتب التوحيـد والتقرير
رد مســائـل وحل شبــه   جـاء بهـا من ضل للمنتبـه
قمنـا نردهـا ونبـدي الحقا   بجهدنـا كي لا يضل الخلقا
لـو سكتوا عنا سكتنا عنهم   ونكتفي منهم ان يسلموا[١]

وعلى هـذه القاعدة بنى الاباضية حكمهم على طوائف الامة التي زاغت عن الحق وجانبت الحقيقة في معتقداتها، فكانوا اشد احتياطا من اخراج احد منهم من الملة بسبب معتقده ما دام مبنيا على تأويل نص شرعي، وان لم يكن لتأويله اساس من الصحة ولا حظ من الصواب، ومن هنا اشتد انكار الامام الاباضي الكبير محبوب بن الرحيل - رحمه الله تعالى - على هارون اليماني الذي حكم بشرك المشبهة وخروجهم من الملة، وانشأ محبوب في ذلك رسالتين جامعتين ضمنهما حججه الداحضة لرأي هارون، وجّه احداهما الى اباضية عمان، وثانيتها الى اباضية حضرموت[٢] واطبق الرأي الاباضي على تصويبه وتخطئة هارون.

وسئل المحقق الخليلي - رضوان الله عليه - عن حكم هؤلاء المشبهة، هل هم مشركون؟ فكان جوابه لسائله: (اياك ثم اياك ان تعجل بالحكم على اهل القبلة بالاشراك من قبل معرفة بأصوله، فانه موضوع الهلاك والاهلاك)[٣])[٤].

---

(١) كشف الحقيقة لمن جهل الطريقة، عبدالله بن حميد السالمي، ص ٢٥، المطابع العالمية، سلطنة عمان.

(٢) السير والجوابات، لعلماء وأئمة عمان، ج ١، ص ٢٧٦-٣٢٤، ط وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(٣) تمهيد قواعد الايمان وتقييد شوارد مسائل الاحكام والاديان، سعيد بن خلفان بن احمد الخليلي، ج ١، ص ٢٢٤، ط وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(٤) الحق الدامغ، ص ١٠-١٢.

بهـذاالتصور الواضح في المرونة والتسامح نصلح من واقعنا، ونغير حالنا، ان المثالية التي في عقول البعض بأن يجتمع الناس على رأي واحد ـ وهو رأيه ـ لايمكن ان يتحقق في عالم الواقع بأي حال، فهو رأي محشور في مضيق عقله، واذا اردنا ان نرتفع من الواقعية المحضة التي نعيشها الى واقعية المثال، فلابد ان تكون هناك عناصر مشتركة من لين الجانب ونبذ الحرفية القاطعة.

ان الوحدة الاسلامية قريبة المنال نراها رأي العين، ولكن يحول عنها سياج التعصب وحائط الانتصار لما عندنا، وغمط الناس اشياءهم، حتى وصل الحال بأن نرفض ما هو موجود عند الآخرين ولو كان يسنده الدليل الشرعي القوي بحجة مخالفة اهل الاهواء والبدع، انها حجة المفلس.

يقول الاستاذ ابراهيم العسعس عائبا على التيار الذي يرفض الخروج على الحاكم المتسلط الفاسق الظالم بحجة انه لو خرج سيوافق «الخوارج»: (اما ان كانوا خوارج لانهم يرون الخروج على الحاكم المتسلط الفاسق الظالم، فأكرم بها من تهمة، وما الضير في تبني قول الخوارج اذا كان قولهم موافقا للدليل).[١]

ان الالباب لتبقى مشدوهة والعقول حيرى من امر هذه الامة التي تلتصق بالارض، وهي تملك ما تحلق به في عنان السماء، ان هذه الامة وجدت لتكون سراجا وهاجا يضيء حلكة الكون ويبدد غسقه لتسير الشعوب على هداه، فهل من اوبة صادقة الى التسامح واللين والمرونة؟.

نسأل الله تعالى ذلك.

(١) الامة والسلطة باتجاه الوعي والتغيير، ابراهيم العسعس، ص ٢٨-٢٩، ط دار البيارق، بيروت - لبنان، الطبعة الاولى، ١٤١٧-١٩٩٦م.

الغاء الالقاب المذهبية:

تندرج الالقاب المذهبية في قائمة الالفاظ التي تحول عن الوحدة الاسلامية، وتأتي خطورة هذه الالقاب من كونها حملت من اصحابها كل معاني الاجلال والافتخار، في حين الصق بها الآخرون كل معاني الحقارة والبعد عن الدين، واخذ كل فريق يشد من طرف مقطعين بذلك اوصال الامة.

وتشبثت الفرق بهذه الالقاب ـ التي لم ينزل بها من سلطان ـ وكأن الدين جاء بها، فليس من مسميات الاسلام: الاباضية والشيعة والاشعرية والزيدية والمالكية، والشافعية والاحناف والحنابلة، ولاغيرها من المسميات، بل المسميات التي جاءت بها الشريعة: الدين والايمان والاسلام، فخاطب الله تعالى اتباع هذه الملة السمحاء (بالمؤمنين) و (الذين آمنوا) وقال تعالى مؤكدا على هذه الحقيقة ومنبها الى خطورة التفرق في الدين: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولاتفرقوا...)[١] ويقول سبحانه و تعالى: (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه)[٢] ويقول عز من قائل: (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير).[٣]

هذه نظرة الاسلام الحكيمة ـ لانها نزلت من حكيم خبير ـ في الالتزام

---

(١) الشورى ١٣.
(٢) آل عمران ٨٥.
(٣) الحج ٧٨.

بالمسميات الشرعية، انها تدعوا الى الوحدة والاعتصام بالله تعالى، في حين يدعو غيرها الى الاختلاف والضياع، فهل نطلب الهدى بعد ذلك في غير هذه الآيات المحكمة؟! كلا؛ والله.

ومرة اخرى نطرح مشروعا للوحدة الاسلامية وهو الغاء هذه الالقاب، ولكل انسان ان يطلع على ما عند الآخرين، وقد زوده الله تعالى بالعقل السليم وبوجود الكتاب العزيز والسّنة المطهرة بين يديه ليرتوي من مناهلها الحق ويفند بآلتها الباطل.

ونذكر من علماء المذهب الاباضي ممن نادى بالغاء الالقاب المذهبية:

ـ الامام نور الدين عبدالله بن حميد السالمي ونص كلامه:

(وجمع الامة بعد تشعب الخلاف ممكن عقلا مستحيل عادة، واذا اراد الله امرا كان (ولو انفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم)[١] والساعي في الجمع مصلح لامحالة، واقرب الطرق له ان يدعو الناس الى ترك الالقاب المذهبية، ويحثهم على التسمي بالاسلام، فإن الدين عند الله الاسلام، فاذا اجاب الناس الى هذه الخصلة العظيمة ذهبت عنهم العصبية المذهبية).[٢]

ـ الامام العدل محمد بن عبدالله الخليلي[٣] ونص كلامه:

(ومن الامر بالمعروف السعي في توحيد كلمة المسلمين، وفي الغاء

---

(١) الانفال ٦٣.

(٢) العقد الثمين، عبدالله بن حميد السالمي، ج ١، ص ١٢٦–١٢٧، الطبعة الاولى.

(٣) الامام محمد بن عبدالله الخليلي، امام عدل بويع بالامامة ١٣٣٨هـ عالم مجتهد مطلق، لم يترك كثيرا من المؤلفات لاشتغاله بمهام الدولة الاسلامية، كان محبوبا من رعيته، توفي ١٣٧٣هـ

الانتساب الى المذاهب واظهار التعصب لها، اللذين قضيا على الاسلام، وتسلط على ابنائه عبدة الاصنام الاجانب الاكالب، وان لزوم ما كان عليه السلف الصالح والسير بالمسلمين سيرهم هو الذي يعيد علينا عزنا الشامخ ومجدنا الباذخ).[١]

- العلامة علي يحيى معمر، ونص كلامه:

(سبق الى اذهان الناس، بسبب ما يقوله كل اصحاب مذهب عن انفسهم بأنهم اصحاب الحق واهل العدل، واهل الصواب، واهل السنة، واهل الاستقامة، وبما يقولونه عن غيرهم من انهم اهل الزيغ واهل الضلالة واهل البدع واهل الاهواء، وبأنهم فعلا اهل الحق وبأنهم في الجنة، وبأن غيرهم فعلا اهل الباطل وانهم في النار.

وهذه المفاهيم المبنية على انانية مذهبية يجب ان تختفي، وان يقوم بدلا منها مفهوم هو انه ليس هناك في الاسلام الا امة واحدة هي الامة الاسلامية التي وعدها الله تبارك وتعالى بكل خير، وليس فيها مجموعات او طوائف او فرق تدفع بوصفها الجماعي الى الهاوية).[٢]

- العلامة احمد بن حمد الخليلي، ونص كلامه:

(ولاجل المحافظة على وحدة الامة والمجتمع شدد الاسلام الحكم في كل ما يؤدي الى تفككها فحرم السخرية واللمز والتنابز بالالقاب وسوء الظن والتجسس والغيبة والتعالي بالانساب والاحساب).[٣]

---

(١) نهضة الاعيان بحرية عمان، محمد بن عبدالله بن حميد السالمي، ص ٤٤٢، مكتبة التراث، القاهرة، مصر.

(٢) الاباضية بين الفرق الاسلامية، ج ٢، ص ١٢٧.

(٣) عوامل تقوية الوحدة الاسلامية، ص ٧.

ـ الشيخ المفكر احمد بن سعود السيابي،[١] ونص كلامه:

(والـذي اراه في هـذه القضية توحيـدا للمذاهب الاسلامية او تقريبا منها هو الغـاء الالقـاب بين المـذاهب واماتة الانتمـاءات اليهـا، والـرجـوع الى التسمي بالاسـلام، والانتساب اليه فقط، ويكفي ان يكون المسلم مسلما يبحث عن الحق، وهـذا الـرأي هـو اقـوى الآراء واكبر العوامل في القضاء على التفرقة، ومن شأنه التقريب بين المسلمين).[٢]

والقـائمة طويلة بالعلمـاء الـداعين الى هـذه الدعوة المباركة حتى قال الشيخ المفكـر احمد السيابي بعد ان تتبع هذه الدعوة في الفكر الاباضي: (اذن؛ كان لدى علمـاء الابـاضية تقويم ورؤية، تقويم لمـا عليـه الامة الاسلامية من اختلاف بين مذاهبهـا، وذلك مـرده الى الانتماءات المذهبية والتعصب لها، الأمر الذي جعلها فرقـا واحـزابـا، ورؤية الى توحيـد هـذه المذاهـب وجمعها، وذلك بضرورة الغاء الالقاب المذهبية، والاكتفاء بالانتساب الى الاسلام فقط).[٣]

نكتفي هنا بهذه النماذج الصالحة للاقتداء.

هـذه هي الـدعـوة التي نلح عليها، ونرفعها في المحافل الاسلامية وملتقيات الـوحـدة ومجـامع الامة، ولكن ان كـان البعض يـرى هذه الدعوة تحلق في عالم المثال ـ ولست اراها كذلك بل هي من صميم الاسلام وعلاج لواقع المسلمين ـ

---

(١) هـو احمـد بن سعـود السيابي، مفكـر ومـؤرخ عماني، داعية الـوحـدة الاسـلامية، لـه مؤلفات تاريخية وفكرية وفقهية، يشغل الآن الأمين العام لمكتب الافتاء بسلطنة عمان.

(٢) جهـود العلمـاء المصلحين في توحيـد المـذاهب الاسـلامية، احمـد بن سعـود السيابي، انظـر التـقـريب بين المـذاهب الاسـلامية، ص ٨٥، ط المنظمة الاسـلامية للتـربية والعلـوم الثقـافية (ايسيسكو)، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٣) جهود العلماء المصلحين، ص ٨٤.

نقول ان في الامر متسعاً، فيمكن ان نطلق على كل مذهب الالقاب والاسماء المقبولة عند اصحابه، وان نعطيها المعاني التي تحملها عندهم، تاركين المعاني القبيحة التي الصقت بها من خصومهم.

الجامعة الإسلامية:

بعد الحديث عن التسامح والمرونة والمطالبة بالغاء الالقاب المذهبية يستدعينا الامر الحديث عن الجامعة الاسلامية، والسؤال الذي يطرح نفسه:

هل الجامعة الاسلامية فكرة تحلق في عالم الخيال؟ وهل هي من المثل التي تعشش في عقول الفلاسفة؟ وخاصة بعد العديد من المحاولات التي قام بها رجال الصحوة الاسلامية، وبعد مرور عدة عقود من المناداة بها، تقلبت الامة خلالها في لظى الفرقة المحرقة، واكتوت بنار التعصب الملتهبة، هل يمكن ان تكون الجامعة الاسلامية حقيقة واقعة؟ واذا كان في الاسلام ـ بتوجيهاته السامية ودلائله النيّرة ـ مما يهيىء القاعدة المتينة لقيام هذه الجامعة؛ فهل المسلمون مستعدون لذلك؟ وهل القيادات الاسلامية وضعت في برامجها هذه الجامعة، وهل خطت خطوات عملية في هذا الجانب؟

اسئلة تتدافع في الذهن، وقد اجبنا على بعضها ونقول في الآخر:

ان باشراقة الصحوة الاسلامية تعالت الاصوات بالوحدة الاسلامية، وتنادت الافكار بقيام الجامعة الاسلامية، واخذ عقلاء الامة يتحركون في انحاء الامة وبين شعوبها داعين الى الوحدة والى قيام جامعة وثيقة بينهم.

لقد كانت اولى المحاولات بين المذاهب الاسلامية هي محاولات فردية قام بها الاستاذ المصلح جمال الدين الافغاني ثم سار على ذلك النهج الشيخ محمد

عبـــده، الـذي كانت لـه محـاولات جـادة وملمـوسة في العمل من اجل التقريب والتفاهم بين المذاهب الاسلامية.

وقـد تطـورت تلك المحـاولات الفـردية الى عمل جمـاعي، وقـد تبنّى هذه الفكرة نخبة من علماء الامة الاسلامية.[١]

وفي غمـرة الصحوة الاسلامية واسترجاع الذاتية الايمانية للمسلمين في هذا العصـر كانت هنـاك مرحلة عظيمة انفرد بها الاباضية وهي اعادة الامامة الاسلامية العـادلة، وذلك بقيـام امـامة سـالم ابن راشـد الخـروصي ثم بعده الامام محمد بن عبداللـه الخليلي، هـذا الانتصـار الاسلامي للاباضية بقيام امامتهم لم ينسهم امر الـوحـدة الاسـلامية والالتقـاء مع اخوانهم المسلمين، فقد عمل اقطاب الاباضية على تشجيع الوحدة الاسلامية والانفتاح الأخوي مع إخوانهم المسلمين.

فكـان في عمـان العـلامة الامـام نور الدين السالمي وتلاميذه الامام سالم بن راشـد الخروصي[٢] والامام محمد ابن عبدالله الخليلي وقيادة الامة عموما، وفي شـرق افريقيـا العـلامة الكبيـر ناصـر بن سـالم الرواحي، وفي ليبيا المجاهد الكبير سليمـان باشـا البـاروني، وفي الجـزائـر القطب محمـد بن يوسف اطفيش، عمل هـؤلاء العظمـاء على دراسة اوضـاع الامة الاسلامية، وخرجوا بحقيقة مفادها انه لابـد من توحّـد الامة الاسلامية، واطلاع العالم الاسلامي على الامامة العادلة في عمـان رجـاء ان يلتف المسلمـون حولهـا منـاصرين لهـا، ومن هنـاك تنبثق العزة الاسلامية لتحيي نفوس المؤمنين لتجابه الاستعمار البغيض.

---

(١) جهود العلماء المصلحين، ص ٧٩-٨٠.

(٢) هـذا الامـام العدل سالم بن راشد بن سليمان الخروصي، بويع بالامامة ١٣٣١هـ واستشهد ١٣٣٨، كان رضيا محبوبا من رعيته، وحد الشعب العماني وقارع الاستعمار الانجليزي.

فنجد العلامة ابا مسلم ناصر بن سالم البهلاني[١] يرسل الى الامام سالم بن راشد الخروصي رسالة تفيض بروح الاخوة الاسلامية، وينصحه فيها بالالتقاء مع اخوانه المسلمين، ويحذره من مغبة الانغلاق على النفس، وهذه الرسالة تبين عن مكنونها فلا تحتاج الى تعليق منا، فمما جاء فيها:

(ثم اني اشير عليك بمصادقة حكام نجد وأمراء الساحل الفارسي، ولابد من ارسال وفد لتوثيق الالفة والصداقة بينك وبينهم، ففي ذلك حسن السياسة وخير المغبة ما لايخفى عليك،وتخير الوفد الذي ترسله ان يكون من علماء المسلمين نفرين او اكثر، ومن العقلاء الساسة ذوي البصائر والفطنة ممن ترضيك بصيرته ويؤدي عنك فوق ما في نفسك، وكاتب شريف مكة وامام صنعاء وسلطان لحج، واتخذ مع كل امير من امراء الجزيرة العرب يداوسياسة وان استطعت ان لاتدع جزيرة العرب الا كتلة واحدة تؤدي لك الصداقة فافعل، ولابد لكم من مكاتبة الشيخ سليمان بن عبدالله الباروني فقد صار بعد حرب طرابلس الغرب وزيرا في مجلس الاعيان باستانبول، وفي مكاتبة هذا الرجل والتعرف اليه والى الدولة العثمانية بواسطته سياسة معتبرة النفع عظيمة الفائدة، وهذا رأي توجه لي واراه ضروريا لازما لسياستكم، وقصركم النظر على اقامة الشعائر الدينية في مملكتكم فقط دون النظر في سياسة الدين والاكثار من الصديق امر يحتاج الى النظر.

ثم ان في الهند جمعيات دينية اسلامية سياستها حياطة الاسلام، فان رأيتم

---

(١) هو العلامة ناصر بن سالم بن عديم الرواحي البهلاني، مجتهد مطلق، وشاعر فحل حتى لقب بعالم الشعراء وشاعر العلماء، واديب وصحفي، عنى بأمر الوحدة الاسلامية ودعا اليها، وكان قاضي قضاة المسلمين بشرق افريقيا، له العديد من المؤلفات، ولد ١٢٧٣هـ بعمان، وتوفي ١٣٢٩ بزنجبار.

ان تعقدوا معها حبلا فاكتبوا كتاباً ونحن نتكفل بارسالها اليهم، وقد وصلتنا عنهم اعلانــات ونشـرات وجهنا اليكم منها نسخة، وهذا ان لم ينفع لم يضر، فأقل ما فيه اشاعة دعوة المسلمين في الممالك الاسلامية، والاظهار مع اعدائنا الكفرة ان اهل الاســلام قـد ارتبط بعضهم ببعض وجمعتهم الجامعة الاسلامية بعواطف الاخاء الايماني والوئام الملي.

وإظهــار دعــوة المسلمين الى جميع الامم الاســلامية يكشف لسائـر الانحاء الاســلامية مـا انتم عليـه من حسن المقصـد ومراعـاة اقامة الشعائر الدينية واحياء السنة وامـاتة البـدعة، وانكم لم تنهضـوا للملك والسلطـان وانمـا نهضتكم غيـرة لانتهاك حرماته وتعطيل حدوده، ووقوفكم حجرة في بلعوم القوم الكافرين).[1]

ويعمل الامـام سالم بهذه النصيحة قدر استطاعته ثم يعمل بها من بعده الامام محمـــد بن عبـداللـــه الخليلي، فيـرسل رسـالة الى الملك السعـودي سعـود بن عبدالعزيز جاء فيها:

(وقـد جعلتنـا نيتكم الطيبة الخـالصة ندعو لكم بالنصر والتوفيق على سعيكم الجميل في توجيـه كلمة المسلمين، وتكتلهم تحت لـواء الاسـلام وانتسابهم اليه ودعـائهم الى كتـاب اللـه العزيـز وسنة نبيه محمد(ص)، والى ذلك ارشد القرآن العظيم فقـال: (ومن يبتغ غيــر الاســلام دينا فلن يقبل منه)،[2] (ان الدين عندَ الله الاسلام)[3] قال(ص): (كونوا عباد الله اخوانا على الخير اعوانا).[4]

---

(١) ابـو مسلم الرواحي حسـان عمان، د. محمد بن صالح ناصر، ص ٢٠٥-٢٠٦، الطبعة الاولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٢) آل عمران ٨٥.

(٣) آل عمران ١٩.

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فيـا صـاحب الجـلالة، قـد استخلفكم اللـه في بلاده، فنرغب اليه سبحانه ان يجعلكم من الذين وصفهم في قولـه: (الذين ان مكنـاهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور).[١]

ومن الامر بالمعروف السعي في توحيد كلمة المسلمين، وفي اماتة الانتساب الى المـذاهب واظهار التعصب لها، اللذين قضيا على الاسلام، وتسلط على ابنائه عبـدة الاصنـام الاجانب الاكـالب، وان لـزوم مـا كان عليه السلف الصالح والسير بالمسلمين سيرهم هو الذي يعيد علينا عزنا الشامخ ومجدنا الباذخ).[٢]

وتبـاحث العـلامتـان الفـذان، قطب السياسة الليبية، عضو مجلس المبعوثان التـركي، الشيخ سليمـان بن عبـدالله البـاروني، وقطب السيـاسة العمانية وزعيم نهضتهـا المعـاصـرة، العـلامة نـور الدين السـالمي، تباحثا في كيفية الوصول الى الـوحـدة الاسـلامية ووضعا برنامجا عمليا لخطواتها، ووضعا امام اعينهم جميع الاحتمـالات التي قـد تحول عن الوحدة فيعمل على ازالتها، او قد توجد عقبات فيعمل على تذليلها ومواطن قوة للوحدة فيأخذ بأسبابها.

جاء في رسالة الشيخ الباروني[٣] اسئلة طارحة لهذه الاحتمالات ونصها:

(المرجو من حضرتكم، ايها الاستاذ الذي سنعتمد على اقواله واقوال امثاله؛ امعـان النظر في المقـالة المحـررة تحت عنـوان «الجـامعة الاسلامية» في جريدة الاسد الاسلامي، الآتية اليكم مع هذا، ثم بعد اطلاق الفكر بحثا وراء عين الحقيقة

---

(١) الحج ٤١.

(٢) نهضة الاعيان، ص ٤٤٢.

(٣) هـو سليمـان بن عبـدالله البـاروني، مجـاهـد ليبي عظيم وكاتب اسلامي قدير، احد القادرة الذين حـرروا ليبيـا من الاستعمار وادى خدمات جلى للدولة العثمانية، نفاه الاستعمار الاوروبي وحرم عليه دخول البلاد العربية التي كانت تحت سيطرته، توفي ١٩٤٠م.

نطلب إبـداء مـا اقتضـاه نظركم السامي من الجواب عن الاسئلة الآتية بايجاز غير مخل بالمراد خدمة للجامعة والدين ولحضرتكم الثواب والشكر.

هل توافقــون على ان اقـوى اسبـاب اختـلاف المسلمين تعـدد المـذاهب وتباينهـا؟ على فـرض عـدم المـوافقة على ذلك؛ فمـا هـو الأمـر الآخر الموجب للتفـرق؟ على فـرض المـوافقة؛ فهل يمكن توحيدها بالجمع بين أقوالها المتباينة والغـاء التعـدد في هـذا الـزمن الـذي نحن فيـه احوج الى الاتحاد من كل شيء؟ وعلى فـرض عدم امكان التوحيد؛ فما الامر القوي النافع في نظركم؟ وهل لازالته من وجـه؟ على فـرض امكـان التوحيـد؛ فأي طريق يسهل الحصول على النتيجة المطلوبة؟ وأي بلـد يليق فيـه ابراز هذا الامر؟ وفي كم سنة ينتج؟ وكم يلزم له من المــال تقريبــاً؟ وكيف يكـون ترتيب العمل فيـه؟ وعلى كل حـال؛ فما الحكم في الساعي في هذا الامر شرعاً وسياسة؛ مصلح ام مفسد؟).[1]

فرّد الامام السالمي على تلك الاسئلة بواقعية مثالية تشخص الواقع الاسلامي كما هو وتعطي حلولا اسلامية متزنة، لم تجنح في سماء الخيال بحيث استسهلت الامـر، ولـم تستسلم للواقع بحيث ابدت سلبية تجاه الوحدة، لا؛ بل كانت ايجابية تضع المقصل على المفصل.

كان رد الامام السالمي الآتي:

(قد نظرنا في الجامعة الاسلامية فاذا فيها كشف الغطاء عن حقيقة الواقع، فلله ذلك الفكر المبدي لتلك الحقائق.

نعم نـوافق ان منشأ التشتيت اختلاف المذاهب وتشعب الآراء، وهو السبب

---

(١) العقد الثمين، ج١، ص ١٢٦.

الاعظم في افتراق الامة على حسب ما اقتضاه نظركم الواسع في بيان الجامعة الاسلامية.

وللتفرق اسباب اخرى منها التحاسد او التباغض والتكالب على الحظوظ العاجلة، وفيها طلب الرئاسة والاستبداد بالامر.

وجمع الامة على الفطرة الاسلامية بعد تشعب الخلاف ممكن عقلا مستحيل عادة، واذا أراد الله امرا كان (لو انفقت ما في الارض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم).[١]

والساعي في الجمع مصلح لا محالة و أقرب الطرق له ان يدعو الناس الى ترك الالقاب المذهبية ويحضهم على التسمي بالاسلام، فإن الدين عند الله الاسلام.

فاذا اجاب الناس الى هذه الخصلة العظيمة ذهبت عنهم العصبية المذهبية ولو بعد حين، فيبقى المرء يلتمس الحق بنفسه، ويكون الحق اولا عند آحاد الرجال ثم يفشوا شيئا فشيئا حتى يرجع الى الفطرة، وهي دعاية الاسلام التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام، وتضمحل البدع شيئا فشيئا، فيصير الناس اخوانا، ومن ضل فانما يضل على نفسه.

ولو اجاب الملوك والامراء الى ذلك لاسرع في الناس قبولهم وكفيتم مؤنة المغرم، وان تعذر هذا من الملوك فالامر عسر والغرم ثقيل.

واوفق البلاد لهذه الدعوة مهبط الوحي ومتردد الملائكة ومقصد الخاص والعام حرم الله الآمن، لأنه مرجع الكل.

وليس لنا مذهب الا الاسلام، فمن ثم تجدنا نقبل الحق ممن جاء به وان كان

---

(١) العقد الثمين، ج ١، ص ١٢٦ – ١٢٧.

بغيضـا، ونـرد البـاطل على من جـاء بـه وان كـان حبيبـا، ونعرف الرجال بالحق، فالكبيـر عندنـا من وافقـه والصغير من خالفه، ولم يشرع لنا ابن اباض مذهباً، وانما نسبنا اليه لضرورة التميز حين ذهب كل فريق الى طريق، اما الدين عندنا لم يتغير؛ والحمد لله).[١]

كمـا عمل قطب الائمة[٢] جاهـدا في مجاهـد الاستعمار الفرنسي ورد غائلته عن المغرب العربي وخاصة الجزائر، وكانت حينذاك تابعة لدولة الخلافة العثمانية، ولـه مـواقف مشهـودة للحفـاظ على وحـدة الامة الاسـلامية، ممـا حدى بالدولة العثمانية ان تمنحه عدة اوسمة.[٣]

يقـول عنـه العـلامة ابـو اسحـاق ابراهيم اطفيش: (يعز عليه ان يهضم شعب اسـلامي ويسلب حريتـه او ينـالـه ادنى ضيم، كثير الدعاء بالنصر للامة الاسلامية على من ينـاوئهـا، شديد الرغبة في وجود الجامعة الاسلامية، يرى من الواجب ان يكون الاسلام في عز واهله في منعة، ويرى ان كل ما يلم بشعب اسلامي كائنا من كـان من الارهـاق، فهـو نكبة اصـابت الامة لمـا في ذلك الشعب من التـوحيـد والانتساب الى الدين الاسلامي، الجامعة العامة).[٤]

وهكذا اخذت قافلة الاخوة الاسلامية تسير يحدوها الامل بأن تصل الى نقطة الـوحـدة الاسـلامية، وضجت رمـوز الصحـوة الاسـلامية بالمنـاداة الى الوحدة

---

(١) العقد الثمين، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) هـو الامـام محمـد بن يـوسف اطفيش، عـالم موسـوعي ومجتهد مطلق، له مئات المؤلفات في جميع فنـون المعـرفة حتى لقب بقطب الائمة، ولـد في غـرداية بالجزائر ١٢٣٦هـ، وتوفي بعدماعمر طويلا عام ١٣٣٢هـ.

(٣) قطب الائمة العـلامة محمـد بن يـوسف اطفيش، بكيـر بن سعيـد اعوشـت، ص ٧٧، ط مكتبة الضامري، السيب - سلطنة عمان.

(٤) الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص، محمد بن يوسف اطفيش، ص ٢٠، ط أبي اسحاق اطفيش.

الاسـلامية والجـامعة الملية، وظلت قلـوب الشبيبة تهفوا الى هذا المقصد العظيم والهـدف النبيل، وتسعي سعيها الحثيث لتقفو اثر سلفها الصالح، الذي فتح العالم بوحدته وتوحيده واخلاقه قبل ان يفتحه بسيفه وسنانه ورماحه، حتى كادت تنال المقصـود، وتحط في محطة الاخـوة الاسـلامية الجـامعة، ثـارت طفيليات خبيثة محسوبة على الامة لتستـأصل جرثـومة الاخـوة الاسـلامية، وتثير داء التكفير من جديد بصورة اشد وانكى على الامة، فانا لله وإنا إليه راجعون.

ولنـدع العـلامة الخليلي؛ بأسلوبـه الادبي الـرفيع المتأثـر لحـال المسلمين وواقعهم المر؛ يحدثنا بقوله: (وقد كان من بشائر الخير التي لاحت للامة مع تباشير اشـراقة الصحـوة الاسـلامية المعـاصـرة مـا كان ـ بادىء ذي بدء ـ من التعاطف والتـواد والتراحم بين الشباب المسلم الذي اشرقت عليه انوار هذه الصحوة، فقد كانوا في بادىء أمرهم لا يلتفتون الى الخلافات المذهبية، ولا يشتغلون بالنعرات الطـائفية، الا قليـلا منهم، وهم الذين لم تصقل آثـار تلك الصحـوة مـا تـراكم في قلوبهم من الصـدأ، وهـؤلاء كانوا مغفمورين بالكثرة الكاثرة التي ينصب همها في محيط الاسـلام الواسع الذي يجمع ولا يفرق، ويوحد ولا يشتت، وكادت القضايا الخـلافية تلقى في زوايـا الاهمال لتصبح في خبر كان، حتى اذا نضرت هذه الالفة وكـادت تؤتي ثمـارهـا الطيبة وهـاجت عليهـا اعـاصيـر العصبية العمياء ـ بعدما حركتهـا احقـاد غصّت بهـا نفـوس ساءتهـا وحدة الامة ـ فلفحتها بسمومها التي اذبلت نضـارتهـا، وقضت على رونقهـا، فـاذا بالتـواد تباغض، وبالتعاطف تباعد، وبالترابط تقاطع، وبالرحمة عذاب.

وكان اول ضحية لهذا التآمر البغيض هو الاسلام الحنيف ثم الشبيبة المسلمة التي كـادت تقلب مجـرى التاريخ، وتعيد الى حاضر الامة المشرقة ماضيها العريق

بضربهـا اروع الامثـال في الوحدة الاسلامية والترابط الديني، فقد انتزعت انتزاعا من حظيـرة الوفـاق الاسلامي ليدفع بها الى متاهات من الخلاف والشقاق كان لها بد واي بد من الدخول فيها والهيام في ارجائها.

وليت الامـر وقف عنـد حـدود الجـدل والمنـاظـرات، ولم يصل الى التكفير واصـدار الاحكـام التعسفية الجائرة على كثير من المسلمين، باخراجهم من الملة، وتعريتهم من لباس الاسلام).[1]

والآن نـرجع لـلاجـابة على الاسئلة التي طرحنـاهـا قبل قليل عن الجـامعة الاسـلامية ونقـول: مما رأينا من خلال استعراض الواقعية الاسلامية، ان الاسلام يحمل كل مضـامين الـوحـدة الاسـلامية، و آيـات الكتـاب تفيض بالدعـوة الى الاعتصـام بحبل اللـه المتين، ولم تكن هـذه الـدعـوة خارجة عن المستطاع، وقد عـمل المصلحـون على تنفيـذهـا واخراجهـا الى ارض الواقع الاسلامي، ولكن ما يحـول عن الـوحـدة هـو انغلاق النفوس وضيق عطنها وعدم الوعي بمجريات الامـور، فهـؤلاء المتبلدة اذهانهم لايعلمون الا ظاهرا من الامر، ولايعلمون انهم في حقيقة الامـر يخدمـون مصالح اعداء الله تعالى، وان اردنا التحاما اخويا سليما فلابـد من ان يتـرك هؤلاء الاثارات المذهبية المنغلقة، وان رفضوا ترك العصبيات المقيتة فعلى الامة ان تتـركهم وشأنهم، وان لم يتـركـوا الامة في سعيهـا للوحدة والالفة فعلى الغيـورين والمصلحين ان يحذروا ويحذّروا من هذه الشجرة الخبيثة التي زرعهـا الشيطان في الامة لتقض مضجعها، هذا ما نستطيع قوله، ولله الامر من قبل ومن بعد.

---

(١) الحق الدامغ، ص ١٩.

ان المؤتمرات والندوات ـ كهذا المؤتمر ـ التي تعقد من قبل دعاة الاصلاح والوحدة فيها الخير الكثير، ولابد من ان تؤتي الثمرة المرجوة منها، فالخير منتصر على الشر، والقافلة لا يضرها النباح والعواء.

الواقعية والوحدة الاسلامية:

بعد كل ذلك، بالنسبة للوحدة الاسلامية.

الواقعية: هي تحقيق الوحدة الاسلامية في واقع المسلمين، متخذين كتاب الله تعالى وسنة نبيه المصطفى (ص) دستورا لهذه الوحدة ونظاما لحياة المسلمين.

وان شئتم اكثر بياناً:

فالواقعية: تعني ان يتخذ المسلمون طريقا وسطا خلال هذا الركام الهائل من الانتصار للمذاهب، والتعصب الاعمى لها، يجب ان تختفي نبرة تكفير المسلمين، فالمسلمون في صعيد الوحدة الاسلامية كلهم متكافئون، لا يفضل بعضهم بعضا الا بتقوى الله والعمل الصالح وتقديم التضحيات للامة الاسلامية.

في الوحدة الاسلامية لا وجود لاولئك الذين يرون الخروج على اقوال الائمة كفرا؛ ولا لأولئك الذين يعتقدون القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ضلالاً ما لم يفسر حسب رأي ائمتهم، لقد اتفقت اقوال العلماء والمجتهدين بأن كل شخص يرد عليه الا صاحب القبر الشريف المعصوم محمد (ص) وكانت اقوالهم المشهورة على مر التاريخ الاسلامي: (ان وافق قولي الحق فخذه، وان لم يوافق فلا تأخذه).

الوحدة الاسلامية ليست وهما وخيالاً، فحاشا الشريعة الخاتمة أن يأتي فيها

وهم او تأمر بخيال، فكل اوامرها تصب في المفهوم الجماعي، وتمقت الانانية والحزبية.

يمكن ان تجتمع المذاهب الاسلامية في ود وسلام واحترام تحت مظلة شرعية واحدة، اذا وسعت هذه المظلة تحت عدلها المذاهب ولم تعمل على الانتصار لمذهب دون مذهب، وقد تحقق هذا اللقاء المذهبي الاخوي في التأريخ الاسلامي، حيث شملت الدولة الرستمية(١) المذاهب الاسلامية التي تحتها بالعدل فلم يظلم فيها احد، وقد شهد على عدل ائمتها المؤرخ ابن الصغير المغربي.(٢)(٣)

وكذلك في عمان في عهد الائمة العدول.(٤)

ان الاستسلام للواقع الذي نعيشه الآن هو غفلة عن حركة سير التأريخ الحضارية، فالعالم كله يجتمع، فمنهم من يجتمع حول المصالح الاقتصادية، وآخرون يجتمعون اقليميا، وغيرهم يرتبطون بروابط ثقافية ولغوية... وهكذا، رغم ان هذه التجمعات لايوجد فيها المقومات الحقيقية والقاعدة الصلبة للوحدة، الا ان منظموها عملوا جادين على ايجادها، وان وجدت بعض

---

(١) الدولة الرستمية تعاقب عليها ائمة عدول منتخبون من قبل المسلمين، قامت في الشمال الافريقي وكانت عاصمتها مدينة تيهرت الشهيرة، ابتدأت بخلافة الامام العدل عبدالرحمن بن رستم الفارسي عام ١٦٠هـ وانتهت بخلافة الامام يوسف بن محمد بن افلح سنة ٢٩٤هـ على يد الدولة العبيدية.

(٢) هو المشهور بابن الصغير المالكي من رعايا الدولة الرستمية كان على غير المذهب الاباضي، قيل مالكياً وقيل شيعياً له كتاب اخبار الائمة الرستميين الفه حوالي ٢٩٠هـ ولذلك عرف بمؤرخ الدولة الرستمية.

(٣) اخبار الائمة الرستميين، ابن الصغير المالكي، ط دار الغرب الاسلامي، بيروت - لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٤) عمان الديمقراطية الاسلامية، د. حسين عبيد غباش، ط دار الجديد، الطبعة الاولى، ١٩٩٧م.

المقومات ففي وحدتنا كل المقومات، فالدين ـ الذي صنع امة واحدة ـ والمصالح المشتركة والارض الواسعة وتنوع المصادر الاقتصادية والعقول البارزة في كل فن وتخصص، كل هذه المقومات موجودة ولاتحتاج الا الى اناس مخلصين يعملون على تنظيمها وصهرها في بوتقة المصالح الاسلامية العليا.

يجب ان نؤمن بأن الوحادة الاسلامية حقيقة قائمة لا محالة برغم الغشاوات التي تحجبها، علينا ان لانلتقي في المؤتمرات لاجل ان نلقي كلاما رائعاً عن الوحدة، ثم نرحل الى دهاليز مذاهبنا الضيقة، فهذا ترف سنحاسب عنه امام الله تعالى.

الوحدة الاسلامية؛ علينا ان نؤمن بها ونعمل جادين للسعي اليها، وندخلها في مناهجنا الدراسية، فينشأ عليها الصغير ويشب ودمه يضخ في الوحدة والاتحاد، ويجب ان تختفي من مناهجنا القومية والجنسية والمذهبية، فهذه نصال تقطع اوردة الوحدة او قل حواجز تمنع التئام الصفوف المسلمة.

الكون متآلف بذراته ومجراته، ولايحيد عن السنن الإلهي ولا يخرج عن مقتضيات القوانين الربانية، وهو بعد ذلك مسخر للانسان، فما بال الانسان المسلم يتخلى عن قيادته لهذا الكون؟ ولماذا يكون نشازا عن هذا التآلف الكوني؟ ولماذا يرضى بذيل القافلة يلتقط غبارها وقد اوجده الخالق جل وعلا ليكون قائد زمانها؟.

عندما ينشز المسلم يعني ذلك ان الكون في نشاز واهتزاز، وسيظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس، فالعالم وان بدى يسعى الى مصالحه فهو يسعى الى حتفه طالما انه مبتعد عن شريعة الله الحقة، ونحن ـ المسلمين ـ نتحمل تبعات كل ذلك، فالامة الشاهدة كيف تتأتى لها الشهادة وهي طوائف

ممزعة ومذاهب متنافسة وعصبيات متناحرة وخلافات متباينة؟ هذه الامة لم تنظر الى حالها ولم تراع مآلها، فأنى لها ان توجه الامم؟!

هـذا الحـال يجب ان لا يستمـر لابد من الرجوع الى المقاصد الاسلامية، الى التـوحيـد والـوحـدة، حتى تنظم حـركة العالم، فالعالم اعلن افلاسه بعدما خذلته الشيـوعية وتخـذلـه الرأسمـالية، ان قـادة الشـرق والغـرب يتطلعـون الى الحل الاسلامي، والحل الاسلامي - وللاسف - تتجاذبه المذاهب وتتقطعه العصبيات.

اننـا نعـرف - و نعترف - ان الطريق شاق والسبيل وعر وامامنا اكدية واودية، وعلل وادواء، ولكن متى كانت العقبـات مـذلة لاصحاب الهمم العالية، ان الجيل الاول من دعاة الوحدة الاسلامية - المعاصرين - ينفون من الارض ويمنعون من التبشيـر بمبادئهم النبيلة بين شعوبهم، وهذاامر قد ولى واختفى، والنفوس اليوم اكثـر تهيئـا الى هـذه الوحـدة لو طمست الاصوات المنكرة التي تدعو الى هاوية العصبية.

اننـا نملك الاعـلام والصحف وشبكـات الاتصـال المختلفة، علينـا ان نبث خلالهـا الـوعي بالـوحـدة الاسـلامية، وان نثقف الجماهير الاسلامية بالخطوات العملية لهذه الوحدة.

الافـلام والمسلسـلات والبـرامج والنشـرات ينبغي ان تصب في الاهـداف الاسـلامية، وجب ان تحل محل المسخ الـذي نـراه ليلا ونهارا، هذا المسخ الذي صنعتـه الآلة الغربية ذات الوقود الفلسفي المادي، اننا نسأل اين البرامج الاسلامية النابعة من الحـاجة الاسـلامية، والتي تخـدم الـواقع الاسلامي المطلوب؟ ولماذا اصبح الفن مرتبطاً بالعهر والخمر والرقص؟ فمتى ترتقي امة الى اوج العز والسؤدد وهي منغمسة في حضيض التبذل والاستهتار بالاخلاق.

الاسـلام بواعيتـه المثـالية يملك المقومـات الحضارية لامته، ولكنه لايرتقي بخـائـري العـزائم متصـدعي الصفـوف، فالاسلام لاينقلنا من الدرك الاسفل الى المنـزلة العليـا نقلة سحرية، بل هـو يأمرنـا باتبـاع الخطوات العملية التي يجب ان نخطوها في مسيرنا نحو الوحدة الاسلامية.

امـا اولئك الذين يغطون في سبات عميق ويحلمون بأنهم سوف يستيقظون على الـوحـدة، هـؤلاء سيطـول بهم الـرقـاد حتى قيـام السـاعة ولايـرون وحدة ولاتـوحـداً، على هـؤلاء ان يتداركوا انفسهم وشعوبهم ويعملوا بالسنن الكونية والنصية للنهوض بأمتهم، والا سيسحقهم الزمن تحت عجلاته المتسارعة، فالزمن لايـرحم الكسالى والخاملين، الزمن لايملكه الا من يملك القوة والعزيمة والتسامح والاخاء.

الاقتراحات:

وفي الختـام اتقـدم الى القـائمين على المؤتمـر بهـذه الاقتراحـات عسى ان تكون في محلها:

١ ـ تعميم دراسة الخصـائص الاسـلامية في المناهج التربوية الاسلامية، وان تعنى ههذ الخصائص بالمنهج الاسلامي الشامل.

٢ ـ تكوين لجنة اسلامية مشتركة من جميع المدارس الاسلامية، يكون عملها ابراز عناصر الوحدة الاسلامية من واقع مدارسنا، وتقوم بالرد على دعاة المذهبية المنغلقة، او الذين يثيـرون الطعـون في المـذاهب الاسـلامية ورمـوزهـا، ويكون عملها مشتركايصدر باسم جميع المدارس الاسلامية.

٣ ـ طـرح مـادة تربوية في المـدارس والمـؤسسـات العلمية هدفها الوحدة

الاسلامية، وتكون مشتركة تقر من قبل علماء الامة الاسلامية.

٤ ـ بث البرامج الاعلامية والصحفية والثقافية التي توعي الشعوب الاسلامية بأهمية الوحدة، وان تحمل المؤسسات الاعلامية الرسمية من قبل مطالب العلماء على بث هذه البرامج.

٥ ـ ان يحث العلماء والمفكرون الاسلاميون في موسم الحج اتباعهم على التعرف على اخوانهم المسلمين من البقاع الاسلامية المختلفة، وان يحضوهم على تبادل المعارف الاسلامية.

٦ ـ ان يقوم العلماء بزيارات متبادلة لبلدان بعضهم البعض مبشرين وداعين الى الوحدة الاسلامية متألفين لقلوب شعوبهم، ناصحين لهم بالتمسك بالكتاب والسنة فهما اساس الاسلام.

هذا وأسأل الله تعالى العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، وأسأله تعالىٰ أن يبرم لهذه الامة امر رشد يعز فيها اهل طاعته ويذل فيها اهل معصيته، وأسأله أن يوحد صف الامة ويرتق فتقها ويخزي عدوها ويهدي جاهلها.

انه سميع مجيب الدعاء وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته.

قائمة المراجع :

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ تفسير المنار ـ محمد رشيد رضا

٣ ـ كتب الصحاح والسنن

٤ ـ جامع الشمل في احاديث خاتم الرسل ـ محمد بن يوسف اطفيش

٥ ـ الحق الدامغ ـ احمد بن حمد الخليلي.

٦ ـ العقيدة (١) ـ احمد بن سليمان الكندي وعاشور بن يوسف سكاس

٧ ـ السيف الحاد على من اخذ بحديث الآحاد في مسائل الاعتقاد ـ سعيد بن مبروك القنوبي

٨ ـ كشف الحقيقة لمن جهل الطريقة ـ عبدالله بن حميد السالمي

٩ ـ الدليل والبرهان ـ يوسف بن ابراهيم الوارجلاني

١٠ ـ الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص ـ محمد بن يوسف اطفيش

١١ ـ العقد الثمين ـ عبدالله بن حميد السالمي

١٢ ـ جوهر النظام ـ عبدالله بن حميد السالمي

١٣ ـ تمهيد قواعد الايمان ـ سعيد بن خلفان الخليلي

١٤ ـ لسان العرب ـ محمد بن مكرم بن علي ابن منظور

١٥ ـ ابو مسلم الرواحي حسان عمان ـ د. محمد بن صالح ناصر

١٦ ـ العقود الفضية في اصول الاباضية ـ سالم بن حمد الحارثي

١٧ ـ السير والجوابات ـ علماء وائمة عمان

١٨ ـ الاباضية بين الفرق الاسلامية ـ علي يحيى معمر

١٩ ـ نهضة الاعيان بحرية اهل عمان ـ محمد بن عبدالله السالمي
٢٠ ـ قطب الائمة محمد بن يوسف اطفيش ـ بكير بن سعيد اعوشت
٢١ ـ الاغاني ـ علي بن الحسين الاصفهاني
٢٢ ـ الشيخ علي يحيى معمر والدعوة الى الوحدة الاسلامية ـ محمد ناصر بوحجام
٢٣ ـ عوامل تقوية الوحدة الاسلامية في الشعائر الدينية ـ احمد بن حمد الخليلي
٢٤ ـ العبادة واثرها في حياة المسلم ـ احمد بن حمد الخليلي
٢٥ ـ اصول الدعوة ـ د. عبدالكريم زيدان
٢٦ ـ الخصائص العامة للاسلام ـ د. يوسف القرضاوي
٢٧ ـ خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ـ سيد قطب
٢٨ ـ جهود العلماء المصلحين في توحيد المذاهب الاسلامية ـ احمد بن سعود السيابي
٢٩ ـ الامة والسلطة باتجاه الوعي والتغيير ـ ابراهيم العسعس
٣٠ ـ واقعنا المعاصر ـ محمد قطب
٣١ ـ روائع اقبال ـ ابو الحسن علي الحسن الندوي
٣٢ ـ خلق المسلم ـ محمد الغزالي
٣٣ ـ عمان الديمقراطية الاسلامية ـ د. حسين عبيد غباش
٣٤ ـ الاعلام ـ خير الدين الزركلي
٣٥ ـ موسوعة الفلسفة ـ د. عبد الرحمن البدوي

الواقعية في الاسلام

دراســــة و تحليــــل

ماجد سعيد

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

خصائص الاسلام العامة

تمتع الاســلام بجملة خصــائص رفيعة كـان لهـا الأثـر الفـاعل في انتشـاره وانتصـاره وبقـائـه، وهي كثيـرة، ويمكن استقطابها في خمس نقاط رئيسية، وكل واحد منها يمكن ان تتفرع الى فروع ثانوية كثيرة، وهي:

١ ـ **الربانية:** اذ ان الاسلام دين الهي انـزلـه الوحي من رب عليم حكيم، وقد تجسدت مقرراته واحكامه ومبادئه في: القرآن والسنة النبوية الصحيحة، فلا ميول وضعية توجد، ولا التقاطات فكرية تحصل.

٢ ـ **الانسانية:** اذ ان دعوتـه المباركة ومنـذ اللحظة الاولى استهـدفت تحرير الانسان واصلاح مجتمعه وتعزيز كرامته وحقوقه المشروعة، وتنظيم علاقاته.

٣ ـ **العـالمية:** اذ ان الاسـلام بما يحمل من مبادىء سامية وقيم رفيعة ودعوة الى الصـراط المستقيم انمـا يدعـوهـا الى الانسانية كـافة، بـلا فـرق بين الاسـود

والابيض والاحمـــر والاصفـــر، وبين الغني والفقيـــر، وبين المـدني والقـــروي والبـدوي، ودعـا الى نفي كل انمـاط التفـرقة المبنية اساسا على اللغة او اللون او القومية او العنصرية او الجنسية او غيرها.

٤ ـ **الشمــولية:** اذ ان احكـام الاسـلام ومنظـومتـه العملية قـد شملت جميع نـواحي الحيـاة، ومست كل جهـات الانسـان الشخصية والاجتمـاعية، الخـاصة والعامة.

٥ ـ **الــواقعية:** وهـو موضـوع بحثنا ـ اذ اعتمد الاسلام الواقعية في اسلوب منهجـه، والتـوازن والاعتـدال في احكامه، بلا افراط او تفريط، ومن دون انحياز لميـول على حسـاب ميـول اخـرى، لـذا فقد كانت احكامه منسجمة مع العقل، و تشريعاته متلائمة مع الفطرة.

الواقعية:

إن النقلة الحضــارية الكبـرى في حيـاة الانسانية التي وضعت حدا فاصلا بين مـاضي هـذه الانسانية وحاضـرهـا، ومهدت السبيل امامها لان ترقى سلم المدنية والتحضـر، تحتـاج الى فلسفة ومنهجية تضع في حسابهـا جميع الحلول للمشاكل الـذي يمكن ان يحدثه هذا التحوّل النوعي في الحياة العملية والتي قد شكل عائقا امام مسيرة تحضرها.

والاســلام الـذي كـان له الفضل الكبير في رقي البشرية نحو المدنية قد حمل بين طياتـه الفلسفة الصحيحة والمنهجية العملية، وبـرمج لها الوسائل الممكنة التي كان الغرض الاول منها تنظيم حياة الانسان الفرد وتلبية حوائجه.

اذ لم يدع الانسان يعيش حياته العملية وسط فوضى النظريات الوضعية التي

تنطلق في معظم الاحوال من الدوافع الذاتية والنزعات الشخصية، ولم يتركه يحيا حياته بوحي الاجتهاد الشخصي؛ لما يحمل في جوانبه من نزعات وغرائز عديدة ومختلفة، وانما هيأ له الارضية المناسبة لسعادته مع بني جنسه.

ولذا فقد وضع الاسلام للانسانية جمعاء منظومة عملية وواقعية تعمل على تنظيم علاقة الانسان بخالقه اولا، ثم وجّه هذه العلاقة لتطوير العلاقات الانسانية داخل المجتمع الواحد، واحكام لها ضوابط واسس عامة، فكانت بمجموعها صياغة عملية وجدية لمصلحة الانسان ومجتمعه.

ان هذه الفلسفة والمنهجية العملية اللتان دعا اليهما الاسلام قد إتسمت اكثر ما اتسمت بالواقعية، مما كان لها الاثر الفاعل والكبير في خلود رسالته وانتشارها في انحاء المعمورة، بل ان صفة الواقعية هذه قد اختص بها الاسلام عن غيره من الاديان والفلسفات الاخرى.

كتب الدكتور عون شريف القاسم يقول: «لقد كانت الديانات السماوية قبل الاسلام رغم اشتمالها جميعا في صورتها المصفاة على جوهر العقيدة الخالدة، تعبر عن مرحلة البساطة الاولى من تطور البشر، وتحمل في سماتها على المستوى الاجتماعي، فكانت كل رسالة موجهة لمجموعة بعينها من الناس لتلائم وضعهم الحضاري، وتقلصت رسالات السماء في نهاية المطاف من جراء جحود الناس وعصيانهم لتصبح رمزا للجمود والتعصب والتحريف على ايدي من انزلت عليهم، كما هو الحال في رسالة سيدنا موسى(ع) التي استحالت عند اليهود الى ديانة قومية عنصرية تحل لليهود ما تحرمه على غيرهم... وانتهى بهم الامر ان جعلوا الله رب الناس الها قوميا خاصا بهم دون جميع الناس.

وجاءت المسيحية لتصحيح هذه التحريفات حتى يتسع دين الله محبة الناس،

ويخرج من الاطار القومي الضيق الذي حصره فيه اليهود، وليصبح الله سبحانه وتعالى كما اراد ربا لكل الناس لا لليهود وحدهم، ولكن المسيحية لظروف تاريخية معلومة لم تتوسع في تنظيم علاقات المجتمع، وانما اكتفت بما جاءت به التوراة وما وضعه الرومان من تشريع...

كانت البشرية في حاجة الى تعبير جديد عن تطورها، مما يحتاج الامر معه الى صياغة جديدة للفرد والمجتمع تعيد اليهما جميعاً التوازن والانسجام بما يحفظ للمجتمع تماسكه وتكافله، ويضمن للفرد حريته وتطوره، وكان الجديد الذي اتى به القرآن الكريم تعبيرا عن هذا الوضع الجديد، فأكمل رسالة سيدنا موسى وسيدنا عيسى(ع) بأن ادخل الدين في حياة المجتمع بحيث اصبح الدين هو الدنيا، واصبحت الدنيا هي الواجهة الاخرى للدين».(١)

اذ لم تتجلى الواقعية في فكر او فلسفة او ديانة سابقة بمثل ما تجلت في الفكر الاسلامي، ذلك لانه «موجّه اصلا لتعريف الانسان المؤمن بخالقه وبنفسه وبمركزه في الوجود وبكونه خليفة في الارض، يتعامل مع قوانينها المادية وحقائقها الموضوعية».(٢)

وتظهر هذه الواقعية بجلاء في نوعية تعامل هذاالفكر ومنهجيته مع طبيعة الانسان وطبيعة الظروف التي تحيط بحياته على البسيطة، اذ لايتم هذا التعامل الا في حدود فطرته وطاقته واستعداداته التي يسرها الله سبحانه له واودعها فيه بما يناسب حجمه ومقدرته، فلم يحمله ما لايحتمله، ولايسوء به الظن، ولايحتقر دوره في الارض،ولايهدر قيمته، كما ولا يرفعه الى مقام الالوهية في اي جانب

---

(١) الاسلام والثورة الحضارية: ٥٣.

(٢) الاسلام والتنمية الاجتماعية للدكتور محسن عبدالحميد: ٣٠.

من جوانب حياته، وانما يعتبره مخلوقا كباقي المخلوقات الا ما اشتمل على بعض الشمائل المميزة له عن باقي الموجودات.

ان هذه الواقعية كانت احدى الاركان الاساسية التي اسس عليها الاسلام نظامه الحضاري الشامل في كونه يجمع بين الدين والدنيا، بين الشرع والوضع في وحدة عضوية فاعلة ومدهشة، تجعل قيم الدين واحكامه جزءا معاشا من حياة الناس، وبذلك صاغ حياة الافراد صياغة اجتماعية بالغة الدقة، بحيث يصح ان نقول: انه جعل الفرد المسلم في كثير من جوانب شخصيته هو التجسيد الفعلي لقيم الاسلام الاصيلة.

ومن اهم مظاهر هذه الواقعية:

١ ـ الانسجام مع الفطرة والعقل:

امتازت النظرية الاسلامية عن غيرها من النظريات الوضعية بكونها تحمل طابع الشمول والاستيعاب لجميع جوانب الانسان الروحية والمادية، والبحث عن علاج ملائم لجميع مشاكل البشر العامة والخاصة.

اذ ان الهدف الاول للاسلام هو الانسان والعمل على تربيته ودفعه نحو التكامل من جميع الجوانب ـ المادية والمعنوية ـ من دون ان يترك احداها لاجل الاخرى، كما ولم يدع كليهما في حيز الاهمال، ذلك لان الانسان مجبول بطبيعته على دوافع تتعلق بالمادة لها اثر كبير في ميوله المادية، وبنفس الوقت له ميول تتعلق بالجانب الروحي لهااثر فاعل في نوعية رغباته الذاتية.

فالفكر الاسلامي لم يحدث انفصالاً بين هذين الجانبين، ولم يمل الى احدهما على حساب الآخر كما عليه الانظمة الوضعية، فهو يرى ان هناك اتصالا

تامـا بين الـروح والبـدن، وان لكليهمـا متطلبـات وحاجـات يجب ان يعتنى بها، فانبـرى يعرض برنامجه المشرق في كونه يخالف انهدام الموازنة بينهما، ويلاحظ سعـادة الانسان من خلال النظر الى جميع جوانبه على السواء من دون قمع ميوله الروحية او يقطع شيئا من موارد ارتباطه بالمادة.

لقـد شـرع الاسلام قوانينا واحكاما تنظم حياة الانسان المادية والمعنوية معا في عملية مـزاوجة مدهشة اثـارت اعجـاب المشـرعين والمنظرين الـوضعيين، وصبهـا في بوتقة واحدة تكون بمجموعها نظاما رائعا متمتعا بانسجام عجيب مع الفطرة التي فطرها الله سبحانه عليها.

كتب الاستـاذ السيد مجتبى اللاري يقول: «لقد وقف (الاسلام) موقفا وسطا بين سلسلة من العقـائـد الموضـوعة في سبيل اختناق الغرائز الانسانية وبين افكار وانظمة تنـادي بـالحرية الحيـوانية المطلقة والتي يقف الى جانبها جمع من علماء النفس من نظراء فرويد».[١]

فـالتـربية الاسـلامية اصـلا تبتني على اسـاس تهذيب العـواطف الانسانية، ودفعهـا الى العمل في المسـار الصحيح والمعقـول، من دون قمع لهـا او اطـلاق الحرية الكـاملة لهـا. وبـذلك فالنظام التربوي الاسلامي هذا يسلك بما هو موجود في طبيعة الانسـان من الغـرائـز والـدوافع المحـركة للحيـاة من جانب، والميـول الفطرية والحـاجـات الاصيلة في اعمـاقـه من جانب آخـر، في نظام خاص جامع كـامل، بحيث لاتدع الغرائز من ان تسجن العقل وتأخذ بزمام اختيار مصير الانسان كـاملة، وبنفس الـوقت لاتترك العقل من ان يقمع هذه الغرائز بصورة كلية ويمحو

---

(١) الاسلام والحضارة الغربية: ٩٩.

اثرها بالتمام.

قال تعالى: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا).[١]

وقال : (يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ان كنتم اياه تعبدون).[٢]

وقال: (يا ايها الذين آمنوا لاتحرّموا طيبات ما احل الله لكم).[٣]

وبذلك يمنع الانسان عن السقوط في ورطة الهلاك، وفي ذات الوقت يبيح له حظا معقولا من المتع المادية، مما آثار اعجاب الباحثين الشرقيين والغربيين على السواء.

فقد كتب المستشرق جورج روبير يقول: «ان الاسلام ليس دينا فحسب، انه آخر الاديان التي ظهرت في التاريخ، وانه بصفة خاصة مجتمع روحي واجتماعي ونظام سياسي واسلوب للعيش، لقد اعطى الاسلام للدنيا حقها وللآخرة حقها، فلا يرهق الروح على حساب البدن، ولا يرهق البدن على حساب الروح، فالازدواج كامل بين الروحية والمادية في شخصية المسلم».[٤]

ويقول اميل درمنجم في هذا الصدد ايضا: «الاسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية، وليس عقيدة روحية لا صلة لها بالمادة ولا بالحياة، وانما الاسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح، والدنيا والآخرة، جسم وروح، ودولة ودين وحياة وغيب، والاسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيدا لنظريات الاجتماع

---

(١) البقرة ٢٠١.

(٢) البقرة ١٧٢.

(٣) المائدة: ٨٧.

(٤) نقل عنه انور الجندي في سقوط العلمانية: ١٩٥.

الحديثة بل لانه يدفع الانسان دوما الى الامام».[١]

هـذا كلـه من جانب، ومن جانب آخر: أن اساس التربية الاسلامية قد تأسس على قواعـد عقلية بعيـدة عن الخرافات والاساطير، فالقواعد التربوية التي ابتناها ليست الا سلسلة من العقائـد النزيهة عن شوائب الاوهام، ومجموعة قيم وفضائل بعيدة عن ملابسات البدع والهوى.

ذلك لأن الفكـر الاسلامي قائم على الاعتقاد المؤيد بالعقل الذي يتحرك في داخله حركة موزونة هادفة، وذلك من خلال محورين:

الاول :المحـور الثابت، ويـدور حـول حقيقة الـوجـود الالهي وانـه الخالق والمعبـود الحق، وحقيقة الانسـان وكونه خليفة الله في الارض، وان البشر كلهم من اصل واحـد خلقوا للعبادة والعمل بما امرهم الخالق، وانه سبحانه قد اصطفى منهم رسـلا واوصيـاء ليتموا ابلاغ رسالاتهم، واما الباقون فقيمتهم الحقيقية فيما يربطهم بالعقيـدة ومدى التزامهم بها، وليس للجنس او الارض او اللون او الطبقة قيمة بتاتاً.

والحكمة في ايجـاد هـذاالمحور هو ضبط حركة الانسانية عامة، كي لا تضل في مشاعـرهـا وتصـوراتهـا ونظمها الحيوية عن الصراط المستقيم، فتستسلم الى الهوس والخرافة والاسطورة.

الثاني:المحـور المتغيـر، اذ ان الفكر الاسلامي يؤمن بقانون التطور العام في الكـون والمجتمعـات والمتمثل في تطـور عـلاقة الانسـان بالعـالم الخارجي، بل ويدعـو اليه، وذلك من خلال دعوته الى اكتشاف قوانين الحياة والطبيعة والعمل

---

(١) المصدر السابق: ١٩٦.

على تسخيرهـا لسعادته وتطوير حضارته، ومن اجل ذلك فسح المجال امام العقل البشري ان يتحرك ويجتهد ويستنبط لكن ضمن ضوابط ثابتة.

يقول المستشرق غوستاف لوبون: «الاسلام من اكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم».[١]

وقد نقل عن الاستاذ هورتن قوله: «نجد في الاسلام اتحاد الدين والعلم، وهو الدين الوحيد الذي يوحد بينهما، ونجد فيه كيف ان الدين موضوع بدائرة العلم، ونرى وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيه سائرتين معا باتحاد، ومتجاورتين كتفا الى كتف».[٢]

٢ ـ التوازن والاعتدال في احكامه:

ومن مظاهر الواقعية التي تحلّى بها الاسلام في قيمه واحكامه هو توازنه واعتداله من حيث مصادر المعرفة ومضامين احكامه، فهو لا يسمح للعقل بالحرية المطلقة المؤدية الى اختراق ما لا يمكن اختراقه من الغيب المجهول الذي تكفل به الوحي الامين ليتحول الى ضرب من الكهنوت، وبنفس الوقت لم يقمع حركته الى حد يقصر عما اوكل اليه وبالتالي يصبح مقيدا فيستسلم للخرافة والاسطورة، بل وضع العقل في موقع متقدم، وسمح له بالحركة لكن ضمن منهجية منظمة، بلا افراط ولا تفريط.

فقد اطلق للعقل الحرية الكاملة في العمل والجد والاجتهاد والبحث عن الحقيقة وانتخاب الصواب من كل ما يعرض عليه من مسائل او اختيارات، لكن

---

(١) حضارة العرب: ١٢٦.

(٢) نقل عنه انور وجدي في سقوط العلمانية: ١٩٧.

من دون السماح له في تجاوز حدوده المرسومة له، وعندما يتقرب من هذه الحدود فهو يستطيع ان يستعين بالكتاب المنزل الذي يمثل الوحي السماوي في حل المشاكل المتعلقة في هذا الشأن.

ويتجلى هذا التوازن والاعتدال في قيمه وتعاليمه، فقد دعا الى عبودية الانسان المطلقة لله سبحانه و تعالى، وبنفس الوقت اثبت دعوته الى تكريم مقام الانسان في الكون، فحقق بذلك وجود الانسان ومقامه من دون ان يحوله الى اله معبود، وفي ذات الوقت لم يدعه عبدا مغلوبا على امره مقهوراً في رأيه.

وكذاالامر في مسألة شعور الانسان بالالم وبين شعوره بالجزاء الدنيوي والاخروي.

واما في مذهبه الاقتصادي فانه ينحى منحى منقطع النظير، ويتمثل في رفضه الغاء الملكية الفردية الغاء تاما كما ذهب اليه الشيوعيون، وفي ذات الوقت يرفض الغاء الملكية الجماعية كما تبناه الرأسماليون، وانما اتخذ مذهبا يتجسد فيه اروع صور الاعتدال والموازنة في طرح فكرة الملكية الفردية في نطاق محدود ووفق منهجية خاصة، يستشعر من خلالها قيمة الانسان ككائن حي له رغباته وطموحاته، ودعمه لكي يكون عضوا فعالا ونافعا لبناء المجتمع الكبير.

قال تعالى: (ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا).[1]

وكذلك في العلاقت الاجتماعية والقوانين الاسرية، فقد وضع الاسلام اسسا دقيقة ومنهجية ثابتة غايتها تنظيم حياة الاسرة باعتبارها اللبنة الاساسية لبناء الامة.

---

(١) الاسراء ٢٩.

فقد نظم علاقة الابن مع الابوين، والاخ من اخيه، والصغير مع الكبير، وبين الزوجين، في نظام رائع. قال تعالى: (وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا)[1] ففرض طاعتهما بأوسع صورها بعد ان قرن طاعتهما بطاعته، ثم استثنى فقال: (وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما).[2] فقضى ان يقيم العصيان مكان الطاعة في موارد خاصة، وذلك اذا ما اصطدمت طاعة الله سبحانه مع طاعتهما وامراه بخلاف ماامر الله تعالى.

ان هذا التوازن العجيب بين «اطعهما» و «لاتطعهما» اثارت دهشة الباحثين، فراحوا يكتبون عن منهاج هذا الدين وبرامجه التربوية والاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والفلسفية ليستفيدوا منها في وضع نظمهم وقوانينهم الوضعية التي ابتدعوها بعدما ثبت عندهم فشلها ونجاح ما ذهب اليه الاسلام.

بل ان الدراسات المقارنة الحديثة بين الانظمة العامة في الشريعة الاسلامية والانظمة القانونية الوضعية اثبتت بأن الشريعة الاسلامية بأصولها وقواعدها ونظرياتها ومصادرها الاجتهادية تفوق القوانين الوضعية كلها في تجسيد المرونة والتسامح، وتمثيل الفطرة الانسانية، وشموليتها الزمانية والمكانية وفي وحدة اتجاهها وتناسق اجزائها.

وهذا ما دفع المؤتمرات القانونية الدولية ان تقوم الشريعة الاسلامية تقويما علميا صادقا،وتصدر بشأنها قرارات في غاية الاهمية، فمنها:

١ ـ قرار مؤتمر لاهاي للقانون الدولي المقارن الذي عقد في سنة١٩٣٨م والذي نصّ على ان «الشريعة الاسلامية تعتبر مصدرا من مصادر التشريع العام،

---

(١) البقرة ٨٣.

(٢) لقمان: ١٥.

وانها شريعة حية مرنة قابلة للتطور، وانها قائمة بذاتها ليست مأخوذة من غيرها».[١]

٢ ـ قرار مؤتمر المحامين الدولي في لاهاي ايضا الذي عقد في سنة ١٩٤٨م والذي ورد فيه ما نصه:

«اعترافاً بما في التشريع الاسلامي من مرونة، وما له من شأن هام يجب على جمعية المحامين الدوليين ان تقوم بتبني الدراسة المقارنة لهذا التشريع والتشجيع عليها».[٢]

٣ ـ ومن مقررات المؤتمر الدولي للحقوق المقارنة الذي عقد في باريس عام ١٩٥١م نقتطف منها ما يلي:

«ان المؤتمرين بناء على الفائدة المتحققة من المباحث التي عرضت اثناء اسبوع الفقه الاسلامي وما جرى حولها من المناقشات التي نستخلص منها بوضوح:

أ ـ ان مبادىء الفقه الاسلامي لها قيمة حقوقية لايمارى فيها...

ب ـ ان اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعاملات ومن الاصول الحقوقية هي مناط الاعجاب، وبها يتمكن الفقه الاسلامي ان يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة، والتوفيق بين حاجاتها...».[٣]

٤ ـ وفي توصية اصدرها عمداء كليات القانون والشريعة في ندوتهم التي عقدت في بغداد سنة ١٩٧٤ جاء فيها:

---

(١) محاضرات في تاريخ الفقه الاسلامي للاستاذ محمد يوسف: ٩.
(٢) الفقه الاسلامي في ثوبه الجديد لمصطفى الزرقاء: ١١٩.
(٣) محاضرات في تاريخ الفقه الاسلامي: ٩ـ١٠.

«لقد اثبتت الشريعة الاسلامية صلاحيتها لحكم البلاد العربية والبلاد الاسلامية كنظام قانوني شامل طيلة قرون عديدة، ولم يكن انحسار مجال تطبيقها بعد صدور التقنيات الحديثة راجعا الى قصور في احكامها، بل كان راجعا الى اسباب عدة، اهمها ما قام به الاستعمار من فرض قوانينه واحلالها محل الشريعة الاسلامية، و آية ذلك ان هذه الشريعة لازالت مطبقة بصورة جزئية في بعض المجالات في جميع البلاد العربية،الامر الذي يدل على مرونة احكامها، وقابليتها لمواجهة التطور الحاصل اخيرا».(١)

٣ ـ الايجابية:

ومن مظاهر الواقعية في الفكر الاسلامي: الحالة الايجابية التي تظهر غالبا في نفوس معتنقي الاسلام من جهتين:

الاولى: من حيث علاقة الله سبحانه بالوجود واعتنائه بكل ذرة فيه، وتدبيره الحكيم للوجود كله مع مقدرة كاملة وعلم محيط بالموجودات وعلاقتها مع بعضها.

فان هذه الخاصية تمد الحياة الانسانية بالمشاعر الخلاقة، وتمنحها نوعا من العواطف الوجدانية التي لها الاثر الكبير في افراز حالة خاصة يكون لها دور هام في ضخ الحياة البشرية بالنشاط والحيوية.

اذ ان هنالك فرق كبير بين الذي يؤمن بالله اصم لا ارادة له ولاشعور، وبين من يؤمن بالله قادر فعال مدبر حكيم، قال تعالى:

---

(١) كراسة صادرة عن اتحاد الجامعات العربية (الامانة العامة) تحت عنوان: «ندوة عمداء كليات الحقوق والقانون والشريعة بالجامعات العربية»: ٣ و ما بعدها.

(افمن يهدي الى الحق احق ان يتبع امن لايهدي الا ان يهدى).[١]

فـان الاول يعيش الاضطـراب والصراع الروحي الناشيء من اصطدام المادة بالـروح، والشعـور بالتعـاسة والقهـر الـلازمين حياتـه، بينما الثاني يعيش السعادة النفسية واطمئنــان القلب والتوازن العام، ذلك لان الايمان بالله حكيم مقتدر يلزم عبادته وطاعته استجابة لفطرته المركوزة في النفس البشرية، قال تعالى:

(واذ اخــذ ربك من بني آدم من ظهـورهم ذريتهم واشهـدهم على انفسهم الست بربكم، قالوا بلى شهدنا).[٢]

فتظهر آثارها النفسية ان تستقر فيه الطمأنينة وراحة البال، والخارجية ان تبدو عليه السلامة في علاقاته والنزاهة في معاملاته.

ولـذا يعيش المسلم في مجتمعـه مستودعـا للطمأنينة، ينبوعا للخير والبركة، مصـدرا للتـوازن الـروحي والاخـلاقي، مخلصـا في اعماله جميعا، لانه يطيع الله بذلك ويعبده، وينتظر عليه الجزاء والثواب يوم يلقى ربه الكريم.

ومن هنــا يظهر ان العبادة في الاسلام لاتقود الانسان قط الى عزلة اجتماعية، ولا تدعـوه الى الخـرافة في اي شكل من اشكالها، لانها نظام عقلاني منظم، يثبت العلاقة القويمة في الوجود.

كتب اللــورد هيدلي بعد اسلامه يقول: «ليس هناك في الاسلام الا الله واحد نعبده ونتبعه، انه امام الجميع وفوق الجميع، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه، انــه لمن المدهش حقا ان تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والالباب على هــذا القـدر من الغبـاوة فيسمحـون للمعتقدات والحيل الكهنوتية ان تحجب عن

---

(١) يونس: ٣٥.

(٢) الاعراف ١٧٢.

نظـرهم رؤية السماء، رؤية القهار المتصل دواما مع مخلوقاته، سواء كانوا عاديين او اولياء مقدسين».[١]

الثانية: من حيث ايجابية الحياة الانسانية ـ ككل ـ الصادرة عن افراد يتمتعون بصفات ايجابية مشرقة تجعله كتلة مشتعلة من الفعالية والانتشار.

فالمؤمن بالاسلام ما يكاد يستقر الايمان في ضميره حتى يحس انه قوة فاعلة ومؤثـرة في نفسـه وفي هـذا الكـون من حوله، فلا يعرف القعود، ويرفض السلبية المتمثلة في انتظـار المعجـزات، بل يحـاول التغيير المستمر، ويسعى دوما ليحقق ذاته المؤمنة بأن عناية الله تعالى ترعاه لكي يكون اهلا لرضاه ودخول جنته، وهذا اكثر ما يكون باعثا نحو العمل والجد فيه الى ابعد الحدود.

ينقل الدكتور عبدالحليم محمود قصة طريفة حول اسلام الكونت هنري دي كاستـري احد كبار الموظفين الفرنسيين في الجزائر، يقول شارحا حاله: «كان من عادتـه ان يسيـر ممتطيـا صهـوة جـواده، ويسيـر خلفـه ثلاثون من فرسان العرب الاقويـاء، فخورا بمركزه، وكان يملؤه الغرور للمدح الذي يزجيه اليه هؤلاء الذين تحت امرتـه، وفجـأة وجـدهم يقـولـون لـه في شيء من الخشونة، وفي كثير من الاعتـداء بـالنفس: لقـد حان موعد صلاة العصر، ودون ان يستأذنوه في الوقوف ترجلـوا واصطفـوا للصـلاة متجهين الى القبلة، ودوت في اجـراء الصحراء كلمة الاسـلام الخالـدة: «الله اكبر»، فشعر الكونت في هذه اللحظة بشيء من المهانة في نفسـه، وبكثيـر من الاكبـار والاعجـاب بهـؤلاء الذين لايبـالـون به، وذلك لانهم اتجهـوا الى اللـه وحـده بكل كيانهم، وبـدأ يتساءل: ما الاسلام؟ اهو ذلك الدين

---

(١) نقل عنه الدكتور عبدالحليم محمود في «اوروبا والاسلام»: ٥١-٥٢.

الذي تصوره الكنيسة في صورة بشعة تنفر منها الأنفس ولا يطمئن اليها الوجدان؟ وبدأ يدرس الاسلام، وتغيرت فكرته عنه، ورأى من واجبه ان يعلن ما اهتدى اليه فكان كتابه (الاسلام خواطر وسوانح).[١]

وفي هـذا المضمنـار ايضا كتب توماس ارنولد: ان البلجيكيين حكموا على زعيم مسلم بالاعـدام، فقضى هذا ساعاته الاخيرة وهو يحاول ان يدخل الاسلام الى قلب المبشر المسيحي الذي كان قد ارسل اليه ليزجي اليه التعزيات الدينية!.[٢]

حركة التقريب بين المذاهب الاسلامية
تجسيد حي للواقعية

ان في حركة التقريب وما تلعبه من دور هام على هذا الصعيد انما هو تجسيد حي لمظاهر الواقعية الثلاث التي تقدم الكلام فيها.

كيف؟؟

وقبل الجواب عليه ينبغي هنا ذكر مقدمة مختصرة، فنقول:

لا يخفى على كل مطلع ممن اوتي حظـا من الثقـافة والعلم: ما للامة الاسلامية من خصـائص وامتيـازات لا تتمتع بهـا الامم الاخـرى. فهي تحتل موقعا جغرافيا متميـزاً من حيث المنـاخ وخصوبة الارض وتنوع البيئة من جهة، ومن جهة اخرى فـان لهـذا الموقع اهمية استراتيجية بالغة تتمثل في كونه يقع وسط العالم ما يشكل اشبه ببوابة تربط بين القارات الثلاث: اوروبا وآسيا وافريقيا.

---

(١) اوروبا والاسلام: ٣٩.

(٢) الدعوة الى الاسلام لتوماس ارنولد: ٤٥٤.

وبالاضافة الى ذلك فان الامة الاسلامية تمثل من الكثافة السكانية نحو من خمس العالم، فاذن هي تتمتع بثروة بشرية هائلة، والاهم منه انها تمتلك ثروة مادية طائلة من حيث الاراضي الزراعية الشاسعة والانهار العذبة والمعادن الثمينة المدفونة في باطن تربتها والتي لاغنى للناس عنها.

وفضلا عن هذه الامتيازات التي تتمتع بها امتنا فلديها العقيدة التي تحمي البشرية من الضلالات والبدع، والتشريع الذي يكفل العدل وينظم امور افراد الامة فيما بينهم وبين الآخرين.

ومن هنا فقد سال لعاب الامم الاستعمارية لهذه الخصائص والامتيازات النادرة التي تتمتع بها الامة الاسلامية دونهم، مما يجنونه من ارباح خيالية فيما لو استعمروا هذه الرقعة الجغرافية واستعبدوا ابناءها.

فمن الموقع الجغرافي الهام والمتميز يمكن من خلاله ان يسيطروا على طرق المواصلات البرية والبحرية والجوية بين القارات الكبرى، وهذا يعنى تحكمهم بخطوط الاتصالات بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب.

ومن وجود هذه الكثافة السكانية الهائلة يمكن ان تتحول هذه الامة الى سوق عريض لبضائعهم، ومخزن واسع لمنتجاتهم، وبالتالي ستكون بشكل او آخر مستودعا استهلاكيا يتم من خلاله صرف منتوجاتهم المصنوعة. هذا بالاضافة لما يستفيدون من تهيئة الايدي العاملة الرخيصة لمصانعهم العظيمة.

ومن وجود الثروات الهائلة فيها فيمكن تحويلها الى مستودع مجاني للطاقة التي بها تدوم مصانعهم وتعمل، ومخزن هائل للمواد الاولية التي تدخل في عملية التصنيع والانتاج.

ولهذا وذاك بدأت الامم الاستعمارية بشن حملاتها العسكرية من اجل

اخضـــاع الامة الاســـلامية تحت حكمهم واحكـام القبضة عليهـا تمهيـدا لتنفيـذ مخططهـا الخبيث، لكن اصطـدمت اول مـا اصطـدمت بالعقيـدة الاسـلامية التي يحملهـا المسلمـون، ممـا ادى الى فشل هـذه الحمـلات الـذريعة وتقهقرها على اعقابها.

يقـول الاستـاذ ابـراهيم النعمة في كتابـه «المسلمـون امـام تحديـات الغـزو الفكري»:

«لقـد شنت اوروبـا ثمان حملات صليبية شرسة على الشرق الاسلامي، وقد بـاءت هـذه الحمـلات بالاخفـاق والهزيمة، فـالقديس لويس التاسع قائد الحملة الصليبية وملك فرنسا وقع اسيرا في مدينة المنصورة في مصر، ثم خلص من الاسر بفدية! ولمـا عـاد الى فرنسا ايقن ان قوة الحديد والنار لاتجدي نفعاً مع المسلمين الذين يملكـون عقيدة راسخة تدفعهم الى الجهاد وتحضهم على التضحية بالنفس وبكل غـال. اذن لابـد من تغييـر المنهج والسبيل، فكانت توصياتـه ان يهتم اتباعه بتغييـر فكـر المسلمين، والتشكيك في عقيدتهم وشريعتهم، وذلك بعـد دراستهم للاسلام لهذا الغرض، وهكذا تحولت المعركة من ميدان الحديد والنار الى ميدان الفكر».(١)

وهكـذا بـدأ الغـزو بثوبـه الجديد، وبشكله المنظم تنظيما دقيقا بحيث يمكن الدخـول عبره الى جميع مرافق الحياة عند المسلمين من خلال السينما والمسرح والاذاعة والتلفـزة والصحف والمجلات... وكلها تتم وفق برنامج مدروس موجه من قبل خبراء في هذا المجال، فكانت الخطة جملة تقتضي:

---

(١) المسلمون امام تحديات الغزو الفكري: ١٢.

١ ـ اماتة روح الاعتزاز عند عوام المسلمين بتاريخهم، وقطع صلتهم بتراثهم الاسلامي واستبداله بتراث وضعي وثقافة موضوعة.

٢ ـ زرع الفرقة والاختلاف بين علماء المسلمين من خلال اثارة الفتن بينهم، وبث روح التعصب المذهبي فيهم؛ لينشغلوا بها ويتركوا الامة تتخبط في امورها فيسهل افتراسها.

يقول المستشرق المعروف شاتلي ضمن توصيته لابناء جلدته: «واذا أردتم ان تغزو الاسلام وتحصدوا شوكته، وتقضوا على هذه العقيدة التي قضت على كل العقائد السابقة واللاحقة لها، والتي كانت السبب الاول والرئيس لاعتزاز المسلمين وشموخهم وسبب سيادتهم وغزوهم للعالم، عليكم ان توجهوا جهود هدمكم الى نفوس الشباب المسلم والامة الاسلامية باماتة روح الاعتزاز بماضيهم وتاريخهم وكتابهم القرآن، وتحويلهم عن كل ذلك بواسطة نشر ثقافتكم وتاريخكم، ونشر روح الاباحية، وتوفير عوامل الهدم المعنوي، حتى لو لم نجد الا المغفلين منهم والسذج والبسطاء لكفانا ذلك لأن الشجرة يجب ان يتسبب لها في القطع احد اغصانها».[1]

وبهذا يتضح خبث المخطط الاستعماري وشراسته ليشمل حتى المغفلين من المسلمين والبسطاء، وربما حتى المجانين! فما بالك بالعلماء والمفكرين من هذه الامة؟

يقول الصهيوني بن غوريون: «ان اخشى ما نخشاه ان يظهر في العالم الاسلامي محمد جديد».[2]

(١) نقلا عن «اجنحة المكر الثلاثة» لعبد الرحمن حسن حبنكة:٩٩.
(٢) الاسلام والغرب والمستقبل:٧٣.

اذ ان خشية الامم المستعمرة تزداد لو ظهر عالم رسالي او مفكر اسلامي يدعو ان الى تبني القرآن منهجا للعمل والحركة، لان فيه الخطر ما ليس في غيره، لذا فقد جاء في احد التقارير السرية التي كتبها سفير اميركي في دولة افريقية منبها عن خطر الاسلام المنبعث عن الجمهورية الاسلامية في ايران، جاء فيه: «ان عمامة بيضاء في هذا البلد اخطر من قنبلة ذرية!».(١)

فان العالم الاسلامي او المفكر الرسالي يمثل جزءا كبيرا من الامة نظرا لما يلعبه من دور كبير من تهيئة فرص التعبئة وبث روح الثورة بين العامة الغفيرة، لذا فاتفاق كلمة العلماء ووحدتهم انما تعني اتحاد اجزاء الامة الواحدة الذي بذل المستعمرون الغالي والنفيس من اجل تفريقه اشتاتا متناثرة.

والى هذا المعنى اشار الصهيوني الخبيث بن غوريون في قوله: «ان الوحدة الاسلامية نائمة، ولكن يجب ان نضع في حسابنا ان النائم قد يستيقظ».(٢)

وجاء في كتاب «ما لم يقل عن ديغول»: «ولكن الذي اخاف منه هو: هذا الخطر الذي يمتد من طنجة الى كراتشي. ان الاسلام ذو حضارة وثقافة، وهو جدير بأن يكون الوارث لنا، فاذا تحالف مع الصين ـ مثلا ـ فانه لن يوجد احد يوقف المسلمين عند بولتييه!».(٣)

ومن هنا انبرى ثلة مخلصة من علماء المسلمين ومفكريهم الى الدعوة الى الوحدة والتقريب في العالم الاسلامي، ونبذ كل اشكال التفرقة والتشتت، وذلك لأمرين:

---

(١) نقلته مجلة الدعوة في ليبيا، العدد ١٠٩، السنة الثانية ص ٧٠.

(٢) الاسلام والغرب والمستقبل: ٧٣.

(٣) ما لم يقل عن ديغول تأليف هنري جادفيك برسيليان: ٢٢٧.

الاول: انه امتثالا لامر الله تعالى بالاتحاد والائتلاف ونهيه عن التفرق والاختلاف.

قال تعالى: «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا».(١)

وقال عزّ اسمه: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم).(٢)

وقال ايضا: (ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون)،(٣) وقال في موضع آخر: (وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون).(٤)

وفي رواية ابن مسعود عن النبي(ص): «لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا».(٥)

ورواية عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن النبي(ص): «المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم ادناهم، ويجير عليهم اقصاهم، وهم يد على من سواهم».(٦)

الثاني: نظر الحاجة الاسلام في هذا الظرف العصيب الى توحيد صفوفه، وتنظيم خطوط دفاعاته ضد الهجمات الشرسة التي يشنها اعداؤه، ومن ثم صياغة جامعية اسلامية قادرة على تشكيل منظومة دفاعية اسلامية قوية.

وحركة التقريب بين المذاهب الاسلامية التي انبثقت في القاهرة قبل نصف قرن نموذج حي يجسد بقوة مدى استجابة ابناء الامة الاسلامية لدعوات

---

(١) آل عمران: ١٠٣.
(٢) آل عمران ١٠٥.
(٣) الانبياء: ٩٢.
(٤) المؤمنون ٥٢.
(٥) اخرجه البخاري في الصحيح ٣:١٥٨ و ٤:٢١٣، ط دار الفكر.
(٦) اخرجه ابو داود في السنن ٣:٨٠ ح ٢٧٥١.

المخلصين لهدف انقاذها من مخالب الامم المستعمرة.

فكان لمجرد الاعلان عن وجودها حتى وجدت السند في اكبر مرجعية دينية سنية المتمثلة بمشيخة الازهر الشريف في مصر، واكبر مرجعية دينية شيعية تتمثل بمراجع الحوزات العلمية في ايران والعراق ولبنان، ثم ساندها جمع غفير من ابناء الفريقين واعلنوا تأييدهم ودعمهم لها، بينهم العلماء والكتاب والدعاة والمثقفون، واستمرت حتى السبعينيات تؤتى اكلها على صعيد العالم الاسلامي، ونجحت ايما نجاح في كسر كثير من السدود، وازالة كثير من العقبات، واشاعة روح الجامعة الاسلامية.(١)

ان القيمة الحقيقية في حركة التقريب المباركة هي في اعتبارها الطريق العقلاني في الوصول الى الوحدة بين فرق المسلمين، وفي التصدي لكل اشكال التفرقة من خلال بلورة الواقعية التي يتمتع بها الدين الاسلامي الحنيف على اسس فكرية تتبنى «التفكير المتفتح» على اكثر من «موقع خلافي» بين طوائف المسلمين، وبذلها الجهود الحثيثة على تحويل المذهبية الطائفية التي تختنق في داخلها مشاعر التوتر وضيق الافق الى مذهبية فكرية واعية تتفتح على الفكر الآخر في المذهب الآخر.

وعملية التحوّل هذه كانت ذات اثر فاعل في دعوة اصحاب المذاهب المتنوعة، المخلصين لمذاهبهم ومشاربهم، الى الوقوف في خط الالتزام الوحدوي الذي من وظيفته ان يحتوي «الفكرة» او «الرأي» ويصيغها صياغة بحيث تتحول الى حالة وعي للظروف المستجدة المحيطة بكيان الامة الاسلامية

---

(١) مقتطف من افتتاحية مجلة «رسالة التقريب» التي تيصدرها المجمع العالمي للتقريب، العدد ١٧ الدورة ٥.

ككل، وموقف صلب اتجاه هذه الظروف.

ان حركة التقريب هذه حركة فكرية حضارية، تنتهج عنوانا ثقافيا من اجل اثارة وجدان المسلم وعقله نحو التفكير في مدى امتثاله لاوامر الله عز وجل ونهيه، في مجال التعاون والائتلاف ونبذ الاختلاف والتطاحن. وهذا بالحقيقة استجابة واعية لنداءات الفطرة وحكم العقل اللذان يقتضيان التركيز على اكثر من جانب منه، واستيعاب لجوانب الانسان الروحية والمادية.

فبالتعاون مع الآخرين والائتلاف معهم انما هو اشباع لحاجة الانسان الروحية، اذ ان الانسان مخلوق اجتماعي بالطبع، وهو اشباع ايضا لمتطلبات الجسد الضرورية، من مأكل ومشرب ومزاوجة ومعاملة... وغيرها.

وبهذا يتضح انه تجسيد لاول مظاهر الواقعية.

كما ان من اهداف هذه الحركة الشريفة انها تعمل على تحفيز التفكير الواعي في الجانب الآخر في الفكرة، ومحاولة فهم واقع الطرف الآخر وادلته ومبانيه، وهذا بمجموعه يشكل عملية اثارة رائعة ودائمة تقود الجميع الى نبذ «المواقف الحادة» المنبعثة جراء التعقيدات الذاتية والموضوعية، وتهدئة المشاعر المتوترة التي تجعل الوجدان في حالة «دخانية كثيفة» فتحجب عنه الرؤية الصحيحة الصادقة. وهذه بلورة حية وصميمية في دفع الوجدان الى ارتياد «المواقع المعتدلة» وتوجيهه اليها. اذن هو تجسيد لثاني مظاهر الواقعية.

ثم ان دعوة حركة التقريب هذه انما هي في الحقيقة مد لجسور الاواصر المبنية على المحبة والالفة بين جميع فرق المسلمين مما يهيىء الفرص الكثيرة للعمل المشترك المنبثق من المشاعر المشتركة، وبالتالي تزداد مساحة الحركة ومجالاتها العملية، مما يعمل على تهيئة مناخ علمي عام يمكن ان يلعب دورا

فاعلا وبارزا في بعث الروح الحركية والسلوك الرسالي عند المسلم.

ولا ادل شيء على ذلك بمثل ما يدل عليه انعقاد هذه المؤتمرات الوحدوية الاسلامية،والحضور المتزايد من علماء ومفكري جميع الفرق الاسلامية الشريفة، والجلوس جنبا الى جنب ليعيشوا هموم العالم الاسلامي ككل، وهذا بعينه تجسيد لثالث مظاهر الواقعية المشار اليها.

خلاصة البحث

ان من يتصفح تاريخ صدر الاسلام، وبالتحديد القرون الاربعة الاولى، ويحاول ان يستقرأ الحوادث التي صنعها الفكر الاسلامي عبر ذلك التاريخ ستصيبه الدهشة بلاشك حينما تصدع مسامعه اخبار الانتصارات الساحقة التي سجلها على كافة الاصعدة حتى كاد يكون سيد العالم قوة وعلما وخلقا وعمارة وصناعة وتجارة.

ولم تحدث هذه الانتصارات، وتحصل هكذا نقلة نوعية بلاسبب، ولم تتجمع سحبها هكذا بغتة من لاشيء لولا ان اتصفت الشريعة الاسلامية بجملة خصائص مميزة لها دون غيرها من الشرائع والاديان السابقة والتي كان لهاالدور الفاعل في حصول تلك الانتصارات المدهشة.

ومن هنا فلابد قبل البحث في موضوعنا عن خصائص الاسلام وبالتحديد خصيصة «الواقعية في الاسلام» ان نستعرض استعراضا تاريخيا مختصرا بمثابة المدخل الى موضوع بحثنا.

وبالجملة فان العناصر الرئيسية للبحث ثلاث:

الاول: المدخل، ويشتمل على المواضيع الرئيسية التالية:

أ ـ تصوير عام لظروف واجواء البلاد الاسلامية: الجزيرة العربية وبلاد فارس وبـلاد الهند وافريقيا وبلاد ماليزيا وما جاورها، قبل البعثة النبوية الكريمة، وما كان يسـودهـا من عقـائـد فاسدة وخرافة واساطير، ومن ممارسات خاطئة مبنية اساسا على الخرافة والخزعبلات.

ب ـ تصويـر عـام لفتـرة البعثة الشريفة، ومـا احدثتـه من ثورة عارمة اقتلعت جميع تلك العقائد المنحطة والخزعبلات المقرفة، مستبدلة بعقائد صحيحة مشرقة مبنية على اسـاليب المعرفة وكسبها؛ لغرض التسليح الثقافي الذي هو الخطوة رقم واحد لمسيرة الف خطوة نحو البناء الحضاري الشامخ.

ج ـ تصويـر مختصر لبعض المباني التي بناها الاسلام وشيد صرحها للبشرية لغـرض رفعهـا من الحضيض الى السمـاء، ودفع عجلتهـا نحـو الامـام، فكانت الحصيلة ان بُني عـرش العـدل، وارتفع صـرح العلم، وتلألأت نجـوم في سمـاء البشرية من العظمـاء والعلماء والادباء والشخصيات التي اقامت الدنيا ولم تقعدها بشهادة جمع غفير من مقالات المستشرقين الغربيين في ذلك.

الثـانـي: موضـوع البحث: واقعية الفكـر الاسـلامي في مبـانيـه الفلسفية والاجتمـاعية والفقهية والاقتصـادية، وقبل الشـروع في الكلام فيه، تم استعراض اهم الخصـائص الكبـرى التي تحلّى بهـا الاسـلام وتميّـز به عن غيره من الاديان والنظريـات والفلسفات الموضوعة، واهمها باعتبارها الاصول الرئيسية التي منها تتفرع باقي الفروع:

١ ـ الربانية، فانها موحاة من خالق الكون العزيز الحكيم، لذا فهي مبرّأة من كل نقص او جهل او هوى لاكما هو حال الفلسفات والنظريات الوضعية.

٢ ـ الانسانية، فانها وجدت اصلا لكي تلبي الكينونة الانسانية، وتدخل دائرة ادراكها، لذا فهي لم تكن موضوعة لقهر الانسان واستعباده من خلال هضم حقوقه، وابتلاع جهوده لصالح فئة معينة.

٣ ـ العالمية، فانها وجدت لهداية الناس كافة، الابيض منهم والاسود، بلا فرق بينهم، لذا فهي تنفي جميع انماط التفرقة سواء على اساس اللغة او الجغرافيا او اللون او القومية او الجنسية، وبنفس الوقت فهي تستوعب الثقافات والتقاليد ما دامت لاتنافي مبادئها الاساسية.

٤ ـ الشمولية، فان الشريعة الاسلامية ليست منبثقة من تفكير الانسان المحدود بالزمان والمكان بل هي تستند الى ارادة الاله السرمدية الازلية الابدية المطلقة، فلايجد الانسان نفسه تائها حائرا في امره وانما يشعر بالراحة والطمأنينة لما يجد في الشريعة السمحاء جميع اجوبة مسائله، فهي تشتمل على كل جوانب حياته الروحية والمادية.

٥ ـ الواقعية، لان المذهبية الاسلامية موجهة اصلا لتعريف الانسان بخالقه وبنفسه وبمركزه في الوجود وبكونه خليفة يتعامل مع قوانينها المادية وحقائقها الموضوعية، فهي لاتحتقره وتنكر دوره في الارض ولاتهدر قيمته، ولاترفعه الى مقام الالوهية في اية صفة من صفاته.

موضوع البحث: الواقعية في الاسلام

ان الحضارات الكبرى ـ آية حضارة ـ التي تلتزم بوضع حد فاصل بين ماضي الانسانية وحاضرها لابد وان تحتاج الى فلسفة شاملة ومنهجية كاملة تضع في حسابها جميع الحلول للمشاكل التي يمكن ان يحدثه هذا التحول النوعي في

الحياة العملية.

ولم تتصف اية حضارة بهكذا وصف مثل ما اتصف الحضارة الاسلامية عبر تاريخ البشرية الطويل من قوة في الاسس، وسلامة في النظم، وشمولية في الفلسفة، وتكامل في المنهجية، وواقعية في الاسلوب مما كانت بمجموعها صياغة عملية وجدّية لوجه الانسانية على هذا الكوكب الصغير.

واهمها هو اتصافها بالواقعية الحقيقية في الفكر والعمل مما كان لها الاثر الفاعل في خلود الرسالة المحمدية وانتشارها في اطراف المعمورة.

وتظهر هذه الواقعية في نوعية تعامل الشريعة مع طبيعة الانسان وطبيعة ظروفه المحيطة به، اذ لايتم هذا التعامل الا في حدود فطرته واستعداداته، فلم تحمله ما لايحتمله، ولاتهدر قيمته وقيمة وجوده، وتنكر دوره، وبنفس الوقت لاترفعه الى مقام الإلوهية.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فانها وفقّت في تنظيم حياته العملية، واشباع رغباته المادية وميوله الروحية معا في عملية تزاوج منقطع النظير، يندهش لها الباحثون، واوردنا ببعض اقوالهم.

ثم عرج البحث الى بيان اهم مظاهر الواقعية:

١ ـ الانسجام مع الفطرة والعقل، اذ ان اساس التربية الاسلامية قام على اشباع غرائز وعواطف الانسان المادية والروحية معا من غير قمع احدهما للآخر، او اطلاق احدهما على حساب الآخر. كل ذلك في نظام خاص ومنهجية اثارت اعجاب المفكرين. وقد اوردنا مقتطفات من اقوال بعض المستشرقين في هذا المضمار.

٢ ـ التوازن والاعتدال، فالشريعة الاسلامية اتخذت احكامها على اساس

يتصف بالاتزان والاعتدال، فهو من جانب لايسمح للعقل بالحرية المطلقة المؤدية الى اختراق الغيب ليتحول فيما بعد الى ضرب من الكهنوت، وبنفس الوقت لم يقمع حركته الى حد يقصر عما اوكل اليه، وبالتالي يصبح مقيدا فيستسلم للخرافة والاسطورة. وتتجلى مظاهرها على سبيل المثال: في عبودية الانسان المطلقة لله سبحانه وبنفس الوقت اثبتت دعوتها الى تكريم مقام الانسان في الكون، وهكذا الامر في مذهبه الاجتماعي، والاقتصادي،...،...، وفي نهاية المطاف عرضنا بعض الشهادات من قبل بعض المؤتمرات القانونية الدولية التي اقيمت في بعض الدول الاوروبية والعربية كمؤتمر لاهاي عام١٩٣٨م، ومؤتمر المحامين الدولي الذي عقد في لاهاي ايضا عام١٩٤٨م، والمؤتمر الدولي للحقوق المقارنة الذي عقد في باريس عام ١٩٥١م... وغيرها.

٣ ـ الايجابية التي تظهر غالبا في نفوس معتنقي الاسلام، وهي من جهتين:

الف ـ من حيث علاقة الله سبحانه بالوجود وتدبيره الحكيم له. فان لهذه الخاصية دور كبير في مد الحياة الانسانية بالمشاعر الفيّاضة وتمنحها نوعا من العواطف الوجدانية التي تلهب الحياة بالنشاط والحيوية.

ب ـ من حيث ايجابية الحياة الانسانية ككل، الصادرة عن افراد يتمتعون بصفات ايجابية مشرقة تجعله كتلة مشتعلة من الفعالية والانتشار، فالمؤمن ما يكاد يستقر فيه الايمان حتى يحس انه اصبح قوة فاعلة ومؤثرة في نفسه وفي هذا الكون من حوله.

الثالث: حركة التقريب بين المذاهب الاسلامية تجسيد حي للواقعية:

ان في حركة التقريب وما تلعبه من دور هام على هذا الصعيد تجسيدا حيا لمظاهر الواقعية الثلاث، فمن خلال دعوتها الى نبذ التطاعن والتطاحن بين ابناء

هـذه الامة المرحـومة، والجلـوس سويا حول المائدة المستديرة لمعايشة هموم الامة كلها انما هو استجابة لامرين رئيسيين:

الف ـ امتثالا لامر المولى عز وجل في ذلك.

ب ـ لحـاجة الظـرف الحـالي الى الاتحاد وملازمة المسلم لاخيه المسلم في وقت تكالبت عليهما كل القوى الشريرة.

لذا فان حركة التقريب انما هي في الحقيقة حركة فكرية حضارية، تنتهج عنوانا ثقافيـا من اجل اثارة وجدان المسلم وعقله، وتحفيزه نحو التفكير في مدى امتثاله لاوامـر الله ونهيه في مجال الائتلاف والاختلاف. وهذا ـ في الحقيقة ـ استجابة واعية لنداءات الفطرة وحكم العقل اللذين يقضيان التركيز على ذلك.

فالانسـان كمـا هـو اجتمـاعي الطبع فانـه بحاجة الى الجماعة ليمارس حياته العملية بشكل تام. وهذا تجسيد لاول مظاهر الواقعية.

ثم ان من اهـداف حركة التقريب هو تحفيز التفكير الواعي في الجانب الآخر من الفكـرة، ومحاولة فهم واقع الطرف الآخر وادلته. وهذا بمجموعه يشكل عملية اثـارة رائعة تقـود الجميع الى نبذ المواقف الحادة اولا، وبسط الحالة الشفافة دون الضبابية التي تحجب الـرؤية الصحيحة والصادقة ثانيا. وهو بالجملة: بلورة حية في دفع الوجدان الى ارتياد «المواقع المعتدلة» والعمل على اساسها. وهذا هو تجسيد حي لثاني مظاهر الواقعية المتقدمة.

ومن اهـدافهـا المعلنة ايضـا مدجسور الاواصر المبنية على الود والالفة بين جميع فـرق المسلمين، ممـا يهييء الفرص الكثيرة للعمل المشترك، وبالتالي تزداد مساحة الحركة ومجالاتها العملية، فينشأ ـ من خلاله ـ مناخ علمي يسوده الهدوء والوئـام، فيلعب دورا بـارزا وكبيرا في بث روح الحركية والسلوك الرسالي للفرد

المسلم.

وما انعقاد هذه السلسلة السنوية من المؤتمرات الوحدوية الاسلامية في ايران الاسلام، والحضور المتزايد من العلماء والمفكرين والشخصيات الاسلامية من جميع انحاء العالم الاسلامي، وجلوسهم جنبا الى جنب ليعيشوا هموم العالم الاسلامي، الا تجسيد حي لثالث مظاهر الواقعية المشار اليها.

٣ ـ الإنسانيـــة

١ - المساواة والكرامة الإنسانية في شريعة الإسلام | الدكتور يوسف الكتاني

٢ - الكرامة الإنسانية في ضوء المبادىء الإسلامية | الدكتورعبدالعزيز بن عثمان التويجري

٣ - الإنسانية وحقوق الأمم والأديان في الإسلام | شهاب الدين الحسيني

٤ - الإنسانية، إحدى خصائص الإسلام العامة | الدكتور محمد الشيخ محمود صيام

٥ - منهج الإسلام في إقرار المساواة بين الناس | جعفر المذاري

٦ - خصائص الإسلام العامة | السيد أحمد شبّر

٧ - حقوق الأمم والأديان في الإسلام، دراسة في الأسس الفقهية والتاريخية | شذى الخفاجي

٨ - اصلاح المجتمع الإنساني ومكافحة الفساد | مبارك بن سيف بن سعيد الهاشمي

المساواة والكرامة الانسانية

في شريعة الاسلام

الدكتور يوسف الكتاني

مغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

لما كان الاسلام آخر الخطابات السماوية إلى الأرض، و الكلمة الأخيرة المنزلة على خاتم الأنبياء و الرسل عليه أفضل الصلاة و أزكى التسليم، اقتضت حكمة الله و مشيئته أن يجعله دين البشرية جميعا، الصالح للمعاش و المعاد، والصالح لكل زمان و مكان مصداقاً للهدى القرآني:

﴿ إنّ الدين عند الله الاسلام ﴾[1].

و قوله :

﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[2].

ولذلك خص الله هذا الدين بخصائص، و ميزه بمزايا لم تجتمع لدين غيره، باعتباره الدين الخاتم، وجعله مليئاً بالكمالات، متميزاً بالخصائص و الصفات، كاملا دائماً بدوام الأيام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكان رسوله سيدنا محمد بن

---

١) سورة آل عمران – الاية : ١٩ .

٢) سورة آل عمران – الآية : ٨٤ .

عبدالله عليه أفضل الصلاة والسلام، رسول الانسانية كلها، والناس جميعاً كما أكد ذلك القرآن الكريم :

﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ... ﴾[١].

مما خصّ به الرسول الكريم وكان بذلك خاتم المرسلين و إمام الأنبياء . ومن هنا تميز الإنسان على سائر الموجودات و المخلوقات و بالتكريم والتقدير والعقل والتدبير، ليكون خليفة الله في الأرض، و القائم برسالته فيها، والموجه لمسيرة الحياة .

ـ لذلك رسم الاسلام للانسانية نظاماً محكماً، و منهجاً كاملاً، لانتظام الحياة، و تدبير أمور الناس ليقوموا بالقسط، و ليحيوا حياة دنيوية مستقيمة آمنة بلاغاً للحياة الآخرة، و صراطاً لها، مصداقاً للهدي القرآني الكريم:

﴿ و إنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾[٢].

ـ كما مزج الحق سبحانه تعالى بين الحياتين لارتباط الأولى بالاخرى، فيما أكد الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام :

«ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منها جميعاً، فإن الدنيا بلاغ الآخرة، ولا تكونوا كلا على الناس»[٣].

و لذلك كان الانسان قطب راحة الوجود، و أساس الحياة، و سيد المخلوقات في شريعة الاسلام التي أحاطته بالرعاية الكافية، والعناية الشاملة، بما ضمن له من حقوق، و رتب عليه من واجبات، حتى تميز ديننا الحنيف بكونه دين حقوق الا نسان بين الديانات جميعاً .

---

١) سورة الاعراف - الآية : ١٥٨ .

٢) سورة الروم - الآية : ٦٤ .

٣) أخرجه ابن عساكر عن أنس، و صححه السيوطي .

الاسلام أكثر الأديان رعاية للانسان

يعتبر الاسلام أكثر الأديان كلها رعاية للانسان، وأعظمها عناية به، و تقديرا له، باعتباره خليفة الله في الأرض ، و أعظم مخلوقاته في هذا الكون، وهو الذي أعطاه قيمته الحقيقة، و اعترف بانسانيته، وجعله مناط تطور الكون و تقدمه، و تحقيق إرادة الله فيه، و لذلك حمله أمانة الحياة و مسؤوليتها، وأحاط بكل معاني التكريم، حتى اعتبر الرسول الأكرم:

«حرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمة الكعبة المشرفة نفسها»[١].

لذلك يعتبر الاسلام في حقيقته و هدفه و توجيهه للناس، اعلاماً و اعلاناً إلاهياً لحقوق الناس وواجباتهم، و ما ينبغي أن يكونوا عليه، منذ خمسة عشر قرناً، من قبل أن تعرف الانسانية كلها هذه المواثيق البشرية، و المعاهدات الدولية التي تدعو الى رعاية هذه الحقوق، والتي لم تلق حتى الآن حظها من التطبيق السليم، و الرعاية الواجبة برغم التطور الذي عرفته البشرية، والحضارة التي بلغها الانسان في عصرنا الحالي، ولا شك أن هذا الاعلان الالهي يعلو و يسمو على كل المواثيق الوضعية، والعهود البشرية، لكونه يقوم على الا يمان بالله، و ابتغاء مرضاته، و رغبة في ثوابه، وخوفاً من عقابه.

كما يقوم على الضمير الديني الموجه لتصرفات الناس في السر والعلن، وفي كل أحوالهم ، على مختلف مستوياتهم، وعلى أن ما يفوت و يمضي في الدنيا، لن يفوت في الآخرة، وعند من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

وأمر آخر يمتاز به الاعلام الإلهي عن سائر المواثيق الوضعية، هو انه يرتفع

---

١) رواه ابن ماجة في سننه -كتاب الفتن - باب حرمة ذم المؤمن و ماله ٢ / ١٢٩٧ .

بحقوق الانسان، فيجعل رعايتها واجباً على المجتمع كله، على قادته و حكّامه و قضاته، كما هي واجب على صاحبها، يدافع عنها ولا يتهاون في الحصول عليها، ومن أجل ذلك اعتبرت الشريعة الإسلامية أداء الواجب قبل تقرير منح الحق والحرية اعتباراً على أن النهوض بالواجبات ضمان لصاحب الحقوق والحريات، لأن ضمانها منشأه التشريع بما فرض من تكاليف و واجبات، ومن ثم كان الانطلاق في الحقوق والحريات العامة لا يستقيم مع التكليف، لأن التكليف لا ينفصل معناه عن مفهوم الحريات العامة في الاسلام، إذ أن ثمة تلازما بينهما، فالواجب يقابله حق، و لذلك قيل: لا واجب بلا حق لأن التكاليف حقوق للغير.

خصائص حقوق الانسان في الاسلام

لذلك كان تقرير حقوق الانسان و حرياته العامة منشأها التكاليف، وهذه مصدرها الأحكام التي هي مصادر الحريات، لا ذات الانسان كما هي عند الآخرين[1].

وقد نظم الاسلام الحريات العامة، على اعتبار أن الحرية منشأها التكليف و المسؤولية لا حرية الانطلاق والفوضى، والأنانية والهوى، و الخضوع لهيمنة الأعراف السائدة والتقاليد الموروثة، وكانت العقيدة الاسلامية أكبر ضمان للحريات العامة لتقييد سلطة الحكم، لكون ذلك مقيداً بالعدل، إذ نظمت الشريعة كيفية ممارستها على نحو معروف، امتثالاً لله و طاعة في التكليف، و وفاء بالامانة التي حملها الانسان، و لذلك قامت الحقوق على حقائق عقائدية، قبل أن تكون تصرفا سياسياً أو مجرد نظام دستوري.

---

١) حقوق الانسان في التشريع الاسلامي - للدكتور فتحي الدريني - مجلة نهج الاسلام ص ٣٢ - عدد ذو الحجة ١٤٠١ - اكتوبر ١٩٨١.

فكل حرية عامة في الاسلام مظهر للعقيدة و التقوى قبل أن تكون أمراً آخـر، ، ومن ثم كانت ممارستها عبادة و خلقا، أداء للتكليف المبني على المسؤولية، و ذلك ما ميزها و خصصها في الاسلام عن غيرها، وهذاما جعل الحرية في الاسلام حقاً و واجباً معاً، يؤكد ذلك أن حق الحياة مصون للانسان شرعاً، غير انه في نفس الوقت واجب و تكليف تنهض المسؤولية عن ادائه والتصرف فيه، و لنضرب لذلك مثلاً بحق الحياة نفسه، فإذاكان من حق الانسان أن يحيا، فإن من واجبه أيضاً أن يـحيا، اداء لأمـانة التكليف و عمارة الدنيا، في ظل العبودية لله و تنفيذ شرعه، فليست حياته حقا خالصاً له يتصرف فيه كيف يشاء، و إنما خلق ليؤدي واجباً لنفسه ولغيره، ولا يتأتى هذا إلاّ إذا كان واجباً عليه أن يحيا، لأنه لم يخلق عبثا ولا سدى :

﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ﴾[1].

لذلك يكون الاعتقاد بثبوت هذه الحقوق شرعاً بالتكليف و المسؤولية، هو منطلق ممارستها في المجتمع الاسلامي، تبعاً لمفهومها المنوط بالطابع الاجتماعي الانساني .

هذا ولا نعلم تشريعا غير الاسلام، يـؤصل مـن الأحكـام العـملية، و الضـمانات الحقيقة، ما يجعل إندماج حياة الفرد في حياة الأمة أمراً واقعاً، بحيث تصبح قوامـاً موحداً، كما تندمج الارادات الفردية، حتى تصبح إرادة معنوية عامة للمجتمع، يتقرر على ضوئها مصيرهم جميعاً في حياتهم الدنيوية[2].

ومن أجل ذلك أبادر إلى القول: بأنّ ما ادعته و تدعيه الدول المعاصرة، مـن كـونها كانت السبّاقة الى الدعوة الى حقوق الانسان و تقريرها، وأن لها فضل الريـادة فـي تطبيقها و رعايتها غير صحيح، وها هو التاريخ الحضاري والانساني خير دليل وشاهد،

---

١) سورة القيامة – الآية : ٣٦ .

٢) حقوق الانسان في التشريع الاسلامي ص ٣٩.

فليس صحيحاً أن الانجليز والفرنسيين كان لهم فضل الريادة و السبق في المطالبة بها، و الدعوة إليها في ثوراتهم و مواثيقهم .

فقد تصور الناس نتيجة تأخر المسلمين، و تخلفهم عن السير بمقتضى أوامر دينهم، أن حقوق الانسان مرتبطة بالعهد الأعظم الانجليزي «ماجنا كارتا» الصادر سنة ١٢١٥ م . أو ميثاق توم سنة ١٧٣٧ م، أو إعلان الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ، أو الاعلان العالمي لحقوق الانسان الصادر سنة ١٩٤٨ م .

ولكن الذي علمته الانسانية منذ خمسة عشر قرناً، و الذي ينبغي أن يعلمه الناس اليوم، أن الاسلام أعلن هذه المبادئ و قررها منذ ظهوره، وكان السباق إلى الدعوة إليها وتقريرها و رعايتها، في أوسع نطاق و أكمل صورة، و أن الدولة الاسلامية على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و الخلفاء الراشدين من بعده، و قادة المسلمين و علمائهم، كانوا أسبق إلى تقريرها، و تطبيقها على نحو رائع، و بشكل ما تزال الأمم المعاصرة لم تبلغه ، و إن مجرد مقارنة بسيطة بين التشريعات السابقة على الاسلام، و كذا المذاهب اللاحقة عليه، تظهر ريادة الاسلام و أسبقيته في هذا الباب .

إنّ الاسلام دين حقوق الانسان التي قررها القرآن، دستور المسلمين و كتابهم العظيم، كما أكدتها السنّة الكريمة، وعمل الخلفاء، و العلماء، و تاريخ المسلمين، لقد امتلأ مسمع الدنيا كلها بصوت الرسول عليه السلام، بالوحي المنزل عليه، يعلم البشرية كلها، ويعلن لها كلها هذه الحقوق في هذا البيان الرائع المعجز :

﴿ يا أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[1].

---

١) سورة الحجرات - الآية : ١٣ .

إن القرآن و السنّة ظلا دوماً المنبع والمصدر لكل حقوق الانسان و حرياته، و قد حفلت نصوصها بالمبادئ الانسانية السامية لتلك، الحقوق و الحريات، وكان كل منهما مكملاً للآخر في تفصيل و تدقيق معجز رائع، وعلى هديهما، سارت دولة الاسلام ومجتمعات المسلمين فى مختلف العهود.

و إنّ أروع مثل للدعوة الى حقوق الانسان وحرياته، ومدى ما بلغته من تقرير و رعاية فى دين الاسلام ، ولدى رسول الاسلام، هي خطبته في حجة الوداع، التي أبى عليه السلام إلاّ أن يضمنها آخر وصيته للمسلمين، يضمنها دعوته للحفاظ على تلك الحقوق، و صيانتها، و الدفاع عنها .

و سنجتزىء هنا بالكلام على حقين من الحقوق الأساسية هما:

١ ـ المساواة بين الناس .

٢ ـ و الكرامة الانسانية .

أولاً : المساواة بين الناس

كان من بين الحقوق الأساسية التي شرعها الاسلام، و قررها للناس، و أوجب تطبيقها، والعمل بها، حق المساواة الذي يعتبر في شريعة الاسلام أساساً لعلاقات الناس فيما بينهم، و مظهراً من مظاهر العدالة الاجتماعية، و ركيزة لكرامة الشخص، و اعتبار قيمته الانسانية .

و قد اعتبر الاسلام مبدأ المساواة عقيدة أساسية يجب أن يدين بها المسلم، و أن يحرص عليها و يتصف بها، و يطبقها في حياته كلها، و جعل ذلك أساساً و مبدأ تقوم عليه حياة الناس فقال في القرآن الكريم :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إن

أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[١].

فالناس جميعاً منحدرون من أب واحد، و أم واحدة، وأن تقسيمهم كذلك ليتعارفوا و يتمازجوا و يحب بعضهم بعضاً و ليتكاملوا لصالح الجماعة كلها و البشرية كلها.

كما قام هذا المبدأ على أمر آخر وهو تمييز الانسان على سائر المخلوقات، باعتباره أسماها و أكرمها عند الله :

﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ .

أي تكريم الجنس البشري كله ولم يخص فرداً دون آخر .كما شملت هذه المساواة الذكر والأنثى، وهم متكاملون بعضهم من بعض، ولا فضل لأي منهما على غيره بل الفضل في ذلك للخالق :

﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ... ﴾[٢].

فليس بينهم فرق في جوهر الطبيعة أو في الأصل، وهم جميعاً مسؤولون و مثابون أو معاقبون .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، و خلق منها زوجها و بث منهما رجالاً كثيراً و نساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إنّ الله كان عليكم رقيباً ﴾[٣].

لقد أوجب الاسلام تطبيق حق المساواة و التمسك به في جميع نواحي الحياة،

---

١) سورة الحجرات : ١٣ .

٢) سورة آل عمران – الآية : ١٩٥ .

٣) سورة النساء – الآية : الاولى .

ونادى بالعمل به في الحقوق المدنية، و المسؤولية، والعقاب، وفي جميع الحقوق العامة.

ومن أجل هذا يعتبر الاسلام بني البشر جميعاً، متساوين في طبيعتهم البشرية، ولا تفاضل بينهم، بحسب الخلق، أو العنصر، أو السلالة، أو اللون، و إنما هم يتفاضلون، بكفايتهم و أخلاقهم و أعمالهم، و ذلك مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[١].

وقد عمل الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله و فعله طوال حياته، على تطبيق هذا المبدأ الاسلامي العظيم، باعتباره اصلا من اصول الاسلام، و أساساً من الأسس التي يقوم عليها مجتمع المسلمين. وقد أبى في خطبة الوداع إلاّ أن يؤكد ذلك، ويدعوا الأمة الى التمسك بهذا الحق واعتباره، فقال:

«أيها الناس إنّ ربكم واحد، و إن أباكم واحد، كلكم لآدم و آدم من تراب»[٢].

وقد غضب غضباً لم ير مثله على وجهه، عندما سمع أبا ذر الغفاري يحتد على بلال ويعيره بلونه قائلاً :

«يابن السوداء » فزجره الرسول و رده بقوله :

«يا أبا ذر أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، و يلبسه مما يلبس، ولا

---

١) سورة الحجرات – الآية : ١٣ .

٢) رواه الامام أحمد في المسند و رجاله رجال الصحيح – مجمع الزوائد للهيثمي ٣ / ٢٦٦ – كشف الاستار ٢ / ٤٣٥ .

تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[١].

فاستجاب أبو ذر لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، و وضع خده على الأرض، و أقسم أن يطأه بلال برجله توبة و تكفيراً، عما صدر عنه من أخلاق الجاهلية.

و إن أفضلية الاسلام و ريادته في هذا المجال، تظهر في أنه لا يقرّ المبادئ الضالة التي عرفتها الانسانية قبله، وهذه الجاهلية التي عادت إليها الانسانية حتى في عصر التمدن الحالي.

لقد شجب الاسلام تلك الامتيازات التي قامت في مجتمع الهنود و الرومان و اليونان، من تمييز الناس بعضهم على بعض، بحسب العنصر أو الجنس، أو التكوين، ولذلك حرم التفاضل الذي ميز الشعوب عن بعضها، والأوصاف التي أطلقتها على نفسها «كالشعب المختار» و «شعب الله» ومن «شعوب ناقصة» و أخرى «كاملة الانسانية» بحسب نشأتها و طبيعتها الأولى، و بالتالي ذلك التمييز الذي قام بين الناس تبعاً لتلك الأوصاف، فهذا كله حرمه الاسلام و ألغاه، و اعتبره جاهلية و انحطاطاً للانسانية عن مكانتها الرفيعة التي وضعها الله فيها بقوله:

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة و خلق منها زوجها و بث منهما رجالاً كثيراً و نساء ﴾[٢].

والتي نادى بها الرسول و طبقها في قوله :

«ليس لعربي على عجمي فضل، ولا لعجمي على عربي فضل، ولا لأسود على أحمر فضل، ولا لأحمر على أسود فضل إلاّ بالتقوى»[٣].

---

١) أخرجه البخاري في صحيحه ١ / ١٣، ط . دار الفكر .

٢) سورة النساء – الآية : الاولى .

٣) رواه الطبراني في الكبير – مجمع الزوائد للهيثمي ٣ / ٢٧٢ .

و تطبيقاً لهذا المبدء و عملاً به، لا يقر الاسلام هذه الدعاوى الجاهلية التي عادت الى الظهور، و انتشرت اليوم، من التمييز بين الشعوب حسب ألوانها، و اعتبار الرجل الأبيض سيد العالم، و تمييزه في المعاملة و سائر الحقوق عن الرجل الأسود، في التعليم والوظائف، كما يحصل الآن في بعض الدول الافريقية وبعض مدن أمريكا مثلاً.

إن الاسلام جعل من بلال الحبشي، و صهيب الرومي، و سلمان الفارسي، دعاة و قادة و حكاما، حتى قال الرسول عن سلمان إنّه من أهله و أهل بيته، وهذا هو منتهى التكريم والتقدير للانسان، باعتباره إنساناً فحسب.

تطبيقات الاسلام لمبدأ المساواة

لعل الاسلام أعظم دين قرر مبدأ المساواة بين البشر في أتم صورة و أكمل وضع، واعتبره الأساس في علاقات الناس بعضهم مع بعض، و رغب في تطبيقه في جميع مناحي الحياة حتى جعله قوام العدالة الاجتماعية، و أساس الكرامة الانسانية.

ومن هنا شمل تطبيق الاسلام و تقريره لمبدأ المساواة جميع مظاهر حياة الانسان، سواء فيما يتعلق بتقدير القيمة الانسانية المشتركة، أو فيما يتعلق بالحقوق والمسؤولية، والجزاء، أو فيما يرتبط بشؤون الاقتصاد تحقيقاً لخير الناس واستقرارهم و سعادتهم، و أحاطه بسياج من الرعاية والحماية من كل انحراف أو عبث أو زيغ، حتى كان مظهراً من مظاهر سمو الدين الاسلامي و سمو تعاليمه التي حققت للانسانية وللناس الأمن و الطمأنينة والاستقرار.

و ستتحدث على هذه النقاط الثلاث لنتعرف على مدى صلاحية الاسلام و فضله في هذا المجال :

١ - المساواة في القيمة الانسانية المشتركة

ويعني ذلك أن الناس جميعاً متساوون في طبيعتهم البشرية، إذ أنـهم مـن أصـل واحد و طبيعة واحدة:

﴿ منها خلقناكم و فيها نعيدكم ﴾[١].

وأن ليس هناك فرد أو جماعة تتميز عن غيرها بحسب عنصرها و خلقها الأولى، و إنما التفاضل يكون بأمور خارجة عن طبيعتهم وعنصرهم و سلالتهم، أي على أساس التقوى والعمل الصالح.

٢ - المساواة في الحقوق و المسؤولية و الجزاء

وتقوم هذه المساواة على أساس أن العدل الاسلامي له مـيزان واحـد، و تـطبيق واحد على جميع الناس، في جميع شؤون الحياة، حقوقاً، و مسؤولية، و جزاء، انطلاقاً من قول الله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قـوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[٢].

و يؤكد هذا المعنى رسول الله (صلعم) بقوله:

«إنما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، و إذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، و أيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٣].

وهو ما ذهب إليه عمر بن الخطاب في رسالة القضاء الى أبي موسى الأشعري قائلاً:

(آس بين الناس في وجهك و مجلسك، وعدلك، حتى لا يطمع شريف في حيفك،

---

١) سورة طه - الآية: ٥٥.

٢) سورة المائدة - الآية: ٨.

٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٥ / ٩٧.

ولا ييأس ضعيف من عدلك).

كما يحرص على تأكيد ذلك في وصيته للخليفة من بعده بقوله:

(اجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم، و إياك والمحاباة فيما ولاك الله).

كذلك سوّى الاسلام بين الناس في حق التعليم، و جعله فرضاً واجباً على كل فرد بما ينفعه في دينه و شؤون دنياه، مصداقاً لقوله عليه السلام:

«طلب العلم فريضة على كلم مسلم»[1].

يدل على ذلك و يوجهه أن أول الوحي دعوة الى العلم والتربية .

كذلك سوّى الاسلام بين الناس في حق العمل، و جعله حقّاً مشاعاً بين الناس، و حث عليه و رغب فيه :

﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾[2].

و دعاهم أن يمارسوا أعمالهم، و يعودوا إليها إثر الفراغ من صلاة الجمعة كما أكد ذلك القرآن الكريم :

﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ... ﴾[3].

وقد عمل النبي في الرعي وفي التجارة لزوجته خديجة قبل أن ينبأ و يرسل إلى الناس، و حبب العمل إلى صحابته ليكسبوا ولا يكونوا عالة على غيرهم، وعندما عاد من غزوة تبوك استقبله معاد و صافحه، فأحس بخشونة يده فقال له:

---

١) رواه ابن عبد البر في العلم عن أنس، و البيهقي في شعب الايمان - انظر مختصر شرح الجامع لاصغير للشرنوبي ٢ / ٨٩.

٢) سورة الملك - الآية : ١٥ .

٣) سورة الجمعة - الآية : ١٠ .

« تلك يد يحبها الله و رسوله » .

ولم تقتصر التسوية بين أفراد المجتمع الاسلامي على المسلمين بل شملت التسوية بين المسلمين وغير المسلمين مصداقاً للقاعدة الشرعية :

(لهم ما لنا و عليهم ما علينا)[١].

فللذميين ما لنا من الحقوق، و عليهم من الواجبات ما للمسلمين مثلهم، وعلى الدولة أن تقاتل عنهم كما تقاتل عن رعاياها من المسلمين، بل إن المسلمين و خاصة حكامهم، مطالبون بأكثر من ذلك في مقابل أهل الذمة بحسن المعاملة و الحماية، تأكيداً للتوجيهات النبوية الكريمة :

«من آذى ذمياً فأنا خصمه، و من كنت خصمه خصمته يوم القيامة»[٢].

«ومن ظلم معاهداً أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا خصمه يوم القيامة»[٣].

التسوية بين المرأة والرجل

لقد أحدث الاسلام بتقرير حق المساواة بين الرجل والمرأة، تغييراً جذرياً في الحياة، بعد أن ظلمتها الأجيال والأمم، وهضمتها حقوقها، و حرمتها من أبسط الحقوق، واعتبرتها مجرد اداة للزينة و التسلية، و موطيء الشهوة والولد، فقرر الاسلام فيما قرر مساواتها التامة بالرجل في جميع الحقوق والواجبات، وفى المسؤولية والجزاء وفى كل مجالاة الحياة، فكان بذلك اول من قرّر حقوقها و واجباتها، و حماها فى ذلك حتى إنه جعل منها خلال عقدين من الزمن نداً للرجل، و

---

١) من رسالة خالد بن الوليد الى مرازبة فارس ولاة كسرى على ألوية العراق عندما هم بفتحها .

٢) رواه الخطيب في التاريخ - انظر مختصر الجامع الصغير للشرنوبي ٢ / ٢٦٩ .

٣) المرجع السابق ٢ / ٢٦٩ .

مساوية له في جميع الحقوق والوجبات، وعضوا مهما في المجتمع، فقال عليه الصلاة والسلام:

«النساء شقائق الرجال»[١].

أي أمثالهم، وما يزال الاسلام بعمله هذا متميزاً عن كل الأديان والشرائع، والنظم الحديثة في هذا المجال.

فقد سوى الاسلام بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق، وفي شؤون المسؤولية والجزاء:

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾[٢].

﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان و الاقربون و للنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً ﴾[٣].

و سوى بينهما في الحقوق المدنية على اختلاف أنواعها، لا فرق بين المرأة المتزوجة وغيرها، والزواج لا يفقد المرأة شخصيتها المدنية، وممارسة كامل حقوقها، والمحافظة على اسمها وشخصيتها، ولم يفرق الاسلام بين الجنسين في الحقوق، إلاّ من حيث تدعو الى ذلك مراعاة طبيعة كل من الجنسين في الحياة، وما يصلح له، وكفالة الصالح العام، وصالح الأسرة، و صالح المرأة نفسها.

---

١) رواه الامام احمد في المسند ٦ / ٢٥٦ - و أبو داود ١ / ٦١ - والترمذي في سننه ١ / ٧٤ و ٧٥ والدارمي في سننه ١ / ١٩٥ .

٢) سورة النحل - الآية : ٩٧ .

٣) سورة النساء - الآية : ٧ .

٣ - المساواة في شؤون الاقتصاد

وقد وضع الاسلام في هذا المجال نظاماً دقيقاً يحقق تكافوء الفرص بين الناس في النواحي الاقتصادية، و يذلل لكل فرد سبل الحصول على المال، و يعطي لكل مجتهد جزاء اجتهاده، تحقيقاً للتوازن، و تقليل الفروق، و تقريب الناس بعضهم من بعض، و بما يحول دون تضخم الثروات، و تجميعاً في يد أو أيد قليلة، و عمل كل ما يجرد المال من حق السيطرة والاحتكار، والتحكم في رقاب الناس .

فقرر في هذا المجال الملكية الفردية و حماها، و ذلل أمام الفرد سبل التملك والحصول على المال، و شجع على العمل، و فتح المجال أمام المنافسة والعمل على التفوق، وعلى أن تقوم العلاقات الاقتصادية بين الناس على التكافل والتعاون، والتواصي بالبر والاحسان والعدل، كفالة للضمان الاجتماعي في المجتمع، و تحقيقاً لمجتمع الكفاية والعمل، الذي يضمن للناس حياة انسانية كريمة .

وهكذا نجد أساس النظام الاقتصادي الاسلامي يقوم على :

- يقرر الملكية الفردية و يحيطها بسياج من الحماية .
- و يذلل أمام الفرد سبل التملك و الحصول على المال .
- و يشجع على العمل و يعطي لكل مجتهد جزاء اجتهاده من ثمرات الحياة .
- و يفسح المجال أمام المنافسة والعمل على التفوق والابداع والابتكار .
- و يحقق تكافؤ الفرص بين الناس .
- و ينظم وظيفة رأس المال، و يحيطه بكل ما يمنعه من السيطرة والاستغلال .
- و يحول دون تضخم الثروات و تجميعها في يد واحدة، بما قرره من إرث، و وصية و زكاة، و صدقات، و كفارات .
- و يجعل ملكية الاشياء الضرورية لجميع الناس ملكية جماعية .

- و يبيح نزع الملكية الفردية للصالح العام .

و بذلك قام النظام الاقتصادي الاسلامي على أساس :

١ - أن الانسان غاية لا وسيلة .

٢ - قيام العلاقات الاقتصادية بين الناس على أساس أخلاقي، تحقيقاً للتكافل والتعادل والتضامن الاجتماعي .

٣ - تحريم طرق الكسب غير المشروع، وهي التي تقوم على استغلال النفوذ و الربا، والرشوة والغش، والابتزاز، والتحكم في ضروريات الحياة .

٤ - الترغيب في الانفاق والتصدق بكل ما زاد عن الحاجة من أجل الصالح العام.

٥ - جعل اكتناز المال و عدم إنفاقه في سبيل الله من أكبر المعاصي .

٦ - حق المسلم في الغذاء و الكساء والعمل، بغض النظر عن أي اعتبار .

و كفالة الدولة لهذه الحقوق .

إن من شأن هذه المبادئ أن تحقق استقرار التوازن الاقتصادي بين الطبقات والافراد .

و تضيق المسافات بين الناس بتقريبهم بعضهم مع بعض و تكفل للجميع حياة انسانية كريمة يأمن فيها كل فرد على حياته و أمنه واستقراره[1].

ثانياً : الكرامة الانسانية

و نتكلم هنا على عنصرين أساسيين هما :

١ - المفهوم الاسلامي للكرامة .

٢ - و مظاهرها .

---

١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا «معالم اسلامية» ص ٣٣ - ٣٦ .

١ - المفهوم الاسلامي للكرامـة

انطلق الاسلام في مفهومه للكرامـة الانسـانية مـن نـظرته الصـحيحة الى الكـون والانسان، الذي جعله الله خليفة في الارض :

﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾[1].

تحقيقاً للغاية الكبرى من وجوده، وهي إفراد الله بـالعبادة والألوهـية، وتـحقيقاً لاعتباره الحياة الدنيا بلاغاً للحياة الأخرى، وعلى انها فترة اختبار و اعداد .

﴿ ومـن أراد الآخـرة و سـعى لهـا سـعيها وهـو مـؤمن فأولئك كـان سـعيهم مشكوراً﴾[2].

ومن هنا كان مفهوم الاسلام للكرامة الانسانية، أبـعد مـن أن تـرتبط بـنسب، أو حسب، أو جاه، أو منصب، أو مال، بل حصره وحدده في أمر واحد هو التـقوى، فالأكثر تقوى هو الأكرم على الله وعلى خلق الله :

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

باعتبار وحدة أصل الانسان كما أكد ذلك الامام الشافعي :

الناس من جهة التكوين أكـفاء ... أبـوهم آدم و الأم حـــواء

فإن يكن لهم في أصلهم شرف ... يـفاخرون بـه فـالطين والمـاء

و بذلك يكون المقياس والميزان في كرامة الناس في الاسلام، هو العمل الصالح لخير الانسان وخير مجتمعه، وما ينفع الفرد والجماعة، والاهتداء الى الحق والتمسك به والتزامه .

و عملاً بذلك و تطبيقاً له نص القرآن الكريم على أن الكفر اضاع كرامة ابن نوح،

---

١) سورة فاطر – الآية : ٣٩ .

٢) سورة الاسراء – الآية : ١٩ .

فاغرقه الطوفان مع قوم نوح، بالرغم من دعاء والده وهو من أولي العزم من الرسل :

﴿ إنّه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾(١).

كما حفظ الايمان كرامة عبد الله بن أم مكتوم حين أنزل الله في شأنه قرآنا :

﴿ عبس و تولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذّكر فتنفعه الذكرى﴾(٢).

تعليماً لرسوله الكريم عندما انصرف عنه، طامعاً في اسلام قوم من وجهاء قريش الذين أسقط الكفر كرامتهم .

ومن هنا لا تكون كرامة لمن يغضب ربه، و يخالف عن أمره، و يسعى في الأرض الفساد، ولو كان جاهه عريضاً، و مكانته متميزة، مصداقاً للهدى القرآني :

﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾(٣).

وهو ما أكده الرسول الأكرم بقوله :

«إنّ العبد لينشر له من الذكر ما بين السماء والأرض، لا يساوي عند الله جناح بعوضة»(٤).

أي لا كرامة له عند الله، لأنه يخفي حقيقته وعمله عن الناس و يكون جاهه و شهرته حجة عليه، ومسؤولية يتحملها يوم القيامة، مما يؤكد أن الشهرة والجاه والمكانة لا علاقة لها بكرامة الإنسان، إذا لم يكن عمله صالحاً يرضي الله عز وجل .

ومن هنا كان مفهوم الكرامة في الاسلام يرتبط بالعفو عن الظلم، والاحسان الى

---

١) سورة هود - الآية : ٤٦ .

٢) سورة عبس - الآية : ١ - ٣ .

٣) سورة الحج - الآية : ١٨ .

٤) رواه العراقي في المغني، والقاري في الاسرار المرفوعة - انظر معجم أطراف الحديث ٣ / ١٠٩.

المسيء، والصفح بدل الانتقام، والسماحة تجاه أفراد المجتمع الاسلامي .

كما يتنافى هذا المفهوم السامي للكرامة في الاسلام مع كل تجبر، أو طغيان، أو احتقار للناس، أو استعلاء على الخلق، للعرف الجاهلي الذي ساد و يسود اليوم بين الناس من أن الانتقام من الناس، والشدة عليهم، والتعالي، والتجبر، صفات تثبت قوة الانسان و مركزه وكرامته، وهي أخلاق و صفات شجبها الرسول الأكرم و حمل عليها في قوله :

«بئس العبد عبد تخيل و اختال و نسى الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى، و نسى الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد سها ولها، و نسى المقابر و البلى، بئس العبد عبد غنى و طغى، و نسى المبتدأ والمنتهى، بئس العبد عبد هوى يضله، بئس العبد عبد رغب يذله»[١].

كما يؤكد هذا المعنى السامي للكرامة الانسانية في الاسلام الحديث الشريف الصحيح:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا ثلاث مرات ـ وهو يشير الى صدره الشريف ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله»[٢].

٢ - مظاهر الكرامة الانسانية في الاسلام

لقد جعل الله الانسان أرقى و أكمل المخلوقات، و خصه بالمزايا، و ميزه بكمال الصفات، لما أودع فيه من العقل، و حسن الادراك، وكمال التمييز، و جميل الصورة والخلق، كما أكد ذلك القرآن الكريم و فصله في آياته و سوره بقوله :

---

١) رواه الترمذي و الطبراني .

٢) رواه أبو داود في سننه ح ٤٨٨٢؛ و الزبيدي في الاتحاف ٧ / ٥٣٣ .

﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾[١].

﴿ خلق السموات والأرض بالحق و صوركم فأحسن صوركم و إليه المصير ﴾[٢].

﴿ ولقد كرمنا بني آدم، و حملناهم في البر و البحر ، و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[٣].

فكان العقل الذي ميز الله به الانسان هو أسمى مظاهر تكريمه، والآية الناطقة الدائمة على كرامته، وبه ساد على العوالم الأرضية وبه اطلع على ما شاء الله من العوالم السماوية، و الآيات الكونية، التي أدركها و مازال يدركها مستقبلاً مما يتيح الله له ادراكها، و سبر أغوارها، و الاطلاع عليها.

كما كرمه بالكلام والافصاح، وتعلم اللغات، و الكتابة والنطق، وعلمه ما لم يكن يعلم، مصداقاً للهدي القرآني :

﴿ الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان ﴾[٤].

﴿ و علمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾[٥].

ومن مظاهر تكريمه و كرامته تسخير الكون له، و جعله مجالا لتعلمه و كشوفه و إبداعه، سخر له ما في السموات وما في الأرض، و هداه الى التفكير بعقله، و إدراكه، والسعي بعمله و كفاحه، إلى الغوص في أسرار الكون، و البحث فيها، و استجلاء آفاقها، فحقق هذا التقدم المذهل، و توصل الى هذه الكشوف والاختراعات التي

---

١) سورة التين - الآية : ٤.

٢) سورة التغابن - الآية : ٣.

٣) سورة الاسراء - الآية : ٧٠.

٤) سورة الرحمن - الآية : الاولى.

٥) سورة النساء - الآية : ١١٣.

سمت بحياة الانسان و بقدره، فحقق بها إرادة الله فيه كما أكد ذلك القرآن الكريم .

﴿ و سخر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض جميعاً منه ﴾[١].

بل ذهب القرآن إلى أبعد من ذلك من مظاهر كرامة الانسان و تكريمه أن أنبأه الله بأنه سيكشف المجهول، و سيخترق الآفاق والفضاء، و سيقطع المسافات و الأبعاد الكبرى في أقصر الأوقات، و سيركب السماوات الطباق، أنباء الانسان والمسلمين بخاصة بذلك قبل مئات السنين، و قبل أن تصل الانسانية الى ما وصلت اليوم من كشف علمية، واختراق الفضاءات العليا كما جاء في القرآن :

﴿فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق و القمر إذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق﴾[٢].

وهو ما فهمه العلماء المسلمون بعد نزول القرآن بزمن قليل، حتى ذهب الامام الطبري : (على أن المراد من هذه الآيات أن الانسان سيركب سماء بعد سماء) أو كما وصفها القرآن :

﴿ بالسبع الطباق ﴾[٣].

وهو المعنى الذي ذهب اليه الامام الرازي بقوله :

(بامكان حدوث ذلك و تحققه مهما كان خارقاً على يد الانسان،استنتاجاً من قوله تعالى:

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾[٤].

أي إمكان وصول الانسان الى السماء لارتياد الفضاء، لأن الله فرض لهم قدرة

---

١) سورة الجاثية – الآية : ١٣ .

٢) سورة الانشقاق – الآيات : ١٦ – ١٩ .

٣) انظر تفسير الطبري – الجزء الثلاثون – سورة الانشقاق .

٤) سورة العنكبوت – الآية ٢٨ .

فيكون لهم صعود في السماء[١].

وهو سبق اسلامي علمي قبل ألف عام، وقبل أن يصبح هذا الأمر حقيقة علمية، مما يؤكد التوفيق بين قيم الديم وقيم العلم في شريعة الاسلام .

ومن مظاهر هذه الكرامة للانسان، تقرير الاسلام لمختلف حقوق الانسان التي تكفل خلافته عن الله في الأرض، و قيامه بالمسؤوليات المنوطة به في الحياة، والعمل بما يحقق سعادته في الدارين وكان في مقدمة تلك الحقوق حقه في الحياة الذي يعتبر أصل الحقوق، بما يتضمنه هذا الحق من المحافظة على حياته وعدم الاعتداء عليها، وعدم التفريط فيها، وقد عصمت الشريعة دم الانسان، و حرمت قتله مصداقاً للهدي النبوي:

«كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله و عرضه»[٢].

واشترطت أن يكون صحيح الجسم، سليم العقل، حسن الخلق .

لذلك كانت محافظة الانسان على نفسه، و احترامه لنفس غيره، تقديراً منه لحق الحياة الذي تقرره الأديان، و تصونه الفطرة، و تحميه الشرائع، واعتبرت الشريعة الخروج على ذلك ظلماً وضلالاً يؤدي إلى النار .

وقد شدد الاسلام في الدعوة الى الحرص على المحافظة على الكليات الخمس.

ومن مظاهر هذه الكرامة الانسانية حرص الاسلام على احترام آدمية الناس، وعدم إهدارها، باسترقاقهم واستعبادهم و ظلمهم، لأن الانسان وجد حراً ليبقى حراً، كما أكد هذا المعنى السامي في الاسلام عمر بن الخطاب بقوله :

---

١) راجع تفسير الرازي - مفاتيح الغيب - سورة العنكبوت .

٢) أخرجه مسلم في صحيحه - البر و الصلة ب ١٠ رقم ٣٢ - والامام احمد في المسند ٢ / ٢٧٧ و ٣٦٠ والترمذي ح ١٩٢٧.

(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)[١].

و بهذا يتأكد أن الاسلام كان أول دين إلهي نادى بحقوق الانسان وله الريادة في تقريرها و إيجابها، و أنه تميز بالربط بين الحقوق و الواجبات، و أول من ساوى بين الرجل و المرأة في تاريخ البشرية، و جعل مصدر هذه الحقوق و الواجبات الهياً بتشريعها و إيجابها عن طريق الوحي في القرآن الكريم، كما أكده الرسول و أصلها و طبقها، و دعا الى تطبيقها و احترامها في السنّة النبوية الشريفة، وسيرته الطاهرة، حتى كانت خطبة حجة الوداع دعوة كريمة، و وصية خالدة للأمة الاسلامية، بالحفاظ على تلك الحقوق، و صيانتها والدفاع عنها .

وقد آن للمسلمين في عصر صحوتهم الاسلامية التي انطلقت مع القرن الهجري الجديد، أن يعودوا الى دينهم فيبنوا على أركانه و مبادئه و قيمه، دولهم و أنظمتهم، و مؤسساتهم و مجتمعاتهم، ففي ذلك خيرهم و صلاحهم، و فلاحهم و قوتهم، لأن الاسلام هو هويتهم و قدرهم، ولا سبيل سواه لهم، مصداقاً لقول عمر بن الخطاب :

(نحن قوم أعزنا الله بالاسلام، مهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا).

و إن أجمل مانختمه به هنا، هذا التوجيه السامي لأمير المؤمنين الحسن الثاني، في رسالة القرن الهجري الجديد التي وجهها إلى شعبه و إلى سائر المسلمين، فقد قال فيها:

«لنعقد العزم على تأدية رسالتنا بأداء حقوق الله و حقوق العباد، وعون عشاق الحرية على التحرير و الخلاص في كافة أرجاء البلاد، ولاسيما إخواننا الأماجد من أبناء شعب فلسطين المجاهد، و قبلتنا الأولى و قدسنا الشريف الخالد، ولنقف على قدم الاستعداد، بكل ما يلزم من العدة والعتاد، واثقين بحقنا، متمسكين في نفس

---

١) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي .

الوقت بديننا، معتزين بحضارتنا، حريصين على حفظ مقوماتنا، والدفاع عن كياننا، ملتزمين في حياتنا اليومية بآداب عقيدتنا، وتعاليم شريعتنا، و لنتسلح لمواجهة مسؤولياتنا الثقيلة والمتنوعة في هذا العصر، باكتشافات القوة الفكرية التي هي «قوة العلم» وأدوات القوة المادية، التي هي قوة السلاح، و طاقات القوة الروحية التي قوة الاخلاق، ولنجعل شعارنا اليومي الدائم، العلم النافع، و العمل الصالح، والانتاج المستمر ، والكسب المشروع، والرقي المطرد، والتنافس المحمود، و السير الدائم الى الامام، و ضرب المثل لبقية الأقوام، ولنحول دنيا الاسلام الواسعة التي لا تغيب عنها الشمس إلى «مسجد كبير» نعبد الله جميعاً في محرابه، و نقوم فيه بالخلافة عن الله في الأرض طبقاً لما جاء في كتابه، و لنجعل من القرن الجديد حلقة ذهبية في تاريخ الاسلام المجيد»[1]

* اقتراحات و توصيات *

نظراً لاهمية هذه الندوة الاسلامية الكبرى، و لعطاءاتها المتجددة، فإنني أقترح التوصيات التالية :

١ - ضرورة اصلاح التعليم في البلاد الاسلامية، و جعل مناهجه و برامجه متفقة مع تعاليم الاسلام و مبادئه و قيمه، لأن إصلاح التعليم أساس كل إصلاح .

٢ - العناية بالتربية الاسلامية في مراحل التعليم كلها، ونشر الثقافة الاسلامية المستمدة من القرآن والسنّة بين فئات الأمة وخاصة الشباب .

٣ - إصلاح وسائل الاعلام في البلاد الاسلامية، وتدعيمها بالأطر الكفئة المتخصصة، وجعل برامجها تعمل على ترسيخ العقيدة، وتقويم السلوك، والالتزام

---

١) رسالة أمير المؤمنين بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ص ٢٠ - ٢٢ .

بأخلاق الاسلام وآدابه، وتنقيتها من كل ما يشين و يخالف مبادئ ديننا الحنيف، حتى يعود للمجتمع الاسلامي حياؤه و أخلاقه و سماحته .

٤ – إنشاء وكالة أنباء اسلامية تحقق أهداف وغايات أمتنا الاسلامية، وتقف في وجه تيار الأخبار التي تبث ضد عالمنا الاسلامي، وتعمل على تشويه صورته .

٥ – إنشاء قمر صناعي إسلامي يخدم الاعلام الاسلامي، ويوحد مناهجه، و يبث برامجه، ويعطي الصورة الحقيقية لامتنا الاسلامية ودينها، و مجتمعها، و أخلاقها، وعطاءاتها، والعمل على الاستفادة من الأقمار الصناعية العربية لتحقيق هذه الأهداف والغايات .

٦ – إنشاء لجنة لمتابعة توصيات ندوتنا، و العمل على تطبيقها، حتى تحقق النتائج والآمال المعقودة عليها.

الكرامة الإنسانية

في ضوء المبادىء الإسلامية

الدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجري
المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة
إيسيسكو - المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل:

لقد خلق الله تعالى الانسان في أحسن تقويم، و سخر له ما في السموات و ما في الارض، وأرسل رسله وانبياءه هداة ومبشرين ومنذرين، يدلون الناس الى طريق الحق الذي يحقق لهم السعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة. فالوحي الالهي تكريم للانسان، لأنه يهدف الى ما فيه الخير لهذا الانسان، وهو تفضيل له على سائر المخلوقات، فكرامة الانسان من تكريم الخالق جل و علا له، وهي اصيلة في الطبيعة البشرية، لاتكتسب لتوافر عناصر او لتضافر عوامل او لتواتر اسباب. ولم يكرم دين من الاديان بني آدم كما كرمهم الاسلام، على اختلاف اعراقهم والوانهم. قال الرسول(ص) (كلكم لآدم و آدم من تراب) وقال ايضا «لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لابيض على اسود، ولا لاسود على ابيض الا بالتقوى».[1]

---

(١) رواه البخاري و مسلم، من خطبة الوداع.

ولقد جاء الاسلام ليؤكد على اصالة الكرامة الانسانية، وليرسخ في الانسان احساسه بكرامته، وليقوي تمسكه بها، وصونه لها، وذوده عنها، لأنها جوهر انسانيته، ولب بشريته، و أسّ ذاتيته. فلقد راعت المبادىء الاسلامية في الانسان انه اكرم الخلق اجمعين، وأنه يحمل الامانة العظمى، وانه مستخلف عن الله سبحانه و تعالى في الارض، ليعمرها، وليقيم الموازين بالقسط، وليعبد الله وحده لا يشرك به احدا، فكان الاسلام باعثاً للكرامة الانسانية، وحافظا لها، بما جاء به من مبادىء سامية تصون للانسان حرمته، و ترعى كرامته، و تنزله المنزلة التي انزله الله اياها مكرما مكفول الحقوق جميعا.

ومن أجل ان نقف على مقام الكرامة الانسانية في المبادىء الاسلامية، نوطىء الى ذلك ببيان الدلالة اللغوية للكرامة اولا، ثم نأتي على شرح الدلالة القرآنية لها، حتى تتوضح امامنا المعاني وتبين المعالم البارزة لهذا الموضوع.

الدلالة اللغوية:

بالرجوع الى معاجم اللغة العربية، نجد ان كَرُمَ فلان كَرَماً وكرامة، اذا اعطى بسهولة وجاد (جاد يجود جودا) فهو كريم. و كرم الشيء عز و نفس، والسحاب جاد بالغيث، والارض زكا نباتها. اما الكرامة فمعناها في اللغة الامر الخارق للعادة غير المقرون بالتحدي. وكرم السحاب جاد بمطره، و كرم المطر كثر ماؤه، و كرّم فلاناً اكرمه، وفلانا فضّله.[١]

وبتتبع دلالات هذا اللفظ، نجد ان كرّم الرجل الامير، اذا احتفى به وعظّمه،

---

(١) المعجم الوسيط، المجلد ٢، ص ٧٨٤، دار الفكر العربي، بيروت.

و كـرم الـرجل ضيفـه، زاد من الحفـاوة بـه والرعاية، و كرم الله وجهه، حفظه مما يستهجن ويخزى منه ونزهه، و كرم الرجل نفسه عما يشينها ونزهها و رفعها، ومنه قـول زهيـر: ومن لايكرم نفسه لايكرم. والكرامة هي الشرافة، وكرامة النفس ترفعها وتصونهـا، والكـرامة كـون الشيء عزيزا، و تكرم فلان عما يشينه ترفع و تصون، و تكـرم الـرجل على صاحبـه قـدم له شيئا من كرمه دون انتظار مقابل. و الكريم هو السخي المعطاء وهو الصفوح السمح.(١)

وفي كتـاب التعريفـات، الكـرم هـو الاعطاء بسهولة، والكرامة هي ظهور امر خـارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، والكريم من يوصل النفع بلا غرض، فالكرم هو افادة ما ينبغي لا لغرض، فمن يهب المال لعوض جلبا للنفع او خلاصا عن الذم، فليس بكريم.(٢)

ويلفت نظرنـا في هذا السياق ايضا، ان من المعاني التي ينطوي عليها الاصل اللغوي للكرامة، الزيادة والفضل، والكثرة، والسهولة، واللين، والاعطاء بلا مقابل. وفي كتـاب الكليات، رزق كريم، اي كثير، وقول كريم، اي سهل لين، وقد يطلق من كل شيء على احسنـه.(٣) فـالتكريم اذن، هـو اسبـاغ كل هـذه الفضائل على المكرم، وفي ذلك تفضيل اي تفضيل.

---

(١) الهادي الى لغة العرب، المجلد ١، ص ٣٠، دار لبنان للطباعة والنشر.
(٢) كتاب التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، ص ١٩٣، مكتبة لبنان، طبعة ١٩٩٠.
(٣) كتـاب الكليـات: معجم المصطلحـات والفـروق اللغوية، الكفـوي، ص ٩٩٢، مـؤسسـة الرسـالة، بيروت ١٩٩٢.

الدلالة القرآنية:

واستنـاداً الى هذه الخلفية اللغوية، واستلهاماً من المعاني التي ينطوي عليها الاصل اللغـوي للكرامة، نتأمل الدلالة القرآنية للكلمة في الكتاب العزيز، وقد ورد في سـورتي الاسـراء والفجـر، فعل كـرم واكرم، في السياقين التاليين، قال تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيـر ممن خلقنا تفضيلا)،[١] ويدل سياق الآية على ان التكريم هو التفضيل، للتـرابط والانسجام والتناغم القائم بين بدء الآية وختامها: (لقد كرمنا بني آدم) و (وفضلنـاهم على كثيـر ممن خلقنـا تفضيلا)، حيث خلقهم الله في احسن صورة واكمل هيئة، وميزهم بالعقل وبالاستخلاف في الارض.

ومن التكريم الى الاكـرام في قولـه تعـالى: (.. فأمـا الانسـان اذا مـا ابتلاه ربه فاكرمـه)[٢] لتتكامل العلاقة بين المعنيين في اطار الدلالة القرآنية الجامعة لاطراف الامر كله.

لقـد كـرم الله تعالى بني آدم كلهم، ورزقهم من الطيبات، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيـلا، فتـأصلت الكـرامة في الاصل الانساني تأصيـلا، فتكريم اللـه لعبـاده هـو تشريف لهم مـا بعـده تشريف. يقـول ابن كثير في تفسير هذه الآية من سـورة الاسـراء: «يخبـر تعالى عن تشريفه لبني آدم و تكريمه اياهم في خلقه لهم على احسن الهيئات واكملها، لقوله تعالى: (لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم)»[٣] فـدلالة الآية القـاطعة، ان اللـه شـرف ذرية آدم على جميع المخلـوقـات بـالعقل،

---

(١) الاسراء: ٧٠.

(٢) الفجر ١٥.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد ٢، ص ٣٨٩، دار القرآن الكريم، بيروت ١٩٨١.

والعلم، والنطق، و تسخير جميع ما في الكون لهم.(١)

واذا تدبرنا السياق الذي وردت فيه آية تكريم الله لبني آدم في سورة الاسراء - التي تسمى ايضا سورة بني اسرائيل - يلفت نظرنا ان آيات كثيرة سبقتها تدور حول الفساد والاستعلاء، وحول ظلم بني اسرائيل لانفسهم وتمردهم على تعاليم انبياء الله، وحول الصراع القائم بين الحق والباطل، وبين الهداية والضلال، مما اقتضى حديثا عن آدم وبنيه. لقد كان آدم جديرا بأن يكون افضل حالا ومآلا بعدما اصطفاه الله واعلى شأنه، واسجد له ملائكته، وكان بنوه جديرين بأن يكذبوا ظنون ابليس، بعدما افاء الله عليهم من نعمائه ما يلهم الالسنة بالشكر (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا...)، لكن آدم وهن عزمه، وابناءه نسوا الجميل الذي يمرحون فيه، فلم يكن من مؤاخذتهم بد.(٢)

هكذا نرى ان الدلالة القرآنية للكرامة تنبع من التشريف، ومن التفضيل، ويرد ذلك في سياق التذكير بفضل الله ونعمته على العالمين. لقد وردت في القرآن الكريم هذه الدلالة في سبع آيات تنبني على الفعلين (كرّم) و (أكرم)، بينما تكررت صفة (الكريم) في القرآن ثلاثاً وعشرين مرة، ووردت بصيغة النعت ثلاث مرات، ووردت بصيغة الجمع ثلاث مرات، وبصيغة التفضيل مرتين، وبصيغة المصدر (الاكرام) مرتين، وبصيغة اسم المفعول ثماني مرات.(٣) وفي هذه

---

(١) صفوة التفاسير، المجلد٢، ص ١٧٠، طبعة ادارة الشؤون الدينية بدولة قطر، ١٩٨١.

(٢) محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، الجز الثاني، ص ٧٥، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٩٣.

(٣) محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم، ص ٧٦٦.

السياقات جميعا لاتخرج الدلالة القرآنية للكرامة عن اطار المعاني الثلاثة، التشريف، والتفضيل، والتذكير بالإنعام الالهي، مما يرسخ في الوجدان أن الكرامة أصل أصيل في النوع البشري، وهي عنصر رئيس في تركيب الطبيعة الانسانية منذ ان خلق الله آدم.

فالدالة القرآنية إذن، تؤكد بشكل قاطع، ان الكرامة الانسانية هي من الفطرة، وأن لاتبديل لفطرة الله التي فطر الناس عليها.

المفهوم الاسلامي للكرامة الانسانية:

ويتسم المفهوم الاسلامي للكرامة الانسانية بخاصيتي الشمول والعموم، فيكتسب بذلك عمقا ورحابة وامتدادا في الزمان والمكان. ولعل من دقائق المعاني التي ينبغي ان نفطن بها ونتنبّه لها، أن آية التكريم من سورة الاسراء جاءت في صيغة العموم، فالآية تشير الى تكريم الله لبني آدم، وليس لجماعة المؤمنين، أو لفئة دون غيرها من الناس، فالتكريم هنا، هو تكريم مطلق المعنى يشمل البشر كافة، وينسحب هذا المعنى الى الماضي والحاضر والمستقبل، ويمتد الى ان يرث الله الارض ومن عليها.

فمن خلال المنظور الاسلامي، فان الانسان مكرّم، بصرف النظر عن اصله وفصله، دينه وعقيدته، مركزه وقيمته في الهيئة الاجتماعية، ان الله خلقه مكرما، ولايملك احد ان يجرده من كرامته التي اودعها في جبلّته وجعلها من فطرته وطبيعته، يستوي في ذلك المسلم الذي يؤمن بالقرآن كتاب الله وبمحمد بن عبدالله رسول الله و نبيه، وغير المسلم من أهل الاديان الاخرى، او من لا دين له. فالكرامة البشرية حق مشاع يتمتع به الجميع من دون استثناء. وتلك ذروة التكريم

وقمة التشريف.

ولقد تعددت مستويات الخطاب الذي يوجهه الله الى عباده في القرآن؛ فمن المؤمنين، الى اهل الكتاب، الى معشر المسلمين، الى بني آدم، والى الناس كافة. ولكل مستوى من الخطاب الالهي دلالته الموحية والمدى الذي يبلغه معناه. والله سبحانه وتعالى يخبر في هذه الآية بأنه كرم بني آدم كافة، بصيغة الاطلاق والعموم.

ان المفهوم الاسلامي للكرامة الانسانية هو من العمق والشمول بحيث يرتقي الى قمة عالية من العدل المطلق، ومن المساواة الكاملة، ومن الحق والانصاف اللذين لايشوبهما شائبة. وفي الوقت نفسه، فان هذا المفهوم ينسجم تماماً مع طبيعة الرسالة الاسلامية الموجهة الى البشرية قاطبة، ذلك ان الاسلام دين انساني الدعوة عالمي الرسالة، وهو الرسالة الخاتمة من الله سبحانه وتعالى الى الناس كافة، الى ان تقوم الساعة.

لقد قامت مبادىء الإسلام وتعاليمه وقيمه كلها، على احترام الكرامة الانسانية وصونها وحفظها، وعلى تعميق الشعور الانساني بهذه الكرامة. وما دامت الرسالة الاسلامية تتغيأ في المقام الاول، سعادة الانسان وصلاحه، وتبتغي جلب المنفعة له ودرء المفسدة عنه، فإن هذه المقاصد الشريفة هي منتهى التكريم للانسان، بكل الدلالات الاخلاقية والمعاني القانونية للتكريم.

والاسلام في احاطته للكرامة الانسانية بهذا السياج المانع من كل الآفات والاضرار التى يمكن ان تلحق بالكرامة الانسانية، يتفوق على جميع القوانين الوضعية والمواثيق الدولية الخاصة بحقوق الانسان، بما لامجال للمقارنة.

الكرامة الانسانية في القوانين الوضعية:

لقد تطور الفكر البشري عبر العصور وانتهى الى اقرار مبادىء وقواعد قانونية تنظم الحياة الاجتماعية والسياسية والمدنية في المجتمعات الحديثة. وعلى الرغم من هيمنة النظرة المادية على مجمل هذه القوانين، فان تأثير التوجيهات الدينية على بعضها، يبدو واضحا للغاية.

ان اقرار حقوق الانسان في العصور الحديثة والاعتراف بها من لدن المجتمع الدولي، لم يكن بالامر الجديد بالنسبة للمسلمين الذين قام دينهم على مبادىء حقوق الانسان، وعدها من ضرورات الحياة، وليست حقوقا مجردة.

وبالاهتداء الى حقوق الانسان واعتمادها اساسا للقوانين الوضعية، تأصل المفهوم المادي للكرامة الانسانية الذي يستند الى تقرير المصلحة واعتبارها القاعدة والمرتكز لهذه الكرامة.

ولكننا مع ذلك سنتلمس الكرامة الانسانية في ثلاث وثائق دولية تعد في عصرنا الراهن، الاساس الراسخ في الشرعية الدولية لحقوق الانسان، وهي:

١ ـ الاعلان العالمي لحقوق الانسان.

٢ ـ العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

٣ ـ العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية.

ان اول ما يلاحظه الباحث في المواثيق الثلاثة، انها تتفق في الديباجة على مفردات موحدة، وهي الاقرار بما لجميع اعضاء الاسرة البشرية من كرامة اصيلة فيهم، ففي الاعلان العالمي لحقوق الانسان، تطالعنا الديباجة بما يلي: «لما كان الاقرار بما لجميع اعضاء الاسرة البشرية من كرامة اصيلة فيهم، ومن حقوق متساوية وثابتة، يشكل اساس الحرية والعدل والسلام في العالم». وفي العهد

الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تبدأ الديباجة بهذه الصيغة: «ان الدول الاطراف في هذا العهد، اذ ترى ان الاقرار بما لجميع اعضاء الاسرة البشرية من كرامة اصيلة فيهم، ومن حقوق متساوية وثابتة، يشكل وفقا للمبادىء المعلنة في ميثاق الامم المتحدة، اساس الحرية والعدل والسلام في العالم». كذلك تبدأ ديباجة العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية بالصيغة ذاتها، وهي: «ان الدول الاطراف في هذا العهد، اذ ترى ان الاقرار بما لجميع اعضاء الاسرة البشرية من كرامة اصيلة فيهم، ومن حقوق متساوية وثابتة، يشكل وفقا للمبادىء المعلنة في الامم المتحدة، أساس الحرية والعدل والسلام في العالم».

وباستثناء الاعلان العالمي، فان العهدين الدوليين الاول والثانى يتفقان على مبدأ هام، ورد في الفقرة الثانية من الديباجة في كليهما، والتي جاء فيها: «.. واذ تقر بأن هذه الحقوق تنبثق من كرامة الانسان الاصيلة فيه».

وهكذا نرى ان الكرامة الانسانية في مفهوم الشرعية الدولية - استنادا الى المواثيق الآنفة الذكر - هي كرامة اصيلة في اعضاء الاسرة البشرية. وعبارة (الاسرة البشرية) هنا تماثل التعبير القرآني (بني آدم). وأصالة الكرامة الانسانية تنبثق - هي الاخرى - من انها العنصر الاصيل في النوع البشري. وهذا ما يربط - ربطا وثيقا - بين الكرامة الانسانية، وبين المصير الانساني. وهو ما تنص عليه الفقرة الخامسة من ديباجة الاعلان العالمي على هذا النحو: «... ولما كانت شعوب الامم المتحدة قد اعادت في الميثاق تاكيد ايمانها بحقوق الانسان الاساسية وبكرامة الانسان وقدره..».

وهكذا نرى ان لفظ الكرامة في الاعلان العالمي قدتكرر خمس مرات، وفي

العهـد الـدولي الاول مرتين، وفي العهـد الـدولي الثاني ثلاث مرات. وفي جميع الحـالات ارتبطت الكـرامة بحقـوق الانسـان، وبـالمصيـر الانساني. وبذلك صار الاقـرار بالكـرامة الاصيلة للاسـرة البشرية، مبـدأ ثابتا من مبادىء الشرعية الدولية، وقاعدة راسخة من قواعد القانون الدولي.

ولقـد جـاء في المـادة الاولى للاعلان العالمي لحقوق الانسان: «يولد جميع النـاس احـرارا ومتساوين في الكرامة والحقوق، وهم قد وهبوا العقل والوجدان، وعليهم ان يعاملـوا بعضهم بعضا بروح الاخاء». وهذه المادة مقتبسة نصا وروحا، من قـول مأثـور للخليفة الـراشـد عمـر بن الخطـاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احـرارا».[1] وهـذه المـادة، وان كانت مأخوذة من اعلان حقوق الانسان والمواطن الذي اصدرته الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر، فانها تؤكد ان الـروح التي تسـري في هـذا الاعـلان، واقعة تحت المفهوم الاسلامي للكرامة الانسانية، ومتأثـرة بـه الى حـد بعيد. وهذا مجال واسع ورحب للبحث والمقارنة يفضي الى نتـائج بالغة الاهمية تؤكد جميعها هيمنة التشريع الاسلامي على العديد

---

(١) ومنـاسبة هـذه القولة، ان محمد بن عمرو بن العاص ضرب مصريا بالسوط وهو يقول: خذها وانا ابن الاكـرمين، وحبس ابن العـاص المصـري مخافة ان يشكو ابنه الى الخليفة. فلما افلت الرجل من محبسـه ذهب الى المدينة المنـورة وشكـا لعمر مـا اصابـه، فاستبقـاه عنـده واستقدم الوالي ابن العـاص وابنـه من مصر، ودعاهما الى مجلس القصاص؛ فلما مثلا فيه نادى عمر: اين المصـري؟ دونك الـدرة فاضـرب بهـا ابن الاكـرمين! وضـرب المصـري محمـدا حتى اثخنـه وعمـر يقول: اضرب ابن الاكـرمين! فلمـا فرغ الرجل واراد ان يرد الدرة الى امير المؤمنين قال له: «أحلها على صلعة عمرو، فوالله مـا ضربك ابنـه الا بفضل سلطانـه!». قـال عمرو: ياامير المؤمنين قد استوفيت واستشفيت. وقال المصري: ياامير المؤمنين، قد ضربت من ضربني. فقال عمر: انك والله لو ضربتـه ما حلنا بينك وبينـه حتى تكـون انت الـذي تدعـه. والتفت الى عمرو وقال: ايا عمرو! متى تعبدتم (وفي رواية استعبدتم) النـاس وقـد ولدتهم امهاتهم احـرارا. الفاروق عمر، د. محمد حسين هيكل، جز:٢، ص: ١٩٨، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثامنة.

من القواعد القانونية الوضعية.[١]

اننا نجد ان مفهوم الكرامة الانسانية في القوانين الوضعية، يختلف عنه في المباديء الاسلامية، لاسباب موضوعية كثيرة، اهمها على وجه الاطلاق، ان الوحي الالهي هو الذي وضع الاساس الثابت للكرامة الانسانية، واكد اصالتها، في قوله تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم)، وهو تكريم الإهي يعلو فوق كل تكريم للبشرية جاءت به القوانين التي وضعها الانسان لتنظيم شؤون حياته.

إن الشعور بالكرامة الانسانية عند الانسان المسلم ينبع من ايمانه بالله رب السماوات والارض، ومن خشيته اياه جلت قدرته، فهي بهذا الاعتبار، قوامها الاخلاق وليس القانون، لأن الاخلاق مصدرها الايمان الديني الذي يبعث في اعماق النفس البشرية الاحساس بفضل الله على الانسان حين كرمه وفضله على الخلق اجمعين.

وثمة نقطة بالغة الاهمية تتعلق بالفارق بين المعيار الاخلاقي للكرامة وبين المقياس القانوني، اذ من المعروف عند فقهاء القانون، ان دائرتي القانون والاخلاق غير متطابقتين،والتميّز بينهما يرد من ان الجزاء أدبي يتعلق بازدراء الجماعة للفعل المشين، ويغلب على المقاييس القانونية انها ظاهرة تتعلق بالسلوك الخارجي في الاساس، بينما يغلب على المقاييس الاخلاقية انها باطنية تتعلق بالضمير وترجع للعقيدة الدينية، مع ان ثمة تداخلا في هذا الامر، عندما

---

(١) انظر «الشريعة الاسلامية والقانون الدولي العام» للمستشار علي علي منصور، طبعة دار القلم، القاهرة بدون تاريخ، حيث يقول في ص: ٤٧ «يسلم الفقيه القانوني سيديو الفرنسي بأن قانون نابليون انما اساسه المذهب المالكي. ويضيف ان المذهب المالكي هو الذي يستوقف نظرنا لما لنا من صلات بعرب افريقية، وعهدت الحكومة الفرنسية الى الدكتور بيرون ترجمة كتاب المختصر في الفقه للخليل اسحاق بن يعقوب المتوفى سنة ١٤٤٢م».

يتصل الحكم القانوني على الفعل بعنصر (القصد والنية)، او عندما يتصل الحكم الاخلاقي بالموقف العملي.[١]

المبادىء الإسلامية تكرم الإنسان:

إن الكرامة الانسانية ترتبط في المفهوم الاسلامي بالحرية وبالمسؤولية، فهي ليست كرامة بدون دلالة عملية تنعكس في سلوك الفرد ومعاملته لاعضاء الاسرة البشرية. ولعل من أعمق البحوث التي عرضت لهذا الجانب من الكرامة الانسانية ما كتبه عباس محمود العقاد في كتابه «الانسان في القرآن»، حيث يقول: «ان مكان الانسان في القرآن الكريم، هو اشرف مكان له في ميزان العقيدة، وفي ميزان الفكر، وفي ميزان الخليقة التي توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات، هو الكائن المكلف، وهو اصوب في التعريف من قول القائلين (الكائن الناطق) واشرف في التقدير».[٢]

ان المسؤولية والحرية ترتبطان في المنظور الاسلامي بالكرامة الانسانية ارتباطا وثيقا؛ فالله تعالى الذي كرم بني آدم، هو الذي ـ سبحانه ـ جعل الانسان مسؤولا عن عمله، فردا وجماعة، لايؤخذ واحدبوزر واحد، ولا امةبوزر امة؛ (كل امرىء بما كسب رهين)[٣] (لايكلف الله نفسا الا وسعها)[٤] (وان ليس

---

(١) المستشار طارق البشري، «في المسألة الاسلامية المعاصرة: الوضع القانوني المعاصر بين الشريعة الاسلامية والقانون الوضعي»، ص٣٠ دار الشروق، القاهرة ١٩٩٦.

(٢) عباس محمود العقاد، «الانسان في القرآن»، ص ٢٣٢، موسوعة عباس محمود العقاد الاسلامية، المجلد٤، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧١.

(٣) الطور: ١٩.

(٤) البقرة: ٢٨٥.

للانسان الا ما سعى)[١]، (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)[٢]، (ولا تزر وازرة وزر اخرى)[٣]، فهي اذن، كرامة انسانية مسؤولة تنبع من احساس المرء بوجوده الحر، وبذاتيته المتفردة، تترتب عليها تبعات، ان نهض بها صاحبها على النحو الذي يرضي الله اولا ثم يرضي ضميره، كان منسجما مع كرامته، مستمتعا بها، موفيا لها حقها من المراعاة والاعتبار، ومن الحفظ والصون.

لقد جعلت المبادىء الاسلامية الانسان سيد نفسه في كنف عبوديته لله، فهو مخلوق مكرّم، استخلفه الله في الارض لتعميرها، وليعبد الله بأنواع الطاعات والعبادات التي لاتعدّ ولاتحصى، فالانسان المؤمن يعبد الله في كل الاحوال، بعقله وضميره، وبقلبه وجوارحه. ومن عبوديته لله، ومن طاعته للذات الالهية وعبادته لها، يستمد الانسان احساسه العميق بالكرامة، وشعوره بالاعتزاز والارتياح والرضا والطمأنينة لفعله الخيرات، ولإقباله على الطاعات.

وهذا الشعور هو نعمة تغمر قلب الانسان المؤمن، وتفيض بها روحه، وتجيش بها جوارحه كلها.

إن الاسلام كرم الانسان حين جعل شرف الانسانية يتمثل أولاً وآخرا في صلتها بالله، واستمدادها منه، وتقيدها بشرائعه ووصاياه. والحرية الحقيقية ـ التي هي جوهر الكرامة الانسانية ـ ليست في حق الانسان ان يتدنس اذا شاء ويرتفع اذا شاء، بل الحرية ان يخضع لقيود الكمال، وان يتصرف داخل نطاقها وحده. وقيود

---

(١) النجم: ٣٨.
(٢) الزلزلة: ٨-٩.
(٣) الاسراء: ١٥.

الكمـال هـذه تضعنا على الطريق الى الله، طريق الكمال، والتصفية، والتحول عن مـواطن الغفلة والـركـود، الى مـواطن الذكـر والحرية، والسير في ميادين النفوس سيرا وجهتـه الله وعدته صالح الاخلاق والاعمال، وشاراته التوبة والرغبة الى الله والورع والعفة والقناعة والصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والحب.[1]

ان الاسـلام جعل اعلى درجـات التكريم والاكـرام للانسان هي التقوى (ان اكـرمكم عنـد الله اتقاكم)[2]، ولذلك فكرامة الانسان هي في تقربه الى الله، باتباع تعـاليم دينـه ووصايـاه، وبـاجتنـاب نواهيـه وما حرمه على عباده، وهذا السلوك المستقيم السـوي هـو عين التقـوى، اذ ليست التقـوى شيئا مجردا، ولكنها ايمان وعمل وسلـوك وممـارسة واقبـال على فعل الطـاعـات والحسنات. وكلما اوغل الانسـان في هذه الطريق السالكة المؤدية الى رضا الله على عباده، كان اوفر كرامة، تفيض عليه، وتغمره، وتملأ نفسه رضا وسكينة وطمأنينة وثقة في الله.

وللشيخ محمـود شلتـوت تعريف لطيف وبصيـر للتقـوى فى تفسيـره حيث يقـول: «امـا تقـوى اللـه تعالى، فهي ترفع في معناها العام الى اتقاء الانسان كل ما يضـره في نفسـه وفي جنسـه، ومـا يحـول بينـه وبين المقـاصـد الشريفة والكمال الممكن في الدنيـا والآخـرة. والتقوى ليست خاصة بنوع من الطاعات، ولا بشيء من المظـاهـر، وانما هي كما قلنا، اتقاء الانسان كل ما يضره في نفسه وفي جنسه، ومـا يحـول بينـه وبين الكمـال الممكن. ومن ثمرات التقوى حصول الفرقان ـ ما يفـرق بـه المرء بين الخير والشر والضار والنافع في هذه الحياة ـ، فالعلم الصحيح، والقـوة، والعمل النـافع، والخلق الكريم، ومـا الى ذلك من آثار التقوى، والتقوى

---

(١) محمد الغزالي، «الجانب العاطفي من الاسلام»، ص ١٧٥–٢٩٧، دار الدعوة، الاسكندرية ١٩٩٠.
(٢) الحجرات: ١٣.

هي الشجرة والفرقان هو الثمرة».[١]

ان الاسـلام دين الحيـاة وهو بذلك يدعو الانسان الى ان يمارس هذه الحياة بالحضور والمساهمة والانتاج، والى ان يكون هذاالحضور متسما بالعزة والكرامة والشـرف، ممـا لايمكن ان يتحقق إلاّ بالحرية التي هي في طليعة حقوق الانسان، والتي تعد في الرؤية الاسلامية، قيمة كبرى، سواءبالنسبة للفرداو الجماعة.[٢]

إن أعظم تكريم للانسـان، في المنظور الاسلامي، أن هداه الله الى التوحيد. ومن التوحيد دعوة الاسلام الى الكرامة والى الحرية. والتوحيد هو تحرير الانسان من الشرك، ومما يقذفه الشرك في قلب المرء من شعور بالهزيمة والسقوط: سقوط القيمة والهمة والاعتبار، وسقوط الشخصية المعنوية والكرامة الانسانية.

ولمـا كانت كرامة الانسان في التوحيد، وكان التوحيد هو تحرير الانسان من الشـرك بكل معانيـه ودلالاتـه، فإن الكرامة الانسانية تتجلى اسطع واقوى ما يكون التجلي في:

١ ـ مقاومة عبادة الاصنام والاوثان، (بكل اشكالها وانواعها).

٢ ـ محاربة الخضوع للاهواء والنزوات، (بجميع اصنافها واضرابها).

٣ ـ منع الانسياق لطغيان المال، (على اي وجه من الوجوه).

٤ ـ الـوقـوف ضـد استعبـاد الانسـان للانسـان،[٣] (أيـا كانت الاسبـاب والدواعي).

---

(١) الشيخ محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم، ص :٥٧١، دار القلم، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) د. عبـاس الجـراري، «الانسـان في الاسـلام: ماهيته وحقيقة وجوده»، ص ٦٩، مطبعة الامنية، الرابط، ١٩٩٨.

(٣) المصدر السابق، بتصرف، ص ٦٩–٧٠.

الكرامة الانسانية وحاضر الامة:

لقد علمنا ان كرامة الانسان المسلم في اتباعه لدينه، وفي استيعابه لمقاصد شريعته، وانه كلما عظم حظه من العمل بما جاء به الاسلام من تعاليم ومبادىء وشريعة، زاد نصيبه من الشعور بالكرامة. ففي المنظور الاسلامي، لاتنفصل الاستقامة والتقوى، عن الكرامة والشرف، ينطبق هذا على الفرد، كما ينطبق على الجماعة، سواء بسواء.

ولما كانت كرامة امة من الامم، هي من كرامة افرادها وجماعاتها وشعوبها التي تكون نواتها الصلبة، فانه يمكن القول ان هضم كرامة الفرد يترتب عليه الاضرار بكرامة الجماعة. ولذلك كانت الجماعة مسؤولية عن حفظ كرامة ابنائها، على نحو من الانحاء.

من هذه الزاوية ننظر اليوم الى واقع العالم الاسلامي، والى ما تعيشه الامة الاسلامية من اوضاع عامة. ومهما تحلينا بفضيلة ضبط النفس، وجنحنا نحو التفاؤل، فلن نملك انفسنا من الاعتراف بأن كرامة الامة قد مسها الضر، فهي كرامة مثلوبة، ومهضومة، ومجروحة، تضافرت عوامل كثيرة لتؤدي الى هذه الحالة من الضعف والعجز والتراجع الحضاري.

ان استرجاع الكرامة الوافرة للامة الاسلامية، يكمن في عودتها الى دينها تستلهم منه اسس التقدم في الحياة. واذا ترجمنا هذا المبدأ العام الى لغة العصر، فيمكن لنا ان نقول ان رد الاعتبار للعقل الاسلامي حتى يسود ويقود الامة نحو المستقبل، ينبغي ان يكون عملية جماعية، وجهدا مشتركا بين جميع مكونات الامة الاسلامية في اطار التضامن الاسلامي، ومن منطلق الايمان بأن كرامة الامة في تقدمها وازدهارها، فهناك شبه اجماع بين مفكري الامة على ان ابرز السمات

الاستراتيجية للعقل الاسلامي المستقبلي هي: التقدم، الابداع، التجذر، التمثل، العقلانية، التنظيم والفعالية والاتقان، الحرية والمسؤولية والمشاركة، التكيف.(١) والسؤال الذي ينبغي ان نطرحه على انفسنا في هذه المرحلة، هو: كيف السبيل الى اجراء تحويل واقعي لهذه السمات المجردة؟.

ان ذلك لن يتم الا بخلق الشروط الانسانية والطبيعية الملائمة للتحول. والعملية ليست يسيرة بكل تاكيد، وهي حصيلة تضافر فعال وتضامن ايجابي لجهود واسهامات وتدخلات تصدر عن اطراف متباينة.(٢) ونحن مدعوون الى ان نرد الاعتبار للانسان في العالم الاسلامي، باحترام حقوقه كاملة غير منقوصة، في اطار ما تقضي به وتوجبه المبادىء الاسلامية، وبتوفير سبل العيش الكريم له في كنف الحرية والمسؤولية والشعور بالكرامة، على المستويين الذاتي والموضوعي.

ان عملنا من اجل اقرار مبادىء الاسلام في واقع الحال، هو الشرط الاول لحفظ الكرامة الانسانية للمسلمين كافة، وللبشرية جمعاء. وذلك في اطار من التسامح والتعاون والاحترام المتبادل، وفي ضوء الحوار الحضاري بين ثقافات شعوب الارض وامهما.

ان مجالات العمل تتشعب وتمتد امامنا، وميادين الحركة تتعدد وتشمل جميع مرافق الحياة، وينبغي ان نسلك نحو تحقيق اهدافنا نهجا تكامليا، تضبطه وتتحكم في اتجاهاته، قواعد العمل الاسلامي المشترك ومبادىء التضامن

---

(١) د. فهمي جدعان، «الماضي في الحاضر: دراسات في تشكلات ومسالك التجربة الفكرية العربية» ص: ٥٦٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٦٣ من فصل (العقل الاسلامي والمستقبل).

الاسلامي. ونحن نعتقد ان العمل في اطار منظمة المؤتمر الاسلامي، وما يتفرع او ينبثق عنهــا من منظمات ومؤسسات وهيئات وجامعات، هو الاطار الانسب لهذا التحـرك الـذي نحن مدعـوون جميعـا الى القيام به على شتى المستويات،لاقرار مبــادىء الاســلام في حياة الامة، بما يحقق القدر المطلوب من التضامن والتكامل والتــرابط بين اجـزائهــا، وبمــا يـؤدي الى ازدهار الحياة ازدهارا شاملا تحفظ فيه للانسان المسلم كرامته موفورة وحقوقه مصانة.

الانسانية وحقوق
الأمم والأديان في الاسلام

✍ شهاب الدين الحسيني
قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبينا محمد و على آله الأطهار وصحبه الأبرار

المقدمة:

الأمة الاسلامية أمة واحدة وان تعددت فيها المذاهب؛ تجتمع حول عقيدة واحدة، ومنهج واحد، وسلوك واحد، و مصالح واحدة، و مصير واحد، وتواجه عدواً واحداً وحّد صفوفه وامكانياته من اجل ايقاف المسيرة الاسلامية وعرقلة حركتها التأريخية للقضاء عليها عقيدة و قيادة وكياناً، وقد ايقن اعداء الامة الاسلامية أنّ الاسلام لازال قوة تنافسهم وتنازلهم وتطاردهم في جميع مجالات الحياة: الفكرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، وخصوصاً بعد ان استطاع الامام الخميني (رض) ان يعيد الاسلام منهاجاً في الحياة بتأسيسه الجمهورية الاسلامية التي ساهمت مساهمة فعّالة في الصحوة الاسلامية ابتداءً وإدامةً، وأعادت الأمل الى جميع ابناء الامة الاسلامية بقدرتهم على النهوض واعادة الاسلام الى موقعه الريادي بين الامم، بعد ان كان امنية في الاذهان

والتصورات، واصبح بقيادة الامام الخميني (رض) و الامام الخامنئي (حفظه الله) قوة عظمى ينازل الاستكبار العالمي ليعيد للامة الاسلامية مجدها وعزّتها ودورها في قيادة العالم الانساني، وبعد هذا الانتصار الكبير هبّ الاستكبار العالمي مجنداً جميع طاقاته وامكانياته للحيلولة دون عودة الاسلام الى موقعه الريادي بين الأمم، مستهدفاً الجمهورية الاسلامية في ايران باعتبارها النموذج الامثل في تبني الاسلام قاعدة فكرية وتشريعية لدولتها، والسعي لتقرير مبادىء الاسلام في واقع الحياة، فبالاضافة الى التآمر العسكري والاقتصادي كثّف الاستكبار العالمي والصهيونية العالمية الطاقات والامكانيات الاعلامية والسياسية والمخابراتية لتشويه الصورة الناصعة للاسلام بين الامم والاديان متهماً الاسلام والجمهورية الاسلامية بالارهاب والعنف واضطهاد الاديان عقيدة واتباعاً للحيلولة دون تأثر اتباع الامم والاديان بالمنهج الاسلامي واشعاعاته الفكرية بعد ان جربوا جميع الافكار والمناهج والانظمة الوضعية، فلم تجن لهم الا مزيدا من الكوارث والمآسي والاضطراب الفكري والعاطفي والسلوكي.

واستمر الاستكبار العالمي في اعلامه المضاد لوضع الحواجز النفسية والعاطفية بين الاسلام وبين اتباع الاديان وتصوير الاسلام بأنه دين السيف والقتل، لتحجيمه في زوايا مفرغة، لان الاستكبار يدرك آثار اطّلاع اتباع الاديان على موقف الاسلام الحقيقي من الاديان وانه دين السلام والوئام والمحبة والرحمة، وتاريخه يشهد بهذه الحقيقة حيث تمتع الاديان بجميع حقوقهم في ظل الدولة الاسلامية وفي مجتمع المسلمين، ولازال اتباع الاديان يتمتعون بالحرية في جميع مجالاتها في ظل الجمهورية الاسلامية.

ومن خلال تجربة الجمهورية الاسلامية في دستورها وتطبيقاتها العملية،

مضـافـا الى مـا اوردتـه ثقافتنا الاسلامية من اسس وقواعد في الاعتراف بحقوق الامم والاديـان، اضافة الى التطبيقات العملية منذالصدر الأول للاسلام الى يومنا هـذا في التعـامل مع الاقليـات الدينية، نستطيع ان نضع الاسس والقـواعـد العامة المرتبطة بحقوق الامم والاديان.

وفي بحثنـا هـذا نعتمد على الروايات المشتركة بين المذاهب، وعلى بعضها التي انفـرد بهـا هذا المذهب او ذاك بما يرسي دعائم التقريب، اضافة الى ما قام به السلف الصـالح من أعمال ونشاطات في مجال التعامل مع اتباع الاديان لم تواجه اعتراضاً من قبل كبار الصحابة والتابعين، مستفيدين ايضا من آراء وفتاوى الفقهاء من الطـرفين، لنجد ـ دون مبالغة ـ ان جميع المسلمين سنة وشيعة قد اتفقوا اتفاقا مطبقـا على الاعتـراف بحقـوق الامم والاديـان، ولم يختلفوا في قواعدها الكلية والجـزئية، وكانت الاجتهـادات المختلفة قـد اختلفت في غيـر ذلك من المسائل والقضايـا الا في الاعتـراف بحقوق الامم والاديان فانها اجمعت على الاتفاق في الاجمال والتفصيل.

نسـأل اللـه تعـالى ان يوحـد صفـوفنـا ويجمع كلمتنـا في اطـار الاهـداف الاسلامية الكبرى لنعيد مجد الاسلام وعزة المسلمين.

المبحث التمهيدي

عنوان الاسلام ووحدة الأديان

الاســلام في أدبيـات القـرآن الكريم ومصطلحاتـه اللغوية ليس اسمـاً لدين خـاص، وانمـا هـو اسم للدين المشتـرك الـذي تجمعـه وحدة المصدر، ووحدة المصير، ووحدة المفاهيم والقيم، ووحدة الاهداف والاساليب، وهو الدين الذي

حمل رايتـه جميع الانبياء والمرسلين، وانتسب اليه جميع اتباع الأنبياء في جميع مـراحل الحـركة التـاريخية، وكانـوا في جميع مـراحل الصراع والمواجهة الفكرية والتشـريعية يواجهـون عـدواً واحـداً لا يـروق لـه تقريـر مبـادىء الحق والعـدالة والفضيلة في واقع الحياة.

والاسـلام هـو الدين الـذي حملـه نوح(ع) ودعا قومه الى الايمان به، وهو الدين الـذي أمره بالدعوة والنهوض، ففي قمة المواجهة بين نوح(ع) وقومه كان يخاطبهم: «فان توليتم فما سألتكم من اجر ان اجري الا على الله وامرت ان اكون من المسلمين».(١)

ومـن وصـايـا ابـراهيم ويعقـوب(ع) لابنـائهم: «... فلا تمـوتن إلا وانتم مسلمون».(٢)

وقد اكد ابناء يعقوب(ع) له في مرض موته على حقيقة التدّين بالاسلام كما جـاء في القـرآن الكريم: «ام كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبـدون من بعـدي قالـوا نعبد إلهك وإله ابائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون».(٣)

واكـد موسى(ع) على ان الاسلام هو عنوان انتماء قومه فقال: «... يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين».(٤)

وحينمـا اراد عيسى(ع) اعـلان الفصل بين الكفـر والانتمـاء الالهي اجابـه

---

(١) يونس: ٧٢.
(٢) البقرة: ١٣٢.
(٣) البقرة: ١٣٣.
(٤) يونس: ٨٤.

الحواريون: «... نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون».[١]

واعترف أهل الكتاب بانتمائهم للاسلام قبل نزول القرآن الكريم فقالوا: «... امنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين».[٢]

واكد القرآن الكريم على ان الدين نزل في امة واحدة، فاستعرض مسيرة الانبياء(ع) في الهداية والدعوة والصراع مع الكفار واتباعهم ثم ختم ذلك الاستعراض بخطابه للمسلمين قائلا: «ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون».[٣]

واكد القرآن الكريم على وحدة التشريع في حركة الانبياء، فالله تعالى لم يشرع ديناً جديدا، وانما هو نفسه دين الانبياء قبل نبينا محمد(ص)، فخاطب المسلمين قائلا: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصّينا به ابراهيم و موسى و عيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه...»[٤]

والدين واحد في اصوله واهدافه ووسائله، متنوع في ادوار المكلفين بحمله، فلكل مرحلة تاريخية نبي خاص وكتاب خاص منسجم مع احوال الناس وظروفهم المادية والروحية وطاقاتهم الذاتية، ولا تناقض بين الكتب المنزلة على الانبياء، فلكل مرحلة كتاب مصدق للكتاب الاسبق ومكملا له، قال تعالى: «وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة... وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا

---

(١) آل عمران: ٥٢.
(٢) القصص: ٥٣.
(٣) الانبياء: ٩٢.
(٤) الشورى: ١٣.

لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه...»[١]

والدين في مـرحلة بعثة النبي محمـد(ص) هـو المرحلة الاخيرة من المراحل التي مـرت بهـا البشرية وبهـا ختمت الرسـالة بعد كمالها، وهو الحلقة الاخيرة من حلقـات الـدعـوة والهـداية، قال رسول الله(ص): (مَثلي ومَثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتـاً فأحسنـه واجملـه الا مـوضع لبنة من زاوية، فجعل النـاس يطـوفـون به، ويعجبون له ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وانا خاتم النبيين».[٢]

والاسـلام هـو العنـوان الجـامع للدين في جميع مراحله، وقد أخرج القرآن الكريم الديانـات المحـرّفة من هـذا العنوان، فأصبحت اليهودية عنواناً لمن حرف التـوراة التي انـزلت على مـوسى(ع)، وأصبحت النصـرانية عنـوانـاً لمن حـرف الانجيل الـذي نـزل على عيسى(ع) وكـذا الحـال في بقية الديانـات المحـرفة، واختص عنـوان الاسـلام بمجمـوعة المفاهيم والشرائع التي جاء بها رسول الله محمد(ص)، والتي هي المرحلة الاخيرة من مراحل مسيرة الانبياء(ع).

وقـد اكـد رسـول الله(ص) هذه الحقيقة في حواره مع اليهود الذين قالوا له: (يـا محمد، الست تزعم انك على ملة ابراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد انها من الله حق؟) فأجابهم(ص): (بلى، ولكنكم احدثتم وجحدتم ما فيها ممـا اخـذ اللـه عليكم من الميثـاق فيهـا، وكتمتم منها ما أُمِرتم ان تبينوه للناس،

---

(١) المائدة: ٤٧،٤٨.

(٢) صحيح البخاري: ٥/٢٢٦، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣١٣هـ

فبرئت من احداثكم...)[١]

ومن هنا فانه لاتناقض بين الاسلام وبين الديانات السابقة التي اندرجت تحت عنوانه، ولاتضاد ولامقاطعة ولامفاصلة، ومن هذا المنطلق فان الاسلام اقر المفاهيم والقيم غير المحرفة، ودعا الى ابرازها، وتعامل مع اتباع الديانات المحرفة ضمن الاطر المشتركة، واقرهم على ما يتبنونه من عقائد وتشريعات، فلم يكرههم على التخلي عنها، وجسّد قادته واتباعه جميع قيم التعاون والرحمة والعفو في التعامل معهم، ولازالوا يعيشون مع المسلمين في اغلب بلدانهم محتفظين بجميع حقوقهم الفردية والاجتماعية، ولازال الكثير منهم يشهد للاسلام وللمسلمين بحسن التعامل معهم في جميع مراحل المسيرة المشتركة منذ الصدر الأول للاسلام والى يومنا هذا.

اصالة السلام واستثنائية القتال

الاسلام دين الرحمة والمسامحة والعفو، دين التعاون والتآلف والوئام، دين السلام والأمان، وهي الاسس التي يتعامل بها مع غيره من العقائد والوجودات، فالأصل هو السلام، واما القتال فهو أمر طارىء فرضته الظروف لذا فان الاسلام ينتهز اقرب الفرص للعودة الى الأصل، قال تعالى: ﴿وان جنحوا للسّلم فاجنح لها وتوكل على الله...﴾[٢]

وكان رسول الله (ص) ينهي عن تمني لقاء العدو فيقول: (لاتتمنوا لقاء

---

(١) السيرة النبوية: ٢/٢١٧، ابن هشام، مطبعة مصطفى البابي، مصر ١٣٥٥هـ اوفسيت مطبعة مهر، قم ١٣٦٨هـ ش.
(٢) الانفال: ٦١.

العدو، فاذا لقيتموه فاصبروا).[١]

والاسلام لم يشرع القتال للسيطرة على الاراضي والسكان، ولا طلبا للغنيمة، ولم يكن قتال المسلمين من اجل مجد شخصي او طبقي، وانما لإعلاء كلمة الله ودفاعاً عن القيم النبيلة وردعا للعدوان.

وجميع معارك الاسلام كانت معارك دفاعية لرد عدوان واقعي او محتمل وفيما يلي نستعرض دوافع القتال واهدافه القريبة والبعيدة كما جاء في اقرآن الكريم.

١ - دفع العدوان:

«وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين».[٢]

«اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا... الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله...».[٣]

٢ - الدفاع عن المستضعفين ونصرة المظلومين:

«ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا».[٤]

وقيد القرآن النصرة بقيد عدم الاخلال في المعاهدات: «... وان استنصروكم

---

(١) كنز العمال: ٤/٣٩١، حسام الدين علي الهندي، مؤسسة لرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ
(٢) البقرة: ١٩٠.
(٣) الحج: ٣٩، ٤٠.
(٤) النساء: ٧٥.

في الدين فعليكم النصر الاّ على قوم بينكم وبينهم ميثاق...»[١]

٣ - قتال ناكثي العهد:

«الا تقاتلون قوماً نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدؤوكم اول مرة ...»[٢]

٤ - حماية المسلمين ورد العدوان المحتمل الوقوع:

«وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين».[٣]

ودعا القرآن الكريم الى رد العدوان المحتمل الوقوع، لكي لايعتدى عليهم بغتة، ويهدد كيانهم بالفناء «واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لايحب الخائنين».[٤]

وتفسير الآية: انه يجب ابلاغهم بالغاء العهد ولايجوز قتالهم قبل الابلاغ لان ذلك خيانة، اما اذا لم يحتمل الخيانة فلايجوز نقض العهد معهم.[٥]

فالقتال موقف استثنائي لم يشرّع الاّ لحماية الاسلام والمسلمين، لذا فالاسلام يدعو الى التعامل بالبر والعدل مع الذين لايقاتلون المسلمين «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين».[٦]

---

(١) الانفال: ٧٢.
(٢) التوبة: ١٣.
(٣) البقرة: ١٩٣.
(٤) الانفال: ٥٨.
(٥) الميزان في تفسير القرآن: ١٠ / ١١٤.
(٦) الممتحنة: ٨.

والاسلام يدعو للعودة الى الاصل في التعامل وهو السلام وانهاء القتال في اقرب فرصة: «... فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السّلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا».[(١)]

اخلاقية القتال وانسانية التعامل

الاسلام دين الرحمة والسماحة والانسانية؛ يهدف الى هداية الناس وانقاذهم من جميع الوان الاضطهاد والعبودية والانحراف والانحطاط، واقامة الحق والعدل بينهم، ولايقاتل حقداً أو عدواناً، لذا اكدّ على اشاعة قيم الرحمة والعفو حتى في ساحة القتال، وتتجسد اخلاقية القتال في المظاهر التالية:

١ - حرمة القتال قبل القاء الحجة:

حرّم الاسلام القتال قبل القاء الحجة على أعداء الاسلام، فقد اوصى رسول الله(ص) عليا(ع) قائلا: (يا علي لاتقاتل احدا حتى تدعوه الى الاسلام وأيم الله لان يهدي الله عز وجل على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت).[(٢)]

وحرمة القتال قبل الدعوة موضع اتفاق بين فقهاء المسلمين سنة وشيعة، نكتفي بذكر فتاوى بعض منهم.

قال الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ):(ولايجوز قتال احد من الكفار الا بعد دعائهم الى الاسلام).[(٣)]

---

(١) النساء:٩٠.

(٢) النساء:٩٠.

(٣) النهاية: ٢٩٢، محمد بن الحسن الطوسي، انتشارات قدس محمدي، بدون تاريخ.

وتابعه ابن ادريس الحلي (ت ٥٩٨هـ) في الفتوى بنفس النص.[١]

وافتى ابـو الصـلاح الحلبي (ت٤٧٧هـ) بعدم البدىء بالقتال حتى بعد القاء الحجة متى يكون الاعداء هم الذين يبدؤون.[٢]

وقال علي المرغيناني الحنفي (ت ٥٩٣هـ):(ولا يجوز أن يقاتل من لم تبلغه الدعوة الى الاسلام الا ان يدعوه).[٣]

وقـال بـدر الدين بن جمـاعة (ت ٧٣٣هـ): (ولا يقاتل من لم تبلغـه الدعـوة الاسلامية حتى يدعوهم الى الاسلام قبل القتال).[٤]

٢ - النهي عن قتل المستضعفين:

نهى رسـول الله (ص) عن قتل المستضعفين وكانت تعاليمـه في القتال: (... ولا تقتلوا شيخاً فانيا ولا صبيا ولا امرأة...).[٥]

وكانت سيرة الخلفاء من بعده قائمة على اساس هذه التعاليم الانسانية، وهذا الحكم محل اتفاق بين فقهاء المسلمين.

قـال عبـدالرحمن المقـدسي الحنبلي (ت٦٢٤هـ): (ولا يقتل منهم صبي ولا مجنـون ولا امرأة ولا راهب ولا شيخ فان ولا زمن ولا اعمى ولا من لا رأي لهم الا ان يقاتلوا).[٦]

وقـال محمـد بن مكي الشهيـد الاول (ت٧٨٦هـ):(ولا يجـوز قتل المجانين

---

(١) السرائر: ٢-٦، محمد بن منصور الحلي، جماعة المدرسين، قم، ١٤١٠هـ ط ٢.
(٢) الكافي في الفقه: ٢٥٦، ابو الصلاح الحلبي، مكتبة أمير المؤمنين، اصفهان، ١٤٠٣هـ.
(٣) الهداية: ٢-١٣٦، المرغيناني، مطبعة البابي، مصر، بدون تاريخ.
(٤) تحرير الاحكام: ١٧٢، ابن جماعة، دار الثقافة، قطر، ١٤٠٨هـ ط ٣.
(٥) الكافي: ٥/ ٢٨، وبنحوه: مجمع الزوائد: ٥/ ٣١٦.
(٦) العدة شرح العمدة: ٦٥٥، المقدسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ.

والصبيان والنساء وان عاونّ الا مع الضرورة).[(١)]

وقال محمد حسن النجفي (ت١٢٦٦هـ): (ولا يجوز قتل المجانين و لا الصبيان و لا النساء منهم ولو عاونتهم الا مع الاضطرار، بلا خلاف اجده في شيء من ذلك).[(٢)]

فالاسلام لايرغب في القتال الا اضطرارا ولا يستهدف الا الهداية والاصلاح ولذا حرّم قتل المستضعفين وان كانوا اعداءً.

٣ - حرمة القاء السم في بلاد المشركين:

لم يكن هدف الاسلام من تشريع القتال الانتقام وانما الهداية اولا ورد العدوان ثانياً لذا حرّم استخدام اسلحة الدمار الشامل ومنها القاء السم فعن علي(ع) انه قال: (نهى رسول الله(ص) أن يلقى السم في بلاد المشركين).[(٣)]

ولم يحدثنا التاريخ ان المسلمين استخدموا السم في القضاء على اعدائهم في جميع مراحل الحركة التاريخية.

٤ - حرمة الغدر والغلول والمثلة والتخريب الاقتصادي:

حرّم الاسلام استخدام الوسائل الوضيعة حتى في قتال الاعداء، فمن وصايا رسول الله(ص) لامراء جيشه: (... لاتغدروا ولاتغلوا ولاتمثلوا).[(٤)]

وفي رواية ثانية: (... ولاتقطعوا شجرا الا ان تضطروا اليه...).[(٥)]

وقال ابو الصلاح الحلبي: (...ولايجوز حرق الزرع ولاقطع شجرة الثمر ولا

---

(١) غاية المراد: ١/٤٨٢، الشهيد الاول، مركز الابحاث والدراسات، قم، ١٤١٤هـ.
(٢) جواهر الكلام: ٢١/٧٣، النجفي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨١م، ط ٧.
(٣) الكافي: ٥/٢٨.
(٤) مجمع الزوائد: ٥/٣١٦.
(٥) الكافي: ٥/٢٨.

قتل البهائم ولا خراب المنازل ولا التهتك بالقتل).[١]

وقال الشهيد الاول:(ولا يجوز التمثيل ولا الغدر ولا الغلول).[٢]

٥ - وجوب الاستجابة للاستجارة وطلب الأمان:

هدف الاسلام هو حقن دماء المعتدين ولهذا اوجب جميع الوسائل المؤدية الى حقن الدماء ومنها الاستجابة للاستجارة ان استجار المعتدي بالمسلم وطلب الامان منه، قال تعالى (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه).[٣]

واوصى رسول الله(ص) امراء جيشه (... وأيمّا رجل من ادنى المسلمين او افضلهم نظر الى احد من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله، فان تبعكم فأخوكم في الدين وان ابى فابلغوه مأمنه واستعينوا بالله عليه).[٤]

والأمان هو الغاية في التعامل، وان رفض المسلمون طلب الأمان لضرورة معينة وظنّ الاعداء انهم استجابوا لهم كان ذلك الظن اماناً لهم، لان هدف الاسلام هو حقن الدماء في جميع الاحوال، قال الامام جعفر الصادق(ع): (لو ان قوما حاصروا مدينة فسألوهم الأمان، فقالوا: لا، فظنوا انهم قالوا: نعم، فنزلوا اليهم، كانوا آمنين).[٥]

وهذا محل اتفاق الفقهاء ولم نجد احداً مخالفاً لهذا الرأي.[٦]

---

(١) الكافي في الفقه: ٢٥٦.
(٢) غاية المراد: ١/٤٨٢.
(٣) التوبة: ٦.
(٤) الكافي: ٥/٢٨.
(٥) وسائل الشيعة: ١٥/٦٨.
(٦) النهاية: ٢٩٨، غاية المراد: ١/٤٨٢، العدة شرح العمدة: ٦٧٣.

ومن أجل استشـراء الأمان واشاعته فانه لايتوقف على أوامر قادة الجيش او كبـار الشخصيـات فكل من استجـاب للأمـان تكـون استجابتـه نافذة على جميع المسلمين، ســواء كان المؤمن رجلاً أو امرأة او عبدا مملوكافلايجوز للمسلمين قتل من اعطي الامان.(١)

٦ - الوفاء بالعهد:

اوجب الاســلام الـوفـاء بالعهدفلايجوز نقضه ابتداءً ما دام العدو ملتزما به، وقد جسد الاسلام بهذا الوجوب السماحة والسلام وحقن الدماء، واثبت للاعداء انه لايقاتل الا دفاعاً عن النفس وعن المقدسات ردعاً للعدوان، ولذا جعل رسول الله(ص) (حسن العهد من الايمان).(٢)

وشـدد(ص) على حـرمة قتل المعـاهـد فقال: (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة)(٣)

وحـرم(ص) ظلم المعـاهـد او تكليفـه فوق طاقته فقال: (من ظلم معاهدا او كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه).(٤)

وحـرم(ص) جميع مظاهر الاذى للمعاهدين: (من اذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة).(٥)

وتترتب على عـدم الـوفـاء بالعهـد آثـار عملية يوم القيامة قال الامام محمد البـاقـر(ع): (مـن آمـن رجـلا علـى ذمة ثم قتلـه الا جـاء يـوم القيـامة

(١) الهداية: ٢/ ١٣٩.
(٢) كنز العمال: ٤/ ٣٦٥.
(٣) صحيح البخاري: ٥/ ١٢٠، دار احيا التراث العربي، بيروت، ١٣١٣هـ
(٤) سنن الاوزاعي: ٣٩٤، عبدالرحمن بن عمر الاوزاعي، دار النفائس، بيروت، ١٤١٣هـ ط ١.
(٥) الجامع الكبير: ١/ ٨٥، السيوطي.

يحمل لواء الغدر)[١]

وقال الامام الشافعي: (وان عقدت الهدنة على مايجوز الى مدة وجب الوفاء بها الى ان تنقضي المدة ما اقاموا على العهد...).[٢]

وكانت سيـرة المسلمين قائمة على الوفاء بالعهد فلم ينكثوا العهد بعد اتمامه ولم يحدثنـا التاريخ انهم نقضوا العهد مع المعاهدين، وكان الخلفاء يؤكدون على الوفـاء بالعهد، فكان من وصية عمر بن الخطاب في ايامه الاخيرة (اوصي الخليفة من بعـدي بـاهل الذمة خيرا ان يـوفي لهم بعهـدهم وان يقاتل من ورائهم وان لا يكلفوا فوق طاقتهم).[٣]

واذا نقض بعض المعـاهدين العهـد فلا يجـوز تعميم النقض على الاخرين، فحينمـا نقض بعض المعاهدين من جبل لبنان عهدهم واجلاهم الوالي كتب اليه الاوزاعـي: (... فكيـف تؤخــذ عــامة بعـمـل خـاصـة؟ فيخـرجـون من ديارهم واموالهم).[٤]

ويجب الـوفـاء بالعهـد وان تضرر منه آحاد المسلمين، فحينما عاهد رسول اللـه (ص) المشـركين بتسليم من جـاءه من قريش مسلما، وفى بذلك وسلّم اثنين من المسلمين اليهم وفاءً منه بالعهد.[٥]

والوفاء بالعهد محل اجماع الفقهاء كما صرح به صاحب الجواهر.[٦]

---

(١) الكافي: ٥/٣١.

(٢) المهـذب في فقـه الامـام الشـافعي: ٢/٢٦٠، ٢٦١، ابـراهيم بن علي الفيـروزآبـادي، دار الفكـر، بيروت، بدون تاريخ.

(٣) السنن الكبرى: ٩/٢٠٦، احمد بن الحسين البيهقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٥٦هـ.

(٤) سنن الاوزاعي: ٣٩٤.

(٥) صحيح البخاري: ٥/٦٨، السيرة النبوية لابن هشام: ٣/٣٣٣، تاريخ الطبري: ٢/٦٣٨.

(٦) جواهر الكلام: ٢١/٩٧.

٧ - حسن المعاملة مع الاسرى:

امـر الاسـلام بحسن المعـاملة مع الاسرى وان كانوا معتدين قبل الاسر، لان الاسـلام يريـد للانسان الهداية والعودة الى الرشد، فلايبيح الاذى وسوء المعاملة معهم، فقد امر رسول الله(ص) بذلك وقال: (استوصوا بالاسارى خيرا).[١]

وحينمـا طلب احـد الصحابة من رسـول اللـه(ص) ان يـدلع لسـان احـد المشـركين الذين هجوا رسول الله(ص) في مواضع عديدة اجابه (ص): (لا امثل به فيمثل الله بي وان كنت نبيا).[٢]

ويجب إطعـام الاسـرى وان كـان حكم بعضهم القتل لضـرورة خـاصة، قال الامام جعفر الصادق(ع): (اطعام الاسير حق على من اسره، وان كان يراد من الغد قتله، فانه ينبغي ان يطعم ويسقى ويرفق به كافرا كان او غيره).[٣]

والـرفق بالاسرى واجب في جميع الاحوال، قال الشيخ الطوسي: (ومن اخذ اسيـرا، فعجـز عن المشي، ولم يكن معـه مـا يحمله عليه الى الامام، فليطلقه، فانه لايـدري: مـا حكم الامـام فيـه، ومن كـان في يـده اسيـر، وجب عليـه ان يطعمه ويسقيه).[٤]

---

(١) السيرة النبوية: ٢/ ٢٩٩، ابن هشام.
(٢) المصدر نفسـه: ٢/ ٣٠٤.
(٣) الكافي: ٥/ ٣٥.
(٤) النهاية: ٢٩٦.

المبحث الثاني
حقوق الامم والاديان في ظل الاسلام
حق الاعتقاد والتديّن

جاء الاسلام لهداية البشرية وانقاذها من الضلالة والاوهام، ومن ظلمات الجهل والخرافة، وقد فتح للهداية ابواباً من البينات والدلائل العقلية الواضحة، وحث الانسان على التدبر في الكون والحياة، وفي آفاق النفس البشرية ليهتدي بعد التدبر والاستدلال، وجعله حرا في ارادته في الايمان والاعتقاد مخيراً لامسيراً، ولهذا لم يكره احد على تبني العقيدة الاسلامية، قال تعالى: (ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين).[1]

وصرح القرآن الكريم بعدم الإكراه في الدين والاعتقاد فقال: «لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي...).[2]

وقد جسدت السيرة النبوية وسيرة المسلمين هذه الحقيقة في جميع مراحل التاريخ، فلم يكره احد على تبني العقيدة الاسلامية، ولو كان هنالك اكراه لما بقي انسان على عقيدته وهو يعيش في ظل الدولة الاسلامية والبلاد الاسلامية، فوجود اليهود والنصارى والصابئين وغيرهم في بلاد المسلمين خير دليل على ذلك.

واول عمل قام به رسول الله (ص) بعد الهجرة وتأسيسه للدولة الاسلامية هو

---

(١) يونس: ٩٩.
(٢) البقرة: ٢٥٦.

مو ادعة اهل الكتاب واقرارهم على دينهم.[١]

وكانـوا يتنعمـو ن بالحرية الكاملة طيلة عهده والعهو د اللاحقة به، ومن مظاهر تجسيـد حق الاعتقاد ان ريحانة زوجة رسو ل الله(ص) بقيت على ديانتها السابقة فترة ليست بالقصيرة الى ان أسلمت تأثرا بمفاهيم وقيم الاسلام فلم يكرهها(ص) على الاسلام وهي في بيته.[٢]

وفي حـوار لليهود مع رسو ل الله(ص) قالوا له: (يا محمد... فانا نأخذ بما في أيدينا، فانا على الهدى والحق، ولانؤمن بك ولانتبعك).[٣]

وكـان(ص) يدعو أهل الكتاب الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يكـرههم على الاسـلام على الرغم من امتلاكه للقوة العسكرية، فحينما دعا بعض رؤسـائهم الى الاسلام اجابوه: (بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا اعلم وخيرا منا).[٤]

وكـان المسلمون وكبار الصحابة لايكرهون حتى عبيدهم على الاسلام فعن يـوسف الرومي قال: (كنت مملوكا لعمر بن الخطاب، فكان يقول لي: أسلم فانك لـو اسلمت استعنت بك على امـانة المسلمين، فاني لا استعين على امانتهم بمن ليس منهم، فأبيت عليه فقال لي: «لا اكراه في الدين»).[٥]

والشـواهـد على حرية الاعتقـاد عديدة، ومن ذلك مراجعة اليهود والنصارى وغيـرهم الخلفاء الراشدين في كثير من القضايا بين حين و آخر، فهذا ان دلّ على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/١٤٧.
(٢) السيرة النبوية لابن كثير: ٤/٦٠٤.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٢١٧.
(٤) المصدر نفسه: ٢/٢٠٠.
(٥) الدر المنثور: ٢/٢٢.

شيء انما يدل على اقرارهم على عقيدتهم.

آراء الفقهاء والمفسرين.

اقرّ جميع فقهاء الاسلام الناس على دياناتهم ومعتقداتهم وان كانت محرّفة ومن آرائهم (عدم التعرض لهم في عقيدتهم).(١)

ولهم الحرية فيما بينهم في التشاجر والاختلاف في معتقداتهم، قال الفراء: (وان تشاجروا في دينهم واختلفوا في معتقدهم لم يعارضوا فيه).(٢)

فلا اكراه على الاعتقاد والانسان مخير فيه، قال الطبرسي: (ليس في الدين اكراه من الله ولكن العبد مخير فيه).(٣)

وقال الآلوسي: (لايتصور الاكراه في الدين لانه في الحقيقة الزام الغير فعلاً لايرى فيه خيرا يحمله عليه والدين الخير كله).(٤)

وقال ابو مسلم والقفال: (انه ما بنى تعالى امر الايمان على الاجبار والقسر وانما بناه على التمكن والاختيار).(٥)

وقال الطباطبائي: (ان الاسلام لم يبتن على السيف والدم، ولم يفت بالاكراه والعنوة، على خلاف ما زعمه عدة من الباحثين من المنتحلين وغيرهم ان الاسلام دين السيف... ان القتال الذي ندب اليه الاسلام ليس لغاية احراز التقدم وبسط الدين بالقوة والاكراه، بل لاحياء الحق)

واضاف الى ذلك قائلا: (ان الاية اعني قوله: «لا اكراه في الدين» غير منسوخة

---

(١) الموسوعة الفقهية: ٧/ ١٢٧، وزارة الاوقاف، الكويت، ١٤٠٦هـ ط ٢.
(٢) الاحكام السلطانية: ١٦١، الفراء، مكتب الاعلام الاسلامي، طهران، ١٤٠٦هـ
(٣) مجمع البيان: ١/ ٣٦٤، الطبرسي، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٣٣هـ
(٤) روح المعاني: ٣/ ١٢، ابوالفضل الالوسي (ت ١٢٧٠هـ)، دار احياء التراث، بيروت بدون تاريخ.
(٥) تفسير البحر المحيط: ٢/ ٢٨١، ابو حيان الاندلسي (ت ٧٥٤هـ)، دار الفكر، بيروت ١٤١٢هـ

بآية السيف).[١]

ولو اكره غير المسلم على الاسلام لم يترتب حكم الاسلام وهو رأي الامامين (ابو حنيفة والشافعي) كما حكي عنهما ابن قدامة: (واذا اكره على الاسلام من لايجوز اكراهه... فاسلم لم يثبت له حكم الاسلام، حتى يوجد منه ما يدل على اسلامه طوعاً... وان رجع الى دين الكفر لم يجز قتله ولا اكراهه على الاسلام، وبهذا قال ابو حنيفة والشافعي).[٢]

ويرى الامام مالك ـ خلافاً للمشهور ـ ان الاكراه في العقيدة غير مقبول حتى في الموقف مع الكفار الذين لاكتاب لهم كما حكى عنه ابو حيان الاندلسي: (ومذهب مالك ان الجزية تقبل من كافر سوى قريش فتكون الاية- (لا اكراه في الدين) ـ خاصة فيمن اعطى الجزية من الناس كلهم، لايقف ذلك على اهل الكتاب).[٣]

والاعتراف بحق الاعتقاد والتدين من قبل الاسلام والمسلمين من الحقائق البارزة، والتي اعترف بها غير المسلمين انصافا منهم لحسن التعامل، ففي عهد الخليفة الثالث كتب البطريرك المسيحي (سيمون) من مرو: (ان العرب الذين اورثهم الله ملك الأرض لايهاجمون الدين المسيحي ابدا... انهم يساعدوننا في ديننا ويحترمون الهنا وقديسنا...).[٤]

ويرى المستشرق ارنولد سيرتوماس: ان الاسلام لم ينتشر بالسيف وانما

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٢/٣٤٣، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٣٩٣.
(٢) المغني: ١٠/٩٦، عبدالله بن احمد بن قدامة (ت ٦٢٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ.
(٣) تفسير البحر المحيط: ٢/٢٨١.
(٤) روح الاسلام: ٢٦٥، سيد امير علي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧م، ط ٤.

انتشـر سلما بفضل الفقهاء والقضاة والحجاج والتجار والمتصوفة، ويرى ان بعض الشعوب رحبت بالمسلمين لانقاذهم من الحكومات الظالمة التي اضطهدتهم.[١]

وافضل التجـارب في مرحلتنـا الراهنة تجربة الجمهورية الاسلامية في ايران، فقـد اقـر دستـورهـا في المـادة الثـالثة عشـرة حرية الاقليـات المعـروفة كاليهود والمسيحيـون والـزرادشت، وجَسّـدت الـدولة هذه المادة في الواقع العملي، فلم تكره اي واحد منهم على ترك ديانته والانضمام الى الاسلام.

الحقوق التشريعية

بعد اقرار الاسلام حق الاعتقاد والتدين، اقر حق التشريع المتفرع عليه، فلكل امة او دين تشريع خاص لم يتدخل الاسلام في تغييره او تبديله، فلم يحرم عليهم مـا احلوه، ولم يحلل لهم ما حرموه، فحلالهم حلال، وحرامهم حرام في التعامل فيما بينهم، والاسلام يلزمهم بتشريعهم ان ارادوا للمسلمين التدخل في ذلك، قال الامام الصادق(ع): (ان كل قوم دانوا بدين يلزمهم حكمه).[٢]

ومن اهم تشريعاتهم التي اقـرهم عليهـا الاسلام هي العبادة، فلهم حق التعبد حسبما يرونه واجبا في شريعتهم، ففي الصدر الاول للاسلام، وفد رؤساء نصارى نجـران على رسـول اللـه(ص) بـالمدينة، فدخلـوا مسجده عليهم ثيابهم الخاصة بهم، ولمـا حانت صلاتهم، قاموا يصلون في مسجد رسول الله(ص)، فصلوا الى المشـرق وهـو مـوضع قبلتهم، فقـال(ص) للمسلمين: (دعوهم)،[٣] فكانت لهم

(١) الدعوة الى الاسلام: ١٢٣ الى ٣٣١، ارنولد سيرتوماس، ١٩٥٧م، ط ٢.
(٢) الاستبصار: ٤/١٨٩، الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، دار الكتب الاسلامية، طهران ١٣٩٠هـ ط ٣.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٢٢٣، ٢٢٤.

الحرية الكاملة ولم يعترض احد على صلاتهم او قبلتهم.

وما يمارسونه من اعمال طبق تشريعهم فهم احرار فيه وان كان محرما في الاسلام، ولم (يعترضوا، الا ان يتجاهروا به، فيحمل معهم مقتضى شرع الاسلام، ولو فعلوا المحرّم عندنا وعندهم، تخير الحاكم بين الحكم بينهم على مقتضى شرع الاسلام، وبين حملهم الى حاكمهم).(١)

وظاهر ذلك مختص فيما لو تجاهروا بالمحرم، او ترتب عليه حق للغير، والا فالمحرم المتستر به لا يؤاخذون عليه ان لم تكن فيه مفسدة عامة.

فلهم حق شرب الخمر سراً، ولا تترتب عليهم عقوبة كما تترتب على المسلم سواء شربها سرا او علنا، فلا يحرم عليه الخمر لاعتقاده بحليته، فله حق الشرب دون معارضة في بيته او بيعته او كنيسته.(٢)

ولهم حق التملك للاشياء التي لا حق للمسلم تملكها حسب تشريعهم، ولا يحق لاحد ان يمنعهم من ذلك وان كانت لا تملك في تشريعنا.(٣)

ويقرّون على تشريعهم في مسائل الزواج والنكاح ان اعتقدوا صحته وان كان فاسداً عند المسلمين، فكل ممارساتهم محكوم بصحتها، ولا يعترض عليهم في ذلك، او يمنعون منها.(٤)

ويقرون في تشريع الارث والوصايا حسب ما يرونه ولا يحق لاحد الاعتراض عليهم، وكذلك الحال في امور الملكية.(٥)

---

(١) غاية المراد: ١/٤٩٩.
(٢) النهاية: ٧١١، المهذب في فقه الامام الشافعي: ٢/٢٥٦.
(٣) تحرير الوسيلة: ٢/٦٤، الامام الخميني، دار الصراط المستقيم، بيروت، ١٤٠٣هـ
(٤) المحرر في الفقه: ٢٧، محيي الدين ابو البركات (ت ٦٥٢هـ) دار الكتاب، بيروت، بدون تاريخ.
(٥) المبسوط: ٦/١٨٢، الكافي في الفقه: ٣٧٥.

ولاقيود على ذلك الا في حدود المساس بمصلحة المواطنين، وهي قيود غير مختصة بالاديان واتباعهم، فهنالك قيود على المسلمين على حد سواء، وهم مقيدون بالقيود التي تحفظ السلامة العامة والسلام العام، فلا يطغى حق الفرد على حقوق المجتمع، ولا حقوق المجتمع على حق الفرد، وما عدا بعض القيود، فهم احرار في اتباع تشريعهم دون معارضة.

حرية التفكير وحق ابداء الرأي

منح الاسلام حرية التفكير، وحق ابداء الرأي لاتباع الأديان التي تعيش في ظل الدولة الاسلامية، وفي داخل المجتمع الاسلامي، وفقا لمتبنياته في تحرير العقل والتفكير، باقامة الحجة والبرهان، فلا يمنع من ان يكون الانسان حراً في تكوين رأيه غير مقلد ولاتابع، وان يعبر عن هذا الرأي عن طريق الحوار، وبالاسلوب الذي يريده، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الحق وهذه الحرية بالقول: (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى تلك امانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين).[1]

وأمر القرآن الكريم باستخدام الاسلوب الحسن في الجدال مع اصحاب الديانات، وهذا يقتضي منح الحرية لهم في ابداء وجهات نظرهم في مختلف القضايا والاحداث، قال تعالى: (ولاتجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون).[2]

(١) البقرة: ١١١.
(٢) العنكبوت: ٤٦.

والقـرآن الكـريم يدعـو صـراحة الى حرية الحـوار وابـداء وجهـات النظـر المختلفة، دون اكـراه او ارهـاب فيقول: «قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننـا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».(١)

فالاسـلام لم يمنع غيـره من ابـداء وجهـات النظـر عن طريق الحوار العلمي الهـادىء الـذي يقوم على اسس سليمة عن طريق اقامة الدليل والحجة والبرهان، وهنـالك قيـود قيد بها الاسلام غير المسلمين طبقاً لمعاهدة التعايش السلمي التي اتفق عليهـا المسلمـون مع من يعيش في ظل حكـومتهم او بلادهـم، وهذه القيود لاتختص بهم بل هي شـاملة لهم وللمسلمين حفـاظـا، على المقدسات واحتراما للحريات العامة ومن هذه القيود:

١ ـ ان لايذكروا كتاب الله بطعن ولا تحريف له.

٢ ـ ان لايذكروا رسول الله (ص) بتكذيب له ولا ازدراء.

٣ ـ ان لايذكروا دين الاسلام بذم له ولاقدحٍ فيه.(٢)

وهـذه القيـود قيـود موضـوعية تنسجم مع بديهيـات حق ابداء الرأي، وقد عاهد اصحاب الديانات المسلمين بعدم المساس بها، كما قيد الاسلام المسلمين بهـا في تعاملهم مع غيرهم، بان لايذكروا مقدساتهم بطعن ولاقدح، ويقتصر ابداء الـرأي على طـرح الادلة والبـراهين طلبـاً للحقيقة بعيـدا عن الازدراء والطعن والتشويه البعيد عن اسس الحوار المتبعة في الديانات الالهية والوضعية.

---

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) الاحكام السلطانية للماوردي: ١٤٥، فقه الامام جعفر الصادق: ٢/ ٢٦٩.

حرية الرأي في الصدر الأول للاسلام

كان غير المسلمين في عهد رسول الله(ص) سواء كانوا اهل كتاب ام كفارا يتمتعون بكامل حريتهم في التفكير وفي ابداء وجهات نظرهم وآرائهم دون ضغط او إكراه، وكان(ص) يستمع الى تلك الآراء سواء كانت اقتراحات او اعتراضات ام مجرد رأي، فحينما دعا بعضهم الى الاسلام اجابه ابو صلوبا الفطيوني: (يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، و ما انزل الله عليك من آية فنتبعك لها).

وقال له رافع بن حريملة ووهب بن زيد: (يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه، وفجر لنا انهاراً نتبعك ونصدقك).[١]

وقال له بعض رؤساء اليهود في موقف آخر: (اتريد منا يا محمد ان نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم).

فأجابهم(ص) برفق وهدوء: (معاذ الله أن أعبد غير الله،او آمر بعبادة غيره).[٢]

وفي جلسة ضمت رؤساء اليهود والنصارى، دعا فيه الرؤساء رسول الله(ص) باتباعهم على دينهم، فقال له رؤساء اليهود: (ما الهدى الا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتدي)، وقالت النصارى مثل ذلك، فانزل الله تعالى: «وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين»[٣])[٤]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/١٩٦، ١٩٧.
(٢) المصدر نفسه: ٢/٢٠٢.
(٣) البقرة: ١٣٥.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/١٩٨.

وفي حوار دار بين ابي بكر وفنحاص اليهودي، قال له ابو بكر: (اتق الله واسلم، فو الله انك لتعلم ان محمدا لرسول الله).

قال فنحاص: (ما بنا الى الله من فقر، وانه الينا فقير)، فغضب ابو بكر فضرب وجهه ضربا شديدا، فشكاه فنحاص الى رسول الله(ص)، فعاتبه(ص) على هذا الموقف، وعلى اثر ذلك نزلت الاية الكريمة: «... ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور»[١])[٢].

ولم تقتصر الحرية في الرأي على أهل الكتاب بل شملت حتى المشركين من غيرهم، فحينما قدم وفد بني تميم على رسول الله(ص) نادوه من وراء الحجرات: (اخرج الينا يا محمد)، فخرج اليهم، فقالوا: (يا محمد جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا)، فاذن لهما(ص) فبدأ خطيبهم بتبيان مفاخرهم ومآثرهم، ثم قام شاعرهم، فافتخر بشعره، وأمام هذا الموقف امر رسول الله(ص) خطيبه وشاعره باجابتهم، وتبيان فضائل الايمان والاسلام، فاسلموا اثر ذلك حينما وجدوا تفوق خطيب الرسول(ص) وشاعره على خطيبهم وشاعرهم، وللمعاملة التي تلقوها من قبل رسول الله(ص) في مسجده وهو رئيس دولة، حين سمح لهم بابداء وجهات نظرهم، بكل حرية، وبامثل صور المسامحة والتكريم.[٣]

واستمر الخلفاء من بعده(ص) على العمل بسنته مع اتباع الديانات المختلفة، وكان لهم حق ابداء الرأي، بل حق الاعتراض احياناً، ففي عهد ابي بكر كانت

---

(١) آل عمران: ١٨٦.

(٢) السيرة النبوية: ٢/٢٠٧، ٢٠٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢/٢٠٧، ٢٠٩.

اللقــاءات مستمـرة بينـه وبين رؤساء واتباع الديانات القائمة، وكانوا يسألو نه عن مختلف القضايـا والاحـداث فيجيبهم، واذاعجـز عن الاجابة بعثهم الى غيره من الصحابة.[١]

وفي عهـد عمر كان لهم مطلق الحرية في ابداء وجهات نظرهم،والاستفسار عن كثيـر من الاراء والمـواقف، وكان يجيبهم عن كل شيء بمفرده او يتعاون مع غيره من الصحابة في ذلك.[٢]

واعتــرض أهل الكتــاب من اهل الشــام امــام عمـر على بعض المسلمين لتكليفهم فـوق طـاقتهم، فسمح لهم بالاعتـراض بكل حرية، واستجاب لشكواهم وامر المسلمين بعدم تكليفهم فوق طاقتهم.[٣]

وطلب اهل بيت المقــدس من ابي عبيـدة ان يكـون عمـر بن الخطـاب هـو المتولي لعقد الصلح، فاستجاب عمر لذلك وسار بنفسه الى بيت المقدس.[٤]

وطـالب بعض النصـارى عثمـان بن عفان بتخفيف الجزية عليهم، فاستجاب لهم واسقط عنهم مائتي حلة.[٥]

وجـاء بعض رؤســاء النصـارى الى علي بن ابي طـالب(ع) معتـرضين على بعض المواقف، فمنحهم حرية الاعتراض واستجاب لما طلبوه منه.[٦]

وكـان لهم مطلق الحرية في ابـداء وجهات النظر، ومن ذلك قول احد اليهود

---

(١) ذخائر العقبى: ٨٠، الطبري، مؤسسة الوفا، بيروت، ١٤١٠هـ
(٢) الخصال: ٤٥٦.
(٣) المهذب في فقه الامام الشافعي: ٢/٢٥١.
(٤) الكامل في التاريخ: ٢/٥٠١.
(٥) المصدر نفسه: ٢/٢٩٣.
(٦) كتاب الخراج: ٥٢.

له(ع): (ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه!)،فاجابه(ع):(انما اختلفنا عنه لا فيه).[١]

وكـان أهل الكتـاب يسألونـه(ع) عن مختلف المسائل، حتى عن الخلافات بين المسلمين فيجيبهم دون ترددا او إخفاء للحقيقة.[٢]

واضـافة الى حرية الرأي كان لهم حق تعليم ابنائهم واتباعهم ما يعتقدونه من عقائد وان كانت باطلة عندنا، ولهم حق مطلق التعليم وفي جميع اصناف العلوم، فكانت لهم بيـوت خـاصة يتدارسون فيها امور دينهم، ففي عهد رسول الله(ص) كانـوا يجتمعـون في بيت يسمى بيت المـدارس، وكـان رسول الله(ص) يدخل عليهم ويدعوهم الى الاسلام[٣] بالحكمة والموعظة الحسنة.

ونتيجة لحرية التعليم والتعّلم كـان بعض العلمـاء في تاريخ الاسلام من اهل الكتـاب، وقـد ساهموا مساهمة فعّالة في ارساء دعائم العلوم المختلفة بكل حرية، يقـول الـدكتـور سعيـد عبدالفتـاح عاشور: (... ولكن هذه الحقيقة في حد ذاتها شهـادة للاسـلام، ودليل على دوره الفعّـال في بناء الحضارة، فالاسلام هو الذي وفر لغير المسلمين جوا من الحرية والتسامح والعدالة جعلهم يقبلون على الاسهام في ذلك النشاط الحضاري بنفوس مطمئنة وقلوب راضية).[٤]

ولاهل الكتـاب حق كتابة التـوراة والانجيل وسائر الكتب الخاصة بهم، ولهم حق الطبع والنشر.[٥]

---

(١) نهج البلاغة:٥٣١، تحقيق د. صبحي الصالح.
(٢) الخصال: ٣٦٥ الى ٣٨٢.
(٣) الروض الآنف:٤/٣٥٤.
(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية:١١، د. سعيد عبدالفتاح عاشور، دار السلاسل، الكويت ١٤٠٦هـ ط ٢.
(٥) تحرير الوسيلة:٢/٥٠٧.

حق الحماية:

من مصاديق انسانية الاسلام ورحمته باتباع الاديان ان تبني حمايتهم من كل الوان الاضطهاد والظلم والعدوان، بقسميه الخارجي والداخلي، فهم آمنون على ارواحهم واعراضهم وممتلكاتهم، وتجلى هذا التبني منذ الايام الاولى لاقامة الدولة الاسلامية في المدينة المنورة، حيث كتب رسول الله(ص) كتاباً حدد فيه دستور العلاقات بين مواطني المدينة على اختلاف أديانهم، وقد جاء في هذا الكتاب: (... وانه من تبعنا من يهود فان له النصرة والاسوة، غير مظلومين ولامتناصرين عليهم... وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم...)(١)

وكتب رسول الله(ص) امانا الى يحنة بن رؤية صاحب ايلة جاء فيه: (هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤية واهل ايلة ... لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام واهل اليمن واهل البحر...).(٢)

وفي عهد عمر بن الخطاب لم يستطع المسلمون حماية أهل الكتاب لعدم قدرتهم العسكرية أمام حشود المعتدين، فكتب ابو عبيدة الى ولاة المدن ان يردّوا الجزية والخراج الى اهلها، وان يقولوا لهم: (انما رددنا عليكم اموالكم لانه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وانكم اشترطتم علينا ان نمنعكم، وانا لانقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط...)(٣)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ١٤٨، ١٤٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ١٦٩.

(٣) الخراج: ١٣٩، ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ) القاهرة، ١٣٨٢هـ.

وكـان اهل الكتاب يتمتعون بجميع مظاهر الأمن في ظل الدولة الاسلامية في عهـد الخلفـاء، حتى وصل الامـر الى ان علي بن ابي طـالب(ع) يتأسف لاعتداء البغـاة على نسـاء المسلمين وأهل الكتـاب على حـد سـواء، ففي حثه على ردع البغـاة يقـول: (... وقـد بلغني ان الرجل منهم كـان يـدخل على المـرأة المسلمة والاخـرى المعـاهـدة فينتزع حجلها وقليها وقلائدها ... فلو أنّ امرءاً مسلماً مات من بعد هذا اسفاً ما كان به ملوماً).(١)

وكتب الامـام محمـد الباقر(ع) الى احد حكام بني امية حول التعامل مع اهل الكتاب: (... ومن اقر بالجزية لم يتعد عليه، ولم تخفر ذمته، وكلف دون طاقته).(٢)

ويبذل الجزية يكون لهم حقان.(٣)

احدهما: الكف عنهم.

والثاني: الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين.

ويـرى الفـراء ان لأهل العهـد اذا دخلـوا دار الاسلام (الأمان على نفوسهم واموالهم، ولهم ان يقيموا اقل من سنة بغير جزية، ولا يقيمون سنة الا بجزية).(٤)

ويرى ابن جماعة وجوب حمايتهم من العدوان الداخلي والخارجي فيقول: (فلهم علينـا الكف عن انفسهم وامـوالهم ومعابـدهم التي يجوز بقاؤها لهم وعن خمـورهم مـا لم يظهروها... وعلينا دفع من قصدهم بسوء من المسلمين وغيرهم اذا كانوا في بلاد المسلمين).(٥)

---

(١) الكافي: ٥/٥.
(٢) الكافي: ٥/٣.
(٣) الاحكام السلطانية للماوردي: ١٤٣.
(٤) الاحكام السلطانية للفراء: ١٦١.
(٥) تحرير الاحكام: ٢٥٣، ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) دار الثقافة، قطر، ١٤٠٨هـ

والدفاع عنهم من اجل حمايتهم موضع اتفاق بين الفقهاء، ففي مذهب الشافعي يجب على الامام (الذب عنهم ومنع من يقصدهم من المسلمين والكفار، واستنقاذ من اسر منهم واسترجاع ما اخذ من اموالهم سواء كانوا مع المسلمين، او كانوا منفردين عنهم في بلدهم... فان لم يدفع عنهم حتى مضى حول لم تجب الجزية عليهم).[١]

ويقول النووي: (يلزمنا الكف عنهم وضمان ما تلف عليهم نفساً ومالاً ودفع أهل الحرب عنهم).[٢]

ويرى ابن قدّامة وجوب حماية غير المسلمين من قبل الامام، ورد العدوان عليهم فيقول: (واذا عقد الذمة، فعليه حمايتهم من المسلمين واهل الحرب واهل الذمة...)[٣]

ويستشهد في مقام آخر يقول الامام علي(ع): (انما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا).[٤]

حق التقاضي والحماية القانونية:

للمواطنين الذين يعيشون في ظل الدولة الاسلامية سواء كانوا مسلمين ام غير مسلمين لهم حق التقاضي والحماية القانونية، لذا اوجب الفقهاء على القضاة الاستماع الى دعواهم، والحكم بينهم سواء كانوا متحدي الدين او مختلفين،

---

(١) المهذب في فقه الامام الشافعي: ٢ / ٢٥٦.
(٢) منهاج الطالبين: ٣١٤، النووي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ
(٣) المغني: ١٠ / ٦٦٣.
(٤) المغني: ١٠ / ٤٨٩.

قـال ابن قـدامة: (وان تحاكم مسلم وذمّي، وجب الحكم بينهما بغير خلاف، لانه يجب دفع ظلم كل واحد منهما عن صاحبه).[١]

وغيـر المسلمين مخيّـرون في التحاكم الى حاكمهم او الى حاكم المسلمين، فليس لاحـد منعهم من التحاكم الى حاكمهم، واذا تحاكموا الى حاكم المسلمين فمن حقـه الحكم بينهم طبقاً لحكم الاسلام، وفي ذلك قال الفرّاء: (وان تشاجروا في دينهم واختلفـوا في معتقـدهم لم يعارضوا فيه ولم يكشفوا عنه، وان تنازعوا في حق ارتفعـوا فيه الى حاكمهم لم يمنعوا منه، وان ترافعوا فيه الى حاكمنا حكم بينهم بما يوجبه دين الاسلام، وتقام عليهم الحدود اذا أتوها).[٢]

وفي اقـامة الحـدود للحـاكم حق الاختيـار بين الحكم بينهم او ارسالهم الى حاكمهم ليحكم بينهم.[٣]

ويجب الحكم بـالحق بين المسلم وغيـره، أو بين غيـر المسلمين فيما بينهم، لاتميـز بينهم على اسـاس الانتمـاء العقـائـدي، فالجميع متساوون امام القضاء، والـدليل على ذلك ان جميع الآيات القرآنية الدالة على الحكم بالعدل بين الناس، لم تخصص في مـورد معيّن وإنّمـا هي عامة بين المسلمين وغير المسلمين، ومن وصية الامام علي(ع) لواليه على مصر يأمره (... بالعدل على أهل الذمة وبانصاف المظلوم، وبالشدة على الظالم).[٤]

واكـد الامـام علي بن الحسين(ع) على العدالة في الحكم في رسالة الحقوق

---

(١) المغني: ١٠/١٩١.
(٢) الاحكام السلطانية: ١٦١.
(٣) النهاية: ٦٩٦، الكافي في الفقه: ١٩٥، غاية المراد: ١/٤٩١.
(٤) تحف العقول: ١١٨.

فقال(ع): (واما حق اهل الذمة فالحكم فيهم ان تقبل منهم ما قبل الله وتفي بما جعل الله لهم من ذمته وعهده، وتكلهم الى الله فيما طلبوا من انفسهم واجبروا عليه، وتحكم فيهم بما حكم الله به على نفسك فيما جرى بينك وبينهم من معاملة، وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله حائل فانه بلغنا انه قال: من ظلم معاهدا كنت خصمه).(١)

وكانت سيرة رسول الله(ص) وسيرة الخلفاء قائمة على اساس العدل في الحكم، ففي عهده(ص) اتهم الانصار اليهود بقتل احدهم فتحاكموا الى رسول الله(ص)، فقال لهم(ص): الكم بينة؟ فقالوا: لا، فقال: افتقسمون؟ فقالوا: كيف نقسم على ما لم نره؟، فقال: فاليهود يقسمون، فقالوا: يقسمون على صاحبنا، وكانت نتيجة الحكم ان برأ رسول الله(ص) اليهود من التهمة، واعطى ديته من عنده.(٢)

واختصم مسلم ويهودي عند الخليفة الثاني، فرأى ان الحق لليهودي فحكم بالحق لصالحه.(٣)

واروع صور ومظاهر العدل، ان الامام علي(ع) في عهد خلافته، تحاكم مع نصراني عند القاضي شريح، فقال شريح للامام(ع): ما أرى ان تخرج من يده، فهل من بينة؟ فقال علي(ع): صدق شريح، وحينما لمس النصراني العدالة بافضل صورها قال: (اما انا فاشهد ان هذه احكام الانبياء ... امير المؤمنين يجيء الى

---

(١) تحف العقول: ١٩٥، ١٩٦.

(٢) من لايحضره الفقيه: ٤/٩٩، الطوسي، جماعة المدرسين، ١٤٠٤هـ ط ٢.

(٣) الموطأ: ٢/٧١٩، مالك بن انس، دار احياء التراث العربي، بدون تاريخ.

قاضيه، وقاضيه يقضي عليه)، واعترف ان الحق للامام(ع).[١]

وبما ان القضاء يتطلب الشهادة، فقد أجاز رسول الله(ص) شهادة غير المسلمين بعضهم على بعض.[٢]

وفي حال الضرورة يجوز الشهادة وان اختلف الانتماء الديني، سئل الامام جعفر الصادق(ع) عن شهادة اهل الملل، قال:(لاتجوز الا على اهل ملتهم، فان لم يوجد غيرهم جازت شهادتهم على الوصية، لانه لايصلح ذهاب حق احد).[٣]

ويحلف اهل الكتاب كما يحلف المسلم ويترتب على الحلف الحكم النهائي بلا فرق بين المسلم وغيره، قال الامام الصادق(ع): (اليهودي والنصراني والمجوسي لاتحلفوهم الا بالله عز وجل).[٤]

وفي قضايا الديّات يتساوى المسلمون وغيرهم في ذلك، مع فارق في القدر المأخوذ، واذا عجز الذمي عن دفع الديّة لقتله للمسلم خطأ، فديّته على بيت المال[٥] كما لو كان الذمي مسلماً.

نماذج من قوانين الحماية:

في القضاء الاسلامي هنالك قوانين خاصة بحماية غير المسلمين من الظلم والاضطهاد والاعتداء، فمن قتل احدا من غير المسلمين فعليه دفع الديّة، في حالة غشهم للمسلمين واظهار العداوة لهم.[٦]

---

(١) مختصر تاريخ دمشق: ١٠/٢٩٦.
(٢) سنن ابن ماجة: ٢/٧٩٤، حديث: ٢٣٧٤.
(٣) وسائل الشيعة: ٢٧/٣٩٠.
(٤) الكافي: ٧/٤٥١.
(٥) النهاية: ٧٤٩، الكافي في الفقه: ٣٩٥.
(٦) من لايحضره الفقيه: ٤/١٢٤.

ويقتل المسلم اذا كان متعودا على قتل اهل الذمة، وان كانوا مظهرين العداوة للمسلمين.(١)

وقد سنّ الاسلام قانون القصاص لردع الجريمة، ولذا فان الامام علي(ع) كان يقول: (يقتص للنصراني واليهودي والمجوسي بعضهم من بعض، ويقتل بعضهم ببعض اذا قتلوا عمدا).(٢)

وعن بريد العجلي قال: سألت ابا عبدالله(ع) عن رجل مسلم فقأ عين نصراني، فقال: ان دية عين النصراني اربعمائة درهم.(٣)

ووضع الاسلام عقوبات لردع الاعتداء على غير المسلمين من ظلم او اذى او سرقة، وفي ذلك افتى الامام الشافعي: (ومن سرق لهم من بلاد المسلمين او اهل الذمة ما يجب فيه القطع قطعته... واعزر من قذفهم، وأؤدب لهم من ظلمهم من المسلمين، وآخذ لهم منه جميع ما يجب لهم مما يحل اخذه... واذا عرض لهم بما يوجب عليه في ماله او بدنه شيئا اخذته منه، واذا عرض لهم بالاذى... زجرته عنه، فان عاد حبسته او عاقبته عليه، وذلك مثل ان يريق خمرهم او يقتل خنازيرهم...).(٤)

ويقول ايضا: (وولاة دماء النصارى كولاة دماء المسلمين...ويجوز اقرارهم بينهم كمايجوز اقرار المسلمين بعضهم لبعض، وكل حق بينهم يؤخذ لبعضهم من بعض، كما يؤخذ للمسلمين بعضهم من بعض).(٥)

---

(١) من لايحضره الفقيه: ٤/١٢٤، الاستبصار: ٤/٢٧٢.
(٢) الكافي: ٧/٣٠٩.
(٣) الكافي: ٧/٣١٠.
(٤) الأم: ٤/٢٠٨، الشافعي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٣هـ ط ٢.
(٥) الام: ٤/٢١٢.

ويرى الامام احمد بن حنبل ان: (جراحات اليهود والنصارى والمجوس على قدر دياتهم من ديّات المسلمين).[١]

وهنالك قوانين اخرى لحماية غير المسلمين سنذكرها في الحقوق القادمة.

الحقوق الاقتصادية والمالية:

ضمن الاسلام لغير المسلمين حقوقهم الاقتصادية والمالية، وحرّم الاعتداء على اموالهم، بالسرقة والغصب والغش والاحتيال، ولم يأخذ الاسلام منهم غير الجزية وهي تدفع من اجل الدفاع عنهم وحمايتهم.[٢]

وراعى الاسلام في أخذ الجزية التفاوت الاقتصادي بينهم، فقرر اعفاء العاجزين عن دفعها، واعفاء الصبيان والنساء والعبيد، والشيوخ المسنين واصحاب العاهات الجسدية والعقلية، واعفاء مطلق الفقراء فلا تؤخذ منهم، وهذا محل اتفاق الفقهاء من جميع المذاهب.[٣]

وأمر الاسلام بحسن التعامل عند اخذ الجزية والاكتفاء بأخذ اليسير من اموالهم وترك ما يحتاجون اليه، ومن ذلك ان عليا(ع) امر جباة الجزية بان لايضربوا احدا ولايبيعوا لهم رزقا ولاكسوة شتاء ولاصيف ولا دابة يعملون عليها، فقال له احدهم: (يا أمير المؤمنين اذن ارجع اليك كما ذهبت من عندك)، فقال(ع): (وان رجعت كما ذهبت ويحك انما امرنا ان نأخذ منهم العفو ـ يعني

(١) احكام أهل الملل: ٣٢٥، ابوبكر الخلال، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ.
(٢) تحرير الاحكام: ٢٥٣.
(٣) الكافي: ٣/٥٦٧، الكافي في الفقه: ٢٤٩، الوسيلة: ٢٠٥، المهذب في فقه الامام الشافعي: ٢/٢٥٢، المحرر في الفقه: ٢/١٨٤، المغني: ١٠/٥٧٢. تحرير الاحكام: ٢٥٢.

الفضل ـ).[١]

وفيما يلي نستعرض تلك الحقوق:

اولا: العدالة في اخذ الجزية:

لايجوز للمسلمين اخذ ما لم يتّفق عليه في عقد الجزية، قال رسول الله(ص): (انكم لعلكم تقاتلون قوما فيتقونكم باموالهم دون انفسهم وابنائهم، ويصالحونكم على صلح، فلا تأخذوا منهم فوق ذلك، فانه لايحل لكم).[٢]

فيحق للمسلمين اخذ اموالهم حسب المعاهدة، و ما سوى ذلك فلايجوز فعن محمد بن مسلم قال سألت اباجعفر الباقر(ع) في اهل الجزية يؤخذ من اموالهم ومواشيهم شيء سوى الجزية؟ قال: لا.[٣]

وسأل الامام جعفر الصادق(ع) عن حق المسلمين في اموال أهل الذمة قال: (الخراج فان اخذ من رؤوسهم الجزية فلا سبيل على ارضهم، وان اخذ من ارضهم فلاسبيل على رؤوسهم).[٤]

وافتى الفقهاء بذلك، قال المحقق الكركي: (ارض الصلح وهي كل ارض صالح اهلها عليها، وهي ارض الجزية فيلزمهم ما يصالحهم الامام عليه من نصف او ثلث او ربع او غير ذلك، وليس عليهم شيء سواه).[٥]

ويجب العمل على طبق الشروط المتفق عليها، قال الامام الخميني: (لو عين في عقد الجزية على الرؤوس لايجوز بعده اخذ شيء من اراضيهم وغيرها، ولو

---

(١) السنن الكبرى: ٩/٢٠٥، البيهقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٤هـ.
(٢) الاموال: ١٥٧، ابوعبيد (ت ٢٢٤هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ.
(٣) الكافي: ٥/٥٦٨.
(٤) الكافي: ٥/٥٦٧.
(٥) رسائل المحقق الكركي: ١/٢٤٢.

وضع على الاراضي لايجوز بعده الوضع على الرؤوس، ولو جعل عليهما لايجوز النقل الى احداهما، وبالجملة لابد من العمل على طبق الشروط).[١]

ويرتب الامام الخميني آثار الصحة على العقد وان كان احد طرفي العقد هو الحاكم الجائر[٢] حفاظا على حقوق اهل الذمة.

وهنالك ضرائب إضافية يكون فيها المسلم وغيره على حد سواء مراعاة للظروف الاقتصادية والمصلحة العامة، فعن زياد بن حدير قال: (امرني عمر أن آخذ من تجار أهل الذمة مثل ما آخذ من تجار المسلمين).[٣]

وتسقط الجزية في حال عدم قدرة المسلمين على حمايتهم،او تبنوا بنفسهم الدفاع عن انفسهم وممتلكاتهم - كما مر سابقا -.

ثانيا: الفصل بين الموقف السياسي وحق الملكية:

فصل الاسلام بين الموقف السياسي وحق الملكية، فالحق يبقى لصاحبه وان اتخذ موقفا سياسيا معاديا للاسلام والمسلمين، فبعد ان نقض اليهود عهدهم مع رسول الله(ص) خطب(ص) المسلمين قائلا: (ايها الناس انكم قد اسرعتم في خطائر اليهود، ألا لاتحل اموال المعاهدين الا بحقها).[٤]

واذا دخل الحربي دار الاسلام بأمان في تجارة او غيرها ثبت له الامان في نفسه وماله، ويكون حكمه في ضمان النفس والمال وما يجب عليه من الضمان والحدود حكم المهادن.[٥]

---

(١) تحرير الوسيلة: ٢/ ٤٩٩.
(٢) تحرير الوسيلة: ٢/ ٥٠١.
(٣) الاموال: ٥٣٠.
(٤) كنز العمال: ٤/ ٣٦٣.
(٥) المهذب في فقه الامام الشافعي: ٢/ ٢٦٣.

واذا دخل الحربي دار الاسلام بغير عقد أمان فادعى انه تاجر ووجد معه متاع يبيعه، قبل منه ذلك وكان آمناً على ماله ونفسه.(١)

واذا لحق المعاهد بدار الحرب فيجب اعادة املاكه اليه وليس للمسلمين غنيمتها.(٢)

واذا دخل المسلم دار الحرب للتجارة، فلا يحل له ان يتعرض لاموال المشركين او المحاربين المسلمين لانه ضمن ان لا يتعرض لهم بالاستئمان.(٣)

فحق الملكية مفصول عن الموقف السياسي والعسكري، وهذا ما يجسد انسانية الاسلام في تعامله مع غير المسلمين فلا يبيح التعرض لاموالهم وممتلكاتهم وان اعلنوا العداء ونقضوا العهود.

ثالثا: اعادة الحقوق المغتصبة:

حرم الاسلام الاعتداء على اموال اهل الذمة بل مطلق الناس، ولذا سنّ قانون الضمان في خال الاعتداء من غصب او سرقة او غش او احتيال، فمن أتلف من المسلمين او من غيرهم مالاً لهم فعليه ضمانه(٤)

ويشمل الضمان حتى الملكية التي لا اعتبار لها في الاسلام كالخمر والخنزير او الات اللهو، فلو (اتلف لذمي خمراً او آلة لهو، ضمنها المتلف ولو كان مسلماً، ويشترط في الضمان الاستتار).(٥)

و (خمر الكافر المستتر محترم يضمن بالغصب بقيمته عند مستحليه، وكذلك

---

(١) المحرر في الفقه: ٢/١٢٨.
(٢) الام: ٤/١٨٣، ١٨٤.
(٣) الهداية: ٢/١٥٢.
(٤) المغني: ١٠/٥٧٣.
(٥) شرائع الاسلام: ٤/٢٨٦.

في الخنزير).[١]

وكـان المسلمـون لايعتـدون على املاكهم واموالهم وان حدث ذلك ضمن من قبلهم، ولم يستثمـر قادة الدولة الاسلامية الظروف لاخذ بعض اموالهم منهم، وكـان رسول الله(ص) يأخذ بعض ما يحتاج عارية مضمونة وبرضى من صاحبه، فقد طلب(ص) من صفوان بن امية مئة درع، فقال: اغصباً يا محمد؟ قال(ص): لا، ولكن عارية مضمونة، قال: لا بأس بهذا.[٢]

وكانت سيـرة الخلفـاء قـائمة على هذا الاساس، فقد اتى رجل من اهل الذمة الى عمـر بن الخطـاب شاكيـا من اعتـداء بعض المسلمين على عنبه، فخرج عمر حتى لقي رجـلا من اصحابه يحمل ترساً عليه عنب،فاعتذر ذلك الرجل بالمجاعة والاضطرار، فأمر عمر للذمي بقيمة عنبه.[٣]

وقـد افتى الفقهـاء ببقـاء الحق وعـدم سقوطه ووجوب الضمان في مختلف الظروف والاحوال، فان (اقترض حربي من حربي مالاً ثم دخل الينا او اسلم، فقد قـال ابـو العبـاس عليـه رد البـدل على المقرض لانه اخذه على سبيل المعاوضة فلزمـه البدل... فان دخل مسلم دار الحرب بأمان فسرق منهم مالاً او اقترض منهم مـالاً، وعـاد الى دار الاسـلام ثم جاء صاحب المال الى دار الاسلام بأمان وجب على المسلم رد ما سرق او اقترض).[٤]

ويبقى الحق وان تغيـر المـوقف السياسي والعسكري فلو (اقترض حربي من

---

(١) اللمعة الدمشقية: ٢٣٤.
(٢) اعلام الورى: ١١٩.
(٣) كنز العمال: ٤/٤٩٠.
(٤) المهذب في فقه الامام الشافعي: ٢/٢٦٤.

حربي او اشترى منه ثم أسلما او قبلا جزية دام الحق).[1]

رابعا : حق العمل

غير المسلمين لهم حق العمل في بلاد المسلمين ولا يكرهون على اختيار عمل معين، فهم احرار في ذلك، ولا قيود عليهم في العمل، وان وجدت فهي على حد سواء بين المسلمين وبينهم، ومنها الاعمال التي تضر بالمصلحة العامة، اما في الامور المباحة فهم احرار، قال ابو يوسف: (ويتركون يسكنون في امصار المسلمين واسواقهم يبيعون ويشترون ولا يبيعون خمرا ولا خنزيرا).[2]

وهذا البيع انما هو حرام على المسلمين، اما فيما بينهم فلا قائل بحرمته او منعه، وقد جوز الاسلام لهم هذا الحق وجوز مشاركتهم للمسلم في الامور التجارية والزراعية وغيرها، فعن ابراهيم بن ميمون قال: سألت ابا عبدالله(ع) عن قرية لاناس من أهل الذمة لا ادري اصلها لهم أم لا، غير انها في ايديهم وعليهم خراج فاعتدى عليهم السلطان، فطلبوا الي فاعطوني ارضهم وقريتهم على ان اكفيهم السلطان بما قل او اكثر، ففضل لي بعد ذلك فضل بعد ما قبض السلطان ما قبض، قال(ع): (لابأس بذلك لك ما كان من فضل).[3]

فقد اجاز(ع) صحة العمل مع أهل الذمة من قبل المسلم.

وعن اسماعيل بن فضل الهاشمي قال: سألت الصادق(ع) عن رجل اشترى منهم ارضا من اراضي الخراج فبنى فيها او لم يبن، غير ان اناسا من أهل الذمة نزلوها، أله ان يأخذ منهم اجور البيوت اذا ادوا جزية رؤوسهم، قال(ع):

---

(١) منهاج الطالبين: ٣١٠.

(٢) الخراج: ١٢٧.

(٣) الكافي: ٥/ ٢٧٠.

(يشارطهم، فما اخذ بعد الشرط فهو حلال).[١]

والمشاركة من قبل المسلم مع غيره جائزة ولكنها مكروهة، وترتفع الكراهة اذا كانت المعاملة تجارية وحضور المسلم فيها، فعن الامام الصادق(ع انه قال: (ان امير المؤمنين(ع) كره مشاركة اليهودي والنصراني والمجوسي الا ان تكون تجارة حاضرة لايغيب عنها المسلم).[٢]

ووجه الكراهة هو عدم التزام كثير من غير المسلمين باحكام الاسلام في حرمة الربا و سائر المعاملات المحرمة.

ولم يحرم الاسلام حتى مهنة الرضاعة بين غير المسلمة والطفل المسلم، فجوز ارضاع الكتابية للطفل المسلم بشرط ان تمتنع من شرب الخمر.[٣]

وكان أهل الكتاب وخصوصا اليهود لهم مهن معروفة عند المسلمين، فقد كانوا خياطين وصباغين واساكفة وخزازين.[٤]

وكان لرسول الله(ص) خادم يهودي يخدمه مقابل اجرة.[٥]

وكانت الدولة الاسلامية تستعين بهم في الاعمال والوظائف التي لم يشترط فيها الاسلام، يقول عبدالكريم زيدان: (ان اختلاف الذميين مع المسلمين في العقيدة لم يقم حائلا دون اشراكهم في ادارة شؤون الدولة وتكليفهم بوظائفها).[٦]

وقد شهد بعض المستشرقين بذلك ومنهم آدم متز حيث يقول: (من الامور

(١) الكافي: ٥/ ٢٨٢.
(٢) الكافي: ٥/ ٢٨٦.
(٣) الكافي: ٦/ ٤٢.
(٤) الخارج: ٢٥٦.
(٥) نيل الاوطار: ٨/ ٢٢٧، الشوكاني، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.
(٦) احكام الذميين: ٨٢، عبدالكريم زيدان، ١٩٦٣م، ط ١.

التي نعجب لهـا كثـرة عـدد العمـال والمتصـرفين غيـر المسلمين في الـدولة الاسلامية).[١]

خامسا: حق الضمان الاجتماعي وتكفّل الدولة الاسلامية:

تبنى الاسـلام التكـافل الاجتماعي، واشباع حاجات الفقراء والمستضعفين، سـواء كانـوا مسلمين ام غيـر مسلمين مادامو ا يعيشون في ظل الدولة الاسلامية، وقـد قـامت السيـرة على ذلك، وكـان رسـول الله(ص) يتفقـد احـوال الفقـراء والمحتاجين من المسلمين وغيـرهم وينفق عليهم، فعن سعيدبن المسيب قال:(ان رسول الله(ص) تصدّق صدقة على اهل بيت من اليهود، فهي تجري عليهم).[٢]

وانـه(ص) لم يكن يمنع نساءه من التصدّق على غير المسلمين، فقد تصدّقت صفية على قرابتها من اليهود بمايقدر بثلاثين الف درهم.[٣]

وكـان(ص) يحث على إطعـام الجيران وان كانوا غير مسلمين، فقد ذبحت له شـاة في داره، فلمـا جاء، قال: اهديتم لجارنا اليهودي؟ اهديتم لجارنا اليهودي؟ مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه).[٤]

وقد خصص بعض الخلفاء عطاء من بيت المال للمستضعفين من اهل الذمة، فقـد روي ان عمـر بن الخطـاب مر بشيخ من اهل الذمة يسأل على ابواب الناس، فقـال: مـا انصفناك ان كنا اخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك، ثم اجرى عليه من بيت المال ما يصلحه.[٥]

---

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري: ١/١٠٥، آدم متز، القاهرة، ١٩٦٧م.
(٢) الاموال: ٦٠٥.
(٣) الاموال: ٦٠٥.
(٤) جمع الفوائد: ٣/١٠٢، حديث ٨٢٧٧.
(٥) الاموال: ٥٠، ٥١.

و روي ايضا ان عليّاً(ع) مر بشيخ مكفوف كبير يسأل الناس، فقال(ع): ما هذا؟ قالوا: ياامير المؤمنين نصراني، فقال(ع): استعملتموه حتى اذا كبر وعجز منعتموه، انفقوا عليه من بيت المال.[١]

وعن عمرو بن ابي نصر قال: قلت لابي عبدالله(ع): ان أهل السواد يقتحمون علينا، وفيهم اليهود والنصارى والمجوس، فنتصدق عليهم، فقال: نعم.[٢]

وكان عمرو بن ميمون، وعمرو بن شرحبيل، ومرة الهمداني، يعطون الرهبان من صدقة الفطر.[٣]

ويرى محمد جواد الحسيني العاملي ان (الاقرب جواز الصدقة على الذمي كما في اللمعة، وظاهر اطلاقهما انه لا فرق فيه بين الرحم والاجنبي، وقد نصف على جوازها عليه وان كان اجنبيا في: الشرائع والتذكرة والتحرير والارشاد والتبصرة والدروس والروض والمسالك والروضة والمفاتيح، وجامع المقاصد).[٤]

وتبنى القانون الاسلامي دفع الدّية عن الذمي العاجز من بيت المال[٥] وقد تقدّم ان المسلمين كانوا لا يأخذون الجزية من الاطفال والفقراء والشيوخ والمرضى والنساء، وكان الخلفاء يوصون بعدم تكليف أهل الذّمة فوق طاقتهم

---

(١) تهذيب الاحكام: ٦/ ٢٩٣.
(٢) الكافي: ٤/ ١٤.
(٣) الاموال: ٦٠٦.
(٤) مفتاح الكرامة: ٩/ ١٥٣، محمد جواد الحسيني العاملي (ت ١٢٢٦هـ) مؤسسة آل البيت، قم - بدون تاريخ.
(٥) الكافي في الفقه: ٣٩٥.

في دفع الجزية، والتساهل معهم بأخذ ما زيد على مؤونتهم.(١)

وقد ذهب عدد من الفقهاء الى ان ما يؤخذ من زكاة المسلمين يزيد على ما يؤخذ من الذميين في حين يحظى الجميع بحماية الدولة الاسلامية ورعايتها على اساس العدل والرحمة والمساواة.(٢)

ولو قدر للاسلام ان يطبق في الواقع، لتمتع جميع المواطنين مسلمين وغير مسلمين بالرفاه والرخاء، ولزال شبح الفقر والعوز، فبالاضافة الى كفالة الدولة الاسلامية، من المنهج الاسلامي على التكافل الاجتماعي، والمساهمة في اشباع حاجات الفقراء والمساكين، ابتداء بالارحام ثم الجيران ثم المجتمع، وقد اثبتت السيرة التاريخية للمسلمين في القرون الماضية تمتع اهل الذمة بكامل حقوقهم في ظل الدولة الاسلامية حيث تبنت حق الضمان لهم اسوة بالمسلمين.

الحقوق المدنية واقرار العقود والايقاعات

اقر الاسلام جميع العقود والايقاعات التي تنعقد بين غير المسلمين ما داموا يعتقدون بصحتها، وإن كانت مخالفة لاحكام الاسلام، باستثناء ما يؤدي الى اضعاف المسلمين او تفتيت كيانهم، كالعقود العسكرية وما شابه ذلك، وفيما يلي نستعرض بعض تلك العقود والايقاعات التي اقرها الاسلام.

اولاً: اقرار الزواج والطلاق:

اقر الاسلام زواج غير المسلمين فيما بينهم سواء كانوا كفارا ام اهل كتاب، وان كان مخالفا للشروط المتبعة في الشريعة الاسلامية.

---

(١) الاموال: ٤٨.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية: ١/٥١، بيروت، ١٩٧٣م، ط ٢.

فقد اقر رسول الله(ص) زواج المشركين[١] ولم يحدثنا التاريخ ان المسلمين الاوائل الذين تحولوا من الشرك الى الاسلام قد امروا باجراء عقد جديد، وانما اقروا على عقدهم في حال الشرك، واستمرت سيرة الخلفاء على ذلك، و كما يقول الامام جعفر الصادق(ع): (ان لكل امة نكاحاً).[٢]

وسئل عن رجل هاجر وترك امرأته مع المشركين ثم لحقت به بعد أيمسكها بالنكاح الأول او تنقطع عصمتها؟ فأجاب: (يمسكها وهي امرأته).[٣]

والاقرار على الزواج يكون مطلقاً وان كان المهر خمراً أو خنزيراً لاعتقادهم بصحة ذلك، سئل الامام الصادق(ع): عن رجلين من أهل الذمة أو من أهل الحرب يتزوج كل واحد منهما امرأة وأمهرها خمراًوخنازير ثم أسلما، فقال(ع): النكاح جائز حلال لايحرم من قبل الخمر ولا من قبل الخنازير.

وان اسلما قبل دفع المهر فيدفع عوضه، لانه لا مالية للخمر والخنزير عند المسلمين، فالامام(ع) يقر زواج غير المسلم ذمياً كان أم حربيا.

واقرار زواج غير المسلمين محل اتفاق الفقهاء وائمة المذاهب، فالامام ابو حنيفة يرى انه: (اذا تزوج الكافر بغير شهود او في عدة كافر، وذلك في دينهم جائز ثم اسلما أقرّا عليه).[٤]

وقال الامام الشافعي: (وعقد نكاح اهل الذمة فيما بينهم... لم نفسخه، سواء كان بولي او غير ولي وشهود او غير شهود).[٥]

---

(١) الام:٥/٥٥.
(٢) وسائل الشيعة: ١٦/٣٧.
(٣) الكافي:٥/٤٣٥.
(٤) الهداية:١/٢١٩.
(٥) الام:٥/٥٦.

وعنده ان الحربي والذمي والموادع على حد سواء في النكاح وما يتعلق به من مهر وطلاق وظهار وايلاء.[١]

والاقرار يكون تبعا لاعتقاد حليّته من قبل غير المسلمين، قال ابو البركات: (الكفار في صحة النكاح بينهم وفساده كالمسلمين، لكن نقرهم على فاسده اذا اعتقدوا حلّه... فان قهر حربي حربية فوطأها او طاوعته واعتقداه نكاحا أقرّا عليه).[٢]

واقرار غير المسلمين في ذلك من الثوابت في الشريعة الاسلامية وليس محلا للاجتهاد من قبل الفقهاء، قال الشيخ الطوسي: (فان انسابهم واسبابهم، وان لم تكن جائزة في شريعة الاسلام، فهي جائزة عندهم، وهي نكاح على رأيهم ومذهبهم، وقد أُمِرنا ان نقرهم على ما يرونه من المذاهب، ونهينا عن قذفهم بالزنا).[٣]

ولا يشترط في اقرار نكاح غير المسلمين ان يكون الزوجان متحدي العقيدة، قال الامام الخميني: (العقد الواقع بين الكفار لو وقع صحيحا عندهم وعلى طبق مذهب يترتب عليه آثار الصحة عندنا، سواء كان الزوجان كتابيين او وثنيين او مختلفين).[٤]

ومن الاثار العملية لهذه الاقرار هو ترتب الانساب والارث والنفقة وغير ذلك.

(١) الام: ٥/٥٠.
(٢) المحرر في الفقه: ٢٧.
(٣) النهاية: ٦٨٣، ٦٨٤.
(٤) تحرير الوسيلة: ٢/٢٨٥.

ثانياً: الارث :

اقـر الاسـلام حق الارث بين غير المسلمين، فلو مات احدهم انتقلت امواله الى الورثة، ولاسبيل لاحد على اموالهم.

واختلف الفقهاء في الشروط اللازمة لاقرار الارث على ثلاثة اقوال:

الاول: انهم يورثـون بالانسـاب والاسبـاب الصحيحة الجـائزة في شـرع الاسلام.

الثاني: انهم يورثـون بالانسـاب على كل حـال، ولايورثون بالاسباب الا بما هو جائز في شريعة الاسلام.

الثـالث: انهم يورثون من الجهتين معا سواء كان ممايجوز في شرع الاسلام او لايجوز.

ويـرى الشيخ الطوسي ان الرأي الثالث هو المعتمد عليه، وبه تشهد الروايات عن رسول الله(ص) وأهل البيت(ع).[1]

وهـذا الرأي هو الموافق للسيرة ولاراء الفقهاء في اقرار نكاح غير المسلمين، لان الارث يترتب على النكـاح، اضـافة الى اقـرار الاسـلام لاغلب عقودهم التي تكون اسبابا للارث.

ولذا فان المجوسي الذي يستحل نكاح بعض المحارم يورث بجميع (قراباته التي يـدلي بهـا، مـا لم يسقط بعضها، ويورثون ايضا بالنكاح وان لم يكن سائغاً في شرع الاسلام).[2]

---

(١) النهاية: ٦٨٣.

(٢) الرسائل العشر: ٢٧٩.

ويرث الكفار بعضهم بعضا وان اختلفت جهات كفرهم.[(١)]

ولو اسلم الذمي ثم عاد الى دينه السابق ثم مات فميراثه لابنائه.[(٢)]

وتبقى المواريث محفوظة وان تبدل الموقف السياسي من قبل الذمي، فاذا نقض العهد والتحق بدار الحرب فأمان امواله باقٍ، فان مات ورثه وارثه الذمي او الحربي.[(٣)]

ثالثاً: الوصية:

اقر الاسلام وصايا غير المسلمين، فمن اوصى منهم بالتصدق في ماله او انفاقه في مورد معين أقرّت وصيّته، عن محمد بن مسلم، قال: سألت ابا عبدالله(ع) عن رجل اوصى بماله في سبيل الله فقال: (اعطه لمن اوصى به له وان كان يهوديا او نصرانيا...).[(٤)]

ولم يُجوّز الاسلام تغيير محتوى وصية غير المسلمين ولا الغائها او انفاقها ـ ان كانت مالا ـ في غير ما وضعت له، عن الريان بن شبيب قال: اوصت اختي لقوم نصارى فراشين بوصية، فقال اصحابنا: اقسم هذا في فقراء المؤمنين من اصحابك، فسألت الرضا(ع) فقلت: ان اختي اوصت بوصية لقوم نصارى واردت ان اصرف ذلك الى قوم من اصحابنا مسلمين؟ فقال: (امض الوصية على ما اوصت به).[(٥)]

---

(١) الكافي في الفقه: ٣٧٥.
(٢) الاستبصار: ٤/١٩٣.
(٣) شرائع الاسلام: ٤/١٨٦.
(٤) الكافي: ٧/١٤.
(٥) الكافي: ٧/١٦.

ومن يبّدل محتوى الوصية يكون ضامنا ولابد ان تنفق في المورد الذي خصصت فيه، فقد روي ان رجلا مجوسيا اوصى للفقراء بشيء من ماله فأخذه قاضي نيسابور فجعله في فقراء المسلمين، فسئل الامام علي الرضا(ع) عن ذلك فقال: (ان المجوسي لم يوص لفقراء المسلمين ولكن ينبغي ان يؤخذ مقدار ذلك المال من مال الصدقة فيرد على فقراء المجوس).(١)

ومن الرواية الثانية يستفاد ان وصية المسلم للذمي جائزة، وقد اقر الفقهاء ذلك(٢) باستثناء الوصية للحربي فانها غير جائزة وان كان من ارحام الموصي.(٣)

ويتدخل الحاكم المسلم ان حدث اجحاف او ظلم في وصية غير المسلم من حيث حرمان الورثة من التركة، قال الامام احمد بن حنبل ـ حول نصراني اوصى بماله كله ان يتصدق به ـ: (اذا ارتفعوا الينا حكمنا فيهم بحكم الاسلام، فاذا اوصى بأكثر من الثلث ردّ ذلك الى الثلث الا ان يجيز ذلك الورثة).(٤)

ووصية الذمي تنفذ من قبل ابناء دينه، وليس للمسلمين الحق في التدخل لمنعها، الا في حالة الوصية بخمر أو خنزير لمسلم، فلو اوصى بعمارة هيكل في ارض يصح فيها ذلك جاز، ولايتعرض لهم المسلمون اذا ارادوا تنفيذها، ولو اوصى بعمارة قبور انبيائهم جاز، وهو مندوب للمسلم فلا مانع من جوازه للكافر.(٥)

وافتى الامام الخميني(رض) بصحة وصية الذّمي في الانفاق من امواله على

---

(١) الكافي: ٧/١٦.
(٢) احكام أهل الملل: ٢٢٧، اللمعة الدمشقية: ١٧٩.
(٣) اللمعة الدمشقية: ١٧٩.
(٤) احكام أهل الملل: ٢٢٧.
(٥) مفتاح الكرامة: ٩/١٥٣.

الامــور المتعلقة بشعـائـرهم وعبـاداتهم، وليس للمسلمين الاعتـراض اذا كـان المـوصى اليـه من ابناء دينه فقال(رض): (لو اوصى الذمي ببناء كنيسة او بيعة او بيت نـار معبـداً لهم ومحلا لعبادتهم الباطلة، ورجع الامر الينا لم يجز لنا انفاذها، وكـذا لـو اوصى بصـرف شيء في كتابة التـوراة والانجيل وسـائـر الكتب الضالة المحـرفة وطبعهـا ونشـرهـا... ولو لم يرجع الأمر الينا... ليس لنا الاعتراض الا اذا ارادوا بذلك تبليغ مذاهبهم الباطلة بين المسلمين واضلال ابنائهم).[1]

رابعاً: الصدقة والوقف :

اقـر الاسلام صدقة ووقف غير المسلم، ولم يسمح بالتدخل في عدم تنفيذها من قبل غيـر المسلمين، او تبديل محتـواهـا، او صرفها عن المورد الذي وضعت فيـه، فيجـوز لهم ان (يتصـدق بعضهم على بعض وعلى مصـالحهم وبيـوت عباداتهم).[2]

ولـو وهب الذمي او تصدّق او وقف شيئا من ارض الصلح على شخص آخر انتقلت الارض اليه.[3]

واذا كـان الـوقف على احـد المـواضع التي يتقرّبون فيها الى الله تعالى، كان وقفـه صحيحا، واذا وقف وقفا على الفقراء كان ذلك الوقف ماضيا في فقراء اهل ملته دون غيرهم من سائر اصناف الفقراء.[4]

---

(١) تحرير الوسيلة: ٢/٥٠٧.

(٢) الكافي في الفقه: ٣٢٦.

(٣) الكافي في الفقه: ٢٦٠، وسائل المحقق الكركي: ١/٢٤٢.

خامساً: العتق والمكاتبة والتدبير:

أقرّ الاسلام قضايا العتق والمكاتبة والتدبير من قبل غير المسلمين، ورتّب الاثار العملية عليها، ولم يبخس حقوقهم في ذلك، لان لهم املاك تامة صحيحة سواء كانوا اهل ذمة او محاربين، وعلى هذا الاساس (اذا كاتب الحربي عبدا له صحت كتابته، لانه عقد معاوضة، والحربي والمسلم فيه سواء).(١)

وتثبت حقوق الولاء المتعارف عليها بين المعتق والمعتق، فاذا (اعتق اليهودي او النصراني عبدا على دينهما، ثم اسلم المعتق... واسلم الذي اعتقه رجع اليه الولاء، لانه قد كان ثبت له الولاء يوم اعتقه).(٢)

واذا دبّر الذمي عبدا له فاسلم العبد يحال بينه وبين العبد و (يخارج على سيده النصراني... فان هلك النصراني وعليه دين، قضى دَيْنهُ من ثمن المدبر).(٣)

ذكر الامام مالك النصراني مثالا لمطلق غير المسلم.

وقال الامام الشافعي: (وان جاءنا عبد أحدهم قد اعتقه اعتقنا عليه وان كاتبه كتابة جائزة عندنا اجزناها له).(٤)

واروع مظاهر الاعتراف بحقوق الاديان واقرارهم على حقوقهم ان رسول الله (ص) امضى عقد المكاتبة بين سلمان الفارسي وعثمان بن الاشمل اليهودي بغرس ثلاث مئة نخلة.(٥)

---

(١) المبسوط: ٦/ ١٢٩.
(٢) الموطأ: ٢/ ٧٨٥.
(٣) الموطأ: ٢/ ٨١٥.
(٤) الام: ٤/ ٢١١.
(٥) مختصر تاريخ دمشق: ١٠/ ٣٧.

صيانة الكرامة وحماية الاعراض

الانسـان في نظر الاسلام مخلوق متميّز عن سائر المخلوقات، وهو مخلوق مكـرّم مهمـا كـان انتماؤه العقائدي، لذا نجد إنّ آيات التكريم الواردة في القرآن الكـريم لم تكن مختصة بالانسـان المسلم بل هي عـامة في جميع اصنـاف النـاس وعلى مختلف عقائدهم ودياناتهم، ولذا اكد الاسلام على وجوب صيانة الكرامة، وحـرمة الايـذاء الادبي للانسان، ووضع تشريعاته وقوانينه لحماية الكرامة وحماية الاعـراض، وكـان النـاس يتمتعـون في ظل الـدولة الاسـلامية وفي ظل مجتمع المسلمين بكراماتهم، وحماية اعراضهم.

وقـد قـال رسـول اللـه(ص): (اذا اتاكم كريم قوم فاكرموه وان خالفكم).[١]

وكانت سيرتـه قائمة على تكريم غير المسلمين، فقد اكرم(ص) بنت حاتم الطائي حينمـا وقعت في اسـر المسلمين، وكسـاهـا واعطاهـا نفقة واطلقها من الاسر،[٢] وحينمـا قـدم عدي بن حاتم رحب به(ص) وأضافه في بيته واحسن ضيافته وهو لم يسلم في حينها.[٣]

وكانت سيـرة الخلفـاء قـائمة على اساس تكريم بني الانسان، فحينما وقعت بنـات الملـوك في الاسـر قـال علي(ع) لعمر بن الخطاب: (هؤلاء لا يكرهن على ذلك ولكن يخيـرن مـا اختـرنـه)[٤] فاختـارت كل واحـدة منهن شخصية من شخصيـات المسلمين من الصحابة وابنـاء الصحابة، ولم يكن التكريم مخصـوصـا

---

(١) مستدرك الوسائل: ١١/١٣٢.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٤/٢٢٦.
(٣) المصدر نفسه: ٤/٢٢٧.
(٤) مستدرك الوسائل: ١١/١٣٢.

بمن لـه جـاه في اتبـاع دينـه، وانمـا كـان تكريمـا عاما لجميع من ارتبط بعلاقة مع المسلمين.

وقـد حـرم الاسـلام جميع المظاهـر التي يفهم منها الحط من كرامة الاخرين كـالسخرية والاستهزاء والتحقير والتنابز بالالقاب والتعيير، والحرمة مطلقة لم تقيد بانتماء الانسان الى الاسلام، فجاءت الايات والروايات مطلقة.

وحـرم الاسـلام الخـداع والمدالسة لانها استهانة بالكرامة، فقد اوصى الامام علي(ع) الى احد ولاته باهل الذمة خيرا فقال: (... وقد جعل الله عهده وذمته امنا افضـاه بين العباد برحمته وحريما يسكنو ن الى منعته ويستفيضو ن الى جو اره، فلا خداع ولا مدالسة ولا ادغال فيه).[1]

وفيما يلي نستعرض بعض مظاهر صيانة الكرامة وحماية الاعراض في المنهج الاسلامي:

اولا: حرمة دخول البيوت دون استئذان:

لايحل للمسلم ان يـدخل بيتـاً دون استئذان من اهله سواء كانوا مسلمين ام غيـر مسلمين، وقـد جـاءت الاية الكريمة مطلقة، قـال تعـالى: «يا ايها الذين آمنوا لاتدخلوا بيو تا غير بيو تكم حتى تستأذنو ا...»[2]

وقـال رسو ل الله(ص): (ان الله عز وجل لم يحل لكم ان تدخلوا بيو ت اهل الكتاب الا باذن منهم، ولاضرب نسائهم).[3]

فالبيـو ت في الاسـلام لهـا حـرمة لـذا نجد ان كثيرا من احكام القضاء تجوز

(١) تحف العقول: ٩٧.
(٢) سورة النور: ٢٧.
(٣) السنن الكبرى: ٩/٢٠٤.

استخدام القوة في حال التعرض لحرمة البيت، ولم يختص الجواز بالمسلم، فلغير المسلم حق الدفاع عن حرمة بيته.

ويلحق بحرمة دخول بيوتهم دون استئذان حرمة دخول اماكنهم الخاصة بهم كدور العبادة وغيرها الا باذنهم الا في الضرورات لانها تبيح المحظورات، وليس لاحد من المسلمين ان يتبع شيئاً من امورهم الخاصة بهم.(١)

ثانياً: حرمة قذف غير المسلمين:

حرّم الاسلام التعرّض للاعراض بقذف وشبهه، ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره، عن ابو الحسن الحذّاء قال: كنت عند ابي عبدالله(ع) فسألني رجل ما فعل غريمك؟ قلت: ذاك ابن الفاعلة، فنظر الي ابو عبدالله نظراً شديداً، فقلت: جُعِلت فداك انه مجوسي امه اخته، فقال: او ليس ذلك في دينهم نكاحا.(٢)

وقد جعل(ع) قذف غير المسلم مصداقاً لنفي الورع عن القاذف، عن عمر بن عجلان قال: كان لابي عبدالله(ع) صديق لايكاد يفارقه، فقال يوما لغلامه: يا ابن الفاعلة اين كنت؟ فرفع ابو عبدالله(ع) يده فصك بها جبهة نفسه ثم قال: (سبحان الله تقذف امّه، قد كنت ارى ان لك ورعا، فاذا ليس لك ورع)، قال: (جعلت فداك ان امه سندية مشركة، فقال: (اما علمت ان لكل امة نكاحا، تنحّ عني...).(٣)

ونهى الامام احمد بن حنبل عن قذف اليهودي والنصراني.(٤)

ووضع الاسلام عقوبات على قذف الغير تأديبا للناس وتحجيم هذه الظاهرة

---

(١) احكام اهل الملل: ١٢٢.

(٢) الكافي: ٧/ ٢٤٠.

(٣) وسائل الشيعة: ١٦/ ٣٧.

(٤) احكام اهل الملل: ٢٦١.

السلبية، فمن قذف كافرا بالزنا عُزّر سواء كان القاذف مسلماً ام كافراً.[١]

ومنع الاسلام القذف مطلقاً، ووضع العقوبات في شأنه للحيلولة دون انتشاره بين غير المسلمين فاذا (تقاذف اهل الذمة او العبيد او الصبيان بعضهم في بعض، لم يكن عليهم حد، وكان عليهم التعزير).[٢]

واذا قذف الكافر امرأته فعليه الحد[٣] سواء كان من اهل الذمة او من اهل الكتاب او من غيرهم من سائر اصناف الكفار.

فالاسلام حفظ لغير المسلمين كرامتهم وعرضهم، لايمانه بصيانة كرامة مطلق الانسان، وحصانة عرضه.

ثالثاً: الحماية القانونية للاعراض:

تكّفل الاسلام حماية اعراض المسلمين وصيانتها من كل دنس، ومن انحرافات الفساق والمنحرفين والمعتدين، ووضع العقوبات القاسية بحق المتمردين على الثوابت السلوكية في صيانة الاعراض، سواء كانوا من اهل ملتهم او من المسلمين بلا فرق، فاذا زنى المسلم بذمية مطاوعة له، فيعاقب المسلم بالجلد او الرجم تبعا لاحصانه وعدمه، ويتخيّر الحاكم الاسلامي بين تسليم الذمية الى اهل دينها ليحكموا فيها بحكمهم، او يحكم فيها بحكم الاسلام، واذا كان الزاني غاصباً مغالباً للمرأة على نفسها فيقتل صبرا سواء كان مسلما ام كافراً[٤] للحيلولة دون الاعتداء على اعراض ولم يتهاون المسلمون في اقامة الحدود على

---

(١) الهداية: ٢/١١٦، اللباب: ٣/١٩٨.

(٢) النهاية: ٧٢٥.

(٣) اللباب: ٣/٧٥.

(٤) الكافي في الفقه: ٤٠٦.

المعتدين، ففي عهد الامام علي(ع) سأله واليه على مصر عن عقوبة مسلم فجر بنصرانية فأجابه: (ان اقم الحد على المسلم... وادفع النصرانية الى النصارى يقضون فيها ما شاؤوا).(١)

واذا زنى غير المسلم بأهل ملّته كان الحاكم الاسلامي مخيراً بين إقامة الحد عليه بما يقتضيه شرع الاسلام، وبين تسليمه الى اهل دينه او دين المرأة ليقيموا عليهم الحدود على ما يعتقدونه.(٢)

وكان اهل الذمة يتحاكمون لدى حاكم المسلمين في مثل هذه القضايا، اضافة الى التحاكم لدى حاكمهم، ففي عهد رسول الله(ص) رجعوا اليه فحكم فيهم بحكم الاسلام المطابق لحكم التوراة غير المحرفة.(٣)

وبالحماية القانونية كان غير المسلم يتمتع بالامان في حفظ عرضه وصيانته، ولم تحدث حالات انتهاك لنواميس واعراض غير المسلمين في بلاد المسلمين الا قليلا بالقياس الى امتداد القرون التي تعايشوا فيها مع المسلمين.

رابعاً: حسن المعاملة:

جاء الاسلام من اجل اتمام مكارم الاخلاق وتقريرها في الواقع المعاشي، لذا فهو يأمر المسلمين باستبقاء أسباب الوّد في القلوب والنفوس بطهارة السلوك وحسن المعاملة مع جميع بني الانسان، ولايجعل للفواصل العقائدية دوراً في الفصل بين المسلمين وغيرهم او في تبادل النظرة السلبية، فجاءت توجيهاته وتعاليمه لاشاعة القيم النبيلة والاخلاق الفاضلة في التعامل مع بني الانسان، وقد

(١) وسائل الشيعة: ٢٨/١٥٢.
(٢) النهاية: ٦٩٦.
(٣) الروض الانف: ٤/٣٦٩.

جسـد رسـول اللـه(ص) تلك القيَم في تعاملـه مع غير المسلمين، فقد عاد غلاماً يهودياً في جواره وجلس عند رأسه.[١]

وفي احـد المواقف مرت به جنازة فقام لها، فقيل له: انها جنازة يهودي فقال: أليست نفساً.[٢]

وفي مـوقف آخـر غضبت احـدى زوجاتـه على اليهود الذين قالوا له: السام عليك، بـدلا من السـلام عليك فأجابهـا: (... ان الفحش لـو كان ممثلا لكان مثال سوء، ان الرفق لم يوضع على شيء قط الا زانه، ولم يرفع عنه قط الا شانه).[٣]

وكـان الخلفـاء الـراشـدون من بعـده قـد جسّدوا اخلاقه في التعامل مع غير المسلمين وكانـوا يستمعون الى شكاواهم واقتراحاتهم، ويوصون بحسن السيرة معهم، ففي عهـد الامـام علي(ع) لواليـه على مصـر اوصى بالـرحمة مع النـاس مسلمين وغيـر مسلمين (واشعـر قلبك الـرحمة الرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فانّهم صنفان: امّا اخ لك في الدين او نظير لك في الخلق).[٤]

وحينمـا وجـد اهل الكتـاب وغيـرهم ان كـرامتهم مصونة؛ اندمجوا مع ابناء المجتمع الاسـلامي وامتزجـوا معهم، وهنالك شواهد عديدة على هذا الاندماج وعلى سـلامة العـلاقـات القـائمة على الـود والـوئـام والتآلف، ففي مجلس ضم المسلمين والنصـارى عطس رجل نصـراني، فقـال له المسلمون: هداك الله، فقال

---

(١) المهذب في فقه الامام الشافعي: ٢/٢٩٢.

(٢) اللؤلؤ والمرجان: ١٩٥، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة المصرية، الكويت، ١٩٧٧م.

(٣) الكافي: ٢/٦٤٨.

(٤) نهج البلاغة: ٤٢٧.

الامام جعفر الصادق(ع): قولوا: يرحمك الله، فقالوا له: انه نصراني! فقال: لا يهديه الله حتى يرحمه.[١]

وعن عبدالرحمن بن الحجاج قال: قلت لابي الحسن موسى(ع): ارأيت ان احتجت الى الطبيب وهو نصراني ان أسلّم عليه وأدعو له؟ قال: نعم.[٢]

وقد أباح الفقهاء مشاركة اهل الذمة في الاعمال والممارسات الاجتماعية وغيرها، فلم ير الامام احمد بن حنبل بأساً في خروجهم مع المسلمين للاستسقاء طلباً للرحمة الشاملة،[٣] ولم ير بأساً في ان يكون المسلم اجيراً لهم.[٤] واوجب على المسلمين دفن النصراني الذي يموت بينهم.[٥]

وقد اوصى ائمة اهل البيت(ع) بحسن السيرة مع أهل الكتاب، فعن الامام محمد الباقر(ع) انه قال: (.... وان جالسك يهودي فاحسن مجالسته).[٦]

وكان الامام جعفر الصادق(ع) يروي سيرة من سبقه من الائمة في علاقاتهم مع اهل الكتاب، فقد ذكر ان الامام علي(ع) صاحب رجلا ذمياً في طريق، وحينما ارادا الافتراق شيّعهُ الامام(ع) قبل المفارقة، فقال له الذمي، لم عدلت مع؟ فقال(ع): (هذا من تمام حسن الصحبة ان يشيع الرجل صاحبه هنيئة اذا فارقه، وكذلك أمرنا نبيّنا)، فقال الذمي: (لاجرم انما تبعه من تبعه لافعاله الكريمة...)[٧]

وقد انعكست السيرة الحسنة للمسلمين على مواقف اهل الذمّة، فكانوا عونا

---

(١) الكافي: ٢/٦٥٦.
(٢) الكافي: ٢/٦٥٠.
(٣) احكام أهل الملل: ٤٩.
(٤) المصدر نفسه: ١١٨.
(٥) المصدر نفسه: ٢١٧.
(٦) امالي المفيد: ١٨٥.
(٧) الكافي: ٢/٦٧٠.

لهم على اعــدائهم، ففي الصـدر الاول للاسـلام، وفي عهـد الخلفـاء الـراشدين خصوصاً، بعث اهل الذمة من جميع مدن الشام رجالاً من قبلهم يتجسسون اخبار اعـداء المسلمين، ومـا يخططـون لـه للكيـد من الاسلام واهله وفاء منهم لحسن السيرة التي تلقوها من المسلمين.[١]

ورحب قبط مصر بالمسلمين لانقاذهم من ظلم حكوماتهم.[٢]

ولازال اهل الاديان يعيشون بأمن وسلام في ربوع الاسلام وفي ظل تعاليمه السمحة، لايعانون ظلما ولااضطهادا، فكراماتهم مصونة وحرياتهم قائمة حتى في ظل الحكومات الجائرة التي تتبنى الاسلام دستوراً لدولتها.

وتنعم اهل الاديـان في ظل تجربة الجمهـورية الاسـلامية في ايـران بـالأمن والاطمئنـان على ارواحهم وامـلاكهم واعـراضهم وحـريـاتهم، وكـان قـادة الجمهورية الاسلامية قد جسّدوا قيم الاسلام في التعامل معهم، فكان لهم ممثلون في مجلس الشـورى، ولهم حق الاشتـراك في الانتخابـات، ولهم حق العمل في جميع مـرافق الـدولة، وكان لكثير من المسؤولين زيارات ميدانية لهم في كنائسهم وبيعهم وامـاكن عبـاداتهم، ولهم حضـور فعّـال في مهرجاناتهم ومجالسهم التي تنعقد على مدار السنة.

---

(١) الخراج: ١٣٩.

(٢) الدعوة الى الاسلام: ١٢٣.

الإنسانية

إحدى خصائص الإسلام العامة

✍ الدكتور محمد الشيخ محمود صيام
القائم بأعمال رئيس الجامعة الإسلامية - غزة
وخطيب المسجد الأقصى المبارك سابقاً

بسم الله الرحمن الرحيم

إقــرار الإنسانية لكل النـــاس، والرحمة بهم، منهج إسلامى أصيل:

يتميّـز الاسلام بخصائص انسانية فريدة، تجعله الأجدر بأن يكون دين الناس كـافة. خاصة وانه منهج الله المتكامل، ودعوته الخاتمة. ومن هذه الخصائص؛ اقرار الانسانية لجميع النـاس، وتـوخي الـرحمة بهم والشفقة عليهم في جميع مجالات الحياة.

ومن أوضح الأدلة على إقرار الانسانية لجميع الناس، ان الله ـ جل شأنه ـ قد جعلهم خلفاء له في الارض بقوله: (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) (البقرة ٣). وفي ذلك ما فيه من اعلاء لشأن الانسان ـ كل الانسان ـ ورفع لمنزلته، وتكريم لانسانيته.

ومن ذلك ايضا، ما تفضل الله به من الاشراف بذاته العلية، على خلق الانسان وتعليمـه. قـال جل شأنـه: «خلق الانسـان * علّمـه البيـان» (الرحمن٣ـ٤). وقال

سبحانه: (علم الانسان مالم يعلم)(العلق٥).

ثم نبّه الله الناس الى انهم من اصل واحد، وانه ـ سبحانه و تعالى ـ هو الذي تولى ايجادهم من ذلك الاصل الواحد (يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)(اول سورة النساء).

ومن ابرز مظاهر انسانية الاسلام؛ ما جاء في حديث رسول الله(ص)، ان رجلا سأله: اي الاسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام، على من عرفت ومن لم تعرف) (متفق عليه). وفي الحديث كذلك «ان النبي(ص)، مر على مجلس فيه اخلاط من المسلمين والمشركين، فسلم عليهم» (متفق عليه). وفي ذلك اقرار واضح لانسانية كل الناس، بغض النظر عما يدينون به من الاديان. حتى انه قد اثر عن النبي(ص) قوله: «ان الله جعل السلام تحية لامتنا، وامانا لاهل ذمتنا».

وأما الحدب على البشر، والرحمة والرأفة بهم، ففي كتاب الله ـ جل شأنه ـ وفي حديث نبيه(ص)، من النصوص ما يؤكد ان الاسلام دين الرحمة ودين الرأفة ودين الانسانية.

ففي المجال العام، يراعي الله ـ جل شأنه ـ الضعف الذي فطر عليه بنو آدم فيقول: (لايكلف الله نفسا الا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت (البقرة٢٨٦). وهو قول كريم، متوائم مع رحمة الله بعباده اجمعين. تلك الرحمة التي يبرزها قوله ـ سبحانه ـ: «يريد الله ان يخفف عنكم، وخلق الانسان ضعيفا»(النساء٢٨). كما يبرزها قوله كذلك: (والله رؤوف بالعباد)(آل عمران٣٠):

بل وتتجلى هذه الرحمة في خطابه ـ سبحانه و تعالى ـ لنبيه(ص) بقوله:

«ومـا أرسلنـاك إلاّ رحمة للعالمين» (الانبياء١٠٧). كما يتجلى ذلك فيما روي عن النبي(ص) انه قال: (حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، الا انـه كـان يخـالط النـاس، وكـان موسـرا، وكـان يأمـر غلمانه ان يتجاوزوا عن المعسر. قال الله عز وجل: نحن احق بذلك منه، تجاوزوا عنه» (رواه مسلم).

ومن مظاهر رحمة الله بالعباد كذلك، الغيث الذي منّ الله به على الناس ـ كل النـاس ـ بلا اي تمييز، يقول جل شأنه: «وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا، وينشر رحمته» (الشورى٢٨). وفي الحديث ان رسول الله(ص) قال: «من لا يرحم الناس لايرحمه الله» (متفق عليه).

ومن رحمة اللـه بالنـاس ـ كل النـاس ايضـا ـ وصايـا النبي(ص) المشـددة بضـرورة اكـرام الضيفـان والارحام والجيران، قال(ص): «مازال جبريل يوصيني بالجـار، حتى ظننت انـه سيورثـه» (متفق عليه). وقال(ص): «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» (متفق عليه). وفي ذلك يقول صاحب البحث:

اكـرم ضيـوفك ان حق الضيف تكفلـه السماء ـ واحفظ لجارك عهده فالعهد مطلوب الاداء.

امـا الارحام فان لهم في منهج الله شأنا خاصا، اقرار بانسانية الانسان، وصونا لهـا من ان تهـان. قـال جل شأنـه: «واتقـوا الله الذي تساءلون به والارحام» (اول سـورة النسـاء). وقال ـ سبحانه ـ: (فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعـوا ارحامكم ❊ اولئك الذين لعنهم الله فأصمهم واعمى ابصارهم» (محمد ٢٢ـ٢٣). وقـد قـال رسول الله(ص) : «ومن كان يؤمن بالله فليصل رحمه» (متفق عليه).

وحين يوصي الاسلام باركام الارحام والجيران والضيفان، فانه لايفرق فيهم

بين مؤمن وكافر، اقرارا منه بانسانية الانسان أياً كان. روي ان ابراهيم عليه السلام، دعا رجلا الى طعامه، وعندما عرف انه كافر طرده عن الطعام، فأرسل الله اليه جبريل عليه السلام يعاتبه بما معناه: ان الحق يقرئك السلام ويقول لك: اتبخل على انسان بلقمة او لقمتين لانه كافر، وانا ارزقه العمر كله رغم كفره؟! فقال ابراهيم: علي بالرجل، فلما احضروه له قال: أجمل غدائك. قال: لا افعل حتى اعرف السبب. قال ابراهيم: لقد عاتبني فيك ربي سبحانه و تعالى. فشهد الرجل ان لا اله الا اله، وان ابراهيم رسول الله.

ألا وإنه من هذه الرحمة الانسانية في الاسلام، ان جعل الساعي على الارملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، كما ورد في حديث رسول الله(ص). بل وامتدح الذين يطعمون المساكين والايتام والاسرى بقول الله ـ جل شأنه ـ: «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا» (الانسان٨). وذلك ان النبي(ص) قد امر اصحابه يوم بدر ان يكرموا الاسرى، فكانوا يقدمونهم على انفسهم عند الطعام. قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ: «وكان أسراهم يومئذ من المشركين» (ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ سورة الانسان). وفيهم كذلك نزل قول الله ـ جل شأنه ـ: «ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة»(الحشر٨).

ومن كل ذلك يتضح ان الاسلام يقر بانسانية كل الناس، بل ويحترم تلك الانسانية ويجلها، ويذهب الى ما هو ابعد من ذلك، حين يجعل الرحمة بالناس من مناهجه الاصيلة، ويجعل الاحسان اليه من مبادئه النبيلة.

٢ ـ المساواة بين الناس ـ في الاسلام ـ دين من الدين :

الاسلام منهج عادل ومستقيم، ويريد ان يبني مجتمعات الناس على اساس

سليم، يـؤدي فيه كل انسان ما يفرض عليه من الواجبات، ويتمتع بكل ما يتمتع به النـاس من الحقـوق والمميزات. ولما كان الناس من اصل واحد، فقد تساووا في الحقـوق والواجبـات، الا ما كان من تفاوت في الطاقات والكفاءات، مما يستتبع التفـاوت في المهن والاعمـال والمكافئـات. وقد خطب النبي(ص) يوم فتح مكة فقـال: «ايهـا النـاس، كلكم من آدم، و آدم من تـراب، لا فخـر للانسـاب، لا فخر للعـربي على العجمي، ولا للعجمي على العربي، ان اكـرمكم عنـد اللـه اتقـاكم» (الامام المودودي ـ الحكومة الاسلامية ـ ص٢٨٠).

ولكن البشـر قد جبلوا على التناحر والتنافس، والتفاخر بالاجناس والالوان، ممـا اقتضى ان ينبـه الاسلام الى خطورة ذلك وبطلانه تنبيهاً واضحاً. فالله ـ جل شأنـه ـ يقـول في محكم الترتيل: «يـا ايهـا النـاس إنّـا خلقنـاكم من ذكـر وانثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم، ان الله عليم خبير» (الحجرات١٣).

فكيف يتعـالى بعض الناس على البعض الآخر، واصلهم جميعا واحد، وهو لآدم وآدم من تـراب؟! بل ان منشأهم متشابه، فهم من ذكر وانثى، اي من اب وام كمـا هي سنة اللـه في الخلق. امـا القبائل والشعوب فما هي الا للتعارف وتحديد الانسـاب، وليست للتفـاخـر او التنابـز بالالقـاب. ثم ان اكـرم القوم واعظم القوم واحسن القـوم هم الاتقياء، الذين يتميزون بطاعة الله وخدمة الناس. وقد جاء في الحديث ان الخلق كلهم عيال الله، وان احبهم انفعهم لعياله.

وقد شدد النبي(ص) في حديثه الشريف على نظرية المساواة بين الناس وانه لافضل لاحـد على احـد بسبب العـرق او اللون، قال(ص): «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على اسـود، ولا لأسود على ابيض،

الا بالتقوى» (زاد المعاد). وفي حديث آخر يقول(ص): «الناس كلهم بنو آدم، و خلق الله آدم من تراب» (رواه الترمذي).

ولعل من المساواة بين الناس، الا يفضل بعضهم على بعض، بسبب الاحوال الصحية او الاجتماعية فلا يكرم غني لغناه، ولا يقدم ذو جاه لجاهه، ولا ذو بسطة في الجسم لصحته. فقد قال(ص): «ان الله لا ينظر الى اجسامكم، ولا الى صوركم، ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم» (رواه مسلم).

ولعل من المساواة كذلك اعطاء كل ذي حق حقه، ورد الامانات الى اهلها، والعدل في الحكم بين جميع الناس. قال الرحمن الرحيم: «ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل، ان الله نعّما يعظكم به، ان الله كان سميعاً بصيراً) (النساء٥٨).

على ان اجلى مظاهر المساواة في الاسلام، ما كان بين المسلمين وبين خدمهم ومواليهم،او ما كان بين خلفائهم وائمتهم وامرائهم، وبين اهل ذمتهم من اليهود والنصارى.

اما الاولى: فيمثلها حديث رسول الله(ص): «اخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت ايديكم، فمن كان اخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فان كلفتموهم فأعينوهم عليه» (متفق عليه).

أرأيت في قانون من قوانين الدنيا مثل هذه المساواة؟! لقد جعل رسول الله(ص) موالي القوم وخدمهم، اخوانا لهم وعشيرة وحشما. ثم امرهم بمعاملتهم ـ لاكما يعاملون آباءهم وابناءهم، ولكن كما يعاملون انفسهم، فيطعمونهم مما يأكلون، ويلبسونهم مما يلبسون. بل وامرهم النبي(ص) كذلك ألاّ يكّلفوهم من الاعمال ما يشق عليهم، فان فعلوا، فعليهم ان يساعدوهم فيها،

وان يعينوهم عليها.

واذا كانت هذه هي معاملة الاسلام والمسلمين للخدم في البيوت، او العمال في الحقول وفي المتاجر، فليس غريبا اذن ان يتفانى اولئك في خدمة مخدومينهم، وأن يفضلوا الحياة معهم على الحياة مع آبائهم وامهاتهم، كما حدث مع زيد بن حارثة - رضي الله عنه - حين فضل البقاء في خدمة رسول الله (ص)، على العودة مع ابيه وعمه عندما جاءا يسترجعانه. لقد ضرب المسلمون بالاسلام، اروع الامثال في تعاملهم مع الموالي والخدم والعمال.

واما الثانية: فهي ما كان بين امير المؤمنين علي بن ابي طالب - كرم الله وجهه -، وبين واحد من اهل الذمة. فقد روى التاريخ العطر، ان الامام عليا - رضي الله عنه - وهو خليفة، تخاصم مع رجل من اهل الذمة. وكان الائمة والخلفاء الراشدون، يحتكمون في خصوماتهم الى القضاء، لا الى شرطتهم او عسسهم او مخابراتهم، كما يفعل الكثيرون فيما اعقب ذلك من ازمنة.

وفعلا ذهب المتخصمان الى المحكمة، وما ان رأى القاضي امير المؤمنين علياً - رضي الله عنه - حتى قام من مجلسه، وقال: اهلا يا أبا الحسن، ورحب به ترحيباً حاراً. ولم يفعل مثل ذلك مع خصمه الذمي. فوجّه اليه امير المؤمنين ماهّز كيانه، واعاد اليه صوابه، وذكره بواجبه، قال: «هذا اول ظلمك (الامام المودودي - الحكومة الاسلامية - ص٤٠٢).

كان القاضي يظن انه بترحيبه بالامام - امير المؤمنين - قد احسن صنعا، ولكن الامير - رضي الله عنه - وقد عشق الاسلام وعشق فيه العدل والمساواة - على وجه الخصوص - لم يقبل الا ان يستقبل خصمه بمثل ما استقبل هو به من الحفاوة والاكرام. ورفض ان يختصه القاضي بشيء من ذلك دون خصمه. بل

وعد ذلك نوعا من الظلم، فقال للقاضي كلمته التاريخية: «هذا اول ظلمك».

ان المسـاواة بين الناس في الاسلام، كما حددها منهجه، وكما طبقها رجاله، اذهلت الاصـدقـاء والاعداء على حد سواء. وقد رسم ـ صاحب البحث ـ ذلك بقوله:

«الناس ـ عند الله ـ جنس واحد في الانتماء

لا فضل الا للتقاة المحسنين الاوفياء

اما الاصول فان اصل الناس من طين و ماء

واللون ليس لهم يد فيه فرب الناس شاء

فعلام يختلفون او يتفاضلون وهم سواء؟!»

٣ ـ إقـرار كـرامة مميزة للانسان ـ كل الانسان، من قواعد الاسلام الاساسية:

لقـد شـاء اللـه ـ سبحانـه ـ ان يجعل من الانسان ـ دون بقية المخلوقات ـ خليفة لـه في الارض، قـال سبحانه و تعالى ـ: «واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالـوا أتجعل فيهـا من يفسـد فيهـا ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمـدك ونقـدّس لك قـال اني اعلم مـا لاتعلمـون» (البقـرة٣٠). ولذلك اختصه بكـرامـات ومميـزات ـ دون بقية المخلـوقـات ـ تتناسب مع كونه خليفة لله في الارض. قال جل شأنه: «ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» (الاسراء٧٠).

ان المنهج الاسـلامي ـ بانسانيتـه الراسخة ـ يحفظ للانسان كرامته، ويحترم فيـه انسانيتـه، بل ويفضّلـه على كثيـر من المخلوقات، التي خلقت اساسا لخدمته

وتوفير الراحة له. قال ـ تعالى ـ: «والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لاتعلمون» (النحل٥ـ٨).

ولايقتصر الامر على تسخير الانعام للانسان رحمة به وإكراماً له، ولكن الله ـ سبحانه و تعالى ـ قد سخّر للانسان اشياء تندّ عن الاحصاء، وتستعصي على الاستقصاء. ومن ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ما ذكره الله في كتابه الكريم، في معرض تذكير الناس بنعم الله عليهم واكرامه لهم. قال جل شأنه: «الله الذي خلق السماوات والارض وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الانهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ان الانسان لظلوم كفار» (ابراهيم٣٢ـ٣٤) وقال ـ تعالى ـ ايضا: «وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون * وما ذرأ لكم في الارض مختلفا الوانه ان في ذلك لآية لقوم يذكرون * وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون» (النحل١٢ـ١٥). وقال جل شأنه كذلك: «ألم تر ان الله سخر لكم ما في الارض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء ان تقع على الارض الا بإذنه ان الله بالناس لرؤوف رحيم» (الحج٦٥).

فأي من مخاليق الله ـ غير بني آدم ـ قد خص بهذه النعم؟! أليس في ذلك

من التكريم للانسـان مـا فيـه؟! فالسمـوات والارض، والشمس والقمـر والنجوم، والليل والنهـار،والبحـار والانهـار،والكنـوز والثـروات، والطـرق المعبـدات، والرواسي الشامخات، ولغير ذلك مما فيه الشراب والطعام،والنور والمواصلات، والراحة لجميع الناس. كل ذلك وكثير غيره قد خلقه الله للانسان، من باب التكريم والتفضيل. قـال رب العـالمين جل شأنـه: «وسخـر لكم مـا في السمـاوات وما في الارض جميعـا منـه ان في ذلك لآيـات لقـوم يتفكرون» (الجاثية١٣). وصدق في ذلك قـول الـرازق الوهاب: «وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ان الله لغفور رحيم» (النحل ١٨).

واذا كـان فيما تفضل الله به على الانسان، من نعم متناثرة حوله، مظهر واضح لتكريم اللـه لـه، فهنـاك مظاهر كثيرة اخرى. منها ما تفضل الله به على الانسان في ذات نفسه. قال تعالى: «يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في اي صورة ما شاء ركبك» (الانفطار٦ـ٨) وقال ـ سبحانه و تعالى ـ كـذلك: «اللـه الـذي جعل لكم الارض قـرارا والسمـاء بنـاء وصـوركم فـأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين» (غافر٦٤).

ان جمـال الصورة واعتدال الجسم، مظهر جميل، كرم الله به الانسان، وميزه عن الحيـوان، تقريـرا لانسانيته وتمييزا لآدميته. وفرق كبير بين ان يمشي الانسان على اثنتين من الارجل، او ان يسبح على بطنـه، وهـو في كـلا الامرين ضعيف ذليل، وبين ان يمشي الانسـان على اثنتين من الارجل، وهـو مرفـوع الـرأس ومنتصب القـامة، ومتمتع بالانفة والعزة والجمال والاستقامة، تلك التي قال الله ـ جل شأنه ـ فيها: «لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم» (التين٤).

ومن تكريم الاسـلام للانسـان ايضـا صـون كرامتـه وحفظ عزتـه. ومن ذلك

حـرص النبي(ص) على الا تهـون للانسـان كرامة، حين لا يكون له رأي مستقل، فقــد قــال(ص): «لا يكن احـدكم إمعّة، يقـول انـا مع النـاس، ان احسن النـاس احسنت، وان اسـاءوا أسأت. ولكن وطّنوا انفسكم، ان احسن الناس ان تحسنوا، وان أسـاءوا الا تظلمـوا (رواه التـرمـذي). وفي رواية: «وان اسـاءوا ان تجتنبـوا الاساءة».

لقد كان افراد القبيلة في الجاهلية مسلوبي الارادة، ليس لاحدهم من رأي الا ما تراه القبيلة، خطأ كان ام صوابا، قال شاعرهم (الاصمعيات ص١٠٧):

و ما انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد

فجاء الاسلام بمنهجه الانساني الرائد، فشدد على حرية الرأى وحرية القول، وحريات كثيرة اخرى.

ومن صـون كـرامة الانسـان ايضا ترفعه عن ذل السؤال، وعما يجره من اهانة واراقة لمـاء الوجـوه. قال رسول الله(ص): «ما أكل احد طعاما خيرا من ان يأكل من عمل يــده، وان نبي اللــه داود كـان يـأكل من عمل يـده» (رواه البخـاري). وقـال(ص) ايضـا: «لان يحتطب احـدكم حـزمة على ظهـره، خير له من ان يسأل احدا، فيعطيه او يمنعه» (متفق عليه).

هـذا؛ ولما كان الاسلام قد قرر للانسان كرامة متميزة، وشدد على الا يعتدي عليه او يهين كرامته احد من الناس، فقد حرص ايضا على الا يتركه يمتهن كرامته او يهين نفســه بنفسـه، بالتـذلل او السـؤال، أو ذوبـان شخصيتـه في شخصيـات الآخرين. ولـذلك لاحقـه ـ كمـا رأينا ـ بالتربية القرآنية او النبوية، ليصون كرامته ويحـافظ عليـه. ولعل من تلك المـلاحقة قول رب العالمين ـ سبحانه و تعالى ـ: «ايحسب الانسان ان يترك سدى» (القيامة٣٦).

وهكـــذا يتبين لنـــا، ان المنهج الاســـلامي ـ بكتـاب الله جل شأنـه، وسنة رسـولـه (ص) ـ قـد جعل للانســان كرامة خاصة، تميزه عن بقية المخلوقات، مما يبــرز انسانية ذلك المنهج الكريم، ويبين اهتمـامـه الشديـد بالنـاس اجمعين. لقـد خصهم الله جميعا بتكريمه الذي رأينا، ولم يختص بالفضل منهم احدا دون احد. وقـد قال جل شأنه: «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبــات وفضلنـاهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» (الاسراء٧٠). فالتكريم شامل لعنصـر الآدميين كلهم، عربهم وعجمهم، ابيضهم واسودهم، صغيرهم وكبيرهم، رجـالهم ونسائهم، اغنيائهم وفقرائهم، عامتهم وامرائهم، حتى مؤمنهم وكافرهم. ممـا يلقي اضـواء سـاطعة على المسـاواة التي ينتهجهـا الاسـلام بين بني البشـر اجمعين.

قال صاحب البحث في تلخيص ذلك:

«افلا ترى الانسان وهو مميز في كل جيل؟

بالخير والبركات او بالصنع والشكل الجميل

فلدعوة الاسلام بالانسان ما يشفي العليل

بالعز والاكرام والتفضيل والشرف النبيل

او بالمساواة التي هي مبدأ فيها اصيل».

٤ ـ ظلم الناس في الاسلام، ظلمات يوم القيامة:

ان انســانية الاســلام، قـد اقتضت ان يمنع النــاس من ان يظلم بعضهم بعضــا، حتى لاتهـدر انسانيتهم التي قررها لهم، او تهان كرامتهم التي يحرص عليها. وقد اثبت ذلك رب العــالمين ـ جل شأنـه ـ في حديثـه القدسي حين قال ـ فيما رواه

عنه سيد الخلق رسول الله(ص) ـ : «يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا» (متفق عليه).

ولان الاسلام شديد الحرص على رفع الظلم عن المظلومين؛ فقد جعله ظلمات يغرق فيها الظالمون يوم القيامة. قال رسول الله(ص): «اتقوا الظلم، فان الظلم ظلمات يوم القيامة» (رواه مسلم). وهو تصوير خطير ترتعد منه فرائص العقلاء، فتردع اصحابها عن اي اعتداء. وقد فصل رسول الله(ص) في ذلك ووضح اكثر ـ في رواية اخرى ـ حين قال: «اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش فان الله لايحب الفحش ولا التفحش. واياكم والشح فانه اهلك من كان قبلكم، امرهم بالظلم فظلموا، وامرهم بالفجور ففجروا، وامرهم بالقطيعة فقطعوا» (رواه احمد).

وهو حديث جامع لامور كثيرة، يرفض الاسلام شيوعها بين الناس، تكريما لانسانيتهم، وحفظا لحقوقهم. فالظلم والفحش والشح والفجور والقطيعة مرفوضة في الاسلام رفضا باتا. فالظلم عدوان على الآخرين، والفحش تبذل وانحلال في المجتمع، والشح اكل الاموال بغير حق، والفجور سقوط و فساد، والقطيعة منع لحقوق الارحام والضعفاء والمحتاجين. وقد رفض الاسلام ان تشيع تلك الموبقات بين العالمين.

والحقيقة ان كثيرا من الناس، يقدمون نزعة الشر في نفوسهم ، على نزعات الخير التي جبلوا عليها. فلا تقف اطماعهم عند حد، ويريدون لحرياتهم ان تنتهك حريات الآخرين. وفي ذلك يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «لو يعطى الناس بدعواهم، لادعى رجال اموال قوم ودماءهم، ولكن؛ البينة على المدعي، واليمين على من انكر» (رواه البيهقي). وهي قاعدة فقهية قضائية اسلامية، لم

يعرف القضاء اقرب للعدالة منها.

وقـد نبه الله ـ سبحانه و تعالى، بأن في النفوس شحا وظلما، وان المفلحين هم الـذين يتجـاوزون ذلك، قـال سبحانـه: «ومن يـوق شح نفسـه فـاولئك هم المفلحـو ن» (الحشـر ٩، والتغابن١٦). وقد جاء في الاثر قول بعض العارفين: «انما الشح الـذي ذكـر في القرآن، ان تأكل مال اخيك ظلما» (ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ سورة الحشر).

وحتى لو كان الشح هو البخل، كما هو شائع بين الناس، فهو لؤم يدفع النفس الى حب المـال وبغض الانفـاق، ومنع حقـوق الناس عنهم، وهي نقائص ظالمة، يرفضهـا الاسـلام فيمـا يرفض من الاخلاق الو ضيعة. (انظر: ارشاد العقل السليم، الى مزايا القرآن الكريم ـ المعروف بتفسير ابي السعود ـ سورة الحشر).

ويمضي الاسـلام بانسانيتـه التي يؤمن بها العاقلون، ويقر بها المنصفون، في تربية النـاس ـ كل النـاس ـ على حب العـدل ورفض الظلم، حتى يسعدوا بذلك اجمعون. يقول ربنا ـ جل شأنه ـ في محكم الترتيل: «ان الله لا يظلم الناس شيئا، ولكن الناس انفسهم يظلمون» (يونس٤٤).

فـاذا كـان الله ـ جل شأنه، وهو ذو القدرة المطلقة، وهو الذي «لا يسأل عما يفعل وهم يسألـون» (الانبيـاء٢٣) «لا يظلم مثقـال ذرة، وان تك حسنة يضعفهـا ويؤت من لدنه اجرا عظيما» (النساء٤٠) فكيف بالناس الذين سيحاسبون على كل صغيـرة وكبيـرة ممـا كانـوا يجتـرحـون؟! وذلك يـوم يضع الله الموازين بالقسط «يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» (الزلزلة٦ـ٨).

وهكـذا يحرص الاسلام على بناء مجتمع عالمي عادل لاظلم فيه، «يا داوود

انــا جعلنــاك خليفة في الارض فــاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل اللــه، ان الذين يضلــون عن سبيل اللــه لهم عــذاب شديد بما نسوا يوم الحســاب» (ص٢٦) «يــا ايهــا الذين آمنــوا كونــوا قــوامين للــه شهــداء بالقسط، ولا يجــرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا، اعدلوا هو اقرب للتقوى، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون»(المائدة ٨).

تلك هي عــالمية الاسلام وانسانيته. فهو يفرض ان يسود الحق جميع الناس، وهــو لا يسمح لاتباعه ان تكون معاداتهم لقوم سببا لعدم العدل بينهم، او سببا في الشهــادة بغيــر الحق ضــدهم. واللــه ـ جل شأنــه، يجعل من ذاته العلية رقيبا على ذلك «ان الله خبير بما تعملون» (المائدة ٨ والنور ٥٣).

ولا تقتصــر حــرب الاسلام للظلم العملي وحسب، بل انه يتجاوزه الى رفض الظلم الكــلامي كذلك. فلا تجوز السخرية مثلا، لا بين الرجال ولا بين النساء، كما لا يجوز الغمز واللمز بين الناس، او مناداة البعض بما لا يحب من الكنى والاسماء. قــال تعــالى: «يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم، ولا نســـاء من نســـاء عسى ان يكن خيــرا منهن، ولا تلمــزوا انفسكم ولا تنابــزوا بالالقــاب، بئس الاسم الفســوق بعد الايمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» (الحجرات١١).

بل لقــد ذهب الاسلام الى ابعد من ذلك في اقرار حق الناس اجمعين؛ في ان يعيشــوا سعــداء ومكرّمين. فهو لم يشدد على حفظ دمائهم واموالهم واعراضهم وحسب، بل لقــد شــدد على حفظ غيبتهم كذلك. فلا يجوز التجسس عليهم، ولا يجــوز التحــدث عنهم في غيابهم الا بخيــر، كمــا لا يجــوز ـ حتى ـ الظن بهم الا بخيــر كــذلك. «يــا ايهــا الذين آمنــوا اجتنبــوا كثيــرا من الظن ان بعض الظن اثم،

ولاتجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه، واتقوا الله ان الله تواب رحيم» (الحجرات١٢). وفي ذلك ما فيه من حفظ للحقوق الآدمية، وصون للكرامة الانسانية.

ويمزج الاسلام ـ كعادته ـ بين الترغيب والترهيب في معالجة الامور. فبعد هذه الوصايا التربوية العميقة التي تلين لها القلوب الرقيقة، يردفها بالتهديد والوعيد الشديدين، اللذين يحميانها من عبث العابثين، وعدم استجابة الجاحدين. يقول رسول الله(ص): «واتق دعوة المظلوم ، فانه ليس بينها وبين الله حجاب» (متفق عليه). ويعزز النبي(ص) ذلك بقوله ايضا: «ان الله ليملي للظالم، فاذا اخذه لم يفلته» (متفق عليه).

وقد بين رسول الله(ص)، الوانا من الظلم بشقيه العملي واللفظي، وبين ان مصير فاعليه الى جهنم والعياذ بالله ـ وذلك من باب التعليم والتنبيه والموعظة والتوجيه. قال(ص): «اتدرون ما المفلس! قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال(ص): «ان المفلس من امتي؛ من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، واكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فان فنيت قبل ان يقضي ما عليه، اخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار» (رواه مسلم).

اما التهديد الالهي للظالمين فهو تهديد مرعب مخيف، وقد طبقه الله في الدنيا على عدد كبير من الناس، قال جل شأنه: «وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة، ان اخذه أليم شديد» (هود١٠٢). وهذا في هذه الدنيا، اما ماينتظر الظالمين في الآخرة فهو اشد رعبا واكثر خوفا. فان لعنة الله ستحل عليهم من ناحية: «الا لعنة الله على الظالمين» (هود١٨). وسيكون لهم من العذاب ما

يستحقون: «ان الظالمين لهم عذاب اليم» (ابراهيم٢٢).

وقد حرص النبي(ص) في توجيهاته المتنوعة، على ان يتشرب المسلمون بغض الظلم، وان يتعاونوا على تنظيف المجتمع منه، فقد كان غارقا الى اذنيه فيه، حتى كانت القاعدة الجاهلية: «انصر اخاك ظالماً او مظلوما، فلما جاء الاسلام دين العدالة والمساواة، غسل رسول الله(ص) تلك القاعدة من ادران الجاهلية، وعطرها بالاستقامة والاصلاح والرشاد، التي يبني الاسلام المجتمعات عليها. اخرج الامام البخاري في صحيحه ان رسول الله(ص) قال: «انصر اخاك ظالما او مظلوما. فقال رجل: يا رسول الله انصره اذا كان مظلوما، أرأيت ان كان ظالما كيف انصره؟! قال(ص): تمنعه من الظلم فان ذلك نصره».

واشرب المسلمون هذا التوجيه الكريم، فجعلوه نصب اعينهم، وتسابقوا في العمل به. ومن اروع ما حفظ لنا التاريخ العطر في هذا المجال، ما قرره امير المؤمنين علي بن ابي طالب - رضي الله عنه، في وصيته لولديه الكريمين، رضي الله عنهما، حين قال: «وكونا للظالم خصما، وللمظلوم عونا» (الامام الخميني - الحكومة الاسلامية - ص٣٦).

وقد اوجز صاحب البحث هذا البند في ابيات قليلات قال فيها:

حق العباد على العباد كبير	والظلم مرتعه الوخيم خطير
والعدل بين الناس فرض واجب	وبذا الاله على العباد يشير
فالدين ليس به غني موسر	عند الحقوق وليس فيه تفقير
كل سواسية ابوهم آدم	ولهم مثال واحد ومصير
وامام امر الله يذعن كلهم	ملك وشيخ طاعن وامير

٥ ـ استضعاف الآدميين، والاستقواء على الآخرين، جرائم بشعة يرفضها المنهج الاسلامي:

ان التعالي على الناس، واستضعافهم والاستقواء عليهم، لون من الظلم الشديد. وكان مكانه المبحث السابق، وقد افرد له مبحث خاص لشدة خطورته على المجتمع، فهو يقطع اوصاله، ويهلهله ويضعفه، ويجعل من اهله شيعا واحزابا يعتدي بعضهم على بعض، ويتجرع بعضهم بأس بعض.

وقد نعى الله على المتكبرين الذين يفعلون ذلك، واظهر عملهم بمظهر مستهجن مرفوض، وفي مقدمة اولئك النفر فرعون وملؤه، قال جل شأنه: «ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، يذبح ابناءهم ويستحي نساءهم، انه كان من المفسدين» (القصص٤). وقد ساعد فرعون على ظلمه كبير وزرائه هامان، كما ساعده جنوده واتباعه، فدمغهم الله جميعا بالخطيئة والاجرام، قال سبحانه: «ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» (القصص٨).

وحتى قوم فرعون اطاعوه رغم ظلمه، واستجابوا لامره رغم طغيانه، فقد ادعى الالوهية فلم يعارضوه، وعربد على ابناء الشعب فلم يقاوموه «فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين» (الزخرف٥٤). فنزع الله منهم ملكهم العظيم، واخرجهم مما كانوا فيه من النعيم، وصدق فيهم قول رب العالمين: «فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم» (الشعراء ٥٧ ـ ٥٨) كما صدق فيهم قوله تعالى في سورة اخرى: «كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين» (الدخان ٢٥ـ٢٨).

اما فرعون نفسه؛ فقد انتقم الله منه انتقاما يتناسب مع طغيانه وظلمه، ويتواءم مع استعلائه واستقوائه وعدوانه على الناس، قال ـ جل شأنه ـ فيه: «فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم» (الذاريات٤٠).

وقد شدد الاسلام كذلك، على ضرورة التواضع وعدم التعالي على الناس لان اصلهم واحد. فكلهم من ذكر وانثى، وكلهم من ماء وطين. وتعالي البعض منهم على البعض الآخر شذوذ لايقره الاسلام. وفي ذلك يقول رسول الله(ص): «ان الله اوحى الي ان تو ... حتى لايفخر احد على احد، ولايبغي احد على احد» (رواه مسلم). وينعى صاحب البحث على المتغطرسين غطرستهم بقوله:

يا ناس كلكموا لآدم وهو ن ماء وطين فالى متى تتطاولون على العباد الآخرين؟!

ان الشعور بالعظمة والكبرياء الذي يداخل بعض النفوس المريضة، ماهو الا نقيصة تستجلب غضب الله تعالى، لأن في ذلك ايذاء لبقية عيال الله الذين قال فيهم رسوله(ص): «الخلق كلهم عيال الله، واحبهم الى الله انفعهم لعياله». وانطلاقا من ذلك فان ابغضهم الى الله هم الذين يتكبرون على عباده، ويستضعفونهم ويتعالون عليهم. قال رسول الله(ص):«لاينظر الله يوم القيامة الى من جر ثوبه خيلاء» (متفق عليه). وقال الله ـ سبحانه و تعالى: «ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولاً (الاسراء٣٧). وفي ذلك يقول صاحب البحث:

يا ايها الانسان لا تشمخ فانك من تراب واعمل لنفسك في حياتك فالحياة الى ذهاب.

فاذا كان المنهج الاسلامي قد رفض الكبر والخيلاء والتعالي على الناس،

فهل تـراه يقبل ظلمهم او الاعتداء عليهم؟! اخرج الامامان الترمذي والنسائي من حديث ابي هريـرة رضى اللـه عنـه، قـال: قال رسول الله(ص): «المؤمن من امنه النـاس على دمـائهم وامـوالهم». فـأمن النـاس ـ كل النـاس ـ في الاسلام، غاية تجعلـه يقر بالايمان لمن يعمل على ارساء الامن في المجتمع، حتى لايفزع الناس من عدوان المعتدين وظلم الظالمين، فانسانية الاسلام تقتضي توفير الامن لجميع الناس. قال رسول الله(ص): «ان من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة؛ من تركه الناس اتقاء شره» (رواه البخاري ومسلم).

ومن اجل ذلك حـرم اللـه البغي والعـدوان، وقـرن ذلك بأخطـر الموبقـات، كالشرك بالله والافتراء عليه، والفواحش ماظهر منها وما بطن. قال تعالى: «قل انما حـرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن، والاثم والبغي بغير الحق، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وان تقولوا على الله ما لاتعلمون» (الاعراف٣٣). وفي مجـال آخـر يتوعـد الله البغاة بقوله: «يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم، متاع الحيـاة الدنيـا ثم الينـا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون» (يونس٢٣). فهل وعى اولئك مـا ينتظرهم من عذاب الله، انتقاما منهم لما فعلوه بعباده في الحياة الدنيا؟! قال هشام بن حكيم بن حزام ـ رضي الله عنهما: «اشهد لسمعت رسول الله(ص) يقول: ان الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا» (رواه مسلم).

على ان عـذاب اللـه لن يكون بالدرجة التي يتصورها المتهاونون في حقوق الناس، وذلك لقـولـه سبحانه: «نبىء عبادي اني اناالغفور الرحيم * وان عذابي هـو العـذاب الاليم» (الحجـر٤٩ـ٥٠). واوقع الامثلة واوضحهـا على غضب اللـه لحقـوق النـاس، وشـدة عذابه للمعتدين عليها، ما يضاعفه الله من العذاب الاليم لمن يقتل من النـاس نفسـا بـريئة، قـال ـ تعـالى: (من اجل ذلك كتبنـا على بني

اسـرائيل انه من قتل نفسابغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا» (المائدة٣٢).

بل ان الاسـلام يعطي الناس حق الثورة على الظالمين، لردعهم وايقافهم عن ظلمهم، وانتـزاع حقوق الناس منهم ولو بالقوة. قال رسول الله(ص): «ان الناس اذا رأوا الظـالم فلم يأخـذوا على يديـه، اوشك ان يعمهم اللـه بعقاب منه» (رواه الترمـذي). ليس الامـر متـروكـا ـ اذن ـ لامـزجة الناس، فيرضى بالظلم ضعاف النفـوس منهم، ويتهـاون في حقـوقهم الجبنـاء، ولكنـه عقـاب اللـه الذي ينتظر المتخاذلين. فالساكت عن الحق شيطان اخرس، واذا نام اهل الحق عن حقهم فقد اذن للباطل ان يتربع.

ومن هـذا المنطلق اذن اللـه لرسولـه ان يتصدى للظالمين بالقوة، ليردهم الى جـادة الصـواب، فـاشتبك معهم في حـروب كانت ـ كمـا قـال عنها العارفون ـ «فريضة لحماية الحق، ورد المظالم، وقمع العدوان، وكسر الجبابرة» (الغزالي ـ فقه السيـرة ـ ص ٢٠٨). ولذلك طبّق النبي(ص) الامر الرباني الكريم: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قـوة ومن ربـاط الخيل، ترهبـون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم اللـه يعلمهم، ومـا تنفقـوا من شيء في سبيل اللـه يوف اليكم وانتم لاتظلمون» (الانفال٦٠) طبق النبي(ص) هذاالامر تطبيقا عمليا، فكان يسهر على اعـداد اصحابـه لـذلك. قـال عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه: «سمعت رسول اللـه(ص) وهـو على المنبـر يقول: واعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الـرمي، الا ان القـوة الرمي، الا ان القوة الرمي» (رواه مسلم)، وكان(ص) يقول: «من تعلم الـرمي ثم تركه فليس منا» (اخرجه ابو داود والنسائي واحمد). كل ذلك لقمع المتجبرين، ومنع المعتدين، ورفع الظلم عن المستضعفين.

وفي ذلك من انسانية الاسلام ما فيه، حين يعتبر الكبر والخيلاء والظلم والاعتداء، والتعالي والاستقواء، من ابشع الجرائم التي يرفضها منهجه، وهو يبني للناس مجتمعات انسانية عادلة مستقيمة، وقائمة على اسس سليمة من العدل والمساواة، والتواضع والاخاء، وهدم ما كان شائعا قبل الاسلام من تفاخر بالآباء، ومن تعاظم واستعلاء.

٦ ـ اصلاح المجتمع الانساني، ونبذ الفساد والإنحلال، من أهم مقاصد التشريع الإسلامي:

الفساد في المجتمع الوان كثيرة. ففساد في الحكم، وفساد في الادارة، وفساد مالي، وفساد اجتماعي، وفساد تربوي، وفساد اخلاقي، وغير ذلك. وقد اعلن الاسلام منذ كان، الحرب على كل هذه الالوان، وذلك اقرارا منه بانسانية الانسان، وحبا في ان يحيا جميع الناس في مجتمع صالح سليم، خال من عبث العابثين واجتراء المفسدين.

اما الفساد في الحكم فمظاهره كثيرة، منها ان يتقدم الاشرار على الاخيار، او الادنون على الاعلين، او يكون الملك وراثيا عضودا، لا رأي فيه لابناء الشعب، ولا شورى بينهم. والله جل شأنه يقول في مدح المجتمع الصالح السليم: «وأمرهم شورى بينهم» (الشورى٣٨). وفي هذه السورة ـ كما هو معروف ـ امور مهمة كثيرة، ولكنها سميت بذلك لاهمية الشورى في الاسلام، وذلك حرصا على صلاح المجتمع. بل ان الله جل شأنه يأمر رسوله(ص) بأن يشاور الناس في الامر: «وشاورهم في الامر» (آل عمران ١٥٩)اقرار بحقوقهم من ناحية، وتربية لهم ولاجيالهم على الشورى من ناحية اخرى.

ومن مظاهر الفساد في الحكم ايضا؛ الظلم الذي يتصف به كثير من الحكام، او تهاونهم في حقوق الناس او في حمايتهم، او في توفير الامن لهم. ومن ذلك الدعاء المأثور: «اللهم ول امورنا خيارنا، ولا تول امورنا شرارنا».

اما الادارة فان اهم مظهر للفساد فيها، هو عدم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، مما يقتضي اسناد مناصب الدولة للاصهار والاقربين والاصدقاء والموالين، دون مراعاة للكفاءة او القدرة او الخبرة او المؤهلات. وعندما يكون الامر كذلك، يصاب اصحاب الكفاءات بالاحباط، ويذوي التنافس الشريف بين الناس، ويحرم المجتمع من اجتهاد المجتهدين وتسابق المجدّين، ويتراكم الاهمال وتفسد الاعمال.

واما الفساد المالي؛ فإن ابرز مظاهره اكل اموال الناس بالباطل، ورشوة الحكام والموظفين لتسهيل ذلك واستساغته. وفي ذلك يقول رب العالمين: «ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل، وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون» (البقرة١٨٨).

اما الفساد الاجتماعي فمظاهره كثيرة ايضا، منها الغش والتزييف والربا، والتجارة فيما يضر المجتمع كالمسكرات والمخدرات وغير ذلك. ففي الغش عدوان على الناس باعطائهم ما يحسبونه جيدا وهو فاسد، وقد قال سيد الخلق رسول الله(ص): «من غشنا فليس منا»، وفي رواية: «من غش فليس منا». وكلتا الروايتين تحرمان الغش، وتنفيان الاسلام عمن يقترفه من المسلمين، وتنفيان الانسانية عمن يقترفه من غير المسلمين. وليس شرطا ان يكون الغش في الاموال والمبيعات، فقد يكون في الزواج او التعليم أو الفتوى أو غير ذلك.

والتزييف نوع من الغش، ينسحب عليه ما ينسحب على الغش من منع

وتحريم، لما يؤديه في المجتمع من إفساد شديد.

أما الربا فقد حرّمه الإسلام لأنه يفتك بالضعفاء والأقوياء على حد سواء. وما تفعله مصارف العالم اليوم، من تعامل بهذا الربا القاتل، هو السبب المباشر في الويلات والنكبات، التي يتجرع الناس غصصها، في مختلف أنحاء العالم. وصدق الله ـ جل شأنه ـ وهو يصور أكلة الربا بهذاالتصوير المرعب اذ يقول: «الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس» (البقرة٢٧٥).

اما التجارة فيمايضر المجتمعات من خمور وحبوب هلوسة وغيرها، فهي في الاسلام ممنوعة منعا باتا، لأن فيها تعدياعلى عقول الناس وصحتهم، ولذا فقد حرم رسول الله(ص) كثيرها وقليلها بقوله: «ما أسكر كثيره فقليله حرام». وجاء في الاثر: «العقل السليم في الجسم السليم». ومنهج الاسلام بسماته الانسانية، يبني الاجسام السليمة والعقول السليمة.

وأما الفساد التربوي فهو تحديد مناهج منحرفة، وتنشئة الاجيال عليها، كما هو حال مناهج كثير من دول العالم اليوم، فهي تعمل على تنشئة اجيالها تنشئة صالحة في داخل اوطانها، فاذا كانت خارج الاوطان عربدت واستعمرت واحتلت وغزت، وظلمت مختلف العباد، وعاثت في الارض الفساد.

اما الاسلام فان منهجه التربوي ينشيء الانسان الصالح، في داخل الوطن الاسلامي وفي خارجه. فلا صدام الا مع المعتدين، ولا عدوان الا على الظالمين. وفي غير ذلك يفرض الاحسان على المسلمين الى جميع الناس، المؤمنين منهم والكافرين: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين» (الممتحنة٨).

وأما الفساد الخلقي فهو اجلى مظاهر الفساد في المجتمع، فقد تختفي آثار الفساد فيما ذكرنا من امور على كثير من الناس، اما الفساد الخلقي فهو ظاهر للعيان. ومن مظاهره التعهر والتبذل والانحلال والفجور، سواء أكان ذلك بظهور النساء في المجتمع كاسيات عاريات مائلات مميلات، مما يثير الغرائز ويحرض على اقتناص الشهوات الحرام، أم كان بالاغنيات الساقطة والمسرحيات الرقيعة، والتمثيليات والافلام الهابطة.

وقد اعلن الاسلام - كما قلنا - الحرب على كل ذلك. فقد غضب الله على المفسدين واخرجهم من دائرة رحمته، وحذرهم بشدة حين قال: «ان الله لايحب المفسدين»(القصص٧٧). وفي ذات السورة يتوعدهم بسوء العاقبة والاهمال في الدار الآخرة، حين يخصص متعها وخيراتها للمتواضعين والمصلحين اذ يقول: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الارض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين»(القصص٨٣).

بل ان القرآن يدمغ المفسدين في الأرض بلعنة الله التي ستحل بهم، فتحيل مصيرهم الى اسوأ المصائر، وتجعل آخرتهم سوء الدار، وذلك حين قرنهم بمن ينقضون العهود والمواثيق، او يقطعون الاواصر والارحام، قال جل شأنه: «والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل، ويفسدون في الارض، اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار» (الرعد٢٥).

والتزم الخيرون والمرشدون ودعاة الاصلاح على مدى التاريخ، وفي مقدمتهم الرسل والانبياء عليهم الصلاة والسلام، التزموا دعوة الله الناس لاصلاح مجتمعاتهم، والابتعاد عن الفساد أيا كان لونه ونوعه، وذلك بقوله الصريح جل شأنه: «ولاتفسدوا في الارض بعد اصلاحها» (الاعراف٥٦).

التزم المصلحون ذلك، وجعلوه أساس دعوات الاصلاح التي جاءوا بها الى اقوامهم على مدار الزمان فكانوا يحذرون الناس من المنحرفين الذين يحاربون الاصلاح ويكرسون الفساد، كما قال صالح عليه السلام لقومه: «ولاتطيعوا امر المسرفين * الذين يفسدون في الارض ولايصلحون» (الشعراء ١٥١ـ١٥٢). او كانوا يكررون دعوتهم الى اقوامهم بأن يتجنبوا الفساد ويحذروه، وكما قال شعيب عليه السلام لقومه: «ولا تعثوا في الارض مفسدين» (هود ٨٥، والعكبوت ٨٦). او كانوا يقررون ـ بوحي من الله ـ ضياع المفسدين وضياع اعمالهم هباء، كما قال موسى عليه السلام: «ان الله لايصلح عمل المفسدين» (يونس ٨١).

فاذا استيأس الرسل من اصلاح المفسدين، بعد طول وعظمه فيهم ودعوتهم اليهم، لجئوا الى الله يطلبون نجدته ونصره، كما جرى مع لوط عليه السلام، فانه ـ حين استيأس من صلاح قومه: «قال رب انصرني على القوم المفسدين» (العنكبوت ٣٠).

وقد جعل الله فساد الاعمال دليلا على فساد النفوس، بغض النظر عن معسول الكلام الذي قد يصدر عن المفسدين. قال سبحانه: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لايحب الفساد» (البقرة ٢٠٤ـ٢٠٥).

ومن ذلك يتضح ان الاسلام، قد جعل اصلاح المجتمع وتنظيفه من الفساد والمفسدين، من اهدافه الاساسية. وذلك حتى يعيش الناس حياة صالحة، ترتفع بهم عن الفوضى والفساد، اللذين ينتقصان من انسانيتهم، ويسيئان الى آدميتهم.

وصدق الشاعر حين قال:

«اخلاقنا نحيا بهن معززين مكرمين على الزمان طويلا

واذا اصيب الناس فيي اخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا».

وقد شخص الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - ذلك بقوله: «وسط نماذج لاحصر لها من الضلال والغفلة، اخذ الاسلام رويدا رويدا ينشر اشعته. فأخرج امة من الظلام الى النور، بل جعلها مصباحا وهاجا يضيء ويهدي. والدروس التي احدثت هذا التحول الخطير، والتي رفعت شعوبا وقبائل من السفوح الى القمم، ليست دواء موقوتا او مخصوصا، بل هي علاج اصيل لطبيعة الانسان اذا التاثت، وستظل ما بقي الانسان وبقيت الحياة، تكرم الانسان وتجدد الحياة». (محمد الغزالي - فقه السيرة - ص٢٤).

٧ - ارساء الفضائل، ومحاربة الرذائل، من اولويات عمل الدعاة في الاسلام:

ومن مظاهر السمت الانساني الشمولي للاسلام؛ انه وضع الحلول لكل المعضلات، التي قد تواجه الناس في حياتهم الطويلة، ومجتمعاتهم المتعددة. فقد اقتضت حكمة الله - جل شأنه - ان يختم الرسل بسيد الخلق رسول الله محمد بن عبدالله(ص)، فأوحى اليه وانزل عليه منهجا تتكفل تشريعاته السمحة الشاملة، بمعالجة مشكلات الناس معالجة كاملة، بحلول تصف الدواء لكل داء.

وقنن الاسلام هذه الحلول في قنوات اساسية خالدة على مر الزمان. وامر الناس بالاحتكام اليها والاعتماد عليها ليسعدوا ويسودوا. ورأس هذه القنوات كتاب الله الكريم، وما فيه من تشريع حكيم. قال عنه الذي انزله بالحق - سبحانه و

ويقابلهـا الحيـاء الـذي يزين الانسـان، حتى جعلـه رسـو ل اللـه(ص) من شعب الايمان. قال(ص): «ما كان الفحش في شيء الا شانه، وما كان الحياء في شيء الا زانـه» (اخـرجـه التـرمـذي). وقـال (ص) ـ فيما اخرجه الترمذي ايضا ـ : «ليس المـؤمن بالطعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذيء». وقال(ص) كذلك : «الحياء لا يأتي الا بخير» (متفق عليه).

ويمزج الاسلام ـ كعادته ـ بين الترغيب والترهيب، في ارساء الفضائل ونبذ الـرذائـل من المجتمع. وذلك لتحبيب النـاس في عـالي الاخـلاق ورفيعهـا، وتحذيرهم من سفيه الاخلاق ووضيعها. قال(ص) فيما رواه معاذ رضي الله عنه: «اتق اللـه حيثمـا كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحهـا، وخـالق الناس بخلق حسن» (اخرجه الترمذي).

ان انسانية الاسـلام واميتـه وشمـو ليتـه، تتجلى بوضـوح في هذا الحديث الشريف. فالخوف من الله وتقواه، والالتزام بالاستقامة في كل مجال من مجالات الحيـاة، يجب ان تـرافق المسلم على الـدوام، سـواء اكان في وطنه ام كان خارج وطنـه، وسـواء اكان في جماعة ام كان بمفرده، وسواء اكان بين المؤمنين ام كان بين غيـرهم من الآدميين. كمـا يفـرض على المسلم ان يتخلص من السيئات التي اجتـرحهـا، بعمل الحسنـات وتقديم الخيـر للنـاس، سـواء اكانت السيئة التي اجترحها مع المسلمين ام كانت مع غير المسلمين.

«وخـالق النـاس بخلق حسن»، وفي ذلك فـرض الخلق الحسن مع جميع النـاس، لا ان يخـالق الامريكي والانجليزي وغيرهما مواطنيهم بخلق حسن، فاذا خرجـوا من اوطانهم بـرزت اخلاقهم الشيطانية المتغطرسة المعتدية. وفيما يفعله هؤلاء اليوم بالشعوب المستضعفة تأييد واضح لما نقول. ذكر التاريخ الحديث انه

بينما كان الانجليز يعربدون في كينيا وافريقيا الوسطى قال احد جنودهم لزميله ـ في وصف الافارقة: «انهم وحوش، تصور ان احدهم عضني وانا اقتله» (محمد الغزالي ـ فقه السيرة ص ٢١٤).

ومن ترغيب الاسلام الناس في عمل الخير قول رسول الله(ص): «خير الناس من طال عمره وحسن عمله» (اخرجه الترمذي). ومنه ايضا قوله(ص): «تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، او توفع له عليها متاعه ـ صدقة، والكلمة الطيبة صدقة. وتميط الاذى عن الطريق صدقة» (متفق عليه).

ومن ذلك ـ ايضا ـ قوله (ص): «اياكم والجلوس في الطرقات، فقالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد، نتحدث فيها. فقال رسول الله(ص): فاذا ابيتم الا المجالس فاعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الاذى، ورد السلام، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر» (متفق عليه). وفي هذا ما فيه من الترغيب في عمل الخير لجميع الناس.

واما الترهيب من الشرور فقد ورد عن النبي(ص) في احاديث كثيرة كذلك، ومنها قوله(ص): «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك اضعف الايمان» (رواه مسلم).

ان الاسلام لايدع الامور تتجه نحو الفساد وانتشار الرذائل في المجتمع؛ دون ان يعزز منهجه في محاربتها بالقوة، اذا لم يفلح الوعظ والارشاد، وفي ذلك يقول رسول الله(ص): «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، او ليوشكن الله ان يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» (رواه الترمذي).

اما انحراف الحكام والسلاطين، ونزوعهم الى الظلم والفساد، فقد جعل

الاسـلام مقـاومة ذلك في مرتبة الجهـاد في سبيل اللـه. قال(ص): «افضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (اخرجه ابو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة).

فـالظلم الـذي يلجـأ اليـه بعض السـلاطين في العـالم، يفسـد المجتمعـات، ويحيلهـا الى غابـات يستقـوي فيهـا الاقوياء على بقية الموجودات. ومن اخص واجبـات علمـاء المسلمين ودعـاة الاصـلاح فيهم، ان يتصـدّوا لهذا الظلم، وان يحمـوا النـاس من تأثيراته الاليمة وعواقبه الوخيمة. قال الامام الخميني ـ رحمه اللـه ـ في كتـابـه (الحكـومة الاسـلامية ـ ص٣٧): «فـواجب العلمـاء وجميع المسلمين، ان يضعـوا حـدّا لهـذا الظلم، وان يسعـوا من اجل سعادة الملايين من الناس».

ان العلمـاء هم ورثة الانبيـاء، وعلمـاء المسلمين اليـوم مدعوون لان يعطوا هـذه الوراثة حقهـا. فهم ورثة رسـول اللـه(ص)، وهـو لم يترك درهما ولادينارا ليرثـوه عنـه، ولكنـه تـرك ـ فيمـا تـرك ـ الخلق العظيم، الـذي شهـد له به القرآن الكريم، في قـول رب العـالمين: «وانك لعلى خلق عظيم» (القلم٤). بل ان اللـه قد بعثـه(ص) متممـا للاخـلاق الكريمة وقدوة فيها، كما اخبر بذلك(ص) حين قال: «انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق».

ان مسئـولية علمـاء المسلمين اليـوم؛ هي مـواصلة هـذه الـرسـالة الاخلاقية السـامية، والعمل على استمـراريتهـا، لارساء الفضائل في مجتمعات الناس ـ كل الناس ـ، ونفي الرذائل ومحاربتها في تلك المجتمعات كذلك.

٨ ـ تبليغ الـدعـوة الاسـلامية لجميع الناس، فريضة على علماء المسلمين:

لم ينـزل اللـه ـ سبحانـه و تعالى ـ كتابه الكريم على نبيه الامين(ص)، ليتلى في المآتم والحفلات، او على المقابر والاموات، كما يفعل كثير من المسلمين في هـذه الايـام، ولكن اللـه انزله «تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» (النحل ٨٩). فيهتـدي بـه المهتدون، ويستبشر به المحسنون، ويحتكم اليه الناس اجمعون.

وقـد انتشـرت الآيـات الكريمة في القـرآن الكريم، وهي تتحـدث ـ بافـاضة مقصـودة ـ عمـا فيـه من هـدى ورحمة وبشـرى، او انـذار وموعظة وذكرى. قال تعـالى: «ذلك الكتـاب لاريب فيـه، هدى للمتقين» (البقرة٢) وقال سبحانه: «تلك آيات الكتاب الحكيم * هدى ورحمة للمحسنين» (لقمان٢ـ٣).

ولمـا كـان هـذا القـرآن: «يهـدي للتي هي اقـوم» (الاسـراء٩)، «وانه لهدى ورحمة للمؤمنين» (النمل٧٧) وكـان الله كماقرر سبحانه: «ان الله بالناس لرؤوف رحيم» (البقـرة١٤٣). اقتضت مشيئة اللـه وحكمتـه ان يجتبي رسولـه الكريم(ص) لينـذر النـاس بتبليغهم ذلك الكتـاب العظيم. قال جل شأنه على لسان نبيه(ص): «واوحي الي هـذا القرآن لانذركم به ومن بلغ» (الانعام١٩). جاء في زبدة التفاسير في تـأويل ذلك: «لاجل ان انـذركم بـه، وانـذر بـه من بلغ اليـه من الناس جميعا، بجميع شعوبهم واصنـافهم، من موجـود ومعدوم سيوجد في الازمنة المستقبلة. فاحكـام القرآن شاملة للبشر والجن جميعاً، من كان منهم موجودا يوم الرسالة، او يوجـد بعدها اذا بلغتهم دعوة الاسلام وسمعوا بهذا القرآن، وهو نذير لهم بأنهم مسئـولـون عن استجابتهم لدعـوة اللـه، وعن اعمـالهم في الدنيـا عنـد لقاء الله»

(محمد الاشقر ـ زبدة التفاسير ـ سورة الانعام آية١٩).

ومن ذلك تتضح الحكمة من اصرار القرآن على ضرورة تبليغه للناس اجمعين، فان فيه رحمة الله بهم، وحرصه على هدايتهم. يقول رب العالمين في هذاالمجال لرسوله الامين: «يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس، ان الله لايهدي القوم الكافرين» (المائدة٦٧).

ان اللمحات الانسانية، في حرص الاسلام على تبليغ القرآن لجميع الناس؛ لمحات واضحة. لأنه يحرص على توزيع الخير على جميع الناس، ولايحصره في عنصر من عناصرهم. ومصداق ذلك قول الله جل شأنه لنبيه(ص) الذي كلفه بحمل هذا القرآن الى الناس اجمعين: «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» (الانبياء ١٠٧). ذلك انه يحمل الى الناس الشفاء والرحمة والبصائر والهدى. يقول سبحانه: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» (الاسراء٨٢).

ويسهب القرآن الكريم، وهو يذكر الناس بما انزل الله اليهم، من المواعظ والهدى والشفاء لما في الصدور فيقول: «يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين» (يونس٥٧) والى جانب هذه الموعظة والشفاء والرحمة والهدى، يضم القرآن الكريم بين دفتيه انذارات شديد للظالمين والمنحرفين والمفسدين. يقول الله جل شأنه: «وهذا كتاب مصدق لسانا عربياليندر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين» (الاحقاف١٢).

ذلك ـ اذن ـ هو المنهج الاسلامي، وتلك هي مواصفاته الانسانية. وقد شاءه الله للخلق اجمعين، الذين وجدوا منهم حين مجيئه وبزوغ فجره، والذين سيأتون من بعدهم. امابالنسبة للذين بزغ فجر الاسلام عليهم، فقد تولى رسول

الله(ص) تبليغهم ذلك بأمر الله سبحانه و تعالى في قوله المبين: «فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين * انا كفيناك المستهزئين» (الحجر ٩٤-٩٥) وقد روي ان النبي(ص) لم يزل مستخفيا بالدعوة، حتى نزل هذا الامر الكريم، فخرج هو واصحابه يصدعون بذلك، غير عابئين بما يواجههم من المشركين.

اما المستهزئون الذين ذكروا في الآية السابقة، فهم خمسة من زعماء مكة، واهل الشوكة فيها. وهم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والاسود بن المطلب، والاسود بن عبد يغوث، والحرث بن الطلالة. وقد كفى الله رسوله(ص) شرهم بأن أهلكهم جميعا في يوم احد.

واما الاجيال المتعاقبة، فكان لابد من ان يكون فيهم حملة لرسالة الاسلام، ودعاة لتبليغ دعوته للناس على مر العصور. وقد نزل القرآن بتكليف طوائف من الامة على تتابع اجيالها، للقيام بهذه المهمة المقدسة. يقول ربنا جل شأنه في سورة آل عمران (آية ١٠٤): «ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون» ويقول - سبحانه - في سورة التوبة (آية ١٢٢): «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون».

وانطلاقاً من ذلك فقد قال رسول الله(ص) :«بلغوا عني ولو آية». وهي قاعدة مشهورة في الاسلام، لو سار عليها علماء الاسلام في هذه الايام، لما بقيت آية من كتاب الله مجهولة لدى احد من الناس. ان بيننا في العالم الاسلامي من العلماء اعدادا رهيبة، فلو انهم وزعوا آيات القرآن الكريم بينهم، لما حظي كثير منهم بأي نصيب منها لأن آيات كتاب الله بالالاف، اما العلماء بيننا فهم بالملايين.

اذن؛ فأين يكمن الخلل في جهل النـاس بالقرآن الكريم؟! انه يكمن ـ بالتاكيد ـ في عدم تحمّل علماء المسلمين اليوم لمسئوليتهم، في تبليغ هذا الكتاب الكريم الى النـاس اجمعين. يقـول الامام الخميني ـ رحمه الله ـ: «واذا قلنا: ان الاسلام دين العـالم ـ وهـذا واضح وبديهي ـ كـان لزامـاً على علمـاء الاسلام ان ينشروا ويبثـوا ويذيعـوا احكـام هـذا الدين في العـالم كله (آية الله الخميني ـ الحكومة الاسلامية ـ ص٥٨).

ان تقاعس علماء الاسلام عن القيام بمسئولياتهم، وحمل الامانة التي اوكلت اليهم، هـو الـذي جـرأ الظلمة في المجتمعـات على العبث بحريـات النـاس وارواحهم وممتلكاتهم، كمـا هـو مشاهـد في مختلف ساحات العالم اليوم. وفي ذلك يقـول الامـام الخميني ـ رحمـه اللـه ـ: «فينبغي توجيـه اكبـر قدر من الامر والنهي، الى العابثين بـأرواح النـاس وامـوالهم وممتلكاتهم» (الامـام الخميني ـ الحكومة الاسلامية ـ ص ١١٣).

فـاذا كـان العلماء ورثة للانبياء ـ كما هو معروف ـ فهم ايضا حماة الاسلام، ودروع الاسـلام، وحصـون الاسـلام ، التي تقف حاجـزا دون اجهاض مشروعه الحضاري الانساني، وقد وضعت فيهم الثقة من سلفنا الصالحين وائمتنا الاكرمين. جـاء في ـ الحكومة الاسلامية ـ ما نقله الامام الخميني ـ رحمه الله ـ عن الكافي من كتـاب فضل العلم ـ قـول الامـام ابي الحسن (مـوسي بن جعفـر) رضي اللـه عنهمـا: «لان المـؤمنين الفقهاء حصون الاسلام». فاذا كان النبي(ص) قدامر كل من رأى منكـرا ان يغيـره، بيـده او بلسانـه او بقلبه ـ حسب قدرته ـ فكيف يكون الحـال مع العلماء والفقهاء والدعاة؟! اظن ان الامر سيكون بالنسبة اليهم فرضا من الفروض، التي سيحاسبون عليها، حين يقفون بين يدي القوي العزيز.

ان اللـه لن يغفـر لهـؤلاء العـارفين هذاالتقصير الخطير، وهو الذي نعى على الاحبار والرهبان الذين سكتوا عن المفسدين في مجتمعاتهم. وقد تطرق الى ذلك الامـام ابـو عبـدالله الحسين، سيـد شباب اهل الجنة ـ رضي الله عنه وارضاه ـ حين وجـه للنـاس في منى في ايام الحج ذات سنة ـ خطاباً جاء فيه: «اعتبروا ايها النـاس بما وعظ الله به اولياءه، من سوء ثنائه على الاحبار اذ يقول: «لولا ينهاهم الربانيـون والاحبـار عن قـولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس مـا كانـوا يصنعون» (المائدة٦٣).

ويتابع الامـام ـ رضي اللـه عنـه ـ خطابه بقوله: «وانما عاب الله ذلك عليهم لانهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين اظهرهم ـ المنكر والفساد، فلا ينهونهم عن ذلك، رغبة فيمـا كانوا ينالون منهم، ورهبة مما يحذرون. والله يقول: «فلا تخشوا النـاس واخشـون» (المائـدة٤٤). ويواصل الامام ـ رضي الله عنه ـ خطابه الى انْ يقول: «وذلك ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء الاسلام، مع رد المظالم ومخالفة الظالم» (الامام الخميني ـ الحكومة الاسلامية ـ ص١٠٣ـ١٠٤).

وأنىٰ للـه جل شأنـه ـ ان يغفـر للمقصرين هذا التقصير، وهو الذي يمتدح ـ بـالتصريح ـ اولئك الذين يـؤدون هذا الواجب المقدس، كما يتوعد ـ بالتلميح ـ الذين يقصـرون في ذلك، يقول جل شأنه: «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه، ولا يخشـون احدا الا الله وكفى بالله حسيبا» (الاحزاب٣٩). بل ان الله سبحانه و تعـالى ـ يتابع الانبيـاء والمـرسلين انفسهم: «ليعلم ان قـد ابلغـوا رسالات ربهم، واحاط بما لديهم واحصى كل شيء عددا» (الجن٢٨).

ولمـا كـان القـرآن الكريم قـد انزله الله رحمة للعالمين ـ كل العالمين ـ، فقد تكفل اللـــه بحفظـه، حتى لايصل اليـه عبث العابثين، او يغيـر من منهجـه افتـراء

المفترين. ذلك ان المتآمرين عليه كانوا كثيرين. منهم الذين اتهموا النبي(ص) بتدبيج القرآن من عند نفسه. وقد رد الله عز وجل هذه الفرية بشدة حين قال: «وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين» (يونس٣٧).

ومنهم المقتسمون «الذين جعلوا القرآن عضين» (الحجر٩١). وهم ستة عشر رجلا من قريش بعثهم الوليد ابن المغيرة ايام الحج فاقتسموا فجاج مكة وشعابها واستقبلوا الحجيج يحذرونهم من الاستماع الى رسول الله(ص)، فما هو الا ساحر أو شاعر أو كاهن. كما اقتسموا القرآن الكريم، فجعلوا بعضه شعرا وبعضه سحرا وبعضه كهانة. فأنزل الله عليهم العذاب الذي يستحقون، وانزل فيهم ما يرتعب منه المتقون. وذلك في قوله تعالى: «كما انزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين» (الحجر٩٠-٩١).

ومنهم الذين طلبوا من النبي(ص) العبث بالقرآن الكريم، سواء بتبديله بقرآن غيره او حذف ما لا يعجبهم من آياته. وقد رد الله عليهم قولهم هذا، وحذرهم من العقاب الشديد الذي ينتظر العصاة الذين يفعلون مثل هذا بكتابه الكريم. قال عز وجل: «واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم» (يونس١٥).

ثم اعلن رب العالمين تعهده الذي لا ينقض، ووعده الذي لا يخلف، بحفظ كتابه من كل عبث او تحريف او تزييف. وذلك مهما حاول المحاولون او تطاول المتطاولون. «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»(الحجر٩).

وخلاصة القول؛ ان المنهج الاسلامي الذي يمثله القرآن الكريم وسنة النبي

الامين(ص)، يجب ان يجد طريقه الى الناس، فان فيه رحمة الله بهم، وموعظته اليهم، وهداه الذي تفضل به عليهم. وعلماء المسلمين في هذه الايام هم الذين يجب ان يحملوا تلك الرسالة، ويؤدوا تلك الامانة. وعليهم الا يختصوا بها احدا دون احد من الناس، بل عليهم ان يشملوا بها جميع البشر. وتلك هي اللمسات الانسانية الحانية في المنهج الاسلامي، الذي حمله رسول الله(ص) بأمر الله جل شأنه الى الناس اجمعين ـ «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» (الانبياء١٠٧).

٩ ـ اقرار الحقوق لكل الامم والشعوب، هو منهج اسلامي ثابت:

هناك فرق شاسع وبون واسع، بين جور الاديان وعدل الاسلام، وبين ضيق الدنيا وسعة الدنيا والآخرة، وبين عبادة العباد وعبادة رب العباد. فالاولى منهج الاديان التي حرفها الشياطين من اتباعها، ومنهج المعتقدات الوضعية والقوانين الارضية، التي اوحى الشيطان بها الى اوليائه من البشر.

والثانية هي منهج الاسلام، الذي شرعه الله لبني آدم اجمعين، فجعل فيه الرحمة بهم، والهداية لهم، والعدل بينهم، والمساواة في الحقوق والواجبات، التي لاتعرفها المناهج الاخريات، بل وتنكرها المحرفات من الديانات.

فالصليبية الحاقدة، تجعل من الامريكي او الانجليزي او الغربي بصفة عامة ـ انسانا مميزا عن بقية الناس يجوز له بل ويفرض عليه، ان ينتهب خيراتهم، ويدنس مقدساتهم، ويعتدي عليهم كلما عنّ له ذلك.

وتذهب الشيوعية الملحدة نفس المذهب مع المؤمنين بها، والمنضوين تحت لوائها الاباحي البغيض وتزيد عن قرينتها الصليبية بما تستبيحه في

مجتمعاتها من الاعراض والاموال والدماء.

واما الصهيونية الجشعة، فهي تجمع سيئات الصليبية والشيوعية، بزيادة واضحة في الحقد على جميع الناس، وتحيز مقيت ضد معتقداتهم وحضاراتهم وثقافاتهم، بل وضد وجودهم من الاساس.

وفي هذه الاحوال المؤلمة، والاجواء المظلمة، يبرز المنهج الاسلامي بلسما يزيل الالام، ونبراسا يزيح الظلام، واملا يحقق للانسانية انسانيتها، ويدافع عن كرامتها وآدميتها.

فهو يقرر المساواة التامة بين الجميع حين وقف رسول الله(ص) يوم فتح مكة يخطب الناس فقال: ايها الناس؛ كلكم من آدم، و آدم من تراب. لافخر للانساب، لا فخر للعربي على العجمي، ولا للعجمي على العربي، ان اكرمكم عند الله اتقاكم» (الامام المودودي ـ الحكومة الاسلامية ـ ص٢٨٠).

وتعددت احاديث النبي(ص) حول هذا الموضوع، نظرا لاهميته في المنهج الاسلامي. ففي صحيح البخاري ومسلم قول رسول الله(ص): «لافضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، كلكم ابناء آدم». وفي زاد المعاد رواية موسعة لهذا الحديث هي: «لافضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لابيض على اسود، ولا لأسود على ابيض الا بالتقوى».

ولعل من ابرز مظاهر المساواة التي يقررها المنهج الاسلامي بين جميع الناس قول رب العالمين: «يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين» (البقرة١٦٨). ففي هذه الآية مساواة تامة في اطعام الناس ـ كل الناس، ابيضهم واسودهم، عربهم وعجمهم، بل حتى مؤمنهم وكافرهم. وفيها كذلك توجيه الدعوة بالهداية والابتعاد عن الغواية ـ لجميعهم

ايضـا بـلا تفريق او تمييز. فاذا استمعنا الى قول رب العالمين: «واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشـدون» (البقـرة ١٨٦) احسسنـا بلمسـات ربانية حانية رقيقة، موجهة الى جميع خلق اللـه - من بني آدم - من غيـر تمييـز. وذلك بنسبتهم الى ربهم، واستجابتـه السريعة لدعوة من يدعوه منهم.

ان المسـاواة بين النـاس هي اقـرار لانسانيتهم، وحفظ لكرامتهم. ولذلك فقد جعلهـا المنهج الاسلامي فرضا مما افترض على ابنائه، وقاعدة مهمة في بنائه. قال رب العـالمين: «ان اللـه يأمـر بالعـدل والاحسـان وايتـاء ذي القربى وينهى عن الفحشـاء والمنكـر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون» (النحل٩٠). فالعدل والاحسان مفروضان، والظلم والعدوان مرفوضان، كمايبرز بوضوح من هذه الآية الكريمة.

ومن المسـاواة الاشـارة بـأصل الناس الواحد، وان تفرقهم الى امم وشعوب لايلغي حقوقهم في المساواة، فالهدف من ذلك هو التعارف لا التمايز، لان التمايز انمـا يكـون بتقـوى اللـه وخـدمة عبـاد اللـه. قـال رب العالمين: «يا ايها الناس انا خلقنـاكم من ذكـر وانثى وجعلنـاكم شعوبـا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير» (الحجرات١٣).

ومن اقرار حقـوق الناس - بمختلف اممهم وشعوبهم - رفض التكبر عليهم. فـان التكبـر والاستعـلاء والاستقـواء يستتبع الانتقـاص من حقـوق الآخرين او العـدوان عليهم. وقـد حـذر المنهج الاسـلامي من ذلك اشـد التحذير حين حرم الجنة على المتكبرين والمتعـالين والمتغطرسين. قال رسول الله (ص): «لا يدخل الجنة من كـان في قلبـه مثقـال ذرة من كبـر» (رواه مسلم). وامـا المعتـدون؛ فإن القـرآن الكريم يتوعدهم بالعذاب الاليم، وذلك بقول الله جل شأنه: «انما السبيل

على الذين يظلمـون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم» (الشورى٤٢).

حقـوق الامم والشعـوب في المنهج الاسلامي ـ اذن ـ مكفولة بقوة القانون الـذي حددته آيات القرآن الكريم واحاديث النبي العظيم(ص). ولعل من حرص المنهج الاسـلامي على ذلك، تشـدده في حفظ الحقـوق، وعدم الاجتراء عليها. يقـول رب العـالمين: «ولاتبخسوا الناس اشياءهم ولاتعثوا في الارض مفسدين» (الشعراء١٨٣).

واذا كـان في ذلك امر الهي بالحفاظ على ممتلكات الناس واشيائهم، فهنالك امـر الهي للمؤمنين بالمنهج الاسلامي، الحريصين على تطبيقه وتنفيذه ـ بضرورة الحفـاظ على العهـود التي يقطعونهـا للنـاس، حفاظا على حقوقهم التي يضمنها المنهج الاسلامي. يقول سبحانه و تعالى: «يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود» (اول سورة المائدة).

ثم ان حـرص الاسـلام على حفظ حقـوق الافـراد، هـو مظهـر من مظـاهـر الحـرص على حقـوق الامم والشعوب. وقد تنوعت مظاهر حرص الاسلام على حفظ حقوق الافراد، ومن ذلك حفظ الدماء والاموال والاعراض التي عرض لها هـذا البحث بمـا تستحق في حينه. ونكتفي هنابالتذكير بقول الله جل شأنه: «ويل للمطففين ۞ الذين اذا اكتـالـوا على النـاس يستوفون ۞ واذا كالوهم او وزنوهم يخسـرون ۞ الا يظن اولئك انهم مبعوثـون ۞ ليوم عظيم ۞ يوم يقوم الناس لرب العالمين» (المطففين١ـ٦).

ان حـرص الاسـلام على حفظ حقـوق الافـراد، اقتضى هذا التهديد الالهي المـرعب، كمـا يبـدو من هـذه الآيات الكريمات، فاذا كان ذلك في مجال التعامل

التجـاري بين الناس، فهناك تشريع اسلامي يحفظ حقوق الافراد كذلك في مجال التعـامل الحـرفي، فقـد رأى الامـام علي رضي الله عنه، ان الصانع اذا اعطى شيئا لصنعــه، سواء اكان قماشا للخياطة، او ذهبا لصنعه حليا، وضاع هذا من الصانع او تلف، كان على الصانع ان يؤدي قيمته.

ووافق الصحابة رضـوان اللـه عليهم ـ اميـر المؤمنين ـ عليا رضي الله عنه، على هـذا الـرأي الاجتهـادي الصـائب، ووضع القانـون المقرر لذلك في التشريع الاســلامي. وكــان من حيثيــات هـذا القانون انه لو اعتبر الضياع او التلف للسلعة سهـوا وغفلة، فقد يتهون الصانع في حفظ اشياء الناس (انظر: الامام المودودي ـ الحكومة الاسلامية ـ ص٢٣٨).

ان اقـرار حقوق الافراد، و حقوق الامم والشعوب، هو منهج اسلامي ثابت، تعبيــرا عن انسانيتــه وشموليتـه. وقد عبر الامام الخميني ـ رحمه الله ـ عن ذلك بقـولـه: «احكـام الشـرع تحتـوي على قـوانين متنـوعة، لنظام اجتماعي متكامل. وتحت هـذا النظـام تسـد جميع حاجـات الانسـان، اخـذا من علاقـات الجوار، وعـلاقـات الاولاد والعشيـرة، وابنـاء الـوطن، وجميع جـوانب الحيـاة العـائلية الـزوجية، وانتهـاء بالتشريعـات التي تخص الحـرب والسلم، والعلاقات الدولية، والقـوانين الجـزائية، والحقـوق التجارية والصناعية والزراعية» (الامام الخميني ـ الحكومة الاسلامية ـ ص٢٧).

١٠ ـ الاســلام يعتــرف بالاديــان السماوية الاخرى، ويأمر اتباعه بحسن التعايش معها:

ومن أرقى سمــات الاســلام الانسانية، اكـرامـه من سبقـه من الرسل والكتب

والاديـان السمـاوية، بل واشتـراطـه على اتباعـه الايمان بها. يقول رب العالمين: «الذين يؤمنـون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بمـا انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون» (البقرة٣ـ٤). وليس ذلك متـروكـا لاختيار المؤمنين ولكنه فرض عليهم اجمعين. قال رب العالمين ـ جل شأنـه ـ: «قولـوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقـوب والاسبـاط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون» (البقرة١٣٦).

وهـذا اعتـراف كامل بالاديان والكتب السماوية السابقة، وتكريم واف لانبياء اللـه السابقين، صلاة الله وسلامه عليهم اجمعين،ويتكرر معنى الآية ومحتوياتها وتعليماتهـا، ولكنهـا موجهة مباشرة الى رسول الله(ص) نفسه: «قل آمنا بالله وما أنـزل علينـا ومـا انـزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون» (آل عمران ٨٤).

وهنـــاك الى جانب الاعتـراف بالديانـات السابقة والانبيـاء السابقين، تنويـه واضح بالمسـاواة بينهم في الحب والتقدير والاكرام، يقول سبحانه وتعالى: «آمن الـرسـول بمـا انـزل اليـه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفـرق بين احـد من رسلـه وقـالـوا سمعنـا واطعنـا غفرانك ربنا واليك المصير» (البقـرة٢٨٥) وفي الآية الكريمة امتداح واضح لما قام به النبي(ص) والذين آمنوا معـه، من الاعتـراف بالاديـان السابقة، والايمـان بالـرسل السابقين، وعدم التفريق بينهم في التبجيل والاجلال.

وكيف يقبل الاسـلام التفريق بين الـرسل السابقين، او انكـار رسـالاتهم وقد

جاء الاسلام نفسه من ذات المشكاة التي جاءت منها تلك الرسالات.فالمصدر واحد وهو رب العالمين، والهدف واحد وهو هداية الناس اجمعين، وصدق رب العالمين وهو يبين ذلك بقوله: «انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا» (النساء١٦٣)، ثم يؤكد الله ذلك بقوله: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب» (الشورى١٣).

وترسيخا لهذا الاعتراف في نفوس اتباع المنهج الاسلامي يقول رب العالمين: «ولكل امة رسول فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لايظلمون (يونس٤٧).

اما النبي(ص) فيغرس في نفوس المسلمين حب الرسل الاقدمين، والاعتراف بما جاءوا به من الحق، وذلك بقوله فيما اخرجه البخاري ومسلم من حديث ابي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله(ص): «مثلي ومثل الانبياء قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه واجمله، الا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا تلك اللبنة، و أنا خاتم النبيين».

ويزيد القرآن الكريم على ذلك بأن يوجه اتباع المنهج الاسلامي الى التسامح مع اصحاب الديانات الاخرى، ويربيهم على ذلك بقوله: «اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من

المؤمنـات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا اتيتموهن اجورهن محصنين غيـر مسـافحين ولا متخـذي اخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهـو في الآخـرة من الخـاسرين (المـائـدة ٥)، بل ويطلب اليهم برهم والاحسان اليهم، مادامـوا غيـر محاربين ولا معادين. يقول رب العالمين: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين (الممتحنة٨) وحتى اذا كانوا محاربين، ثم جنحوا للسلم من غيـر عـدوان على المسلمين، او انتقاص من حقوقهم، او تعد على اراضيهم، فعلى المسلمين ان يستجيبـوا لتلك الـدعـوة، وان يجنحوا للسلم الذي جنح اليه الآخـرون. يقول رب العالمين: «وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هـو السميع العليم» (الانفـال٦١) وليس المقصود بذلك هذا السلام الاعرج الذي يدعـو اليـه الصهاينة والامريكان اليوم. وهو يحتلون ارض المسلمين ويستترفون خيـراتهم ويدنسـون مقدساتهم في فلسطين وفي غير فلسطين. ثم يدعون العرب والمسلمين الى السـلام. فهـذه اذا دعـوة مرفـوضة، حتى يرحل القوم عن ارضنا، ويكفوا عدوانهم عن اهلنا وشعوبنا.

ومن الاعتـراف بالاديـان السابقة، واحتـرام رسل الله الاكرمين الاقدمين، ان سوى المنهج الاسلامي بين المؤمنين من اتباع الرسل، ولم يفضل منهم اتباع احد على احـد، فلكل جـزاؤه ونتاج عمله. «وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فـلا خوف عليهم ولاهم يحزنون» (الانعام٤٨) ومن ذلك ايضا اقـرار اللـه جل شأنـه بأنـه ـ كمـال انـزل القـرآن الكريم ـ كـان قـد انزل التوراة والانجيل، وهي لفتة مقصودة، ليربي المؤمنين على الاعتراف بأديان الآخرين.

امـا مـا وصلت اليـه تلك الكتب السمـاوية من التحريف والتزييف والزيـادة

والنقصان، فهو موضوع آخر، فان الايمان المطلوب بها هو الايمان بأصولها ومنابعها، وشكلها الذي نزلت عليه من السماء «انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوني ولاتشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ۞ وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص، فمن تصدق به فهو كفارة له، ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون ۞ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ۞ وليحكم أهل الانجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون ۞ وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولاتتبع اهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» (المائدة٤٤ـ٤٨).

ومن سماحة الاسلام المتناهية، اقرارا منه للانسانية وتكريما لمبادىء المساواة والعدالة والحرية البشرية، يتجاوز باحسانه اصحاب الديانات الى المشركين والكافرين. فلا يجعل حتى للنبي(ص) نفسه ـ سلطاناً عليهم، وعليه ان يلتزم الرفق والاحسان وهو يدعوهم الى الاسلام، وعدم اللجوء الى اي نوع من انواع القوة في هذا المجال. يقول رب العالمين: «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن

سبيله وهو اعلم بالمهتدين» (النحل ١٢٥). فاذا آمنوا فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، واذا لم يؤمنوا فذلك شأنهم، اذ: «لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم» (البقرة٢٥٦).

وحذر الله - جل شأنه - رسوله الامين(ص) من التدخل فيما بين الله وعباده الذين لم يؤمنوا الا بتمني الهداية لهم او ما اليه، اما نهايتهم ومجازاة الله لهم، فليس للنبي(ص) في ذلك من شيء رغم انحرافهم وظلمهم لانفسهم او للناس. فعن انس رضي الله عنه ان رسول الله(ص) كسرت رباعيته يوم أُحد، فجعل يسلت الدم عن وجهه ويقول: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم الى الله؟! فأنزل الله عز وجل: «ليس لك من الامر شيء او يتوب عليهم او يعذبهم فانهم ظالمون ﴿ ولله ما في السماوات وما في الارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم» (آل عمران ١٢٨ - ١٢٩).

ان الايمان او الكفر، على ما فيه من حرية للانسان الا انه مرتبط بمشيئة الله، ولذلك فليس لاحد ان يعتدي على احد بسبب كفره - قد تبين الرشد من الغي - وعلى الدعاة ان يدعوا الناس الى الهداية، وليس عليهم ان يحاسبوهم على شركهم او كفرهم فذلك امر متروك لرب العالمين، وليس لغيره من المؤمنين ولا حتى لاحد من المرسلين بمن فيهم سيد الخلق اجمعين الذي قال الله له: «ولو شاء الله ما اشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وماانت عليهم بوكيل»(الانعام١٠٧).

ان مسألة الكفر والايمان مسألة حساسة، ويجب ان يكون التعامل معها، باحتراس شديد وحساسية تامة، فمن آمن واصلح فقد حصن نفسه واحترس لدينه. وعليه بعد ذلك ان يلتزم اوامر الله في الدعوة اليه بالحكمة والموعظة

الحسنة. وقد شدد الله - جل شأنه - على هذاالامر في مواطن كثيرة من كتابه الكريم، ليترك للناس حرية الاختيار دون اي ضغط من احد. وفي ذلك يقول - سبحانه و تعالى - وهو يخاطب رسوله الكريم(ص): «ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» (يونس٩٩)، بل ان الله جل شأنه يأمر نبيه(ص) بنجدة من يستنجد به واجارة من يستجيره من المشركين تنفيذا لذلك المنهج الكريم: «وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون» (التوبة٦).

اين - في غير المنهج الاسلامي - احترام الآخرين ونجدة المخالفين وتأمين الخائفين من اصحاب الرأي الآخر؟

ان ممارسات الصليبيين والصهاينة والشيوعيين، وكل اصحاب المعتقدات من غير المسلمين - تبرز ما غرسته تلك المعتقدات في نفوسهم من الحقد والبغض والعدوان. واحوال المسلمين في الهند او في روسيااو في الصين، لاتنم عن احترام للانسانية، او توفير للآدمية، أو اعتراف بحقوق الآخرين.

اما تعامل الغرب بصفة عامة مع المسلمين، فهو التعامل الذي نراه في الغابات، بين الوحوش الضاريات، وبين بقية المخلوقات.

ان الاسلام - فقط - هو رمز التسامح الديني، وهو رمز حب التعايش الاجتماعي، وهو رمز الانسانية التي تحب الخير للناس اجمعين، وتعترف بحقوق الآخرين، ولو كانوا مخالفين او حتى مشركين.

١١ ـ شواهد تاريخية على انسانية الاسلام:

ليس ما اثبتناه في البنود السابقة من مظاهر انسانية الاسلام، غير امثلة قليلة، لم يكن الهدف منها حصر تلك المظاهر، فإن حصرها بالعقل البشري مستحيل. فالاسلام قد بني اساسا على قواعد انسانية لم تهيأ الا له، ولا توجد الا فيه.

وفي كتاب الله جل شأنه، وسنة رسوله(ص)، من تلك القواعد والمظاهر والامثلة؛ ما يصعب حصره كذلك. فمغفرة الله ورحمته وجنته، تنتظر الذين يعفون عن الناس، وينفقون عليهم، ويحسنون اليهم. قال الرحمن الرحيم: «وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والارض اعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» (الانعام١٣٣ـ١٣٤).

نعم! إن الله يحب الذين يحسنون لبعاده، بأي نوع من الاحسان كان، حتى ولو بالكلمة الطيبة، فالكلمة الطيبة ـ في منهج الاسلام ـ صدقة. ومن انسانية الاسلام كذلك، حرصه على حسن العلاقات بين الناس، وذلك بتبادل التحايا الطيبة، وردها بأحسن منها. قال جل شأنه: «واذا جاءهم امر من الامن او الخوف اذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا» (النساء٨٣).

واستوعب المسلمون آيات القرآن الكريم، واشربوا ما فيها من روح انسانية عالية. وضرب لهم رسول الله(ص) امثلة رائعة في حسن تطبيق تلك الآيات الكريمة، والعمل بتلك الروح الانسانية العظيمة.

وقف النبي(ص) يوم بدر ينظم صفوف المقاتلين من المسلمين، وكانت بيده جريدة نخل يهش بها عليهم، فأصابت بطن واحد منهم كان متقدما في

الصف عن اقرانــه، فقال: آلمتني يا رسول الله، فكشف النبي(ص) رداءه عن بطنه وقــال: هذا بطني تعال فاقتص منه، فهجم الصحابي رضي الله عنه على بطن سيد الخلق يقبلـه وهـو يقـول: بأبي انت وامي يـا رسول الله، فقال(ص): وما حملك على ذلك؟! قـال: علمت بانها المعركة، وقد تكون نهايتي فيها، فأحببت الا اخرج من الدنيا الا وقد مس جلدي جلدك، عسى الله ان يحرم جسدي بذلك على النار. فقبّله النبي(ص) ودعا له.

نعم! بل ان النبي(ص) لم يكن يختص منفسه بشيء دون اصحابـه، ولا دون احـد من المسلمين. فقـد اخـرج الامـام احمد في مسنده، من حديث عبدالله بن مسعـود رضي اللـه عنـه قال: «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير - اي يتعاقبون - و كـان ابـو لبابة وعلي بن ابي طـالب - رضي الله عنهما - زميلي رسول الله(ص)، قـال: فكانت عقبة رسول الله(ص) فقالا له: نحن نمشي عنك، ليظل راكبا - فقال: ما انتما بأقوى مني على المشي، ولا انا بأغنى عن الاجر منكما».

على ان هـــذه الانسـانية النبـوية، لم تكن مقصـورة منـه(ص) على اصحابـه وحسب، ولا حتى على المسلمين، بل كانت تعم النـاس اجمعين. كـان ليهـودي دين عليـه(ص)، وكان اليهودي حاقدا وغير مؤدب فجاء يطالب المصطفى(ص) بدينـه وهـو يجلس في نفـر من اصحابـه، فجذبـه من ثوبه حتى بان اثره في رقبته الشريفة وقـال: يا محمد! لِمَ لا تؤدي ما عليك؟! أم أنكم هكذا يا بني عبدالمطلب، مطل في الاداء؟! فغضب الصحابة رضي اللـه عنهم، وكـاد عمـر يفتك باليهودي. فنهـره النبي(ص) وقـال: مـا هكذا يا عمر! ولكن؛ مره بحسن الطلب، ومرنا بحسن الاداء.

هذا المشهد يقطر انسانية كما نرى، فقد تجاوز النبي(ص) عن غلظة اليهودي

وســوء ادبـه وتعديـه على السيـد المختار. ونهر ابن الخطاب حين اراد ان يؤدب ذلك اليهــودي الــوقح. بل لقـد سـاوى بين نفسه الشريفة(ص) وبين اليهودي في المعـاملة، حين امر عمر بأن يتلطف مع اليهودي في النصح بحسن الطلب والتأدب فيه، وطلب اليه ايضا ان يوجه النصيحة الى سيد الخلق رسول الله(ص) ليؤدي ما عليه من دين.

ولـو ان هـذا المشهد قد حدث مع واحد من رجال السلطة في هذه الايام في اي بلـد كـان، لقـامت الدنيـا على المطالب بحقه، ولعوقب على تعديه على رجل السلطة، ولربمـا اختلقت لـه الاتهـامـات، فضــاع حقـه، واعتـدي عليه من الزبانية المتسلطين، دون ان يجد من ينقذه من براثنهم؛ فضلا عن ان يرد اليه حقه.

على ان اليهـودي عنـدمـا رأى ذلك تحـركت انسانيته لهذه الانسانية، وذهل لهذا العدل وهذه المساواة، فشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله.

وفتح اللـه على المسلمين مكة المكرمة، وكان اهلها من قريش قد آذوا رسول اللــه(ص) واصحابـه ايـذاء شديدا. اخرجوهم من بيوتهم وممتلكاتهم واستولوا عليهـا، ولاحقـوهم في مهجرهم بالمدينة المنورة، وحاولوا في اكثر من معركة ان يستأصلوهم ويقضوا عليهم. فكان من الطبيعي ان ينتظروا العقاب المناسب حين امكن اللــه رسـولـه(ص) واصحابـه منهم اجمعين، وادخلهم ام القـرى فاتحين ومنتصرين.

وجرى زعماء قريش من المشركين الى ساحات البيت العتيق، وهم يرتجفون في انتظار ما سينزل بهم من العقاب. وطاف رسول الله(ص) بالكعبة الشريفة وهو يتلـو قـول رب العـالمين: «وقل جـاء الحق وزهق البـاطل ان الباطل كان زهوقا» (الاسـراء٨١) ومن حوله اصحابه رضي الله عنهم اجمعين. وبعد ان انهى طوافه،

وحطم ما حول الكعبة من الاصنام، التفت الى زعماء قريش وقال: «يا معشر قريش؛ ما ترون اني فاعل بكم؟! قالوا: خيرا، أخ كريم وابن اخ كريم. قال: فاني اقول لكم ما قال يوسف لاخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فانتم الطلقاء» (رواه ابن اسحق وابن هشام في السيرة النبوية).

اية انسانية هذه؟! واي تسامح هذا من سيد المرسلين وخاتم الانبياء؟! ومع من؟! مع ألد الاعداء، الذين وقفوا في وجهه وناصبوه العداء. فهل في مذاهب الناس -غير هذا الدين -، مثل ما فعل مع قريش سيد المرسلين؟! صلى الله وسلم وبارك عليه و على آله وصحبه اجمعين.

وسرت هذه الانسانية في نفوس اصحاب النبي(ص) وآل بيته رضوان الله عليهم، سريان الماء السلسبيل في الجداول الطيبة. لقد شربوها مع مباديء الاسلام، كما تشرب الاشجار الطيبة مياه الغمام، فكانوا مثلا رائعة في تطبيقها، على بني قومهم او اتباع دينهم وعلى غيرهم من الناس.

لقي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يهوديا عجوزا يتسول في حواري المدينة، فسأله عما الجأه الى ذلك فقال: الحاجة يا امير المؤمنين. فقال عمر قولته التي تنبع من انسانية الاسلام ورحمته بكل العالمين، سواء اكانوا من اتباعه ام كانوا من المخالفين: «ما انصفناك! اخذنا منك الجزية شابا، وتركناك شيخاً. ثم امر له بما يكفيه من بيت مال المسلمين.

واذا كان الاسلام عادلا هذا العدل ومتسامحا هذا التسامح مع اليهود، فقد كان اشد عدلا واكثر تسامحا مع النصارى. وقصة عمر بن الخطاب مع الفتى القبطي من مصر، قصة يتغنى بها التاريخ. فقد تسابق ذلك الفتى القبطي مع ابن عمرو بن العاص - والي مصر في ذلك الزمان، ولما سبق الفتى القبطي، اعتدى

عليـه ابن الـوالي بالضرب وهو يقول: كيف تسبق ابن الاكرمين؟! وصمم القبطي على اخـذ حقـه، فسافر الى دار الخلافة في المدينة المنورة، ورفع شكواه الى امير المؤمنين.

وارسل الخليفة في طلب والي مصر مع ابنـه المقصـود، وفي مجلس الخليفة نـاول عمـر درتـه الى الفتى القبطي وقال له: اضرب ابن الاكرمين. فلما اخذ بحقه قـال له عمر: ادرها على صلعة عمرو. قال الفتى القبطي بأدب: ضربت من ضربني يـا اميـر المـؤمنين. فتناول ابن الخطاب منه الدرة، وضرب بها عمرو بن العاص ـ والي مصـر ـ على رأسـه وهـو يقـول مـا سطـره التـاريخ بأحـرف من نور: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا؟!».

فهل في الارض عـدل كهـذا العـدل، وهل في مـذاهب النـاس انسانية كهذه الانسانية؟! والي مصـر يُضـرب لان ابنـه ضـرب فتى من عـامة النـاس، ونصـراني المـذهب، وليس من القـوم الحاكمين! انها انسانية الاسلام وعدل الاسلام اللذان يتفقدهما الناس في هذه الايام.

امـا قصة الاعـرابي مع جبلة بن الابهم، فشاهد آخر على انسانية الاسلام. فقد كـان جبلة بن الاهم هـذا احد كبار زعماء القبائل العربية، وكان ذا عظمة وذا ثراء. وكـان يجـر ثوبـه من بـاب التعاظم والكبرياء. وبينما كان يطوف بالكعبة المشرفة، داس اعـرابي على ثوبـه بغيـر قصد. فلطمه جبلة على وجهه. فرفع الاعرابي امره الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب. فقضى عمر للاعرابي بأن يلطم جبلة كما لطمه سـواء بسـواء. فاستشـاط ابن الايهم غضبـا وقـال: ولكنني من الزعمـاء وهو من السـوقة. قـال عمـر: الاسلام سوى بينكما. قال جبلة: فأمهلني الى الغداة، فأمهله. وفي عتمة الليل فـر من المدينة في خمسمـائة من اصحابه، ولحق بالروم. فيال هذا

الاسلام العجيب، يرتد عنه زعيم كبير ومعه خمسمائة من الرجال، فلا يأبه بهم في سبيل ان يقيم العدل ويحقق المساواة.

وربما انصرفت الاذهان الى ان حب العدل والمساواة والتسامح، مقصور على عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والحقيقة مغايرة لذلك. فهذه سمات اسلامية عامة، وانما برز كثير منها في عهد عمر لطول مدة خلافته. بيد انها سجايا رموز الاسلام على مر الازمان.

هاهو ذا امير المؤمنين علي رضي الله عنه، يخطب المسلمين وهو خليفة فيقول: «ما امرتكم به من طاعة الله فحق عليكم طاعتي فيما احببتم وما كرهتم، وما امرتكم به من معصية الله فلا طاعة لاحد في معصية. الطاعة في المعروف» (الامام المودودي الحكومة الاسلامية ـ ص٣٨٦).

أرأيت هذا التواضع الذي كان الامام مثلا فيه! وهل نسينا ما كان منه مع احد قضاته حين رفض الامام ان يعامله القاضي بغير ما يعامل خصمه، وكان من اهل الذمة (انظر ص ٦ من هذا البحث) أليس ذلك شاهدا على انسانية الاسلام التي يمثلها الامام!

وتقوم في عهده ـ رضي الله عنه ـ فتن كقطع الليل المظلم، وتضج الارض من بذاءات الخوارج عليه، ومن اساءاتهم اليه، فلا يخرجه ذلك عن عدل الاسلام الذي استيقنته نفسه الكريمة، ولا يبعده عن انسانيته العظيمة. «وحدث ان قبض على خمسة منهم، وهم يسبونه ويتوعدونه، ومع ذلك اطلق سراحهم» (الامام المودودي ـ الحكومة الاسلامية ـ ص٤٠٨).

ان الشواهد على انسانية الاسلام، لاتتسع لها المجلدات الضخمة. وان ما سبق من امثلة عليها ما هو الا قطرات من لجج متلاطمة.

هذه الانسانية هي المصدر الاساسي لقوة هذا الدين، وتميزه عن غيره من المذاهب والاديان. وهي ليست مقصورة على جانب دون آخر من جوانب الحياة، وانما تتناولها جميعا، لأنها تتمثل في الحق الذي اراد الله ان يخرج الناس به من الظلمات الى النور» فهي تتمثل في الايمان بالله ايمانا يحرر الضمير والوجدان. وفي الاستعصام بالحق استعصاما يزهق امامه الباطل ويندحر. وفي معرفة الضعف النفسي والتطهر منه، حتى تأخذ النفس طريقها الى العزة والسمو الروحي. وفي العلم المقوم لشخصية الانسان، والكاشف له عن حقائق الوجود المادي، وما وراء هذا الوجود من عالم ما وراء الطبيعة. وفي الثروة وتعمير الارض واستثمار قوى الكون، والانتفاع بما في الطبيعة من بركات الله وخيراته، وتوزيعها على افراد الاسرة الانسانية بالكفاية والعدل. وفي اقامة المجتمع على اساس من الحرية والعدالة والمساواة، والتشريع السمح والعمل الجاد، والمعاشرة الحسنة والحكم الصالح، الذي تكون فيه السيادة للامة. وفي السلام العام القائم على احترام الانسان وكفالة حقوقه. وفي احترام العهود والحفاظ على المواثيق. وفي التضحية النبيلة، والاستشهاد في سبيل الحق، ومن اجل الحياة الحرة الكريمة» (السيد سابق ـ عناصر القوة في الاسلام ـ ص٣ـ٤).

ألا فليت الذين اعماهم طيشهم عن هذا الاسلام العظيم، واجتالتهم شياطينهم عن منهجه القويم وطريقه المستقيم، فلوّثوا الآدمية، ودنسوا الانسانية، ولجوا في الحياة البهيمية، فلا عدل ولا مساواة، ولا استقامة في اي اتجاه، ولا معرفة لمنهج الله، فقامت الصراعات والحروب، وتوالت الويلات والخطوب، واظلمت المسالك، والدروب، لم يعد احد يأمن على عرضه او ارضه، او ماله او عياله، او خيراته او مقدساته، وتحولت الارض الى غابة للاقوياء، وسحقت فيها

انسانية الضعفاء، واستشرى الظلم في انحائها صباح مساء، وتحقق فيها قول العليم الخبير «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون» (الروم٤١).

ليت هؤلاء يلوذون بحمى الاسلام كما لاذ به العقلاء والمخلصون، فيسعدوا كما سعد الاولون، ويحظوا بالامن الذي ينشدون، ويتحقق فيهم قول رب العالمين: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لايشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» (النور٥٥).

١٢ ـ خاتمة المطاف:

▣ يتميز الاسلام بخصائص انسانية فريدة، تجعله الاصلح ليكون دين الناس كافة. ومن هذه الخصائص اقرار الانسانية لجميع الناس، وتوخي الرحمة بهم في مختلف مجالات الحياة. قال رب العالمين ـ جل شأنه: «والله رؤوف بالعباد» (آل عمران٣٠). وقال ـ سبحانه و تعالى ـ لرسوله الكريم(ص): «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» (الانبياء١٠٧).

▣ المساواة بين الناس في الاسلام، دين من الدين، وهي من خصائصه الانسانية التي يتمتع بها جميع الناس في ظلاله، وذلك انطلاقا من قول رب العالمين ـ جل شأنه ـ: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم، ان الله عليم خبير» (الحجرات١٣). ومن ذلك ايضا قول رسول الله(ص) ـ وهو يخطب الناس يوم

فتح مكة ـ: «ايهـــا النـــاس؛ كلكم من آدم، و آدم من تـراب. لافخـر للعربي على العجمي، ولا للعجمي على العـربي، ان اكـــرمكم عنـــد اللـــه اتقـــاكم» (الامـــام المودودي ـ الحكومة الاسلامية ـ ص٢٨٠).

◘ ان المساواة بين الناس في الاسلام، كما حددها منهجه وكما طبقها رجاله ـ اذهلت الاصدقاء والاعداء على حد سواء.

◘ اقـرار كـرامة مميـزة للانسـان، وتفضيله على بقية المخلوقات، من مظاهر انسانية الاسـلام. قـال تعـالى: «ولقـد كرمنـا بني آدم وحملنـاهم في البـر والبحر ورزقنـاهم من الطيبـات وفضلنـاهم على كثيـر ممن خلقنا تفضيلا» (الاسراء٧٠). والانسـانية ـ في هـذه الآية ـ ظاهـرة ظهـور الشمس في وضح النهـار، فـالتكريم الرباني شـامل للعنصـر الآدمي كله، عربه وعجمه، ابيضه واسوده، بل حتى مؤمنه وكافره.

◘ ومن انسـانية الاســلام رفض الظلم الـذي قـد يقع من بعض النـاس على بعضهم الآخـر، حتى لاتهدر للناس كرامتهم، او تهان انسانيتهم. جاء في الحديث القـدسي: «يـا عبـادي اني حـرمت الظلم على نفسي، وجعلتـه بينكم محرما، فلا تظـالمـوا» (متفق عليه). وقال رسول الله (ص) : «اتقوا الظلم، فان الظلـم ظلمات يوم القيامة». (رواه مسلم).

◘ استضعاف الناس والتعالي والاستقواء عليهم، لون من الظلم الشديد، لانه يقطع اوصـال المجتمع، ويجعل من اهله شيعا واحزابا، يبغي بعضهم على بعض، ويتجـرع بعضهم بـأس بعض. وفي مقدمة الظلمة التاريخيين فرعون الذي استمرأ الظلم، وهـامـان الـذي ايـده فيـه، وتعـاون معـه عليه. وقد جعلهما الله في عداد المجرمين بقوله: «ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» (القصص٨).

▣ امن النـــاس في الاســلام من غاياتـه الاســاسية، حتى لايفـزعـوا من ظلم الظالمين، واعتداء المعتدين. والمؤمن من امنه الناس على دمائهم واموالهم، وشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، من تركه الناس اتقاء شره.

▣ ومن مظـاهـر انسانية الاسـلام ورفضـه الظلم، ان الله قد شرع الثورة على الظـالمين، واوشك ان ينـزل عقابـه الاليم على المتخاذلين والمتقاعسين ـ كماقرر ذلك رسولـه الكريم(ص) بقوله: «ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، اوشك ان يعمهم الله بعقاب منه» (رواه الترمذي).

▣ اصـــلاح المجتمع الانســاني، ووقايتـــه من الفسـاد الحكـومي والاداري والمـالي والاجتمـاعي والتربوي والاخلاقي، من اهم مقاصد التشريع الاسلامي. وذلك تنفيـذا لامـر اللـه ـ جل شأنـه، الـذي تكرر في كتابه الكريم: «ولا تعثوا في الارض مفسدين» (البقرة ٦٠ والاعراف ٧٤ وهود ٨٥ وغيرها).

▣ كبح جمـــاح الظـــالمين، ورفع الظلم عن المظلـــومين، وشكم المتكبرين والمتغطرسين والمتعالين، ممايحرص الاسلام عليه، ويجعله نصب عينيه.

▣ الرشوة والغش والتزييف والربا، واكل اموال الناس بالباطل، والتجارة فيما يضـرهم، وكـذلك الفسـاد الخلقي، والتبـذل والانحـلال، ومعـاقـرة المسكـرات والمخـدرات، واقتنـاص المحرمات من الشهوات، كل هذه المباذل مرفوضة في المنهج الاسـلامي، لانهـا الوان من الفساد الذي يعلن الاسلام الحرب عليه بقول رب العالمين: «ولاتبغ الفساد في الارض، ان الله لايحب المفسدين» (القصص ٧٧).

▣ تشريعـات الاسلام ربانية المصدر، انسانية الفائدة. وهي تستقى من قناتين اساسيتين، وثلاث قنوات تنبع منهما. اما القناتان الاساسيتان؛ فهما كتاب الله رب العـالمين، وسنة نبيـه الامين(ص). وفي الاولى يقـول سبحانـه و تعـالى: «ان هذا

القرآن يهدي للتي هي أقوم» (الاسراء٩). وفي الثانية يقول جل شأنه: «وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا» (الحشر٧). واما القنوات الثلاثة الاخرى فهي القياس والاجماع والاجتهاد.

▣ من مظاهر الانسانية في التشريعات الاسلامية، تكريسها للاخلاق الرفيعة، كالصدق والصبر والبر والامانة والوفاء، وادب الحديث وكف الاذى وحسن الخلق والتسامح والحياء. ورفضها للاخلاق الوضيعة، كالكذب والفجور والخيانة والغدر، والبذاءة والاذى وسوء الخلق والانانية والتعهر وغيرها.

▣ تناثرت الآيات التي تتحدث عن الاخلاق في كتاب الله، تناثر الورود في الخميلة الغنّاء، كما تكاثرت احاديث النبي(ص) في الموضوع ذاته، تكاثر النجوم في كبد السماء. فمن الآيات قول رب العالمين: «لاخير في كثير من نجواهم، الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس»(النساء١١٤). ومن الحديث الشريف: «اد الامانة الى من ائتمنك، ولاتخن من خانك» (رواه الترمذي وابو داود).

▣ ان العلماء هم ورثة الانبياء، والانبياء لم يورثوا دراهم او دنانير، ولكنهم ورثوا دعوات لهداية العباد، وتنظيف مجتمعاتهم من الظلم والانحراف والفساد. وقد انتشر اليوم بين الناس ظلم متنوع الاشكال، فظلم الناس لانفسهم كما اثبت رب العالمين بقوله: «ولكن الناس انفسهم يظلمون» (يونس٤٤). كما انتشر ظلم الناس لبعضهم البعض، وهذا الظلم شائع ووخيم العواقب على المجتمع.

▣ واجب علماء المسلمين بل وجميع المسلمين، ان يهبوا لاصلاح المجتمع، ورفع الظلم عن المظلومين، قبل ان يجتاح الطوفان جميع العالمين. قال الامام الخميني ـ رحمه الله ـ: «فواجب العلماء وجميع المسلمين ان يضعوا حدا

لهـذا الظلم، وأن يسعوا من اجل سعادة الملايين من الناس» (الحكومة الاسلامية - ص٣٧). ولـذلك فإن مسئـولية علمـاء المسلمين اليـوم؛ هي مـواصلة رسـالة الاسـلام الانسانية الاخـلاقية العـالمية، وذلك بإرسـاء الفضـائل واشاعتهـا، ونبذ الرذائل ومحاربتها.

▣ كمـا ان من واجب علمـاء المسلمين، ان يبلغـوا دعوة الاسلام الى الناس اجمعين، ليسعـد بهـا المـؤمنـون، ويستظل بظلها الخلق اجمعون. وقد امر الله - تبـارك اسمـه - نبيه الكريم (ص) بذلك بقوله: «يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فمـا بلغت رسـالتـه» (المائـدة٦٧). وعلماء المسلمين هم ورثة نبيهم. وذلك فإن واجبهم ان يبلغوا دعوته، ويواصلوا رسالته.

▣ ان علمـاء المسلمين اليـوم؛ هم الامة التي عنـاهـا اللـه جل شأنـه بقولـه: «ولتكن منكم امة يدعـون الى الخيـر ويـأمـرون بالمعـروف وينهـون عن المنكـر واولئك هم المفلحـون» (آل عمران١٠٤). فيجب على علماء المسلمين ان يقتدوا برسـولهم الامين (ص)، في الـدعـوة الى الله والصدع بأمره مهما تكن المعوقات، كما ان عليهم ان يتحملوا النتائج مهما تكن التحديات. فهم ورثة النبي (ص) الذي قال الله له: «فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين» (الحجر٩٤).

▣ ان تقـاعس علمـاء المسلمين اليوم عن تحمل مسئولياتهم، هو الذي جرا الظلمة في المجتمعـات المختلفة على البعث بحريـات النـاس، والاعتـداء على ارواحهم وممتلكاتهم. فأين هم العلمـاء المخلصون: «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه، ولا يخشون احدا الا الله، وكفى بالله حسيبا» (الاحزاب٣٩).

▣ وقـد نعى اللـه على الاحبـار والـرهبـان من علمـاء بني اسـرائيل، الذين تقـاعسـوا عن الـدعـوة الى اللـه، وهم يـرون الكثيرين من قومهم، يقترفون الآثام

ويسـارعـون الى الحـرام. وفي ذلك يقـول رب العـالمين: «لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم واكلهم السحت، لبئس ما كانوا يصنعون» (المائدة٦٣).

◘ يجب ان يتعظ المسلمـون ـ والعلمـاء منهم على وجـه الخصـوص ـ بما فعل اللـه بـالذين كفـروا من بني اسـرائيل الذين لم يكن احد منهم ينهى احدا عما يقتـرف من المحرمـات، او يجترح من الآثام والسيئات. ولذا فقد صب الله عليهم غضبه، والحق بهم لعنته. قال تبارك اسمه: «لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسـان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بمـا عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» (المائدة٧٨ـ٧٩).

◘ ان المنهج الاسـلامي المتمثل في كتاب الله جل شأنه وسنة رسوله(ص)، يجب ان يجـد طريقـه الى النـاس اجمعين، فانـه رحمة الله بهم، وموعظته اليهم، وهـداه الـذي تفضل بـه عليهم. وان مسئـولية ذلك تقع على عـواتق علمـاء المسلمين، فهم ورثة رسـول اللـه(ص)، وهم العارفـون بكتاب الله. وقد انتدبهم اللـه لحمل رسـالتـه. فـاذا التـزمـوا بـذلك فازوابخير الجزاء واجزل العطاء، واذا نكصـوا اوشك اللـه ان يجازيهم بما جازى به احبار بني اسرائيل، الذين عاب الله ذلك عليهم، لأنهم ـ كمـا قال الامام ابو عبدالله الحسين ـ رضي الله عنه: «كانوا يـرون من الظلمة الذين بين اظهـرهم المنكر والفساد، فلا ينهونهم عن ذلك، رغبة فيمـا كانـوا ينـالـون منهم، ورهبة ممـا يحـذرون» (الامـام الخميني ـ الحكـومة الاسلامية ـ ص١٠٤).

◘ لقـد حرص الاسلام على تبليغ منهجه الرباني للناس جميعا. وفي ذلك ما فيـه من اللمسـات الانسانية الحانية. ففيـه العـدل الذي لايستقيم امر الناس الا به، وفيـه الحرية والمسـاواة اللتـان لايستغني الناس عنهما. وباختصار: فيه رحمة الله

بعبـاده اجمعين، مصداقـاً لقوله ـ جل شأنه ـ لرسوله الامين(ص): «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» (الانبياء١٠٧).

▣ المنـــاهج الاخـــرى تُميّـــز أتبـاعهـا عن بقية النـاس، كمـا تفعل الصليبية والشيـــوعية والصهيـونية، التي تجعل الامـريكـــان والانجليـز وبقية الغربيين، او الصهـاينة والشيـوعيين وغيـرهم من الملحدين، تجعل منهم انـاسـا متميزين عن المسلمين وغيـــرهم من الافـارقة والآسيويين. فـدم هـؤلاء مهـدور، ودم اولئك محـروس ومخفـور، وذنـوب هؤلاء تستحق شديد العقاب، وجرائم اولئك ليس عليها اي حساب.

▣ امـا المنهج الاسـلامي فهـو منهج انساني، يحفظ لجميع النـاس حقوقهم، ويقف حربـا على الذين يظلمـو ن العباد، او يعيثون في الارض الفساد. فالمساواة بين النـاس ـ مثـلا ـ هي اقـرار بانسانيتهم، وحفظ لكـرامتهم، وتكريم لآدميتهم، ولـذلك جعلها الاسلام فرضا من فروضه، وقاعدة من قواعده «ان الله يأمر بالعدل والاحسـان وايتاء ذي القربى، وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون» (النحل٩٠).

▣ وكما يحرص الاسلام على حقوق الافراد والجماعات، فهو يحرص على حقـوق الامم والشعـوب، ويجعل من اتباعـه اناساً متسامحين مع البشر اجمعين، كمـا يجعل من منهجـه رحمة للعـالمين. وفي هـذامظهر مضيء لانسانية الاسلام ورحمتـه، وتعبير واضح عن شموليته وعالميته. فهو القانون الذي تصغر امامه بقية القوانين، وهو المنهج الذي تتضاءل عنده مناهج الآخرين.

▣ ومن ارقى سمـات الاسـلام الانسانية وصفاتـه العـالمية؛ اكـرامـه للـرسل والانبيـاء السابقين، واعترافـه بالكتب والاديان التي انزلها الله للناس الاقدمين. بل

واشتراطـه على اتباعه ـ حتى يقبل منهم الايمان، ان يؤمنوا بتلك الكتب واولئك الـرسل، الذين جـاءوا للناس في قديم الزمان. قال رب العالمين في صفة المؤمنين الصـادقين: «والذين يؤمنـون بمـا أنـزل اليك ومـا أنـزل من قبلك وبـالآخـرة هم يوقنون»(البقرة٤).

▣ ثم ان الايمان بالرسل السابقين والكتب التي نزلت عليهم من رب العالمين، ليس متروكـا لاختيار المؤمنين، ولكنه فرض عليهم اجمعين. وفي ذلك يقول لهم رب العـالمين: «قـولـوا آمنـا باللـه وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحـاق ويعقـوب والاسبـاط ومـا أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم ، لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون» (البقرة١٣٦).

▣ ولا يكتفي الاسـلام بدعـوة اتباعه الى الايمان بالرسل السابقين ـ صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين، بل انه يأمرهم ويغرس في نفوسهم الا يفرقوا بينهم، اشـاعة لانسانية الاسـلام، وتكريسا لشموليته، وتقريراً لعالميته،: «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين احد من رسله، وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير» (البقرة٢٨٥).

▣ وكيف يقبل الاسـلام التفريق بين الـرسل ومصـدر رسـالاتهم واحـد، هو الـوحي الالهي الكريم؟! انـا اوحينـا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده، واوحينـا الى ابـراهيم واسمـاعيل واسحـاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا (النساء١٦٣).

▣ ان الاسـلام دين انسـاني عـالمي، يحب الخيـر للنـاس اجمعين، ويـأمـر نبيـه(ص) وجميع المسلمين، بأن يسالموا الذين يسالمونهم: «وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم» (الانفال٦١).

▣ وليس المقصود بذلك هذا السلام الاعرج، الذي يدعو اليه الصهاينة والامريكان اليوم، فهم يحتلون ارض المسلمين ويستترفون خيراتهم، ويتآمرون عليهم في فلسطين وفي غير فلسطين، ثم يدعون العرب والمسلمين الى السلام. وهي دعوة مرفوضة حتى يرحلوا عن ارضنا، ويكفوا عدوانهم عن اهلنا.

▣ ان الاسلام يرفض عدوان المعتدين، كما يرفض الاعتداء على الآخرين. فهو رمز التسامح الديني، ورمز حب التعايش الاجتماعي، ورمز الانسانية التي تحب الخير للناس اجمعين، وتعترف بحقوق الآخرين، حتى ولو كانوا مخالفين.

▣ وقد عج التاريخ بالشواهد الحية على انسانية الاسلام، التي مثلها رموزه الكرام في تعاملهم مع الناس اجمعين. فهاهو ذا رسول الله(ص) ينصف اليهودي من نفسه، رغم انه اساء اليه وهو يطلبه بدين عليه.

▣ وهاهو ذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يجعل لليهودي العجوز نصيبا من بيت مال المسلمين، حين وجده بلا معيل. كما ينصف الفتى القبطي من ابن احد ولاته الكبار، ويطلق قولته التي اضاءت جنبات التاريخ: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا؟!»

▣ وهاهو ذاامير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ يساوي نفسه امام القضاء بخصمه اليهودي، مما سطره تاريخ القضاء بأحرف من نور،لرموز الاسلام الذين يمثلهم الامام، وهاهو ذا ـ رضي الله عنه ـ كذلك، يظفر بعدد من الخوارج الثائرين عليه المسيئين اليه، فتتحرك جوانب الانسانية الاسلامية في نفسه الزكية، فيطلق سراحهم ويحسن اليهم، تطبيقا عمليا رائعا لقول الرحمن الرحيم: «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» (آل عمران١٣٤).

▣ ألا فليت الذين اعماهم طيشهم عن هذا الاسلام العظيم، واجتالتهم

شياطينهم عن منهجه القومى، فلوثوا الآدمية، ودنسوا الانسانية، ولجوا في الحياة البهيمية، فلا عدل ولا مساواة، حتى قامت الصراعات والحروب، وتوالت الويلات والخطوب، واظلمت المسالك والدروب، ولم يعد احد يأمن على عرضه او ارضه، او ماله او عياله، او خيراته او مقدساته. وتحولت الارض الى غابة للاقوياء، وسحقت فيها انسانية الضعفاء، واستشرى الظلم في انحائها صباح مساء، و تحقق فيها قول العليم الخبير: «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس» (الروم٤١).

▣ ليت هؤلاء يلوذون بحمى الاسلام، كما لاذ به العقلاء والمخلصون، فيسعدوا كما سعد الاولون، ويحظوا بالامن الذي ينشدون، ويتحقق فيهم قول رب العالمين: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض، كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ويبدلنهم من بعد خوفهم آمنا، يعبدونني لايشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» (النور٥٥).

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الحديث الشريف.

٣ ـ ارشـاد العقل السليم، الى مزايـا القـرآن الكريم. المعـروف بتفسيـر ابي السعود (المتوفي سنة٩٥١هـ)

٤ ـ تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير (المتوفي سنة٧٧٤هـ).

٥ ـ الحكـومة الاسـلامية ـ الامـام آية اللـه الخميني ـ دار الطليعة للطبـاعة والنشر ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ابريل / نيسان١٩٧٩م.

٦ ـ الحكـومة الاسـلامية ـ الامـام ابـو الاعلى المـودودي ـ تـرجمة احمد ادريس ـ الدار السعودية للنشر والتوزيع١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٧ ـ زبدة التفاسير ـ الشيخ محمد الاشقر.

٨ ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام (المتوفي سنة٢١٨هـ).

٩ ـ سيـر اعـلام النبـلاء ـ للـذهبي (المتـوفي سنة٧٤٨هـ). الطبعة الرابعة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م.

١٠ ـ عناصر القوة في الاسلام ـ السيد سابق ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١١ ـ فقـه السيـرة ـ محمـد الغـزالي ـ دار القلم ـ دمشق، والـدار الشـامية ـ بيروت الطبعة السادسة١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

منهج الإسلام في إقرار

المساواة بين الناس

✍ جعفر العذاري

قم ؛ ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـد :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد الكائنات محمد و عـلى آله وصحبه .

انّ الانسان هو الوجود المحوري الذي تدور حوله المفاهيم والقـيم الاسـلامية، امتاز بالتكريم على سائر الوجودات؛ بالعقل والاستخلاف وتسخير ما في الكـون له وحده، وقد خُلق لاقرار منهج الله تعالى في الحياة، وتحقيقه في صورة عـملية ذات مظاهر منظورة، تترجم فيها المفاهيم والنصوص الى مشاعر عملية و اعمال حـركية، وقد راعى الاسلام في ذلك الطبيعة الانسانية التي بقيت محافظة عـلى خـصائصها و ذاتياتها، كما أرادها الله تعالى، فلم يبدلها أو يعطلها، وكان ناظراً للانسان بما هو انسان بلا صفة اضافية خارجة عن تلك الطبيعة، لذا جاءت توجيهاته لتساوي بين الناس، و تقرّر هذه المساواة في واقع الحياة، فالناس مخلوقون لله تعالى، متساوون في أصل الخلقة و النشأة، فأصلهم حفنة طين و نفحة روح، متساوون في التكـريم والحـرية

والارادة، و تجري عليهم السنن بلا تمييز، وهم متساوون في الحقوق المقوّمة للحياة و ادامتها. و المسلمون باعتبارهم أحد الشرائح الانسانية متساوون مع غيرهم في الانسانية، ومع أبناء دينهم بالانتماء الى منهج واحد، قرّر المساواة فيما بينهم باضافة خاصية الاسلام الى الانسانية .

ومن هذا المنطلق فهم مأمورون بازالة ما يربك هذه الحقيقة و يشيع الاضطراب و القلق في العقول و النفوس و المواقف، وبالالتقاء في المحور المشترك دون النظر الى الهوية المذهبية، فهم أخوة على دين واحد ومنهج واحد، وهم مأمورون بالعمل الدؤوب لاعادة مجدهم و عزتهم بوحدة مواقفهم، وبالانفتاح مع بقية بني الانسان المرتبطين معهم برابطة الانسانية، والمتساوين معهم في الجنس البشري، ليكون المنهج الالهي هو الحاكم على مفاهيم و قيم الناس جميعاً .

وفي بحثنا هذا نستعرض مفاهيم و قيم الاسلام في اقرار المساواة بين الناس، و نوزع البحث على فصول:

الاول : المساواة في الخصائص الذاتية و التصوريّة .

الثاني: المساواة في الحقوق العملية .

الثالث : المساواة أمام أسس و موازين التفاضل .

وندعو الله تعالى ان يعمق روح الاخوة بين المسلمين بوحدة المواقف العملية اتجاه بعضهم، و روح الاخوة الانسانية مع غيرهم، وان يتناسوا مآسي الماضي التي لا دخل لهم في ارتكابها، ولا مسؤولية على الحاظرين في نشوئها، وان ينطلقوا انطلاقة الصحابة الاوائل في علاقاتهم الاخوية وارتباطاتهم العملية في حمل همّ الاسلام وهمّ الامة، حيث استطاعوا بناء الحضارة الشامخة في أقل من نصف قرن، و شيّدوا مجد الاسلام و عزة المسلمين .

الفصل الاول : المساواة في الخصائص الذاتية والتصورية

المساواة في غريزة التدين و الانتساب للخالق

انّ المنهج الاسلامي لم ينشأ في فراغ، ولم يتحرك في فراغ، و لم ينشأ في قوالب و مظاهر مثالية، و انما ينشأ في الواقع الموضوعي للحياة، و ينطلق في النفس الانسانية من أعماقها و أغوارها و مشاعرها الباطنية، فهو منهج واقعي ناظر الى واقع الانسان من حيث هو انسان بما يحمل من غرائز روحية و مادية؛ ولهذا فهو يساوي بين الناس في ايداع أهم الغرائز في ذواتهم، وهي غريزة التديّن و الشخوص نحو المطلق، فهم متساوون في ذلك، و متساوون في التأثر الوجداني بعالم الغيب، قال المسيو بوشيت:

«ان اعتقاد الافراد و النوع الانساني بأسره في الخالق اعتقاداً اضطراراً قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده، مهما صعد الانسان بذاكرته في تاريخ طفوليته، فلا يستطيع أن يجد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق، تلك العقيدة التي نشأت صامته و صار لها اكبر الآثار في حياته»[1].

والايمان بالله تعالى مودوع في اعماق الضمير الانساني، قال برودون:

«ان ضمائرنا قد شهدت لنا بوجود الله قبل أن تكشفه لنا عقولنا»[2].

وغريزة التدين مشتركة بين الناس جميعاً كما ورد في معجم لاروس للقرن العشرين:

«انّ الغريزة الدينية مشتركة بين كل الاجناس البشرية، حتى أشدها همجية، و أقربها الى الحياة الحيوانية ... وانّ الاهتمام بالمعنى الالهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى

---

١) دائرة معارف القرن العشرين ١ / ٤٨٣ ، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٢) م . ن ١ / ٤٨٣ .

النزعات العالمية الخالدة للانسانية[١].

وقال باسكال:

«...كل شيء غير الله لا يشفي لنا غليلاً»[٢].

وقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة بقوله:

﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولُنّ الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[٣].

والناس جميعاً مجبولون بفطرتهم على الايمان بالخالق تعالى، حيث تبدأ تساؤلات الانسان منذ صغره عن نشوء الكون و نشوئه هو فلا فرق بين انسان و آخر في الايمان بهذه الحقيقة فالجميع متساوون منذ الخلقة الاولى والى يومنا هذا.

و الناس متساوون في الانتساب الى الله تعالى فهو خالقهم و خالق جميع ما في الكون، وهم متساوون في الشعور بانّه خالق مطلق، له احاطة تامة بالعالم كلّه، و بالأرض كلها، وبالناس كلهم، يعلم ما يحيط بالانسان، وهو المهيمن على سكنات النفوس و حركاتها، و ما تخفي الصدور ، واليه تعالى المصير، فهو المبدأ وهو المنتهى.

و الناس متساوون في موجبات الهداية، و موحيات الايمان، فهي ممتزجة بكيانهم الذي زودته بهم الفطرة والعقل السليم، فكل ما في الكون يدل على وجوده تعالى، وقد بيّن لهم تعالى ما يدل عليه من خلال التفكر في الكون و الحياة وفي أنفسهم .

وهم متساوون في الرأفة و الرحمة الالهية، قال تعالى:

---

١) الدين : ٨٢ ، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ١٣٩٠ هـ.

٢) دائرة معارف القرن العشرين ١ / ٤٨٢ .

٣) لقمان / ٢٥ .

﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾[١].

وقال أيضاً :

﴿ انّ الله لطيف بعباده ﴾[٢].

وهم متساوون في وصول العطاء الالهي بمقدار ما في الموجود الانساني من درجة و قابلية لتقبل ذلك العطاء.

فالخالق الذي يتساوون في الانتساب اليه واحد غير متعدد، قال تعالى :

﴿ والهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم ﴾[٣].

المساواة في الخصائص الانسانية

الناس متساوون في خصائصهم الانسانية، فقد خلقهم الله تعالى من مصدر واحد، لا فرق بينهم ولا تمييز من حيث النشأة والابتداء، قال تعالى :

﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ خلق الانسان من علق ﴾[٥].

والناس جميعاً خُلقوا من ذكر وانثى، فلا فرق بين عنصر و عنصر، و سلالة و اخرى، ولا تمييز بين لون ولون، قال تعالى:

﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر و انثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا...﴾[٦].

---

١) البقرة / ٢٠٧.

٢) الشورى / ١٩.

٣) البقرة / ١٦٣.

٤) المؤمنون / ١٢.

٥) العلق / ٢.

٦) الحجرات / ١٣.

وقال تعالى: ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة ... ﴾[١].

فلا موجب للتمييز، فالخالق واحد، والاب واحد، والمصدر واحد، قال رسول الله(ص):

«أيها الناس ان ربّكم واحد و انّ أباكم واحد، كلكم لآدم و آدم من تراب...»[٢].

وهم متساوون في الخلق كما قال الامام علي (ع):

«... فانهم صنفان: أما أخ لك في الدين، و أمّا نظير لك في الخلق»[٣].

والناس متساوون في الخصائص الانسانية، فالناس جميعاً لهم طبيعة خاصة متساوية عند الجميع، فهم مركبون من جسد و عقل و نفس و روح، و من غرائز و شهوات واحدة، وهم متساوون في الضعف والمحدودية، قال تعالى:

﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً ﴾[٤].

وهم متساوون في الصفات المرافقة لضعف الانسان و محدوديته، قال تعالى:

﴿ وكان الانسان عجولاً ﴾[٥].

﴿ ... وكان الانسان قتورا ﴾[٦].

﴿ وكان الانسان أكثر شيء جدلاً ﴾[٧].

---

١) الانعام / ٩٨.

٢) تحف العقول / ٢٤، ابن شعبة الحرّاني، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٣٨٠ هـ، ط ٥.

٣) شرح نهج البلاغة ١٧ / ٣٢، ابن أبي الحديد، مطبعة عيسى الحلبي، مصر، ١٩٥٩ م.

٤) النساء / ٢٨.

٥) الاسراء / ١١.

٦) الاسراء : ١٠٠.

٧) الكهف : ٥٤.

(ولئن أذقنا الانسان منّا رحمة ثم نزعناها منه إنّه ليؤس ﴾[١].

(انّ الانسان خُلق هلوعاً إذا مسّه الشرُّ جزوعاً و إذا مسّه الخير منوعاً ... ﴾[٢].

فالناس جميعاً يمتازون بالضعف و المحدودية، والافتقار الى الخالق تعالى:

(يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله و الله هو الغنيّ الحميد ﴾[٣].

والله تعالى هو الذي جعل للانسان جوارحه :

﴿قل هو الذي أنشأكم و جعل لكم السمع و الابصار والافئدة قليلا ما تشكرون﴾[٤].

و جعلهم متساوون في العقول و المشاعر والاحاسيس، بلا فرق بين انسان و انسان، و لا ميزة لسلالة على سلالة، ولا لعنصر على عنصر، ولا لعقيدة على عقيدة يتمي اليها الانسان، فالجميع متساوون من حيث خصائصهم الذاتية، أمّا انعكاس هذه الصفات في الواقع العمليّ فانها متوقفة على درجات التفاعل مع المؤثرات الخارجية الخارجة عن الخصائص الانسانية .

وهم متساوون في حبّ الشهوات :

(زيّن للناس حبُّ الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسوّمة والانعام و الحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ... ﴾[٥].

والناس متساوون في الموت و الحياة و البعث و النشور .

---

١) هود : ٩ .

٢) المعارج : ١٩ .

٣) فاطر / ١٥ .

٤) الملك : ٢٣ .

٥) آل عمران : ١٤ .

وهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، ولا يعلمون ما يجري في المستقبل عليهم من حيث الحياة والرزق و الموت، فهم متساوون في جميع ما يتعلق بـالانسان مـن خصائص ذاتية و طبعية جسدية و روحية نفسية و عقلية، و متساوون في الضعف و الكينونة المحدودة، بلا فرق بينهم.

المساواة في الحرية

الناس متساوون في الحرية، فالانسان خلق حرّاً، فلا عبودية ولا استعباد ولا رقّ، قال تعالى:

﴿ ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب و الحكم و النبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ﴾[١].

فلا يحق للانسان وان كان في قمة التمتع بالخصائص المعنوية والروحية أن يستعبد غيره، فالانسان مولود ترافقه الحرية في جميع مراحل حياته، وقد خلقه الله تعالى على هذه الشاكلة، قال الامام علي (ع):

«ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً»[٢].

وقال (ع):

«ان آدم لم يلد عبداً ولا أمة، وانّ الناس كلهم أحرار»[٣].

وإذا كانت الظروف الخارجية و خصوصاً ظروف الحرب تستدعي استرقاق الآخرين فانها ظاهرة استثنائية تعود الى الاصل فور تغير الظروف الخارجية و تغير ظروف الانسان نفسه، ولهذا نهى رسول الله (ص) عن استخدام مصطلح العبد والأمة

---

١) آل عمران : ٧٩.

٢) تحف العقول : ٥٢.

٣) الكافي ٨ / ٦٩، الكليني، دار صادر، بيروت، ١٤٠١ هـ.

في حال الاسترقاق الطارئ، قال (ص):

«لا يقولنّ أحدكم: عبدي و أمتي، كلكم عبيدالله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي و فتاي وفتاتي»[١].

فالناس أحرار في علاقات بعضهم ببعض، وهم عبيداً الى الله وحده، و متساوون في هذه العبودية التي تستلزم نفي جميع الوان العبودية لغيره تعالى، وان كان مقرباً اليه تعالى طبقاً لموازين و معايير التقريب كأن يكون رسولاً منه الى البشرية:

﴿ و إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أ أنت قلت للناس اتخذوني و أمّي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ ... ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أنِ اعبدوا الله ربّي و ربكم ... ﴾[٢].

و حينما اشكل بعض اليهود على رسول الله (ص) من انه يريد منهم أن يعبدوه كما تعبد النصارى عيسى بن مريم أجباهم (ص):

«معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره»[٣].

فقد أمر الله تعالى الناس أن يعبدوه وحده، كما هو ظاهر في الآيات الشريفة التالية:

﴿ وما أُمروا إلاّ ليعبدوا الهاً واحداً لا إله إلاّ هو ﴾[٤].

﴿ وما أُمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين ... ﴾[٥].

﴿ اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ﴾[٦].

---

١) صحيح مسلم ٤ / ١٧٦٤ ، دار الفكر ، بيروت، ١٣٨٩ هـ، ط ٢.

٢) المائدة : ١١٦ ، ١١٧.

٣) السيرة النبوية ٢ / ٢٠٢ ، ابن هشام .

٤) التوبة : ٣١ .

٥) البينة : ٥ .

٦) الاعراف / ٥٩ .

فهم متساوون في العبودية لله تعالى التي تستلزم نفي عبادة غيره من عبادة للهوى أو الأنا أو عبادة الاصنام البشرية، أو عبادة أصحاب المؤهلات الكبيرة كـالانبياء و أوصيائهم والرهبان والقساوسة أو عبادة الأبطال الذين لهم دور في حركة التـاريخ الانساني.

وعبّر القرآن الكريم عن جميع الشخصيات النموذجية بالعبيد مساواة لغيرهم من بني الانسان في العبودية لله، و نفى العبودية لغيره تعالى، و تأكيداً منه لحرية الانسان و المساواة في هذه الحرية بين جميع أفراده.

﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ﴾[1].

﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنّه كان عبداً شكوراً ﴾[2].

﴿ واذكر عبدنا أيوب ... ﴾[3].

﴿ ... واذكر عبدنا داود ذا الأيد ... ﴾[4].

﴿ وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ... ﴾[5].

والمساواة في الحرية تستلزم تحرير الانسان من جميع الاغلال والقيود إلاّ ما قيّده الله تعالى بها، تحرره من اغلال التحجر العقلي و التقليد الجامد، و التبعية اللاوعـية للغير، و تربي الانسان على حرية التفكير واستقلال الارادة.

---

١) النساء: ١٧٢.
٢) الاسراء: ٣.
٣) ص: ٤١.
٤) ص: ١٧.
٥) البقرة: ٢٣.

المساواة في التكريم

الانسان مخلوق مكرّم من قبل الله تعالى، وقد أكدّ الاسلام هذا التكريم، فهو من خصائص الانسان الممنوحة له من قبل خالقه، فهو بنفسه و ذاته مكرّم دون أي اضافة صفة خارجة عن ذاته قائمة على أساس الاعتقاد أو الانتماء القومي أو الانتماء العنصري، فلا تمييز على الاسس الخارجة عن ذاته، فالانسان يساوي أخاه الانسان في التكريم بما منحه الله تعالى من روحه، وما أمر الملائكة بالسجود له:

﴿ إنّي خالق بشراً من طين فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[١].

وقد كرمه تعالى بأن خلقه في أحسن تقويم :

﴿ ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾[٢].

﴿ يا أيها الانسان ما غرّك بربّك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ﴾[٣].

و كرّمه الله تعالى بحمله للامانة :

﴿ إنّا عرضنا الامانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها و أشفقنَ وحملها الانسان ﴾[٤].

والناس متساوون في حمل الامانة بلا فرق ولا تمييز على أساس عنصري أو لغوي أو أي صفة اضافية .

---

١) ص : ٧١، ٧٢ .

٢) التين : ٤ .

٣) الانفطار : ٦ – ٨ .

٤) الاحزاب : ٧٢ .

و الناس متساوون في تكريمهم بالخلافة الالهية :

﴿ و إذ قال ربك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة ... ﴾[١].

والناس متساوون في التمتع بتكريم الله تعالى لهم، بتسخيره لما في الأرض لهم جميعاً :

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾[٢].

﴿ و سخّر لكم ما في السماوات و الأرض جميعاً ﴾[٣].

فالجميع لهم حق الاستثمار والتعمير والاستفادة من الامكانيات المسخرة لهم لادامة الحياة وادامة الحركة التاريخية، فالتكريم في هذا المجال شامل للجميع لا فرق بينهم، وقد أكد رسول الله (ص) ذلك في نفيه للتكريم القائم على اسس اضافية وخارجة عن ذات الانسان، فقال (ص):

«أمّا بعد فإن ناساً يزعمون أن كسوف الشمس، و كسوف هذا القمر، و زوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، وانهم قد كذبوا، ولكنها آيات من آيات الله يعتبر بها عباده؛ لينظر من يحدث له منهم»[٤].

فالناس مكرمون جميعاً من الله تعالى، فليس هنالك قيمة تعلو على قيمة الانسان أو تهدر من أجلها قيمته، فالكرامة ذاتية له مادام انساناً، فهي ناظرة الى انسانيته الذاتية دون أي اعتبار لسائر الخصوصيات الاخرى، إلاّ التكريم الموضوع من قبل الله تعالى .

---

١) البقرة : ٣٠ .

٢) البقرة : ٢٩ .

٣) الجاثية : ١٣ .

٤) الدر المنثور ٣ / ٣٢٩ .

المساواة في التكليف و الجزاء

الناس جميعاً متساوون في التكليف الالهي في الحياة الدنيا، و متساوون في الجزاء من ثواب و عقاب في الدار الآخرة، دون تمييز و تفريق أو ترجيح، فالجميع مكلفون بالايمان بالله والايمان باليوم الآخر، بعدما تبرز لهم البينات، و تتضح لهم البراهين، بانهم حادثون و مخلوقون للمطلق العليم، وقد جعلهم الله تعالى متساوين في الاطلاع على البينات والبراهين والادلة، فهو يخاطب فطرتهم وعقولهم ليحرك دفائنها، و يثير كوامن النفس للاستسلام للحقائق التي توصل الى معرفته تعالى، قال تعالى:

﴿ أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أ إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[2].

ولم يكلف الله تعالى الناس حتى بعث النبيين والمرسلين، وكان آخرهم نبينا محمد(ص) الذي بعث الى الناس جميعاً لارشادهم والقاء الحجة عليهم في الهداية، فهو لم يبعث لقوم دون قوم ولا للون دون لون وانما للناس على مختلف خصائصهم و صفاتهم الخارجة عن ذواتهم، كما ورد في الآيات الكريمة :

﴿ قل يا أيّها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعاً ﴾[3].

﴿ وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً و نذيراً ﴾[4].

---

١) النمل : ٦٤.

٢) الحشر : ٢١.

٣) الاعراف : ١٥٨.

٤) سبأ : ٢٨.

﴿ قل يا أيّها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾[١].

وبدأ رسول الله (ص) بتبليغ الرسالة الالهية إلى الناس جميعاً الى العرب والعجم والى الوثنيين وأهل الكتاب بلا فرق ولا تمييز .

وقال (ص): «أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد من قبلي، كان كل نبي يبعث الى قومه خاصة، وبعثت الى كل أحمر و أسود ....»[٢].

و الناس متساوون في التكليف حسب الطاقة الانسانية المحدودة، قال تعالى:

﴿ لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[٥].

فالناس متساوون في التكليف في الاصول والفروع، فهم مكلفون بالعقيدة والشريعة على حد سواء، وقد جعل الله تعالى هذه الحياة قنطرة للحياة الاخرى التي يتساوى الناس فيها في الجزاء، وكل منهم يجد ما عمله أمامه، وقد خاطب القرآن الكريم الناس جميعاً بذلك :

﴿ يا أيّها الانسان إنك كادح إلى ربّك كدحاً فملاقيه ﴾[٦].

والله تعالى جامع الناس بلا تمييز لليوم الآخر :

---

١) الحج : ٤٩ .
٢) صحيح مسلم ١ / ٣٧٠.
٣) البقرة : ٢٨٦ .
٤) الحج : ٧٨ .
٥) البقرة : ١٨٥ .
٦) الانشقاق : ٦ .

﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه انّ الله لا يخلف الميعاد ﴾[١].

فلكل الناس جزاؤهم :

﴿ ولتجزى كل نفس بماكسبت وهم لا يظلمون ﴾[٢].

فللمحسنين جزاؤهم و للمسيئين جزاؤهم :

﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[٣].

فهم متساوون في ذلك اليوم بلا تمييز لعنصر على عنصر أو جماعة على جماعة، فالجنة مثوى المؤمنين الصالحين، والنار مثوى الكافرين والطالحين وان انتسبوا الى الانبياء بأن كانوا أبناءهم أو بناتهم أو نساءهم، أو ينتمون الى لغتهم أو قوميتهم أو عنصرهم .

المساواة في الارادة والاختيار

خلق الله تعالى الناس وهم أحرار في ارادتهم و اختيارهم؛ في الاعتماد به والالتزام برسالته، وهم متساوون في حرية الارادة والاختيار، فالله تعالى منحهم العقول والغرائز ليتوصلوا من خلال الآيات والبينات الى اتخاذ المنهج الالهي في الحياة، في عقولهم و نفوسهم و مواقفهم، وهم بعد القاء الحجّة لهم حق اختيار ما يرونه من منهج، بلا اكراه ولا اجبار، قال تعالى:

﴿ إنّا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً و إمّا كفورا ﴾[٤].

---

١) آل عمران : ٩ .

٢) الجاثية : ٢٢ .

٣) النجم : ٣١ .

٤) الانسان : ٢ ، ٣ .

والناس متساوون في هدايتهم لنجد الخير و نجد الشر:

﴿ وهديناه النجدين ﴾[1].

والناس أحرار فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ظلّ فانّما يظل على نفسه:

﴿ قل يا أيّهاالناس قد جاءكم الحقُّ من ربّكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ظلَّ فإنّما يضلُّ عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾[2].

فإذا تمت للناس عناصر الهداية ثم انحرفوا عنها غروراً و طغياناً و كبراً فان الله يتركهم و شأنهم ولا يتدخل لهدايتهم لانهم مخيّرون لا مسيّرون.

و الناس متساوون في اصلاح نفوسهم و عدمها، فقد الهَمَ الله تعالى كل نفس عناصر الفجور والتقوى، ثم رسم لها طريق الصلاح والطلاح، والأمر عائد للانسان نفسه:

﴿ و نفس وما سواها فالهما فجورها و تقواها قد أفلح من زكاها و قد خاب من دسّاها ﴾[3].

المساواة أمام السنن الالهية

جعل الله تعالى للحياة الانسانية سنناً ثابتة لا تتبدل ولا تتغيّر ولا تختلف، فجعل النتائج تستتبع المقدمات، و جعلها حاكمة على حركة الناس، وهم متساوون أمامها دون فرق أو تمييز، فالله تعالى لا يغيّر ما بهم حتى يغيّروا ما بأنفسهم:

﴿ إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾[4].

---

١) البلد: ١٠.

٢) يونس: ١٠٨.

٣) الشمس: ٧ – ٩.

٤) الانفال: ٥٣.

ومن السنن الثابتة التي يتساوى أمـامها النـاس جـميعاً، هـي التـمتع بـالبركات و الحرمان منها :

﴿ ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بماكانوا يكسبون ﴾[١].

وانّ الله تعالى يبتلي الناس دون تمييز امة عن امة وقوم عن قوم ولون عن لون، لكي يعودوا إلى الايمان به والاستقامة على منهجه، قال الامام علي(ع) :

«إنّ الله يبتلي عباده عند الاعمال السيئة بنقص الثمرات و حبس البركات واغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب و يقلع مقلع و يتذكر متذكر و يزدجر مزدجر»[٢].

والناس متساوون في العقوبة الالهية ان غيّروا حركة التاريخ المتوجهة نحو الكمال و السمو، قال تعالى:

﴿ إنّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بماكانوا يفسقون ﴾[٣].

الفصل الثاني
المساواة في الحقوق العملية

جعل الاسلام لجميع الناس حقوقاً و حرّم التعدي عليها، فلكل انسان حق خاص به، فهو حرّ في هذا الحق ما لم يصطدم بحق أو حقوق أخرى، فلا يطغى حق الفرد على حق المجتمع، ولا حق المجتمع على حق الفرد، ولا حق مجتمع على مجتمع

---

١) الاعراف : ٩٦.

٢) شرح نهج البلاغة ٩ / ٧٦.

٣) العنكبوت : ٣٤.

والناس متساوون في هدايتهم لنجد الخير و نجد الشر :

﴿ وهديناه النجدين ﴾[١].

والناس أحرار فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ظلّ فانّما يظل على نفسه :

﴿ قل يا أيّهاالناس قد جاءكم الحقُّ من ربّكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ظلَّ فإنّما يضلُّ عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾[٢].

فإذا تمت للناس عناصر الهداية ثم انحرفوا عنها غروراً و طغياناً و كبراً فان الله يتركهم و شأنهم ولا يتدخل لهدايتهم لانهم مخيّرون لا مسيّرون .

و الناس متساوون في اصلاح نفوسهم و عدمها، فقد الهَمَ الله تعالى كل نفس عناصر الفجور والتقوى، ثم رسم لها طريق الصلاح والطلاح، والأمر عائد للانسان نفسه:

﴿ و نفس وما سواها فالهما فجورها و تقواها قد أفلح من زكاها و قد خاب من دسّاها ﴾[٣].

المساواة أمام السنن الالهية

جعل الله تعالى للحياة الانسانية سنناً ثابتة لا تتبدل ولا تتغيّر ولا تختلف، فجعل النتائج تستتبع المقدمات، و جعلها حاكمة على حركة الناس، وهم متساوون أمامها دون فرق أو تمييز، فالله تعالى لا يغيّر ما بهم حتى يغيّروا ما بأنفسهم :

﴿ إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾[٤].

---

١) البلد : ١٠ .

٢) يونس : ١٠٨ .

٣) الشمس : ٧ – ٩ .

٤) الانفال : ٥٣ .

ومن السنن الثابتة التي يتساوى أمامها النـاس جـميعاً، هـي التـمتع بـالبركات و الحرمان منها :

﴿ ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بماكانوا يكسبون ﴾[١].

وانّ الله تعالى يبتلي الناس دون تمييز امة عن امة وقوم عن قوم ولون عن لون، لكي يعودوا إلى الايمان به والاستقامة على منهجه، قال الامام علي(ع) :

«إنّ الله يبتلي عباده عند الاعمال السيئة بنقص الثمرات و حبس البركات واغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب و يقلع مقلع و يتذكر متذكر و يزدجر مزدجر»[٢].

والناس متساوون في العقوبة الالهية ان غيّروا حركة التاريخ المتوجهة نحو الكمال و السمو، قال تعالى:

﴿ إنّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بماكانوا يفسقون ﴾[٣].

الفصل الثاني
المساواة في الحقوق العملية

جعل الاسلام لجميع الناس حقوقاً و حرّم التعدي عليها، فلكل انسان حق خاص به، فهو حرّ في هذا الحق ما لم يصطدم بحق أو حقوق أخرى، فلا يطغى حق الفرد على حق المجتمع، ولا حق المجتمع على حق الفرد، ولا حق مجتمع على مجتمع

---

١) الاعراف : ٩٦ .
٢) شرح نهج البلاغة ٩ / ٧٦ .
٣) العنكبوت : ٣٤ .

آخر، فالجميع متساوون في الحقوق على اختلاف أنسابهم وألسنتهم وقومياتهم ، وعلى اختلاف عقائدهم و دياناتهم، فلا فرق بين المسلم وغير المسلم، وفي داخل المجتمع الاسلامي لا فرق بين عربي ولا أعجمي، ولا شرقي ولا غربي، ولا جنس و جنس آخر، ومن أهم هذه الحقوق :

حق الحياة :

وهو من أكثر الحقوق أهمية و أولوية، فللانسان حق الحياة، وقد راعى الاسلام هذا الحق منذ بدء تكوين الانسان في مرحلة النطفة وفي سائر مراحل حياته، حتى يولد و يترعرع و يصبح انساناً بالغاً، فلا يجوز الاعتداء على هذا الحقّ، فلا يجوز قتل الانسان لمجرد اعتقاده أو انتمائه القومي والوطني ولا الطبقي، وقد جعل القرآن الكريم قتل انسان بمثابة قتل الناس جميعاً :

﴿ من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكانّما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكانّما أحيا الناس جميعاً ﴾[1].

وقد احتل هذا الحق مكانة مهمة في أدبيات القرآن وفي سنّة رسول الله (ص) وأصحابه وأهل بيته (ع)، فقد جاءت الأوامر والنواهي والتعاليم والارشادات لحفظ هذا الحق، وأكدت على ان قتل النفس المحترمة و اراقة دم الانسان يستلزم عقوبة في الدنيا بالقصاص أو الدية، وعقوبة الهية وخيمة في الآخرة .

حق الاعتقاد :

للناس جميعاً حق الاعتقاد بأي عقيدة شاؤوا، فلا اكراه ولا إرهاب ولا إجبار على ترك عقيدة معينة و تبني عقيدة جديدة، قال تعالى:

---

١) المائدة : ٣٢.

﴿ لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي ﴾[1].

فلم يقم الدين الالهي وخصوصاً الدين الاسلامي على أساس الاجبار والقسر، وانما قام على اساس التمكن والاختيار من خلال القاء الحجة، فلم يكره رسول الله (ص) أحداً على الايمان بالرسالة الخاتمة، وبقي الناس أحراراً في الانتماء العقائدي، و استمروا على هذا الحق في جميع مراحل مسيرة المسلمين التاريخية، ولا زال المجتمع الاسلامي يضمّ في صفوفه الناس المنتمين الى مختلف العقائد والديانات والتيارات الفكرية .

وكانت المشيئة الالهية في اختلاف الناس في العقائد، ولذا نهى تعالى عن الاكراه في تبني الاسلام:

﴿ ولو شاء ربُّك لآمن من في الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾[2].

ويلحق بحق الاعتقاد أن يتبنى المسلم أيّ مذهب كان من المذاهب الاسلامية المعروفة، فلا يجوز اكراهه على تبني مذهب معيّن .

حق التفكير و الرأي

أكّد القرآن على جعل التفكير فريضة، والآيات التي تأمر بالتعقل والتفكير قد بلغت العشرات، فلم يضع قيوداً أمام حركة الفكر السليم الذي يروم الحقيقة، بل دعا الى النظر في الكون والحياة والمجتمع والنظر في الانفس والآفاق، وقد تقدم ذكر بعض الآيات التي جاء في خاتمتها : «... يتفكرون ... تعقلون»، و نهى القرآن الكريم

---

١) البقرة : ٢٥٦ .

٢) يونس : ٩٩ .

عن التقليد الاعمى لانه يمنع العقل من التفكير السليم:

﴿ و إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان أباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾[١].

ولم يجوّز الفقهاء التقليد في أصول الدين ايماناً منهم بتحرير التفكير من التقليد .

فالناس جميعاً لهم حق التفكير وابداء آرائهم و وجهات نظرهم في مختلف العقائد والافكار، و المفاهيم والقيم، وفي تشخيص الاشخاص والمواقف والأحداث مع التقيّد باحترام حق الآخرين، فقد منح القرآن الكريم للناس حق النقاش و ابداء الرأي :

﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[٢].

و أمر الله تعالى رسول الله (ص) بالدعوة بالحكمة و الجدال بالحسنى :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[٣].

و دعا الى الحوار مع غير المسلمين و خصوصاً أهل الكتاب :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ... فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾[٤].

والدعوة الى الحوار تستدعي ابداء الرأي و طرح الافكار المنسجمة مع التفكير دون اكراه و اجبار .

وفي داخل المجتمع الاسلامي جعل الاسلام للمسلمين حق التفكير و ابداء الرأي

---

١) البقرة : ١٧٠ .

٢) النمل : ٦٤ .

٣) النحل : ١٢٥ .

٤) آل عمران : ٦٤ .

في مختلف القضايا والاحداث، فلهم حق الانتقاد والاعتراض والمحاسبة طبقاً لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الشامل لجميع مرافق الحياة و الشؤون الاجتماعية والسياسية، فقد كان المسلمون يعترضون حتى على رسول الله (ص) كما حدث في صلح الحديبية[1]، واعترض المسلمون على أبي بكر لاستخلافه عمر بن الخطاب[2] لانهم لم يتحملوا شدته عليهم.

واعترض الخوارج على الامام علي في التحكيم وبعده كما هو مشهور عند المؤرخين.

بل ان بعض النساء قد اعترضت على عمر بن الخطاب فاستمع لها و تنازل عن رأيه[3].

حق الأمان و الحماية

لجميع الناس حق الأمان على أنفسهم و اعراضهم و ممتلكاتهم ولهم حق الحماية من قبل الدولة الاسلامية، وقد سنّ الاسلام القوانين لحفظ هذين الحقّين، فحرّم الاعتداء بجميع ألوانه و مظاهره، قال تعالى:

﴿ ... ولا تعتدوا انّ الله لا يحب المعتدين ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ ... وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾[6].

---

١) السيرة النبوية لابن كثير ٣ / ٣٢٠.
٢) تاريخ الاسلام للذهبي : ١١٦.
٣) شرح نهج البلاغة ١٢ / ١٧.
٤) البقرة : ١٩٠.
٥) المائدة : ٨٧.
٦) آل عمران : ١٠٨.

و حرّم الاسلام الاعتداء على أعراض الناس؛ بالقول والفعل فحرّم القذف واشاعة الفاحشة والنظرة بشهوة والزنا و مقدماته، و حرّم التجسس على بيوت الناس والاطلاع على عوراتهم، وحرّم الدخول الى البيوت دون استئذان .

و حرّم الاعتداء على أموال الناس بسرقة و غصب و غش و احتيال .

و حرّم الاستهانة بكرامات الناس بالسخرية والاستهزاء والتنابز بالالقاب، و بذاءة اللسان.

و وضع القوانين التي تعاقب المعتدين من حدود و تعزيرات كالقصاص وقطع يد السارق وجلد ورجم الزاني للحيلولة دون الاعتداء على حق الأمان .

و الناس متساوون في هذه الحقوق بمختلف انتماءاتهم الدينية والقومية، و بمختلف أصنافهم؛ الفقراء والاغنياء، الرجال والنساء، الحكّام والمحكومين .

ومن واجبات الدولة الاسلامية والحاكم الاسلامي -كما هو محل اتفاق جميع المذاهب - حماية جميع المواطنين من الاعتداء الخارجي، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، ويعد ذلك في أوائل الواجبات المكلف الحاكم بتطبيقها فيجب عليه تهيئة الجيش للدفاع عن حدود الدولة و ثغورها حفاظاً على أرواح و أعراض و ممتلكات جميع الناس القاطنين في الحدود الجغرافية لدولته .

حق الكفاية الماديّة

من حق الناس جميعاً أن يصلوا الى حد الكفاية في العيش، وأن تهيأ لهم الاجواء لاشباع حاجاتهم الاساسية من مأكل و مشرب و ملبس و مسكن، وكل ما هو ضروري في ادامة الصحة الجسدية والحياة الانسانية .

فقد وفر الاسلام للناس القاطنين في البقعة الجغرافية التي يعيشونها جميع الامكانيات المتاحة لاشباع حاجات الناس، ابتداءاً بالتشجيع على العمل، ومنح

الحرية التامة في اتخاذ العمل المناسب في الزراعة والصناعة والتجارة وغير ذلك من الاعمال، دون تمييز بين الناس على أساس عقائدي أو قومي أو عنصري أو طبقي .

وكانت تعاليم الاسلام تنصّ على الحث على التكافل الاقتصادي والتراحم واشباع حاجات الفقراء والمعوزين، وقد وردت آيات عديدة و أحاديث كثيرة حول الانفاق والعطاء وبذل المال، قال تعالى:

﴿ والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾[١].

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ...﴾[٢].

﴿ و آتى المال على حبه ذوي القربى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ... ﴾[٣].

وبالاضافة الى التوجيهات التربوية والارشادية فرض الاسلام على الاغنياء ضرائب اقتصادية كالزكاة والخمس، و فرض الضرائب على التجار من مختلف أصناف الناس، وجعل مصارفها في إشباع حاجات الفقراء والمساكين، فيعطى لغير المسلم من سهم المؤلفة قلوبهم، وقد أجرى رسول الله (ص) صدقة على جماعة من اليهود فبقيت تجري عليهم[٤].

وكان الخليفة الثاني قد خصص عطاءً من بيت المال لشيخ من أهل الذمة[٥] وكذلك فعل الخليفة الرابع[٦].

---

١) المعارج : ٢٤ .

٢) البقرة : ٢٦١ .

٣) البقرة : ١٧٧ .

٤) الاموال : ٦٠٥ ، أبو عبيد، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤٠٦ هـ.

٥) الاموال : ٤٨ .

٦) تهذيب الاحكام ٦ / ٢٩٣ .

وحرّم الاسلام الاسراف و التبذير من أجل توفير المال الكافي لاشباع حاجات الفقراء .

و حرّم الاسلام الاعتداء على أموال الناس :

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ... ﴾[١].

و وضع القوانين الرادعة للاعتداء على الاموال والممتلكات، و لكل انسان الحق في استرداد حقه المسلوب من خلال القانون والقضاء .

حق العدالة والمساواة أمام القانون

أمر الاسلام بتطبيق العدالة بين الناس والحكم بين المتخاصمين بالعدل دون النظر الى هويتهم العقائدة والقومية والاقليمية أو انحدارهم النسبي والطبقي، فالكل متساوون في هذا الحق، و جاءت الآيات القرآنية مطلقة في الحكم بين الناس دون النظر الى أيّ قيد اضافي ، قال تعالى:

﴿ انّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾[٢].

وأمر المسلمين بأن يكونوا قوامين بالقسط ولو على أنفسهم أو ذويهم قال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ... ﴾[٣].

وتقام العقوبات على حد سواء فلكل مذنب عقوبته بلا فرق بين انسان و آخر، قال رسول الله (ص):

---

١) البقرة : ١٨٨ .

٢) النساء : ٥٨ .

٣) النساء : ١٣٥ .

«يا أيها الناس إنّما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، و إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، و أيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[١].

ومنع (ص) من الشفاعة في الحدود حفاظاً على العدالة حيث قال:

«ادرؤوا الحدود بالشبهات، ولا شفاعة ولا كفالة ولا يمين في حدّ»[٢].

و يتساوى الجميع أمام القانون دون فرق أو تمييز، ففي جلسة قضائية قال الخليفةالثاني للامام علي(ع):

«قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك» فاجابه : «كنيتني بحضرة خصمي، هلاّ قلت: قم يا علي، فاجلس مع خصمك»، فاعتنق الخليفة علياً و قبل وجهه[٣].

وعن سعيد بن المسيّب انه قال:

(أقاد النبي(ص) من نفسه وأقاد أبو بكر من نفسه، وأقاد عمر من نفسه)[٤].

وشهد غير المسلمين على تلك العدالة، فقد أخبر أحد جواسيس الروم قادته قائلاً :

(هم فيما بينهم كالعبيد ... ولو سرق ملكهم قطعوا يده، ولو زنا لرجموه)[٥].

ومن أفضل صور المساواة في العدالة و أمام القانون انّ الامام علي(ع) وقف مع خصم له من النصارى أمام القضاء ـ وهو في وقتها خليفة المسلمين ـ فحكم القاضي

---

١) سنن ابن ماجة ٢ / ٨٥١.

قال الليث بن سعد: قد أعاذها الله عز وجل أن تسرق وكل مسلم ينبغي له أن يقول هذا.

٢) من لا يحضره الفقيه ٤ / ٧٤، الصدوق ، جماعة المدرسين، قم ، ١٤٠٤ هـ.

٣) شرح نهج البلاغة ٥ / ٤٨ .

٤) الطبقات الكبرى ١ / ٣٧٥.

٥) تهذيب تاريخ دمشق الكبير ١ / ١٤٣، ابن عساكر، بيروت، ١٤٠٧ هـ.

للنصراني عليه لانه لم يأت ببينة على ملكيته للدرع[١].

ومن وظائف القاضي اتجاه المتخاصمين[٢].

١ ـ التسوية بين الخصمين في السلام والجلوس والنظر والكلام والانصات والعدل في الحكم.

٢ ـ لا يجوز أن يلقن أحد الخصمين ما فيه ضرر على خصمه ولا أن يهديه لوجوه الحجاج لأن ذلك يفتح باب المنازعة وقد نصّب لسدِّها.

مساواة الناس في دستور الجمهورية الاسلامية الايرانية

دستور الجمهورية الاسلامية في ايران هو انعكاس لآراء و فتاوى كبار الفقهاء والمجتهدين والمفكرين، وهو يمثل وثيقة اسلامية هامة للاطلاع على اعتراف الاسلام بمساواة الناس، لأن الآراء المطروحة هي آراء فقهية مستنبطة من القرآن الكريم والسنّة النبوية والاجماع، وفيما يلي نستعرض بعض مواده المتعلقة بمساواة الناس:

المادة: ٢ –

الايمان بالكرامة والقيمة الرفيعة للانسان، وحريته التوأم مع المسؤولية أمام الله.

ـ وهو نظام يؤمّن القسط والعدل ... والتلاحم الوطني.

المادة: ٣ –

ـ مكافحة كل مظاهر الفساد والجريمة.

ـ توفير التربية والتعليم والتربية البدنية مجاناً للجميع.

---

١) الكامل في التاريخ ٣ / ٤٠١.

٢) سلسلة الينابيع الفقهية، القضاء و الشهادات: ٣٠٨، علي مرواريد، الدار الاسلامية، بيروت، ١٤١٠ هـ.

- محو أي نوع من الاستبداد والانانية واحتكار السلطة .

- تأمين الحريات السياسية والاجتماعية في حدود القانون .

- اشتراك عامة الناس في تقرير مصيرهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

- رفع التمييز الخاطىء وايجاد الفرص المتكافئة للجميع وعلى جميع الاصعدة المادية والمعنوية.

- بناء اقتصاد سليم و عادل ... من أجل خلق الرفاه، والقضاء على الفقر، وازالة كل انواع الحرمان في مجالات: الغذاء، والسكن، والعمل، والصحة، والتأمين الاجتماعي.

- تأمين كافة الحقوق للافراد - المرأة والرجل - وايجاد الضمانات القضائية العادلة للجميع، والمساواة في الحقوق أمام القانون .

- تنظيم سياسة الدولة الخارجية على أساس : القيم الاسلامية والمسؤولية الاخوية اتجاه كافة المسلمين، والدعم المطلق لمستضعفي العالم .

المادة : ٦ -

يجب أن تدار شؤون البلاد اعتماداً على آراء الجماهير عن طريق الانتخابات .

المادة : ٩ -

ليس لأي سلطة مسؤولة الحق في سلب الحريات المشروعة، حتى لو كان بوضع القوانين والمقررات تحت غطاء الحفاظ على الاستقلال الوطني ووحدة أراضيه .

المادة : ١٢ -

المذاهب الاسلامية تتمتع باحترام كامل، و اتباع هذه المذاهب أحرار في اداء مراسيمهم الدينية حسب فقههم، و تتمتع هذه المذاهب، برسمية في التعليم والتربية الدينية، والاحوال الشخصية (الزواج، الطلاق، الارث، الوصية) والدعاوى المرتبطة

بها في المحاكم، وكل منطقة يتمتع فيها اتباع أحد هذه المذاهب بأكثرية، فان المقررات المحلية لتلك المنطقة تكون وفق ذلك المذهب، في نطاق صلاحيات مجالس الشورى المحلية، مع حفظ حقوق اتباع سائر المذاهب الاخرى .

المادة : ١٣ -

الايرانيون الزرادشت و اليهود والمسيحيون هم الاقليات الدينية الوحيدة المعروفة التي تتمتع في اداء مراسيمها الدينية، والعمل وفق مبادئهم في الاحوال الشخصية، والتعاليم الدينية .

المادة : ١٤ -

على حكومة جمهورية ايران الاسلامية، وعلى المسلمين أن يعاملوا غير المسلمين بالاخلاق الحسنة، والقسط، والعدل الاسلامي، وأن يراعوا حقوقهم الانسانية .

المادة : ١٩ -

أفراد الشعب متساوون في الحقوق من أية قومية، أو عشيرة كانوا، وان اللون والعنصر واللغة وما شابه ذلك لا تكون سبباً للتفاضل .

المادة : ٢٠ -

يتمتع جميع الافراد - سواء المرأة والرجل - بحماية القانون، بصورة متساوية، كما يتمتعون بكافة الحقوق الانسانية: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مع مراعاة الموازين الاسلامية .

المادة : ٢٤ -

تتمتع المطبوعات، والصحافة بالحرية في عرض المواضيع، إلاّ في حالة كونها مخلة بالاسس الاسلامية أو الحقوق العامة.

المادة : ٢٨ -

لكل شخص الحق في اختيار أي عمل يرغب فيه ولا يتعارض مع الاسلام، والمصالح العامة، وحقوق الآخرين، والحكومة مسؤولة عن توفير فرص العمل للجميع، والظروف المتساوية للحصول على المهن مع ملاحظة حاجة المجتمع للمهن المختلفة .

المادة : ٢٩ -

ان حق التمتع بالضمان الاجتماعي هو حق عام، والحكومة مسؤولة أن تعمل ... على توفير الخدمات والضمانات المالية لكل فرد من أبناء الشعب .

المادة : ٣١ -

ان امتلاك المسكن المتناسب مع الحاجة هو حق كل فرد و عائلة ، والحكومة مسؤولة أن تمهّد الارضية لتنفيذ هذه المادة، مع رعاية الاولوية، وبالذات للذين هم أحوج إلى السكن وبالخصوص القرويين والعمّال .

المادة : ٣٥ -

يحق لطرفي الدعوى في كل المحاكم، اختيار المحامي لهما، وإذا لم يكن بامكانهما اختيار المحامي يجب توفير امكانات تعيين المحامي لهما .

المادة : ٤٠ -

لا يستطيع أي شخص أن يجعل ممارسة حقّه، وسيلة للاضرار بالغير، أو الاعتداء على المصالح العامة .

المادة : ٤٣ -

- توفير الحاجات الاساسية للجميع .
- توفير فرص وامكانيات العمل للجميع .

- توفير الحرية في انتخاب العمل ... ومنع أي استثمار لعمل الآخرين .

- منع الاضرار بالغير ، والاحتكار ، والربا، وبقية المعاملات الباطلة والمحرمة .

- التأكيد على مضاعفة الانتاج الزراعي والحيواني والصناعي الذي يسد الحاجات العامة .

المادة : ٤٦ -

كل فرد يملك حصيلة كسبه و عمله المشروع، ولا يستطيع أحد أن يسلب الآخرين فرص الاكتساب والعمل تحت اسم ملكيته و عمله .

المادة : ٨٤ -

كل نائب مسؤول تجاه كافة أبناء الشعب، وله الحق في ابداء وجهة نظره في كافة قضايا الدولة الخارجية والداخلية .

المادة : ١١٢ -

القائد أو أعضاء مجلس القيادة متساوون أمام القانون مع بقية أفراد الشعب .

المادة : ١٤٠ -

يجري التحقيق في التهم الموجهة لرئيس الجمهورية والوزراء في مجالات الجرائم العادية، في المحاكم العامة لوزارة العدل .

المادة : ١٤٢ -

يتم التحقيق في ملكية القائد أو أعضاء مجلس القيادة، و رئيس الجمهورية، و رئيس الوزراء و الوزراء، و زوجاتهم و أولادهم، قبل و بعد تحمل المسؤولية بواسطة المحكمة العليا، لكي لا تتضاعف بغير حق .

المادة : ١٤٨ -

يمنع الانتفاع الشخصي بأجهزة و امكانية الجيش، وكذلك الاستفادة الشخصية من

الافراد باستخدامهم للخدمة الشخصية .

المادة : ١٥٦ -

السلطة القضائية هي سلطة مستقلة، تدافع عن الحقوق الفردية والاجتماعية، وهي مسؤولة عن تحقيق العدالة، والقيام بالوظائف التالية :

١ ـ التحقيق و اصدار الحكم في موارد التظلمات والتعديات والشكايات ...

٢ ـ احياء الحقوق العامة، و بسط العدل، والحريات المشروعة .

٣ ـ الاشراف على حسن تنفيذ القوانين .

٤ ـ كشف الجريمة، و ملاحقة و مجازاة و تعزير المجرمين، واجراء الحدود والاحكام الجزائية .

الفصل الثالث

المساواة أمام أسس و موازين التفاضل

أسس و موازين التفاضل

من أهم أهداف الاسلام هداية الانسانية الى الطريق القويم؛ ببناء الانسان الصالح في فكره وعاطفته و ارادته؛ لتكون سيرته مطابقة للمفاهيم والقيم التي أرادها الله تعالى، والله تعالى يوجه الناس من خلال البينات والدلائل العقلية لينهض كل ذي فطرة سوية دون كلفة وعناء، لان النهوض لا يحتاج الى عزائم خارقة، ولذا فانّ المنهج الاسلامي في الحياة يستنهض عناصر الخير والصلاح، ويطارد عناصر الشر و الطلاح؛ ليمضي الانسان في طريق الارتقاء الى مستوى الامانة التي أناطها الله به، وهو يرغب الانسان الذي استسلم للضلالة والانحراف في العودة الى الهدى والاستقامة .

ولا تتحقق هذه الاهداف إلاّ بوضع أسس و موازين للتفاضل بين بـني الانسـان، لتستنهض الهمم وتستجيش العزائم؛ ليبدأ الانسان باصلاح و تغيير شخصيته في جميع مقوماتها، في الفكر والعاطفة والارادة، وقد وضع الاسلام أسس التفاضل و موازينه مراعياً انسجامها مع العقل السليم والفطرة السـليمة والاعـراف الانسـانية، مـع نـفي التفاضل على أساس عنصري أو طبقي، وفيما يلي نستعرض تلك الأُسس والموازين:

أولاً: الايمان

ان الايمان يجعل الإنسان مستعداً لاقرار منهج الله في الحياة، وتحقيقه في صورة عملية تترجم فيها النصوص الى حركات واعمال و مشـاعر و اخـلاق و ارتـباطات، فيكون كل شيء محيطاً به مستقيماً فيكون الخير والبر والاحسان والتعاون والسلام وحسن الخلق هو الحاكم على عواطف الانسان وسلوكه في الحـياة، فـلا ظـلم ولا عدوان ولا اضطهاد ولا استغلال، ومن هنا فالتفاضل على أساس الايمان يكون أمراً مرغوباً تتقبله العقول و تركن اليه النفوس، فالمؤمن خير من المشرك، قال تعالى:

﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ﴾[1].

و تترتب على هذا التفاضل آثار عملية ومنها: عدم تولية الكافر و المشـرك عـلى المؤمن، وحرمة تولي المؤمن له في الامور التي تتعلق بالعقائد والمفاهيم، والموقف العملي من تناصر و تأيـيد، وفـي نـفس الوقت لا يـمنع الاسـلام مـن التسـامح فـي المعاملات الشخصية، والتساهل في المواقف، لكي يرتدع الكافر عن كفره، و يعود الى الاستقامة على العقيدة الحقة والسلوك القـويم، وهـذا المـيزان هـو السـائد فـي المجتمعات جميعاً، حيث يأنس الانسان بمن يشاركه في الاعـتقاد، و يشـاطره فـي

---

١) البقرة: ٢٢١.

العواطف، و يماثله في السلوك، وعلى أساس هذا الميزان التفاضلي، لا يسمح للكافر أن يكون قيّماً على المسلمين لان القيمومة متجسدة في الاصلح ولا صلاح فيه، ولا يسمح له أن يكون قاضياً ولا مأموناً في كثير من مرافق الدولة الاسلامية والمجتمعات الاسلامية، من أجل أن لا يتمادى في غروره و كبريائه، وهو تشجيع لأهل الاسلام، لان التساوي في ذلك بين المسلم والكافر يعطّل الطاقات ، و يميت الحركة الايجابية في المسيرة الانسانية .

ثانياً : التقوى

التقوى هي الحارس الواعي الذي يحرس العقل والضمير والارادة من الغفلة والضعف والانزلاق وراء الاهواء والمنافع الذاتية، ويحرس الانسان بجميع مقومات شخصيته من أن يحيد عن الطريق القويم بالاعتداء والتلبس بالشر بجميع ألوانه، والمتقي هو المأمون على أرواح الناس وأعراضهم و أموالهم وجميع حقوقهم، ومن هنا فان الاسلام جعل التقوى أساساً و ميزاناً للتفاضل بين الناس، قال تعالى:

﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾[١].

فلا يحق للفاسق أن يكون قائداً للمسلمين، لفقدانه عنصر الاستقامة على المنهج الاسلامي، وغير المتقيد بقواعد الاسلام لا يكون أميناً حتى يؤتمن على الارواح والأعراض والأموال، ففي الحديث الشريف:

«لا تصلح الامامة إلاّ لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، و حلم يملك به غضبه، و حسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم»[٢].

ولا يصلح أن يكون قاضياً أو شاهداً في المسائل القضائية، أو اماماً للصلاة، و لا

---

١) السجدة : ١٨ .

٢) الكافي ١ / ٤٠٧ .

يصح تبني المواقف تبعاً لاخباره و آرائه، ولذا أكدّ القرآن الكريم على التقوى في التفاضل بين الناس، ولا تفاضل على أي أساس عنصري أو طبقي أو غير ذلك، قال تعالى:

﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1].

فالناس متساوون في الانتساب الى الربّ الأعلى والى العنصر البشري إلاّ انهم يتفاوتون في التقوى، وهي الميزان التفاضلي الحاكم على جميع الموازين، قال رسول الله (ص):

«أيّها الناس ان ربكم واحد وانّ أباكم واحد، كلكم لآدم و آدم من تراب، انّ أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلاّ بالتقوى»[2].

وليس للنسب أي دور في التفاضل فهم متساوون في ذلك كما ورد عن رسول الله(ص):

«لا تأتوني بأنسابكم و آتوني باعمالكم»[3].

وقال (ص): «ان أنسابكم هذه ليست بمسيئة على أحد، كلكم بنو آدم ... ليس لأحد على أحد فضل إلاّ بدين وتقوى، انّ الله لا يسأل عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة، أكرمكم عند الله أتقاكم»[4].

وقال (ص) لأبي ذر:

---

١) الحجرات : ١٣ .

٢) تحف العقول : ٢٤ .

٣) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١١٠ .

٤) الدر المنثور ٧ / ٥٧٩ .

«انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود إلاّ أن تفضله بالتقوى»[١].

فلا تمييز بين الناس على أسس جاهلية ولا فخر لانسان على آخر بها، انما الفخر والتفاضل بالتقوى، قال (ص):

«ان الله عز وجل قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية و فخرها بالاباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، والناس بنو آدم و آدم من تراب»[٢].

وفي عهد الامام علي(ع) لمالك الاشتر أوصاه بالرحمة بالرعية، ومساواتهم مع نفسه وفيما بينهم في القضاء والحقوق العامة والخاصة دون تمييز بين مسلم وكافر معاهد، وبين عربي و أعجمي، أو غني وفقير، فلا تمييز بينهم، وفي الوقت نفسه أوصاه بأن يتعامل معهم في التقييم والمفاضلة على أساس التقوى، لانّ المساواة في ذلك تؤدي الى تعطيل الطاقات الفعّالة المثمرة، وتميت روح الاحسان والعمل الصالح:

«ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فانّ في ذلك تزهيداً لأهل الاحسان في الاحسان، و تدريباً لأهل الاساءة على الاساءة ! وألزم كلاً منهما ما ألزم نفسه ...»[٣].

والتفاضل على أساس التقوى ليس اجحافاً بحق أحد، ولا تناقض بينه وبين المساواة التي أقرّها الاسلام، فلكل أمر مجاله الخاص به، بل انّ من الحقوق الانسانية أن يكون هنالك تفاضلاً موضوعياً بين الناس، وعدم التفاضل قد يكون مصداقاً من مصاديق الظلم والاجحاف مؤدياً الى ارباك العقول والقلوب والنفوس، والى اشاعة الاضطراب في المواقف والسلوك، والناس يركنون الى هذا الميزان بمختلف

---

١) الدر المنثور ٧ / ٥٨٠ .

٢) مسند احمد ٣ / ٤٧ .

٣) نهج البلاغة : ٤٣٠ ، كتاب رقم : ٥٣ .

انتماءاتهم العقائدية والعرقية والطبقية .

و يرفضون التعصّب لغير هذا الميزان، ولذا نهى رسول الله (ص) عن التعصب وقال:

«ليس منّا من دعا الى عصبية، و ليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية»[١].

ثالثاً : العلم

من خصائص أصحاب العلم هي القدرة على ادراك الحقائق والمواقف وسير الاحداث، والقدرة على التشخيص في حال ارتباك المفاهيم والقيم، والقدرة على استخلاص العبر والدروس وراء الاحداث والمواقف، فلا يلتبس عليهم أمر من الامور، ولا تتأرجح عندهم الآراء والتصورات، ولا تختلط في أذهانهم العناوين والأسماء والصفات، ولا يستسلمون للتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق، وهم قادرون على تشخيص المصالح والمفاسد القائمة في المجتمع .

ومن هنا فانّ لهم دوراً متميزاً عن الجهال، فلا استواء بينهما قال تعالى:

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ... ﴾[٢].

و المساواة التي أقرها الاسلام بين الناس لا تنافي التفاوت بينهم و التفاضل على أسس موضوعية ومنها العلم، فبالعلم رفع الله تعالى بعض بني الانسان على غيرهم، لا رفعة تعالي أو رفعة احتكار للحقوق، و انّما رفعة المكانة، قال تعالى:

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أوتوا العلم درجات ﴾[٣].

---

١) الآداب : ١٤٦ ، احمد بن الحسين البيهقي .

٢) الزمر : ٩ .

٣) المجادلة : ١١ .

وهذه الرفعة تدفع الناس جميعاً الى طلب العلم في مختلف مجالاته، لكي تتفظ عقولهم، و تتفتح أذهانهم للنظر في الكون والحياة، والوصول الى معرفة المجاهيل، ليكون كل شيء في خدمة الانسان، واقرار سعادته في الدنيا قبل الاخرة .

والتفاضل على أساس العلم تترتب عليه آثار عملية ومنها: تقديم العلماء في ادارة شؤون المجتمع، لانهم أعرف من غيرهم بالقانون والتشريع، والاقدر على استنباط الأحكام التي يحتاجها الناس في مرحلة من مراحل الحياة أو المراحل اللاحقة، ويقدم العلماء الفقهاء في القضاء على غيرهم، لانهم الأعرف بأحكامه وقوانينه، و للعالم مكانة اجتماعية بين الناس خلقها له علمه و حاجة الناس اليه، وقد تعارف عليه بين الامم والشعوب على مختلف عقائدهم و انتماءاتهم العرقية والجغرافية أن يقدّموا الأعلم في ادارة شؤونهم وحل منازعاتهم، وهذا أمر طبيعي منسجم مع فطرة الناس وتطلعاتهم في انجاح سير حركة المسيرة الانسانية .

وقد اعتاد المسلمون على تقدير العلماء واتباع منهجهم وان كانوا منتمين الى عنصر معين أو قومية معيّنة، حيث انّ المقياس و الميزان هو العلم لا العنصر والقومية واللغة والطبقة و النسب .

وهذا التفاضل لا يعني عدم المساواة، فالعلماء متساوون مع غيرهم في الانسانية وفي التكليف وفي المسؤولية، و متساوون في الحقوق الشخصية، و متساوون أمام القضاء والقانون، و تطبق عليهم الأحكام والقوانين كما تطبق على غيرهم .

رابعاً : العمل الايجابي

قال تعالى: (وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلّ على مولاه أينما يوجهه لا يأتِ بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط

مستقيم)[١].

ان الاسلام ليس مجرد تفكير وتدبر، و ليس مجرد خشوع و ليس مجرد التوجه الى الله تعالى للفوز بالجنات و النجاة من النيران، وانما هو العمل الايجابي الذي ينشأ عن هذا التفكير وهذا الخشوع وهذا التوجه، فالله تعالى أراد من الانسان أن يكـون حركة في المجتمع، و ان يهيأ للسنن أسبابها بحركته الارادية المـختارة، وان يكـون دائماً في حركة و حيوية وتطلع الى أفق أعلى واهتمامات أرفع، أراد منه السير فـي الطريق للوصول الى تقرير المفاهيم والقيم الصالحة في العقول والقلوب والنـفوس، وفي السلوك والمواقف، متعالياً على المعوقات والمثبطات وعلى الضعف والتـهرب من الحياة، فمن احتمل التكليف والمسؤولية مندفعاً نحو اقرار المـنهج الالهـي فـي الحياة لا يمكن أن يتساوى مع المعطّل لطاقاته الفكرية والحركية .

ومن هنا فالتفاضل بين الناس على أساس العمل الايجابي أمر ضروري في تفجير الطاقات وتوظيفها في خدمة المنهج والانسانية، وهو تفاضل موضوعي تستريح اليه النفوس والمشاعر، وهو أمر متعارف عليه عند الشعوب، حيث يفضلون من هو أكثر فاعلية وحركة منهم، وليس في ذلك اجحاف للآخرين وانتقاص بحقوقهم، وليس فيه تناقض مع مبدأ المساواة الذي أقرّه الاسلام، فالعامل الفعّال يقدّم في اسناد المسؤولية له، في الدولة وفي المجتمع، فيقدّم السابقين على غيرهم :

(السابقون السابقون أولئك المقرّبون ...)[٢].

ويقدّم المجاهدون على غيرهم :

---

١) النحل : ٧٦.

٢) الواقعة : ١٠ ، ١١.

(فضّل الله المجاهدين بأموالهم و أنفسهم على القاعدين درجة)[١].

وفي غير ذلك فهم متساوون مع بقية الناس في الحقوق والواجبات، لا تمييز بينهم، فلكل ذي حق حقّه غير منقوص .

والاسلام راعى هذه الموازين في تقييم الناس و وضعهم بالمكانة المناسبة، ولم يلتفت الى الموازين الجاهلية القائمة على التمييز على اساس اللون واللغة والقومية والعشيرة والنسب الى غير ذلك، فنجد رسول الله (ص) قد ساوى بين الأسود والأبيض و بين العرب والعجم، و بين المهاجرين والأنصار، و بين المسلمين و أهل الذمة، و بين الغني والفقير، والعبد والحر، والرجل و المرأة في جميع الحقوق الانسانية .

ومن مساواته بين المسلمين، انه أمر بطاعة الأمير والقائد العسكري وان كان حبشياً:

«اسمعوا و أطيعوا وان استعمل عليكم حبشي كأن رأسه زبيبة»[٢].

ومرّت عليه ابل الصدقة فأهوى الى وبرة من جنب بعير فقال:

«ما أنا بأحق بهذه الوبرة من رجل من المسلين»[٣].

وكان (ص) يجالس الفقراء ويواكل المساكين[٤].

وارتقد رجل أمامه فقال له:

«هوّن عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[٥].

---

١) النساء : ٩٥.

٢) مسند احمد ٣ / ٥٥٨ .

٣) مجمع الزوائد ٥ / ٢٣١ .

٤) جوامع السيرة النبوية : ٣٤، ابن حزم الاندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ .

٥) الطبقات الكبرى ١ / ٢٣ .

وفي عهد الخلفاء الراشدين كانت المساواة هي الحاكمة في سياستهم، فقد اسندت المناصب والولايات وقيادة الجيوش الى مختلف طبقات المسلمين من عرب و عجم، ومن غني وفقير، و أُبعد ذوي القرابة عن بعض المناصب لعدم كفاءتهم، ومن المواقف الشهيرة عند الخليفة الثاني انّه قام باقامة الحدّ على ابنه عبدالرحمن، وانه أراد أن يعزر أحد ولاته لاعتدائه على أحد المسلمين فقال له عمرو بن العاص: أتقيده منه ؟ إذاً لا نعمل لك على عمل، فاجابه بالقول: لا أبالي إلاّ أقيد منه، وقد رأيت رسول الله (ص) يعطي القود من نفسه[١].

و رفض الامام علي (ع) ان يفرّق في العطاء على أساس الانتماء القومي و قال ـ لمن اعترض عليه ـ :

«إني والله لا أجد لبني اسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني اسحاق»[٢].

و كتب الى أحد ولاته المقصرين في أعمالهم و المستحوذين على بيت المال دون حق:

« ... و والله لو أنّ الحسن و الحسين فعلا مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هوادة، ولا ظفرا مني بارادة حتى آخذ الحق منهما و أزيح الباطل عن مظلمتهما ...»[٣].

وقد ترقى الحال به حتى ساوى بنفسه مع الآخرين في جشوبة العيش فقال:

« أ أقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون اسوة لهم في جشوبة العيش »[٤].

---

١) م . ن ١ / ٣٧٤ .

٢) شرح نهج البلاغة ٢ / ٢٠١ .

٣) نهج البلاغة : ٤١٤ .

٤) نهج البلاغة : ٤١٨ .

والخلاصة : ان الاسلام أقرّ المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات بعد مساواتهم في النشأة والتكوين وفي الخصائص الانسانية، ولم يراع في التقييم والتفاضل أي صفة عنصرية أو قومية، وانما جعل التفاضل قائماً على أسس موضوعية وهي : الايمان و التقوى و العلم و العمل.

خصائص الإسلام

العامة

السيد أحمد شبّر

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الانسانيــة :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام عـلى البشـير النذير أبو القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين و سلّم تسليماً كثيراً.

قال سبحانه و تعالى :

﴿ يا أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر و انثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير ﴾ صدق الله العلي العظيم .

يمتاز الدين الاسلامي العظيم عن غيره مـن الأديـان و المـذاهب والاتـجاهات الوضعية بنظرته السامية التكريمية لبني الانسان، فالانسان هو خليفة الله سبحانه و تعالى على وجه البسيطة، استخلفه ليطبّق و ينفّذ قوانينه و يأتمر بأوامره و ينتهي عن نواهيه و يحافظ على حدوده تعالى و ليتكامل في طريق الانسانية اللاحب و ليقود بني جنسه نحو الحق والخير و الكمال والانعتاق من كل أشكال الظـلم والتـعدي والانـحراف

والطغيان، كل هذا في سبيل مجتمع فاضل متكافل يبغي السعادة للجميع بدون استثناء وتفاضل وتمايز .

فالاسلام هدفه بناء الانسان المتمتع بالصفات والخصال التي تؤهله لاستلام منصب الخلافة، لذا نرى سبحانه وتعالى يقول في كتابه المبين:

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾

في سبيل تكامل الانسان والاستفادة من كل ما خلق سبحانه في هذا المجال وجعل ذلك وسيلة من أجل بلوغ هذا الهدف المقدس وان كان هذا الطريق تعتريه الاشواك والمشاكل العظيمة والابتلاءات الفظيعة التي ينتهى بعضها الى السجن والتعذيب والقتل والنفى وانتهاك الاعراض وانتهاب الاموال والتغرّب في البلدان و تشتت أفراد العائلة الواحدة ... الخ .

وهذا بالضبط هو الثمن الذي يجب أن ندفعه في سبيل المحافظة على الدين وفي سبيل انشاء المجتمع الذي نصبوا إليه .

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون)[1].

وهذه بشارة منه سبحانه بالجنة و وعد منه تعالى لكل المجاهدين في سبيل ألاّ يهنوا و يحزنوا و ينكروا إن كانوا مؤمنين وقليل ما هم .

﴿ وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم و يريد الله أن يحق الحق بكلماته و يقطع دابر الكافرين ﴾[2].

---

١) التوبة / ١٦ .

٢) الانفال / ٧ .

وهذا وعد منه سبحانه و بشرى للمؤمنين بنصره تعالى و احقاق كلماته وقطه دابر الكافرين وان طال الزمان فما على المؤمن أن يشهد نصره بل عليه انجاز تكليفه لحد الموت والقتل .

يقول الشيخ محمد جواد مغنية حول هذه الآية الكريمة:

(وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين ـ العير أو النفير ـ أنها لكم ـ المصدر المنسبك بدل من احدى الطائفتين ـ و تودون أن غير ذات الشوكة ـ أي غير ذات القوة وهي العير ـ تكون لكم ـ من غير قتال ـ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ـ أن ينصر الاسلام والمسلمين على الشرك والمشركين بآياته المنزلة في محاربتهم و يقطع دابر الكافرين ـ قتلاً و أسراً)[١].

والحمد لله ربّ العالمين .

١) الاعتراف بمساواة الناس :

جاء في الحديث الشريف ان الناس كلهم لآدم و آدم من تراب، وهذا الحديث يتضمن عدة معاني منها: انّ الناس متساوون من ناحية العنصر و المنشأ و منها ان عليهم ألاّ يفخروا بأنفسهم و يتبجحوا بذواتهم .

فالتراب مصدرهم و هم صائرون اليه، وهو الذي تطأه الاقدام ولا يُباع بالأثمان، والاسلام هو الدين الالهي الوحيد الذي يعترف بهذه الحقيقة الساطعة، بعدما حُرّفت الأديان الالهية الاخرى، مع غضّ النظر عن المذاهب الأرضية التي لا تعترف بها الأمر واقعاً و إن اعترف بعضها بذلك على الورق فقط .

فترى استفحال العنصرية و اشتدادها بمرور الزمن، فكم جلب هذا الأمر المشين

---

١) التفسير المبين للشيخ محمد جواد مغنية رحمه الله ص ٢٢٨ – دار الكتاب الاسلامي .

من أهوال و ويلات و توارث على الانسانية، فتحت ذريعة الجنس الآري المتفوّق اعتدت المانيا الهتلرية على بعض الدول و دمرتها تحت لواء هذا العنوان البّراق الزائف.

و اليهود قالوا نحن شعب الله المختار واحتلوا فلسطين لتحقيق هذا الشعار الباطل، و حسبوا في وثائقهم السرية ان كل ما عداهم من البشر هم أتباع لهم و بهائم يستفيدون منهم لتحقيق مآربهم الشيطانية، و يصعدون اكتافهم ليوجهوهم حيثما شاؤوا للاستحواذ على مقدرات العالم و احكام قبضتهم عليه، وهذا ما يحدث الآن من حولنا بهدوء، وشعارهم الشيطاني الآخر: (بلادك يا اسرائيل من الفرات الى النيل).

ما هو إلاّ مفردة واحدة من مفردات ذلك المشروع العالمي الضخم للاستحواذ على مقدرات العالم كلّه والتمايز بين الناس قديم قدم الانسان وقد اتخذ اشكالا وألواناً عديدة فتارة يعتمد على الجنس والعنصر وأخرى على اللون واللغة والدين والثروة والمنزلة الاجتماعية والمنصب والقرابة ... الخ.

وللأسف فقد شهد التاريخ الاسلامي بعد رحيل الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله وسلّم نموا لانواع من التمايز والتفاضل اعتمد القرابة والسابقة والجنس العربي.

و بهذا نرى ابتعاد تلك المجتمعات شيئاً فشيئاً عن الدين الاسلامي الاصيل الذي يُقرّر أن لا فرق لعربي على عجمي إلاّ بالتقوى وان أكرمكم عند الله أتقاكم.

نعم يقول الله سبحانه و تعالى في كتابه المبين:

﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾[١].

وهذا تفاضل و تمايز بالايمان والجهاد و مقدار اتباع المسلم لقوانين الحق تبارك

---

١) النساء / ٩٥.

وتعالى، وهو أمر معقول ومقبول يـختلف اخـتلافاً جـوهرياً عـن التـفاضل بـاللون والجنس والقرابة وما شاكل وقد تطورت تلك العصبية التي نشأت تحبو بعد رحـيل القائد الأعظم محمد صلّى الله عليه وآله واشتدت في العصر الأموي حتى استفحلت في العهد العباسي والى يومك هذا حيث العنصرية وقد رأينا قريباً كيف كان يـجري القتل والتعذيب على الهوية في لبنان والبوسنة وهذا الأمر يُمثّل تطوّراً مقيتاً و مشـيناً للعنصرية الحاقدة ونحن على أعتاب القرن الواحد والعشرين .

و الغريب ان هذين الدولتان هما عضوان في الامم المتحدة التي جاء في ميثاقها وجوب احترام الانسان وعدم الحاق الأذى والضرر بـه بسـبب اللـون أو الديـن أو الجنس، وعلى مرآى من تلك المجازر الرهيبة تنمو جمعيات الرفق بالحيوان في العالم الغربي المتمدن بصورة مستفحلة والتي تجاوزت الحـدود فـي احـترامـها و رفـقها بالحيوانات الى أبعد ما يتصوره الخيال، فهنيئاً للحيوان إذ وُجد له مـن يُـدافـع عـن حقوقه و كرامته، مما لا يوجد له نظير و شبيه في مملكة البشر البائسين .

ونرى أئمتنا عليهم الصـلاة والسـلام يـفيضون رحـمة وعـطف وانسـانية تـجاه الآخرين، أيّاً كان لونهم و دينهم و جنسهم.

«فكم من مرة شاهد الناس أسد الاسلام وقديسه ـ الامام علي عليه السلام ـ معتماً بعمامته الخضراء يردّد ما قالـه مرّة في مسـجد النـبي مـحمـد صـلى الله عـليه وآله وسلّم(من آذى ذميّاً فقد آذاني) »[1] .

وهذا منتهى الانسانية و المحبة للجنس البشري فأين هم قـادة العـالم المـتحضّر وقادة الامم المتحدة و منظمات الدفاع عن حقوق الانسان الذين مهما حاولوا مـن

١) كتاب الامام علي أسد الاسلام وقديسه – روكس بن زائد العزيزي ص ١٨٧ .

جهود للدفاع عن الانسان وحريته وانسانيته فلن يبلغوا معشار ما بلغه أمير المؤمنين قبل أكثر من ألف عام من انسانية وعطف تجاه بني البشر .

ونذكر قصة أخرى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام تدل على نظرته الانسانية تجاه الجميع:

«ولّى عليه السلام بيت مال المدينة عمار بن ياسر و أبا هيثم التيهان فكتب : العربي والقرشي والأنصاري والعجمي وكل من كان في الاسلام من قبائل العرب وأجناس العجم سواء، فأتاه سهل بن حنيف بمولى له اسود فقال:كم تعطي هذا ؟

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام:كم أخذت أنت ؟

قال : ثلاثة دنانير وكذلك أخذ الناس .

قال عليه السلام: فاعطوا مولاه مثل ما أخذ ثلاثة دنانير.

فلما عرف الناس أنّه لا فضل لبعضهم على بعض إلاّ بالتقوى عند الله سبحانه أتى طلحة والزبير عمار بن ياسر وأبا الهيثم بن التيهان فقالا: يا أبا اليقظان استأذن لنا علي صاحبك . قال: وعلي صاحبي اذن، قد أخذ بيد أجيره و أخذ مكتله و مسحاته وذهب يعمل في غلّة في بئر الملك وكائن بئر ينبع سُمينَ بئر الملك فاستخرجها علي بن أبي طالب عليه السلام و غرس عليها النخل فهذا من عدله في الرعية و قسمه بالسوية»[1].

ومن القصص التي تروى عن عدله في تقسيم الأموال انه :

(جاءته امرأتان تسألانه و تبينان له فقرهما فسّد لهما حاجتهما و أمر أن تشترى لهما ثياب و أطعمة و وهب لهما مالاً، لكن واحدة منهما طلبت منه (ع) أن يفضلها على رفيقتها لأنها عربية و رفيقتها من الموالي فأخذ شيئاً من «الـ» تراب فنظر فيه ثم

---

(1) كتاب البيان الجلي في أفضلية مولى المؤمنين علي عليه السلام عبد روس بن أحمد السّقاف العلوي الحسيني الاندونيسي ص ٢٣٩ تحقيق السيد مهدي الرجائي .

قال(ع): ما أعلم ان الله سبحانه وتعالى فضّل أحداً من الناس على أحد إلاّ بالطاعة والتقوى)[١].

وهو تطبيق عملي وحي لقوله تعالى:

﴿ إنما المؤمنون اخوة ﴾[٢].

وهذا الأمر أفصح عنه عليه السلام يوم ولي الخلافة بأجلى صوره إذ قال:

«وأي رجل ... يرى ان الفضل له على سواه بصحبة فان الفضل غداً عند الله تعالى و أنتم عباد الله والمال مال الله يُقسم بينكم بالسوية ولا فضل فيه لأحد على أحد»[٣].

بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين ومولى الموحدين لو رأيت ما يصنع خُزّان الأموال اليوم لبكيت كمداً مما يحابوه به أقوامهم و يمنعون الآخرين حقداً و عنصرية و خُبثاً.

و الذي يثير الدهشة والأسى انك ترى بعض الذين يعملون تحت لواء الدين الحنيف يلعبون بأموال وحقوق المسلمين أنّى شاؤا و يبذّرونه تبذيراً فهم بحق اتخذوا مال الله سبحانه دولاً، و إن اعترض معترض فيقولون له نحن أعرف منك كيف نتصرف بهذه الأموال وهم يتناسون قول أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام:

«الله الله في الفقراء والمساكين أشركوهم في معائشكم».

وقدكانَ دستوره عليه السلام للولاة انما هو المساواة التي تنم عن الاخوة والعطف فيقول عليه السلام:

«إياك والاستئثار بما الناس فيه اسوة».

---

١) الامام علي (ع) أسد الاسلام و قديسه - روكس بن زائد العزيزي ص ٣٢.

٢) الحجرات / ١٠.

٣) الامام علي (ع) أسد الاسلام وقديسه - روكس بن زيائد العزيزي ص ٨٣.

و يقول مرة أخرى :

«ان هذا المال ليس لي وليس لك» .

فيا لها من تعاليم انسانية مشرقة تضيء جبين كل من يلتزم بها و يستهدي بهداها و يتعطّر باريحها .

وكل هذا يلخصّه أمير المؤمنين (ع) في وصيته لأبنه الامام الحسن عليه السلام وهي تجسّد الخلق الاسلامي القويم و النموذج الرائع الذي ما اتبعه احد إلاّ نجى:

«يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك و بين غيرك فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك و اكره له ما تكره لها ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلَم وأحسن كما تحب أن يُحسن إليك واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك و ارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ولا تقل ما لا تعلم و إن قلّ ما تعلم ولا تقل ما لا تُحب أن يُقال لك»[1].

وتعامل الامام عليه الصلاة والسلام من منطلق الانسانية والعدالة حتى مع أعدائه، ومنهم الخوارج فلم يحرمهم من الفيء وهم الذين كفّروه و قُتل عليه السلام شهيداً في محراب صلاته بأيدي هؤلاء الجُناة الخونة .

ومن وصية الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن ما يبين التعاليم الاسلامية الراقية يقول (ص):

« ... و أنزل الناس منازلهم خيّرهم و شرّهم وعليك بالرفق والعفو في غير تركٍ للحق »[2].

٢) الاعتراف بكرامة الانسان :

قال سبحانه وتعالى في كتابه المبين :

---

١) نهج البلاغة - ضبط الدكتور صبحي الصالح ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

٢) المختار من حديث المصطفى - السيد محسن الامين رحمه الله تعالى ص ٩ .

﴿ ولقد كرّمنا بني آدم و حملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾[١].

يشير سبحانه و تعالى في هذه الآية الكريمة الى أمرٍ مهم بغض النظر عن الجنس والدين واللون والثروة وما شاكل ألا وهو تكريم الحق عزّ وجل لبني آدم .

يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية رحمه الله في كتابه التفسير المبين حول هذه الآية الشريفة :

(ولابن آدم كرامة ذاتية يستمدها من طبيعته و تخلق معه منذ تكوينه و ولادته، و كرامة طارئة يكتسبها بسعيه و أرادته ، ومن آثار الاولى وثمارها حقه في الحياة وصيانته من الأذى والاعتداء ... حتى إذا صار انساناً راشداًكان له من الحقوق ما لكل الناس، وعليه من الواجبات ما عليهم بلا امتياز واختصاص ذكراًكان أم أنثى تولّد من أسود أو أبيض مؤمن أو ملحد، أما الكرامة الطارئة فتُذكر منها ثلاث كرامات[٢].

١ - كرامة الاخلاص :

قال سبحانه وتعالى :

﴿ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

﴿ و لله العزة و لرسوله و للمؤمنين ﴾.

٢ - كرامة العلم :

قال الله سبحانه و تعالى:

﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾

وما من شك ان المراد بالذين يعلمون الذين ينفعون الناس بعلمهم بدليل وقوله

---

١) الاسراء / ٧٠.

٢) التفسير المبين - محمد جواد مغنية، ص ٣٧٤.

تعالى:

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء و أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾.

٣-كرامة العمل :

قال الله سبحانه و تعالى :

﴿ ولكلٍ درجات مما عملوا ﴾ [1].

والاسلام هو الدين الالهي الاصيل والوحيد الذي رفع لواء الاعتراف بكرامة الانسان والدفاع عنها و مُحاربة من ينتقص منها أو يُشينها أو يسعى الى الحطّ منها، وفي هذا الأمر يستوي المسلم و غير المسلم ما لَم يسعى في محاربة المسلمين و الايقاع بهم.

انّ كثير من دول العالم بل معظمها تعترف في دساتيرها و قوانينها الأرضية بكرامة المواطن وانسانيته، ولكننا نراها في الجانب العملي تضرب كل هذا بعرض الحائط وتسحق كل الدساتير والقوانين الآلهية والأرضية بأقدامها، في معتقلاتها و سجونها الرهيبة من خلال تعاملها مع المعتقلين و معظمهم سجناء الرأي والفكر والحماسة والمعتقد، وبعد هذا كله نراها تتشرّق بالدفاع عن حقوق مواطنيها وبتوفير الحرية لهم، وبين الحين والآخر يخرج جلواز من جلاوزتهم القذرين ليعلن أمام مراسلي العالم انه لا معتقل سياسي لدينا، والسجون تكتظ بالنساء والرجال ممن لا ذنب لهم إلاّ انهم أعلنوا عن آرائهم وأفكارهم بجرأة و شجاعة فجوبهوا بكل تنكيل و وحشية انظروا إلى قول أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو يتبرّأ من الظلم :

«والله لأن أبيت على حسك السعدان (كأنه يريد من الحسك الشوك والسعدان

---

١) التفسير المبين – محمد جواد مغنية – ص ٣٧٤ .

نبات ترعاه الابل له شوك تشبه به حلمة الثدي) مسهّداً، أو أُجرّ في الأغلال مصفّداً، أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله سبحانه و رسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد و غاصباً لشيء من الحطام وكيف أظلمُ أحداً لنفس يُسرع إلى البلى قفولها و يطول في الثرى حلولها ... والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبها جُلب شعيرة ما فعلته وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلي ولنعيمٍ يفنى و لذةٍ لا تبقى نعوذ بالله من سُبات العقل و قبح الزلل وبه نستعين»[1].

لله درك يا أبا الحسن، أنت الذي رفعت راية الدفاع عن الانسان و كرامته فبلغت في هذا مبلغاً لا يساميك فيه أحد، و أبناء أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام من أئمتنا الميامين هم أيضاً قدوة للعالمين في الدفاع عن الكرامة الانسانية، فكانوا عليهم السلام لا يمسّون كرامة الغير كائناً من كان وكلنا سمع تلك القصة التي تقول ان الامامين الحسن والحسين عليهما السلام رأيا شيخاً يتوضأ بطريقة غير صحيحة، فقالا له انظر الى وضوئنا وأحكم أيهما الصحيح، فلم يسحقا كرامته و يقولا له إن وضؤوك هو غير صحيح يا شيخ فتعلّم منا، فنظر اليهما وهما يتوضئان فقال إن وضوؤكما هو الصحيح و وضوئي كان خطأ .

هكذا يتعامل قادتنا مع الغير بما يحفظ لهم كرامتهم و انسانيتهم و ماء وجوههم.

وقد كثرت الأحاديث الواردة عن الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله التي تؤكد على وجوب احترام كرامة الانسان وبالأخص الانسان المؤمن، وقد ورد انه (ص) قال ان حرمة المؤمن أعظم عند الله من حُرمة الكعبة .

---

١) نهج البلاغة – صبحي الصالح – ص ٣٤٦ – ٣٤٧.

وقال صلى الله عليه و آله و سلّم :

«مـن روى عن أخيه المؤمن رواية يُريد بها هدم مروءته و شينه أوقفه الله سبحانه في طينة خبالٍ »[١].

(و طينة خبال : صديد أهل النار) .

والامام علي بن أبي طالب عليه السلام يتأسف في خطبة له قـالها يسـتنهض بـها الناس حينما ورد خبر غزو الانبار من قبل جيش معاوية :

«.. ولقد بلغني ان الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والاخرى المعاهدة (الذمية) فينزع حجلها (الخلخال) و قُلبَها (السوار) و قلائدها و رُعثها (نوع من الخرز) ما تمتنع منه إلاّ بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين ما نال رجل منهم كـلم (جرح) ولا أُريق لهم دم فلو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ماكان به ملوماً بل كان به عندي جديراً»[٢].

٢فأنت ترى الامام عليه السلام يبدى ألمه و حزنه على المرأة المسلمة والذمية بلا تفريق بينهما جرّاء هجوم جيش العدو و سلبهما.

وهذه تعتبر نظرة تكريم و تجليل من الاسلام للطوائف التي تحيا في كنفه نادراً ما تتواجد في غير المجتمعات الاسلامية الأصيلة، وكان الأئمة عليهم الصلاة والسلام حينما يطرق سائل أو فقير أبواب أحدهم فانهم كانوا يعطونه المال من وراء حجاب لئلاّ يرونه فتُسحق كرامته أو يُراق ماء وجهه خجلاً منهم عليهم السلام . وهذا درس بليغ منهم لنتعلم كيفية التعامل الاجتماعى مع الناس خصوصاً مع المحتاجين منهم. فلا نقابلهم بالمنّ و الأذى إن تصدّقنا عليهم ولو بشيء قليل. والدين الاسلامي يؤكد انّ

---

١) المختار من حديث المصطفى (ص) - اختيار السيد محسن الامين رحمه الله ص ٣٥ .

٢) نهج البلاغة - صبحي الصالح ص ٦٩ - ٧٠ .

على الانسان أن يسعى للاحتفاظ بكرامته وألاّ يفرّط بها تحت أي حال من الأحوال كالفقر والحاجة والغربة وما شاكل، لانه ان فرّط بها فانه بالتالي سيفقد انسانيته وبالتالي سيكون العوبة بيد من يشاء يستغل حاجته ومشاكله وآلامه، وإن حدث هذا فسيصعب عليه ثانيةً أن يسترد كرامته و انسانيته و شخصيته .

٣ - نفي الظلم والانظلام والاستضعاف

يقول الحق تبارك و تعالى في كتابه المبين :

﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوة و أثاروا الأرض وعمّروها أكثر مما عمّروها و جاءتهم رُسلهم بالبيّنات فما كان الله ليظلمهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1].

في هذه الآية الشريفة بيان صريح من الله سبحانه وتعالى بأن الظلم لا يصدر منه عزّ وجلّ فالظلم يصدر من المحتاج الذي يريد أن يتسلّط على غيره ليخضعه لأمره، وسبحانه غني عن هذا كله، فهو الذي بيده مقاليد السموات والأرض وما بينها، وهو القاهر فوق عباده ولا يعجزه شيء.

وقد حارب الاسلام منذ انبثاقه الظلم والظالمين بلا هوادة ولم يسمح بأن يظلم الناس بعضهم ولم يسمح لهم بالمقابل الخضوع للظلم و الاستضعاف، بل زوّدهم بطاقة عظيمة داعياً إياهم الى محاربة الظلم والاستبداد، والثورة ضد الظالمين من الذين لا يحكمون بما أنزل الله سبحانه و بشّرهم بالشهادة و رضوان من الله إن قُتلوا في سبيل هذا الهدف المقدّس، حتى نقل عن الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله انه قال من قتل دون ما له فهو شهيد ومن قُتل دون عرضه فهو شهيد ومن قُتل دون

---

١) سورة الروم / ٩.

نفسه فهو شهيد،كل هذا في سبيل الاندفاع نحو مجابهة الظلم بشتّى صوره، حتى يصل المجتمع الانساني لمرحلة ينتفي فيه الظلم والاستبداد فتتفجّر طاقاته ويعمل الجميع متحابين متكافلين.

صعد أمير المؤمنين عليه السلام المنبر ذات يوم ليعظ الناس و تطرّق فيما تطرّق له إلى أنواع الظلم فقال (ع):

«ألا و إنّ الظلم ثلاثة، فظلم لا يُغفر و ظلم لا يُترك و ظلم مغفور لا يُطلب، فأما الظلم الذي لا يُغفر فالشرك بالله تعالى، قال تعالى : (إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به ﴾ و أمّا الظلم الذي يُغفر فظلم العبد نفسه عن بعض الهَفنات (صغائر الذنوب) و أمّا الظلم الذي لا يُترك فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص هناك شديد ليس هو جرحاً بالمدى ولا ضرباً بالسياط ولكنه ما يُستصغر ذلك معه فايّاكم و التلّون في دين الله سبحانه ..»[١].

في هذا المقطع الشريف من كلام أمير المؤمنين و مولى الموحدين عليه الصلاة والسلام يتضح لنا إنّ ظلم العباد بعضهم لبعضٍ هو الذي يجب أن يحذرهُ العباد و ان يبتعدوا عنه بصورة أسرع من أنواعه الأخرى لئلا يوقعوا أنفسهم في شراك القصاص والعذاب حيث لا يخلّصهم مخلّص ولا ينفعهم فداء مهما عظُم .

الاستضعاف و عدم نصرة الحق

والتخاذل عن الحق وعدم المطالبة به مما يوقع المرء تحت الظلم و يجعله من الخاضعين للظالم فيستضعفه و يأسره، فلا أقل لهذا المستضعف ان لم يستطع مجابهة الظالمين ان يفر بدينه ونفسه فأرض الله تعالى واسعة فان لم يفعل كان كالذي ساعد على نفسه واستثنى سبحانه وتعالى من هؤلاء من لا يجد حيلة في الفرار ولم تساعده

---

١) نهج البلاغة – صبحي الصالح ص ٢٥٥ .

الظروف لنستمع لقوله تعالى حول هذا الأمر الخطير :

﴿ إنّ الذين توفتهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم و ساء مصيراً * إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء و الولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً * ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيرة وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله و رسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما)[١].

فيتضح لنا من هذه الآيات الكريمة ان وظيفة المستضعفين هي الهجرة بدينهم و أنفسهم وأهليهم، ان استطاعوا ذلك وإلاّ فإنّ جهنم في انتظارهم كما هو صريح في الآيات السابقة، وقد بشرهم سبحانه وتعالى بالرحمة ان تُوفّوا في الاثناء،كل هذا في سبيل ألا يعينوا على أنفسهم بالبقاء تحت سلطة الظالمين والكافرين .

وحينما يدخل سبحانه الظالمين والمستضعفين الذين أعانوا على أنفسهم وتخاذلوا في ذلك السبيل، نار جهنم، يحتاجون فيها مع ظالميهم . يقول سبحانه :

﴿ وإذ يتحاجّون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنّا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنّا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إنّا كُلّ فيها إنّ الله قد حكم بين العباد﴾[٢].

و يتضح من الآية (٤٧) السابقة ان المستضعفين كانوا أتباعاً لظالميهم ومستكبريهم يقتفون آثارهم و يعملون بأهوائهم ظانين ان أسيادهم يصرفون عنهم جزءاً من العذاب فخسروا في الدنيا كرامتهم و انسانيتهم و حريتهم واستقلالهم و خسروا في

---

١) النساء / ٩٧ - ١٠٠.

٢) سورة غافر / ٤٧ - ٤٨.

الآخرة رضوان الله تعالى و جنّاته. وكم شهدناأُناس كانوا مجاهدين مؤمنين فانحرفوا جزاء ترغيب أو ترهيب السلطة فصاروا أبواقاً لها وخدماً يأتمرون بأوامرها وهذا هو سبيل كل من يعبد الله تعالى على حرف، وهؤلاء هم المعارون في أيمانهم لم يثبت و يستقر في قلوبهم إلاّ فترة قليلة، فانقلبوا على أعقابهم و مُسِخت نفوسهم ـ ولربماكان البعض منهم، من تجشّم مرارة الجهاد والتضحية فأصابه الملل و اليأس خصوصاً وأنه لم يحقّق شيئاً يذكر، فنبذ سلاحه و أيمانه و مدّ يده للسلطات التي اجتذبته بعد عمل جهيد و قائمة طويلة من تحقيق المطالب و ايجاد الديمقراطية والحرية والافراج عن السجناء ناهيك عن الأمور المادية التي تضعها تحت تصرفه، فسال لعابه لكل هذا و مادرى انه باع دينه و دنياه و شرفه و كرامته بدنيا غيره، فأسرته المادة واستضعفته الدنيا، وكأن هذا المسكين لم يقرأ قوله تعالى:

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء و الضراء و زلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب ﴾[1]

فلقد غُربل المؤمنون حتى أذن الله سبحانه لهم بالنصر وهذه هي سنّة الله تعالى ولن تجد لسّنة الله تبديلاً .

و شاهدنا على ما نقول ما رأيناه من بعض الفلسطينيين الذين مدّوا أيديهم للعدو الصهيوني الغاصب بعد طول جهاد و معاناة، فأصبحوا شرطة لهم ينفّذون أوامرهم و يعتقلون اخوانهم الفلسطينيين يعذبونهم و يقتلونهم فعجباً لهم كيف قلبوا لهم ظهر المجنّ فحازت الكلاب وفاءاً دونهم فتعساً لهم.

---

١) البقرة / ٢١٤ .

فانطبقت عليهم الآية الشريفة:

﴿بشرّ المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾[١].

وقال رسول الله (ص) :

« من أعان ظالماً على ظلمه سلّطه الله عليه»[٢].

طرق مجابهة الظلم

حسب ما رأيته من الآيات القرآنية الكريمة فهناك عدة سبل لمكافحة الظلم :

١) القصاص والمعاملة بالمثل :

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وا تقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين)[٣].

و يقول :

﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلّكم تتقون ﴾[٤].

و يقول سبحانه مفصلاً :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر و العبد بالعبد والانثى بالأنثى ... ﴾[٥].

---

١) النساء / ١٣٨ - ١٣٩ .

٢) المختار من حديث المصطفى (ص) ، اختيار السيد محسن الامين رحمه الله ص ٢٢ .

٣) البقرة / ١٩٤.

٤) البقرة / ١٧٩ .

٥) البقرة / ١٧٨ .

و جعل سبحانه من لم يكن يحكم بالعدل من الظالمين :

﴿ وكتبنا عليهم فيها إنّ النفس بالنفس و العين بـالعين و الأنـف بـالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ... ومن لم يحكم بما أنزل الله فـاولئك هـم الظالمون ﴾[١].

٢) الصبر و التسامح :

يقول عز من قائل :

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به و لئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾[٢].

قال رسول الله (ص) :

«الايمان نصفان: نصف في الصبر ونصف في الشكر» .

٣ - العـفـو :

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فاعفوا و اصفحوا حتى يأتي الله بأمره إنّ الله على كل شيء قدير ﴾[٣].

و وصف سبحانه الذي يعفو بقوله :

﴿ وإن تعفوا أقرب للتقوى ﴾[٤].

وكفى بهذا تجليلاً وتكريماً خصوصاً إذا قرأنا قوله تعالى:

﴿ و ليعفوا وليصفحوا ألاّ تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾[٥].

---

١) المائدة / ٤٥ .

٢) النحل / ١٢٦ .

٣) البقرة / ١٠٩ .

٤) البقرة / ٢٣٧ .

٥) النور / ٢٢ .

فهذا وعد منه سبحانه بغفرانه لذنوبنا في حالة العفو، وكل هذا يمثل تشجيعاً للصفح وكظم الغيظ في سبيل شيوع حالة الرحمة بين الناس، ولكن يجب أن يكون هذا الأمر في محلّه المناسب، وإلاّ فإنّ العفو والصفح سوف لا يؤدي الى النتيجة المطلوبة وسوف يزداد الظلم ظُلماً، وينتظر منّا العفو والصفح كما علمّناه سابقاً، وفي هذه الحالة سنكون مشاركين في الاثم والعدوان معه، إذ أن هكذا طغاة يجب الوقوف بقوة بوجههم، فلن يرد الحجر إلاّ الحجر.

جاء في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لمالك الأشتر رحمه الله حينما ولاّه على مصر:

«انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوىً من رعيتك فانك الاّ تفعل تُظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ومن خاصمه الله أدحض حجّته وكان لله قرباً حتى ينزع أو يتوب، وليس شيء أدعى الى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من اقامة على ظلم فان الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد»[1].

وهذا بيان جلي من أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد و يثبت أن الدين الاسلامي قد حارب الظلم منذ بزوغه و وقف بوجهه دون هوادة.

٤ - اصلاح المجتمع الانساني ومكافحة الفساد:

قال الله سبحانه تعالى:

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يُريدون عُلواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾[2].

---

١) نهج البلاغة – صبحي الصالح ص ٤٢٨ – ٤٢٩.

٢) القصص ٨٣.

تسير البشرية اليوم في خطى مُسرعة نحو وادي سحيق جرّاء سوء اختيارها، و نبذها للقيم الانسانية والمعتقدات الدينية و تمسّكها بالقوانين الوضعية التي تتيح للناس كل نوع من أنواع الفساد والرذيلة والبغي والحكم بما لم يُنزل الله به سلطاناً، وحتى الدول الاسلامية وذات الأكثرية المسلمة لم تنج من هذا الداء الوبيل، فنرى في معظمها دور الفساد و اللهو والرذيلة حيثما حطّت قدماك كل هذا في سبيل انتزاع ما تبقى لدى الناس من ذرة ضمير أو شرف أو غيرة، و ثمت شعار الحرية و شعار (ما لله لله وما لقيصر لقيصر) انشأوا دور الرذيلة تلك، وقالوا لن نجبر أحداً على ارتيادها فمن رغب فيها فليأتها ومن رغب عنها فليأتي المسجد ولا نمانع، فكر واضح، فأصبح من يرتاد المسجد موضع شك و ارتياب من قبل السلطة، و تنظر اليه نظرة الارهابي والأصولي المتعنّت و المتشدّد والمتدين المتطرف والمتهم الذي يجب أن يثبت براءته وكثيراً ما يُساق أصحاب المساجد الى طوامير السجون الرهيبة حيث فنون التعذيب النفسي والجسدي في انتظارهم .

وهذه الحالة مما يؤسف لها أن تحدث في بعض الدول الاسلامية، حيث الحاكم فرد من أفراد البلد الذي يتسلّط عليه و حَريٌّ به أن يحكم بني جنسه بالعدل والمعروف و يكون لهم بمثابة الأب الرفيق والأخ الحنون و رحم الله الامام السيد روح الله الخميني قائد الثورة الاسلامية في ايران حيث قال:

(من الأفضل أن تسمونني خادماً بدلاً من أن تسمونني قائداً).

أيّة انسانية و تواضع جم هذا الذي تتصف به يا سليل النبوة والولاية وأنت بحق قائد المستضعفين والمسلمين أينما كانوا، أنت الذي حطّمت أبّهة الشرق والغرب وقذفت بالشاه اللعين الى نار جهنم، ومرة أخرى قال السيد الامام الخميني رحمه الله أثناء الحرب الاستكبارية الغادرة التي شُنت ضد ايران، قال في اشارة الى فتىً في الثالثة

عشرة من عمره فجّر دبابة للعدو واستشهد : ان قائدنا هو ذلك الصبي الشهيد، رحمك الله يا أبا مصطفى و أجزل ثوابك و حشرك مع الرسول الأكرم والائمة الطاهرين عليهم الصلاة والسّلام .

أسباب انتكاسة المجتمعات الانسانية

هناك عدة عوامل تظافرت فيما بينها حتى أدّت في النهاية الى ما عليه اليوم المجتمعات البشرية وهي عوامل متشابكة منذ القدم فعلت فعلها في الانسانية وأوصلتها الى هذا الواقع المأساوي المؤلم .

١ - الابتعاد عن المقرّرات الالهية عامة، واستبدالها بقوانين أرضية من صنع الانسان نفسه .

وقد بدأ تحريف الشرائع الالهية منذ العهد اليهودي، فترى في التوراة مختلف التقولات والسخافات التيي تنسب القبائح الى الله تعالى و الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

قال تعالى حول اختفاءهم وتحريفهم لكتابهم :

﴿ وما قدروا الله حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً و هدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها و تخفون كثيراً و عُلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾[1].

وقال عزّ و جل :

﴿ من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا و عصينا واسمع

---

١) الأنعام / ٩١.

غيرُ مسمّع وراعنا ليّاً بألسنتهم و طعناً في الدين ﴾[١].

واللّيّ هو صرف الكلام عن الحق الى الباطل، وكذلك النصارى حرّفوا الانجيل بما تهوى أنفسهم، قال سبحانه وتعالى محدِّثاً عن أهل الكتاب :

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾[٢].

وهذا الأمر ينطبق على المسلمين أيضاً، إذ نبذوا كتاب الله تعالى القرآن وتعاليمه الحياتية وانصرفوا الى قوانين الغرب والشرق .

٢ - الفساد الاخلاقي والنفسي :

قال سبحانه :

﴿ظهر الفساد في البر و البحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾[٣].

و الفساد اليوم يمثّل الذروة والقمة عما كان عليه في سالف الأيّام، فمن الصحف والمجلات الخلاعية الى التلفزيون والسينما وبرامجهما الماجنة والى الصحون الفضائية والانترنت التي اخترعت حديثاً والتي تبث الاباحية بلا حدود، وكل هذه أو بعضها تقتحم بيوتنا شئنا أم أبينا فان عُدِمت كلها فأين المهرب من الشارع والمدرسة والسوق ؟

وكيف يمكن تحصين أبناءنا و أنفسنا خصوصاً إن كنا نعيش في الغرب من كل هذه الأمواج الهادرة التي تدفعنا نحو مستنقع الرذيلة والانحطاط ؟ وهذه الموجات

---

١) النساء / ٤٦ .

٢) آل عمران / ١٨٧ .

٣) الروم / ٤١ .

وصلت الى درجة بحيث ان بعض الرؤساء الغربيين صرّح بخطورة الوضع و بضرورة التصدي لهذا الأمر، وحتى لو كانت أقاويلهم ادعاءات فحسب، فهذا يكشف عن عمق المأساة التي تنمى المجتمعات الغربية بالدرجة الأولى فلا تستطيع عنها انفكاكاً، وكلنا يعلم أن أميركا منعت بيع و تداول الخمور في أراضيها قبل سنوات طويلة ولكنها عادت و تراجعت عن هذا القرار إذ لم يمكن تطبيقه، بعد تعوّد الشعب على الخمور وبعد فقدهم للوازع الديني والنفسي الذي يردعهم عن شربه.

جاء في بروتوكولات حكماء صهيون أن على اليهود أن يشيعوا الفحشاء والرذيلة بين مختلف الشعوب ليسهل السيطرة عليها بعد تفكّك عراها و اتباعهم لشهواتهم و هو الأمر الذي بدأوا في تنفيذه منذ عشرات السنين ونجحوا فيه بصورة منقطعة النظير ويحدّثنا التاريخ أن اعداء الدولة الاسلامية في الاندلس حينما رأوا انهم لا يستطيعون التغلّب عليها عسكرياً، ابتكروا طريقة اشاعة الفحشاء بين طبقات المجتمع الاندلسي المسلم ليوهنوا عراه المستحكمة فيُهاجموه في الصميم وقد نجحوا في هذا الأمر وفيما عدا الفساد الاخلاقي هناك الفساد الروحي والنفسي حيث الخواء الديني ضارب أطنابه في المجتمعات البشرية ففي كل وقت تطلع بدعة ، ليغرّروا بالناس و ليكسبوا الشهرة والمال والقدرة من وراء أعمالهم، فهناك كما يعلم الجميع طائفة تعبد الشيطان في الولايات المتحدة بلد الحرية والديمقراطية الزائفة !

وقد صدق ابليس لعنه الله قوله في غواية الناس، فها هم يعبدونه في أميركا المتحضّرة ! يقول سبحانه وتعالى فيما اقتصّ من خبره :

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ ابليس أبى أن يكون مع الساجدين ... قال ربّ فانظرني إلى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال ربّ بما أغويتني لازيننّ لهم في الأرض ولاغوينهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين

قال هذا صراط عليّ مستقيم إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتبعك من الغاوين﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿ ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾[2].

وقبل فترة انمرى بعض المشعوذين في أميركا طائفة فاتبعوه فما كان منه إلاّ أن أمرهم جميعاً بالانتحار فامتثلوا له، وكل هذا ناتج من الخلأ الديني والروحي، الذي يجعلهم يتمسّكون بكل قشّة يظنّون فيها الخلاص. وان دلّ هذا على شيء فانما يدل على بحث الشعوب المختلفة عن طريق للنجاة والخلاص فأضاعوا الطريق فهم كالمستجير من الرمضاء بالنار وهذا يعطي الأمل لنا كمسلمين لنشمّر عن هممنا ولنعمل على هداية الناس في مختلف بقاع العالم فهم متعطشون لارواء ظمأهم الروحي والعقائدي ومن أية جهة كانت.

٣ - سيطرة الاستكبار على مقدّرات دول العالم الثالث:

بدأت القوى الغربية بالسيطرة على دول العالم الثالث منذ مئات السنين في سبيل التحكّم بخيراتها و استغلال موادها الأولية التي تحتاجها في صناعتها وتجارتها وفي سبيل أسر السود ونقلهم من أفريقيا كعبيد يُباعون و يُشترون واستخدامهم في الاعمال الشاقة وغير ذلك، و شيئاً فشيئاً تطورت الحركة الاستعمارية لبلدان العالم الثالث خصوصاً مع اكتشاف البترول الذي يسيّر مصانعهم و سلاحهم فتكلّموا في استخراجه وبيعه وتصديره، فنبذوا اسلوب الاحتلال المباشر للبلد لما يكلّفهم من ثروة عظيمة ولما يثيره من انتقاد واعتراض عند الرأي العام الدولي خصوصاً في الغرب، واستعملوا

---

١) الحجر / ٣٠ - ٤٣.

٢) المجادلة / ١٩.

اسلوب بديل ألا وهو تنصيب حكّاماً عملاء لهم تدعمهم بكل شيء في سبيل الابقاء على مصالحهم و منافعهم، فاستضعف هؤلاء السلاطين ـ العملاء، شعوبهم المغلوبة وحكموها بالنار والحديد، ونكّلوا بها أي تنكيل وأشاعوا الفساد والفحشاء ولم يتهاونوا في تقبل علماءهم ومنكريهم وقادتهم الشعبيين الذين يطالبون بالحرية لشعوبهم، وانبثقت من رؤوس بعض هؤلاء الحكّام فكرة انشاء برلمانات و مجالس نيابية للتخفيف من موجات الاعتراض والانتقاد، وجلبوا لهذه المجالس عملاء خانوا الشعب همهم هو التصفيق للجلاد في كل ما يعمله و يرتأيه، والهتاف له في كل سكناته وحركاته . و رأينا كيف فعل الله سبحانه بالشاه المقبور حاكم ايران السابق وعميل الولايات المتحدة، بعدما أنهك الشعب الايراني المسلم بجرائمه و ظلمه، فأشاع الفحشاء والمنكرات، وحطّم اقتصاد البلاد من زراعة وصناعة، واعتمد في كل هذا على الغرب الكافر ، فازاحه الله تعالى بيد الامام الخميني والشعب الايراني المؤمن، فأراح منه البلاد والعباد . و رجعت طهران لتكون عاصمة الامة الاسلامية بعد ما كانت توصف بأنها باريس الشرق كما أرادها الغرب المستعمر ولكن تجري الامور والمقادير بمشيئة الله سبحانه لا بمشيئة الصهيونية العالمية .

٤ – عدم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر و مداهنة الظالمين وعدم ردعهم في البلاد الاسلامية

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسمى الفرائض الاسلامية، قال سبحانه و تعالى في كتابه الكريم :

﴿ ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر و

اولئك هم المفلحون ﴾[١].

يقول الشيخ العلاّمة محمد جواد مغنية رحمه الله حول هذه الآية الشريفة :

(لتكن أمر يدل على الوجوب ومن في «منكم» للتبعيض اشارة الى أن هذا الأمر من فروض الكفايات والخير عام لما يجب فعله وما يجوز تركه، والمراد بالمعروف هنا ما يجب فعله بقرينة وجوب الأمر به والمراد بالمنكر ما يجب تركه بقرينة وجوب النهي عنه .

و تجدر الاشارة الى أن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرورة دينية عند المسلمين يُستدلّ بها ولا يُستدلّ عليها «واولئك» الذين يأمرون بالمعروف «هم المفلحون» المنتصرون دنيا و آخر)[٢].

إلاّ بالكاد من المؤسف انّ هذه الفريضة الاسلامية السامية قد انقرضت، وهي فرض كفائي، فتركها من الجميع يعمهم بالاثم و يشملهم .

وقد تهرّب المسلمون من العمل بهذه الفريضة الالهية نتيجة لابتعادهم عن القيم والموازين الاسلامية ونتيجة لطغيان الفكر المادي المستورد والذي جعل الأكثرية العظمى منهم يسعى لحياته المادية ولرفاهه و سعادته، فما عليه إن رأى الغير يعملون بما ينكره الاسلام وهو نفسه لا يحمل ذرة من دينه سوى ماكُتب في هويته انه مسلم .

وهناك طائفة أخرى تتواكل في عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و تتهرّب منها مدعيّة ان هناك من يقوم بالواجب، وهؤلاء في الواقع مؤيدون لشيوع المنكرات في المجتمع الاسلامي إذ لم يغيروا الحالة بقول أو فعل أو حتى بالانكار القلبي وهو أضعف الايمان كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

١) آل عمران / ١٠٤ .

٢) التفسير المبين - المرحوم محمد جواد مغنية - ص ٨٠ .

و هناك طائفة ثالثة أتعس حالاً و أسوأ من الطائفتين السابقتين وهم يفهمون معنى حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام حول الامام المهدي عجل الله فرجه بأنه حينما يظهر يملأ الأرض قسطاً و عدلاً كما مُلئت ظلماً و جوراً يفهمون هذا الحديث الشريف فهماً خاطئاً و معوجاً، إذ يقولون يجب عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تملأ الأرض ظلماً و جوراً و يقولون اننا إذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فسوف لا تمتلأ الأرض بالظلم والجور وبالتالي سوف لن يظهر الامام المهدي عليه السلام مبكّراً.

فمقتضى الحديث الشريف عندهم هو عدم وجوب النهي عن المنكر حتى يتحقق مضمونه و نسى هؤلاء أو تناسوا الآيات والاحاديث الكثيرة التي تأمرنا بهذه الفريضة الالهية المهمة فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[١].

فهذا بيان واضح من ربّ العالمين ان على المؤمنين والمؤمنات ان يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر و هؤلاء الجهّال بأعمالهم هذه يحبّون ضمناً شيوع المنكرات و تناسوا قول الله سبحانه وتعالى الذي يقول :

﴿ إنّ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا و في الآخرة والله يعلم و أنتم لا تعلمون ﴾[٢].

وكل هذا في الواقع تطبيق عملي لحديث رسول الله محمد صلى الله عليه و آله و سلم الذي يقول :

---

١) التوبة / ٧١.

٢) النور / ١٩.

«كيف بكم إذا فسد نساؤكم و فسق شبّانكم و لم تأمروا بالمعروف و لم تنهوا عن المنكر قيل له : ويكون ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم و شرّ من ذلك و كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر و نهيتم عن المعروف ؟ قيل : يا رسول الله ويكون ذلك قال: نعم و شرّ من ذلك وكيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً»[1].

ونجد هذه الطوائف الثلاثة، هناك أعوان الظلمة ممن يقتات على موائد السلطان ويسبحون بحمده كيف لا وهو وليّ نعمتهم والحافظ لأنفسهم، وهؤلاء شركاء له في ظلمه و بغيه، يقول رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم :

«من أعان ظالماً على ظلمه سلّطه الله عليه»[2].

وهناك درجات أدنى، كمحبة بقاء الظالم ولو لفترة قليلة كما جاء في الرواية، ان صفوان الحجّال كان يكري جماله للرشيد في موسم الحج فعاتبه الامام موسى الكاظم عليه الصلاة والسلام على عمله هذا، وقال له عليه السلام أتحب بقائهم الى أن يعطوك كراءك قال نعم ، قال عليه السلام : فمن أحبّ بقائهم فهو منهم، فذهب صفوان وباع جماله عن آخرها وهذا تهذيب وتعليم لنا أن لا نشارك الظالمين أعمالهم و لو بشطر كلمة فمن أحبّ قوماً حُشِرَ معهم كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم.

يقول أمير المؤمنين حول مصير الامم التي لم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر :

«وإنّ عندكم الامثال من بأس الله وقوارعه و أيامه و وقائعه فلا تستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه وتهاوناً ببطشه و يأساً من بأسه فإنّ الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلاّ لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلعن الله تعالى السفهاء لركوب

---

١) المختار من حديث المصطفى - اختيار السيد محسن الأمين رحمه الله ص ١٤ .

٢) المصدر السابق - ص ٢٢ .

المعاصي والحلماء لترك التناهي»[١].

والفقرة الاخيرة من كلام الامير عليه السلام تدل بوضوح ان غضب الله تعالى إذا نزل فانه يعم المؤمنين أيضاً إذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهذا تحذير منه علّه يفيدنا في المستقبل وسبل اصلاح الوضع هو العمل عكس ما جاء في الفقرات التالية ولو بصورة تدريجية، وهناك بصيص من نور يبشّر بالخير خصوصاً بعد قيام الدولة الاسلامية في ايران و حملها لواء الاسلام الاصيل والتي أخذت على عاتقها مكافحة الفساد في أراضيها أولاً وفي البلدان الأخرى ثانياً، وفي سبيل هذا العمل المقدس تتحمل كل عدوان وأذىً من الاستعمار العالمي بقيادة أميركا المجرمة والصهيونية الدولية.

وإذا علمنا انّ هناك من يقوم بين الفينة والاخرى في البلدان الاسلامية والنامية وحتى في نفس البلدان الغربية، و يدعو لاصلاح الوضع المأساوي للمجتمعات الانسانية وتقييد الحرية وكبح جماحها والعودة الى الالتزام بالقيم الروحية والألهية، و نبذ العنف والارهاب، فان كل هذا يبشر بالخير وقد استجاب العشرات بل المئات من الناس لعقولهم و ضمائرهم و سلكوا طريق الاسلام بعدما هداهم الله تعالى لذلك، فاحرى بالمسلمين اليوم العودة الى ينابيع دينهم الصافية والارتواء منها بعد طول فراق وجفاء ولنتمثل قوله سبحانه وتعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾[٢].

وتقع على العلماء والمفكرين والفقهاء «خصوصاً في البلاد الاسلامية» مسؤولية

---

١) نهج البلاغة - صبحي الصالح ص ٢٩٩ .

٢) النور / ٢١ .

ضخمة من أجل هداية الناس جميعاً و وعظ الظالمين والجائرين، ففي وصية الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وسلّم لمعاذ بن جبل حينما بعثه الى اليمن قال:

«يا معاذ علّمهم كتاب الله و أحسن أدبهم على الاخلاق الصالحة وأنـزل النـاس منازلهم خيّرهم وشرّهم ... وذكّر الناس بالله سبحانه وباليوم الآخر واتبع الموعظة فانه (فانها) أقوى لهم على العمل بما يحب الله تعالى، ثم بث فيهم المعلّمين ولا تخف في الله لومة لائم و أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد واداء الامانة وترك الخيانة ولين الكلام و بذل السلام وحفظ الجار و رحمة اليتيم و حسن العمل و قصر الامل و حب الآخرة والجزع من الحساب وكظم الغيظ وخفض الجناح واحدث لكل ذنب توبة السّر بالسّر والعلانية بالعلانية»[١].

حقاً ما أعظمها من وصية خالدة تُمدُّ لها الاعناق، لو عمل بها البشر لأصلحتهم كلهم، وعلى العلماء والفقهاء أن يضعوا حديث رسول الله صلى الله عليه و آله الذي يقول:

«أفضل الجهاد كلمة حق بين يدي سلطان جائر»[٢].

و «من أرضى سلطاناً بما يسخط الله تعالى خرج من دين الله»[٣].

لئلا ينحرفوا و ينزلقوا والعياذ بالله تحت راية الجائر والله العاصم .

٥ - الاعتراف بحقوق الامم والأديان :

قال سبحانه و تعالى في كتابه المبين :

﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر

---

١) المختار من حديث المصطفى (ص) - اختيار السيد محسن الامين رحمه الله ص ١٩ .

٢) المختار من حديث المصطفى (ص) - اختيار السيد محسن الامين رحمه الله ص ٢٤ .

٣) نفس المصدر .

وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾[١].

هذا اعتراف واضح منه سبحانه وتعالى بمؤمن أهل الاديان السابقة وبعدم غبن أجرهم عند الله عزّ وجلّ .

هذا اعتراف واضح منه سبحانه وتعالى بمؤمني أهل الأديان السابقة وبعدم غبن أجرهم عند الله عز وجلّ . والاسلام الحنيف لم يجبر أحداً على اعتناقه فمن لم يؤمن به يمكنه التمتع بأحكام أهل الذمة و يعيش مرتاح البال والضمير في الدولة الاسلامية، لا يمس أحد دينه ومعتقده بسوء ما لم يحدث في عهده، من مساعدة اعداء الدين أو التجاهر بالمنكرات وغير ذلك وهذا الاعتراف بالأديان يمثّل ذروة الانسانية وقمة التسامح والرحمة .

لا نجد فيها مذهباً آخر غير الاسلام يمتاز بها، فخذوا شاهداً على ذلك الاندلس الاسلامية في أواخر حياتها حينما هاجمها الاعداء و سيطروا عليها فأخذوا ينكّلون بكل مسلم ومسلمة، حتى تنصّر الكثير منهم خوف القتل بعدما آمن المسلمين اهل البلد حينما فتحوا بلادهم و جعلوا لهم مطلق الحرية في العمل بكتبهم و لم يجبروهم على اعتناق الدين الجديد .

ولنلق نظرة على بعض التصرفات التي كانت تتبع ضد المسلمين بعد استيلاء النصارى على الاندلس. يقول الدكتور أسعد حومد:

(لقد ترك ديوان التحقيق «وهو ما كان يُعرف بمحاكم التفتيش» ذكراً يرن في أسماع العصور الخالية ولكنّ الكثيرين يجهلون بالضبط الأساليب التي كان يتبعها هذا الديوان مع الضحايا المساكين الذين يحالون اليه ... وقد نقل الاستاذ محمد عبدالله

---

١) البقرة / ٦٢.

عنان في كتابه (نهاية الاندلس) وثيقة أوردها المؤرخ الاسباني (لورنتي) مؤرخ ديوان التحقيق تضمّنت طائفة من القواعد والاجراءات التي رأى ديوان التحقيق أن يأخذ بها العرب المتنصرين[١] في موضوع تهمة الكفر والزندقة والارتداد عن النصرانية رأينا أن نقتبسها هنا لما فيها من غرابة وبعد عن روح الايمان و ظلم يعتبرالموريسكي (العربي المتنصّر) قد عاد الى الاسلام إذا امتدح دين (النبي) محمد(ص) أو قال أن يسوع المسيح ليس الهاً وليس إلاّ رسول أو إنّ صفات العذراء أو اسمها لا تناسب امّه و يجب على كل نصراني أن يبلّغ عن ذلك و يجب عليه أيضاً أن يُبلّغ عما إذاكان قد رأى أو سمع بأنّ أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الاسلامية ومنها أن يأكل اللحم يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح له و أن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية أو يستقبل المشرق في صلاته قائلاً: بسم الله أو يربط أرجل الماشية عند ذبحها أو يرفض أكل الماشية التي لم تذبح أو لحم الماشية التي ذبحتها امرأة أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية أو يعرب عن رغبته في اتباع هذه العادة أو يقول أنه يجب ألاّ يعتقد إلاّ في الله وفي محمد (ص) رسوله أو يقسم أيماناً بالقرآن أو يصوم في رمضان أو يتصدّق في خلاله ولا يأكل ولا يشرب إلاّ عند الغروب أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجّه وجهه جهة المشرق و يركع و يسجد و يتلو سوراً من القرآن أو أن يتزوج طبقاً لرسول الشريعة الاسلامية أو ينشر الاغاني العربية أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية أو أن تستعمل النساء الحنّاء في صبغ أيديهنّ و شعورهنّ أو يتبع قواعد الرسول محمد (ص) الخمس أو يمسح بيده

---

١) المسلمون الذين أجبرهم النصارى الذين استولوا على اسبانيا أن يأخذوا بدين المسيحية.

على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القاعدة أو يغسل الموتى أو يكفّنهم بأثواب جديدة أو يستغيث (بالرسول) محمد (ص) عند الشدّة ناعتاً اياه بالنبي أو برسول الله ... أو يقول انّ الكعبة هي أولّ معابد الله سبحانه[1].

و يقول المؤرخ الاسباني مارمول :

«كان المورسيكيون يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد فاذا ذهبوا الى القداس أيام الآحاد فانهم كانوا يفعلون ذلك مراعاة للعرف والنظام (وفي الحقيقة انّ الكنيسة جعلت ذلك فرضاً عليهم ومن تأخّر عن ذلك عوقب وعرّض نفسه لأشد الأخطار) وهم لم يقولوا أبداً الحقيقة في اعترافهم أمام القسس في الكنائس وفي يوم الجمعة يجتمعون و يغتسلون و يقيمون في منازلهم المغلقة الصلاة طبقاً للشريعة الاسلامية وفي أيام الآحاد يحتجبون و يعملون وإذا عمّدوا أطفالهم عادوا الى منازلهم فغسلوهم سرّاً بالماء الحار و يُسمّون أولادهم بأسماء عربية و في حفلات الزواج تذهب العروس الى الكنيسة لتلقّي البركة ولكنها متى عادت الى بيتها نزعت ملابسها النصرانية وارتدت ثياباً عربية وأقاموا حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية)[2].

وهذه شهادة من كاتب نصراني وهي إن دلّت على شيء فانما تدل على تمسك المسلمين سرّاً بمبادئ دينهم الحنيف فلم يردعهم عن هذا كل أساليب القتل والتعذيب والتنصير فقد ملأ الاسلام قلوبهم و تغلغل في جوارحهم .

و يقول الدكتور أسعد حومذ في موضع آخر :

«راوياً قصة اكتشاف زنزانات التعذيب على يدي الكولونيل ليمونسكى الضابط في الحملة الفرنسية على اسبانيا :

---

١) محنة العرب في الاندلس – الدكتور أسعد حومة ص ٣٤٤ – ٣٤٥ .

٢) محنة العرب في الاندلس – الدكتور أسعد حومد ص ٣٤٥ – ٣٤٦ .

(وهبطت على درج السُّلّم يتبعني سائر الضبّاط والجنود شاهرين سيوفهم حتى وصلنا آخر الدرج فاذا بنا في غرفة كبيرة مربعة هي عندهم قاعة المحكمة في وسطها عمود من الرخام به حلقة حديدية ضخمة رُبطت بها سلاسل كانت الفرائس تقيد بها رهن المحكمة ... ثم توجهنا الى غرفة آلات التعذيب وتمزيق الاجساد البشرية وقد رأيت فيها ما يستفز نفسي ويدعوني الى التقزّز ما حييت رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الانسان بعضها عمودي وبعضها أفقي فيبقى سجين العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يُقضي عليه ويبقى سجين الافقية ممّدداً حتى يموت وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبكي ويتساقط اللحم عن العظم. وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في أغلالها سجينة والسجناء كانوا رجالاً و نساءاً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين واستطعنا فكاك بعض السجناء الاحياء وتحطيم أغلالهم وهم على آخر رمق من الحياة وكان فيهم من جنّ لكثرة ما لاقى من عذاب وكان السجناء عراة زيادة في النكاية بهم حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم و يستروا بها لفيفا من النساء السجينات ... عثرنا على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين وذلك كله على سبيل التدرج حتى تأتي الآلة على البدن المهشّم فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة وعثرنا على صندوق في حجم رأس الانسان تماماً يوضع فيه الرأس المعذّب يُربط صاحبه بالسلاسل من يديه و رجليه فلا يقوى على حركة وتقطّر على الرأس من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد فتقع على رأسه بانتظام، في كل دقيقة نقطة وقد جُنَّ الكثيرون من ذلك اللون من التعذيب قبل أن يحملوا به على الاعتراف ويبقى المعذّب على حاله تلك حتى يموت، وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تُسمى بالسيدة الجميلة وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام

معها وقد برزن من جوانبهاعدّة سكاكين حادّة وكانوا يطرحون الشاب المعذّب فوق هذه الصورة ثم يطبقون عليها باب التابوت بسكاكينه وخناجره فاذا أغلق تمزّق جسم الشاب وتقطع ارباً، كما عثرنا على جملة آلات لسلِّ اللسان ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة و مجالد من الحديد الشائك لضرب المعذّبين وهم عُراة حتى يتناثر اللحم عن العظام)[١].

يقول الدكتور أسعد حومه :

هذه قصة ديوان التفتيش رواها شاهد عيان وهي لا تحتاج الى أي تعليق عليها والذي يمكن أن نضيفه الى رواية الكولونيل الفرنسي هو انّ مشاهداته كانت عام ١٨٠٩ وان المعاملة واقعة على كاثوليك مسيحيين فكيف بمعاملة الديوان للمسلمين قبل ثلاثة قرون قبل أن تنصقل العواطف وتتهذّب النفوس بعض الشيء وتنتشر فكرة الحرية في العالم ؟ انها بلا شك تتجاوز أضعاف ما ورد في هذه الرواية[٢].

يا لها من وحشية ونذالة وخباثة، بعد كل الذي ذاقوه من سماحة و عدالة المسلمين الفاتحين و نزاهتهم و رحمتهم (ومنذ أن حقق المسلمون أول نصر لهم في اسبانيا بدأوا بتطبيق قواعدهم العامة دون تخبّط أو اضطراب فوجد الاسبان من المسلمين عدلاً و وفاءاً بالعهد وحرية تامة للمجتمع القائم وأعرافه وعدم تدخل في شؤونه الدينية فدخلت أفواج من الأسبان في الدين وخصوصاً الطبقات الفقيرة والفلاحين الذين حرّرهم الاسلام من ربقة العبودية ورفع شأنهم و ساواهم بمن كانوا في جيش الفتح من المسلمين السابقين وهي أمور لم يكونوا يطمعون فيها أو يحلمون بمثلها إذ كانت غريبة عن روح العصر وعن تقاليد المجتمع الغربى في ذلك الحين أما الذين

---

١) محنة العرب في الاندلس، د. أسد حومه ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

٢) محنة العرب في الاندلس ، د. أسعد حومه ص ٣٥٠.

أرادوا الاقامة على دينهم فقد ترك لهم العرب الحرية التامة في ممارسة دينهم وجعلوا لهم نوعاً من الاستقلال الاداري والقضائي مارسوه بأشراف كنيستهم وأعيانهم.

ويُحسن بنا أن نلقي نظرة على ما قاله (غوستاف لوبون) الفرنسي حول اسبانيا أيام الحكم الاسلامى:

«كان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي وقد تركوا الناس أحراراً في أمور دينهم و أظلّ العرب اساقفة الروم ومطارقة اللاتين فقال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعة والطمأنينة استطاع العرب أن يحولوا اسبانيا مادياً و ثقافياً في بضعة قرون وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية ... كان لهم الأثر البالغ في أخلاق الناس فهم الذين علّموا النصارى كيف يكون التسامح الذي هو أثمن ما تصبوا إليه الانسانية وقد بلغ حلم عرب اسبانيا ازاء النصارى مبلغاً كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر اشبيلية النصراني الذي عقد في تموز ٧٨٢ م)[١].

وهذا اعتراف واضح من أحد أقطاب الغرب بتسامح ورحمة المسلمين والفضل ما شهدت به الاعداء . قال سبحانه :

﴿ لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك العروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[٢].

وهذا دليل واضح و بيّن ان الاسلام لا يجبر أحداً على الايمان به فكل ما يختار لنفسه والحساب غداً عند الله سبحانه وتعالى . وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[٣].

---

١) محنة العرب فى أسبانيا ، د . أسعد حومه ص ٣٧٩ - ٣٨١.

٢) البقرة / ٢٥٦ .

٣) الكهف / ٢٩ .

والقرآن الكريم زاخر بالآيات الشريفة والتي تدل على حرية المعتقد والمذهب في الشريعة الاسلامية، فالدين يدخل القلب عن طريق الاقتناع النفسي وعن طريق الموعظة، ولا يمكن له أن يعمر القلوب عن طريق السيف والارهاب، يقول تعالى:

﴿ ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنّ ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾[١].

وهذا دليل واضح على نبذ الاسلام لأسلوب الدعوة عن طريق القوة والبطش، قيل انه عندما كان أمير المؤمنين علي أبي طالب عليه الصلاة والسلام خليفة رأى شيخاً يسأل الناس فقال عليه السلام: ما هذا ؟ فقيل له هذا نصراني عاجز عن العمل ويسأل الناس .

فقال عليه السلام: لقد استفدتم منه حينما كان شاباً و قادراً على العمل وتركتموه حينما عجز، أجروا له رزقاً من بيت المال، هذه هي عظمة و سماحة الاسلام تجاه أهل الذمة، وهذا التصرّف يُجسّد الخلق الاسلامي الرفيع والعطف والرحمة اللذان يتسم بهما أمير المؤمنين عليه السلام.

و يعترف سبحانه و تعالى بحقوق الاديان الاخرى يقول عز وجلّ:

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أُنزل إلينا و أنزل إليكم والهنا و الهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾[٢].

ويأمرنا سبحانه وتعالى أن نتعامل مع أهل الكتاب بالعدل والقسط والانصاف كل هذا ليروا بأم أعينهم طريقة تصرّف الاسلام معهم وبالتالي قد تميل قلوبهم و تنعطف نحو الايمان وهو ما يريده سبحانه منهم، يقول سبحانه وتعالى:

---

١) النحل / ١٢٥ .

٢) العنكبوت / ٤٦ .

﴿ إنّ الله يأمر بالعدل ﴾[١].

وقال تعالى :

﴿ واقسطوا إنّ الله يحب المقسطين ﴾[٢].

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في كتاب له إلى أصحاب الخراج:

«... ولا تمسّن مال أحدٍ من الناس مصلٍ ولا مُعاهد (الذمي) إلاّ أن تجدوا فرساً أو سلاحاً يُعدى به على أهل الاسلام»[٣].

وهذا اعتراف واحترام لأموال أهل الكتاب .

و يقول عليه الصلاة والسلام في كتابه لمالك الأشتر ورحمه الله لما ولاّه مصر :

«واشعر قلبك الرحمة للرعيّة والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغنم أكلهم فانهم صنفان : أما أخٌ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزّلل وتعرض لهم العلل، و يؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تُحب و ترضى أن يعطيك الله سبحانه من عفوه وصفحه فانّك فوقهم و والي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاّك»[٤].

هذا دستور عظيم من أمير المؤمنين عليه السلام بمراعاة حقوق أهل الكتاب و جعلهم بموازاة المسلمين، نادراً ما نجد هذا الاحترام في دساتير الأمم والشعوب في الماضي والحاضر، وهذا الدستور الكريم يشعرنا بالحقوق التي لاهل الملل والأديان

---

١) النحل / ٩٠.

٢) الحجرات / ٩.

٣) نهج البلاغة - صبحي الصالح ص ٤٢٥.

٤) نهج البلاغة - صبحي الصالح ص ٤٢٧ - ٤٢٨.

الأخرى كما هي للمسلمين وان على ولاة الأمر معاملتهم بالمحبة والعطف واللين والسّماحة وأن يضرب على أيدي العابثين بأرواحهم و أموالهم وحريتهم حتى يعيشوا بأمن و سلام و طمأنينة في مجتمع المسلمين .

وأخيراً نعرض لقوله سبحانه وتعالى عن مؤمني أهل الكتاب:

﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون و إذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به انّه الحق من ربنا إنّا كنا من قبله مسلمين اولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا و يدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون و إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين)[1].

يقول العلامة محمد جواد مغنية :

(يعلن القرآن على الأجيال إنّ علماءاً أبراراً من اليهود والنصارى قد آمنوا بالرسول محمد صلى الله عليه وآله والقرآن وليس هذا إخباراً عن الغيب بل عن شيء مادي محسوس و ملموس فلماذا يخرس المكذبون بالقرآن ولا يقولون هذه دعوى بلا أساس ؟

﴿ و إذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق ﴾

إذا تُلي القرآن الكريم على العلماء الأبرار من أهل الكتاب يؤمنون بالرسول(ص) لأنهم قرأوا أوصافه في توراة موسى و انجيل عيسى عليهما السلام والحق باب من أبوابه تعالى يفتحه لكل من طلب الحق بقصد العمل به ﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ بالرسول محمد (ص) لأنهم يؤمنون بالتوراة والانجيل والايمان بهما ايمان بالنبي(ص) ﴿ اولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ مرة على ايمانهم بالتوراة والانجيل

---

١) القصص / ٥٢ـ ٥٥ .

الصحيحين ومرة على أيمانهم بالقرآن صابرين على أذى السفهاء والمـجرمين فـي سبيل الحق ﴿ ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾ لا يـقابلون السـيئة بـمثلها بـل يـتنزّهون ويصفحون ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ لوجه الله تعالى لا للسمعة وحبا بالشهرة ﴿واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه...﴾.

ان وقتنا اعز واثمن من اللغو والعبث ومن مخاطبة السفهاء ومخالطتهم في شيء وكل من بادر الى الكلام بما يحظر على ذهنه او يتكلّم بما لا ينفع ويقول بما لا يعلم فهو أحمق فكيف اذا أساء الى الناس بسفاهته وسفالته.[١]

والحمد لله رب العالمين

١) التفسير المبين ـ العلامة محمد جواد مغنيه رحمه الله ص ٥١٤ ـ ٥١٥.

حقوق الأمم والأديان في الإسلام

دراسة في الأسس الفقهية والتاريخية

✍ شذى الخفاجي

قم - ايران

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله الاطهار وصحبه الابرار.

الوحدة ورص الصفوف من اهم مقومات البناء الحضاري للامة الاسلامية، والوحدة ضرورة شرعية وعقلية اكد عليها القرآن الكريم والنبي(ص) وحكم بها العقل السليم، واثبت لنا التاريخ ضرورتها في تتبعه لسير الحضارات التي نمت وترعرعت وازدهرت بالوحدة وتدهورت واضمحلت حينما بدأ التمزق والفرقة يدبان في سيرها، والوحدة الاسلامية ممكنة التحقيق وليست مستحيلة كما يشيع اعداء الاسلام، ويأتي امكان تحققها لوجود ثوابت مشتركة بين جميع المذاهب، اما الفواصل فهي فواصل جزئية لاتمنع من الاشتراك في الافق الواسع، افق العقيدة والمصير والمصالح والمواقف الواحدة، ومن نقاط الاشتراك هو الاتفاق

على الاعتـراف بحقـوق الامم والاديـان، وقد تجسد هذا الاتفاق على المستوى النظـري والفقهي في الاعتمـاد على مصـادر التشريع الاسلامي، وعلى المستوى العملي في تتبع سيرة النبي(ص) والسلف الصالح. وفي بحثنا هذا نسلط الاضواء على الاسس الفقهية والتـاريخية لحقـوق الامم والأديـان في الاسلام، بالاستفادة من القـرآن الكريم ومن التطبيق العملي لهـا في عهـد النبي(ص)وعهـد الخلفـاء الـراشـدين، وعهـد أئمة أهل البيت(ع) وأئمة المـذاهب، والاستفـادة من آراء الفقهـاء المتقـدمين والمتـأخرين، والاستفادة من تجربة الجمهورية الاسلامية في ايـران، لنضع صورة واضحة المعالم عن مظاهر التعامل الانساني مع غير المسلمين والـذي تجسـد في الاعتـراف بجميع حقـوقهم الفكرية والسيـاسية والاجتمـاعية والمدنية والاقتصـادية، حيث عاشـوا في ظل الاسـلام حيـاة كريمة تجسدت فيها انسانية الاسلام وروح المسامحة والوئام.

الفصل الاول

حقوق الامم والاديان في القرآن الكريم

ان الاسـلام دين الـرحمة والعفـو والتسـامح، جاء لهداية الانسانية من خلال الآيـات والبينـات الـواضحة المعالم ليكون الأمن والوئام والسلام هو الحاكم في اسس وقواعد العلاقات بين بني الانسان.

واكـدت الآيـات القرآنية على هذه الحقيقة، فالرسول(ص) قد ارسل شاهدا على النـاس جميعـا ومبشـرا ونذيـرا: (يـا ايهـا النبي انـا ارسلنـاك شاهدا ومبشرا ونذيرا).[1]

ورسـالة الاسـلام هي رسـالة الـرحمة وقـد ارسل رسـول الله(ص) من اجل

تقريرها في واقع الحياة: (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين).[٢]

والقرآن الكريم بما فيه من مفاهيم وقيم وتشريعات مختلفة انما هو ذكر للعالمين: (ان هو الا ذكر للعالمين).[٣]

والبيت الحرام الذي يمثل محور الالتقاء والاشتراك لم يوضع الا هدى للعالمين: (ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين).[٤]

فالذكر والانذار والهدى والرحمة تستلزم نفي جميع الوان الاكراه والاضطهاد والعبودية والامتهان لجميع بني الانسان على مختلف انتماءاتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية، ولهذا راعى القرآن الكريم في اسسه وقواعده الثابتة حقوق الانسان في جميع مظاهرها.

حق الاعتقاد:

قال تعالى: (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...)[٥]. فقد صرح القرآن الكريم على حق الانسان في الاعتقاد، فله الحرية الكاملة في اختيار أي دين شاء وأي عقيدة فكرية، فلا اكراه له على عقيدة معينة، وقد جاءت التفاسير منسجمة مع هذا المفهوم القرآني في مراعاة حقوق غير المسلمين، فقد ورد (ان المراد ليس في الدين اكراه من الله، ولكن العبد مخيّر فيه لان ما هو دين في الحقيقة هو من افعال القلوب اذا فعل لوجه وجوبه، فاما ما يكره عليه من اظهار الشهادتين فليس بدين حقيقة...).[٦]

وفي تفسير آخر: (لا تكرهوا احدا على الدخول في دين الاسلام فانه بين واضح جلي دلائله).[٧]

وقد منح القرآن الكريم حق البقاء على الاعتقاد السابق لغير المسلمين كما

ورد في سورة (الكافرون): (... لكم دينكم ولي دين).

ولا يحق لاحد ان يكره غيره على اعتناق العقيدة الاسلامية، قال تعالى: (فذكّر إنما انت مذكّر لست عليهم بمسيطر).(٨)

وقال ايضا: (وما على الرسول الا البلاغ المبين).(٩)

وقال ايضا: (ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا. افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين).(١٠)

ولغير المسلمين حرية الارادة في تبني ما يرونه من عقائد، قال تعالى: (من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ظل فانما يظل عليها).(١١)

وقال تعالى: (فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد).(١٢)

فلكل انسان او جماعة انسانية حق الاعتقاد دون اكراه او اجبار، مع المحافظة على النظام العام ومراعاة الاكثرية دون جرح لعقائدا ومتبنياتها الفكرية والعقائدية، ودون المساس بمفاهيمها وقيمها وعاداتها وتقاليدها.

حق ابداء الرأي:

لغير المسلمين حق ابداء الرأي في جميع المجالات العقائدية والفكرية والتشريعية والسياسية، ولهم حق الحوار والجدال، دون اكراه او ارهاب، قال تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نبعد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون).(١٣)

وامر القرآن الكريم بالدعوة الى الاسلام بالحكمة والجدال بالتي هي احسن؛

بالرفق وابراز البينات والدلائل: (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن).[١٤]

واستثنى الظالمين في هذه القاعدة الكلية فقال تعالى: (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم).[١٥]

وذكر القرآن الكريم مصاديق هذا الحق ومظاهره العملية التي طبقت وقت النزول، فقد كانوا يحاجون المسلمين في بعض المفاهيم والمعتقدات (يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم).[١٦]

وكان لهم حق ابداء الرأي وتوجيه الاسئلة الى رسول الله(ص): (يسألك أهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء).[١٧]

وكان لهم حق الترويج لمتبنياتهم العقائدية والفكرية والتنظيمية (وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا).[١٨]

حق الأمن والحماية:

الاسلام دين الامن والسلام والوئام، ولهذا يدعو الى تقرير هذه المفاهيم في واقع الحياة، فالنفس الانسانية لها حرمتها، فلا يبيح الاسلام القتل لمطلق الانسان مسلما كان ام غير مسلم، فللجميع حق الحياة، قال تعالى: (من قتل نفسابغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا).[١٩]

ونهى القرآن الكريم عن قتل المسالمين بل امر ببرهم والقسط اليهم ليتمتعوا بكامل مظاهر الامن والسلام: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين).[٢٠]

والامن والسلام هو الاصل الحاكم على التعامل مع غير المسلمين، اما القتال فهـو حـالة استثنـائية يجب الرجـوع عنها في اي فرصة متاحة والعودة الى الاصل وهو السلام والوئام، قال تعالى: (وان جنحوا للسلم فاجنح لها).[٢١]

وحـــرم القــرآن الكريم الاعتــداء: (وقاتلـوا في سبيل اللـه الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين).[٢٢]

وامــر القــرآن الكـريم باجـارة المستجيـر حتى يبلغ مأمنـه: (وان احـد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه).[٢٣]

وفي ظل الاســلام يتمتع الجميع بـالامن، فـلا يبيح الاسـلام الاعتـداء على ارواح النـاس واعراضهم واموالهم واماكن عباداتهم، فقد جاءت الآيات القرآنية مطلقة غيـر مقيـدة بصفة الاسـلام والايمان، فحرم القرآن الكريم الاعتداء والظلم والاضطهاد، وحرم الاعتداء على اموال الناس بسرقة او غصب أو غش واحتيال، وحــرم التطفيف بالمكيـال والميزان، وحرم الاعتداء على اعراض الناس جميعا، وحرم الدخول الى البيوت الا باذن أهلها.

حق التمتع بالعدل:

العـدل مبـدأ اسـلامي دعـا القـرآن الكريم الى تقريـره في واقع الحياة، وامر بتطبيقـه بين النـاس جميعا دون النظر الى انتماءاتهم العقائدية والفكرية، فللجميع حق التمتع بـــه، والآيــات القــرآنية جــاءت مطلقة غيـر مقيـدة بصفة عقـائدية، فالمسلمـون وغيرهم على حد سواء (ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين النـاس ان تحكمـوا بالعـدل ان اللـه نعمـا يعظكم بـه ان الله كان سميعا بصيرا).[٢٤]

وقال تعالى: (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط).(٢٥)

واضافة الى الامر بالعدل امر القرآن الكريم بالاحسان فقال: (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي...).(٢٦)

ويأمر القرآن الكريم المسلمين بأن لا يتأثروا بما يقع عليهم من مخالفيهم في الايمان والاعتقاد من ظلم وينعكس ذلك على غير المعتدين بل يدعو الى توفير العدالة وكفالتها: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون).(٢٧)

والقرآن الكريم ينظر الى الانسان بما هو انسان بلا صفة اضافية من عقيدة او انتماء في مجال تطبيق العدل وتحكيمه بين الناس مسلمين ام غير مسلمين.

حق التقاضي والتحاكم:

منح القرآن الكريم لغير المسلمين حق التقاضي والتحاكم من اجل اقامة العدل واقرار الحقوق وانهاء الخلافات والنزاعات الاجتماعية والاقصادية وغيرها.

فلهم حق التقاضي والتحاكم عند الحاكم الاسلامي، وهو بالخيار بين القبول والرفض تبعا لما يراه من مصلحة، واذا تحاكموا اليه يجب عليه الحكم بينهم بالقسط والعدل: (... فان جاءوك فاحكم بينهم او اعرض عنهم... وان حكمت بينهم فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين).(٢٨)

ويجب على الحاكم الاسلامي ان يحكم بينهم ـ في حال التحاكم اليه ـ طبقا

لقـوانين الاسـلام و تشريعاته: (وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتـاب ومهيمنـا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولاتتبع اهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا).(٢٩)

وحث القـرآن الكريم اهل الكتـاب على الحكم طبقـا للاسس والقواعد التي انـزلهـا اللـه في كتب انبيـائهم، التقيـد بمـا ورد فيهـا من ثـوابت واساسيات، قال تعـالى:(وكيف يحكمونك وعنـدهم التـوراة فيهـا حكم الله... ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون).(٣٠)

وقـال تعـالى: (وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون).(٣١)

وجـاءت توجيهات وارشادات واوامر القرآن الكريم للحكم بما انزل الله في التوراة والانجيل للحيلولة دون وقوع الظلم وعدم العدالة، ان حكم حاكمهم بغير الثـوابت تبعـا لاهوائه ورغباته النفعية والمصلحية، ويروم القرآن الكريم من ذلك اشاعة العدل واعطاء كل ذي حق حقه وان لم يكن مسلما، ايمانا منه باقرار حقوق غيـر المسلمين، لكي لايظلم احـد منهم ولايعتـدى على حقـه في نفسـه وعرضه وماله.

الحقوق المدنية:

ان جميع الآيـات القـرآنية التي وردت بخطاب يا ايها الناس او رتبت حقوقا للنـاس على بعضهم تدل دلالة واضحة على اقرار الحقوق المدنية لغير المسلمين لانهـا لم تشتـرط في ذلك صفة الايمـان ولم تكن مقيـدة بهـا، فالقرآن الكريم كرم مطلق الانسـان وعلى هـذافلايجـوز اهانة غير المسلمين وقذفه وممارسة الكذب

والخـداع والغش والتدليس معه، ونهى القرآن الكريم عن الطعن بمعتقداتهم باسلوب لاينسجم مع اخلاق الاسلام وسماحته، وحرم الدخول الى بيوتهم الا بعد الاستئذان وحرم التجسس عليهم في شؤونهم الاجتماعية، ونهى عن بخسهم لحقوقهم في المكيال والميزان وفي مطلق البيع والشراء، وساوى بينهم وبين المسلمين في الضرائب المفروضة، فعليهم الجزية وعلى المسلمين الزكاة والخمس، وساوى بينهم وبين المسلمين في الحكم بالعدل والمساواة امام القانون، وامر بالوفاء بالعهود والعقود بينهم وبين المسلمين، ومنحهم حق التنقل والسكن والتملك وسائر التصرفات المالية، وأقرّهم على ما يعتقدونه في قضايا النكاح والطلاق والوصية والميراث.

ولزيادة الاطلاع تراجع الآيات التالية:

الاسراء:٧٠، النور:٢٧ـ٢٨، الانعام:١٠٨، هود:٨٥، البقرة:١٦٨، التوبة:٢٨، المائدة:١٠٦.

الفصل الثاني

حقوق الامم والاديان في عهد رسول الله(ص)

ان اول عمل قام به رسول الله(ص) ـ بعد تشكيل الدولة الاسلامية ـ هو اقرار اليهود على دينهم ومعتقداتهم واموالهم، وكتب في ذلك كتابا اقر فيه حقوقهم المشروطة وغير المشروطة، وفيما يلي بعض نصوص الكتاب: (... وانه من تبعنا من يهود فان له النصرة والاسوة،غير مظلومين، ولا متناصر عليهم.

وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين...

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وانفسهم... وان بطانة اليهود

كأنفسهم...

وان على اليهــود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وان بينهم النصـر على من حارب اهل هذه الصحيفة.

وان بينهم النصح والنصيحة والبـر دون الاثم، وانـه لم يأثم امرؤ بحليفه وان النصر للمظلوم).(٣٢)

وأقـر رسـول اللـه(ص) في أقوالـه وكتبه وممارساته وتقريراته حقوق الامم والاديـان المتعايشة مع الدولة الاسلامية ومجتمع المسلمين، وفيما يلي نستعرض جملة منها:

حق الاعتقاد والرأي واقامة الشعائر:

بعث رسـول اللـه(ص) لهداية البشرية من خلال البينات والدلائل الواضحة، وهـو مكلف باخـراجهـا من الظلمـات الى النـور باتبـاع المنهج الرباني عن طريق الدعـوة والارشاد، وقد قام بالامر، ودعا الناس الى الايمان والهداية الا انه لم يكره احدا على ترك عقيدته السابقة، وجعل للجميع حق الاعتقاد والبقاء على دياناتهم السابقة.

ففي حـوار لـه(ص) مع جمـاعة من اليهود اجابوه بالقول: (فانا نأخذ بما في ايدينا، فانا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولانتبعك...).(٣٣)

وفي حـوار آخـر اجابـه بعضهم بالقـول: (بل نتبع يـا محمـد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا اعلم وخيرا منا).(٣٤)

وكتب(ص) لاسـاقفة نجـران وكهنتهم ورهبانهم ومن تبعهم ان لهم(جـوار اللـه ورسـولـه لايغيـر اسقف عن اسقفيتـه، ولا راهب عن رهبانيته ولا كاهن عن

كهانته...).[٣٥]

وفي رواية انــه(ص) (جعل لهم ذمة اللــه تعــالى وعهــده الا يفتنــوا عن دينهم...).[٣٦]

ولم يكـره(ص) احـدا على ترك عقيدته والاستسلام للعقيدة الاسلامية، فقد بقيت ريحانة زوجته على يهوديتها ردحا من الزمن الى ان اسلمت.[٣٧]

ومنح اليهــود والنصــارى وسـائر اصحـاب الديانـات حق التعبير عن الرأي وابداء وجهات نظرهم ومتبنياتهم العقائدية والفكرية، فكان يعقد جلسات الحوار الهــادىء معهم، ففي اجتماع له(ص) مع رؤساء اليهود قال له احدهم: (يا محمد، مـا جئتنـا بشيء نعرفـه، وما انزل الله عليك من آية فنتبعك لها)، وقال له آخر: (يا محمـد ان كنت رسـولا من عنـد اللـه كمـا تقـول، فقل للـه فليكلّمنا حتى نسمع كلامه).[٣٨]

وقـال لـه جمـاعة من اليهـود والنصارى: (ما الهدى الا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتدي).[٣٩]

وقـالـوا لـه ايضـا: (أتريد منا يا محمد ان نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم)، فـأجابهم(ص) بكل هـدوء: (معـاذ اللـه ان اعبـد غيـر الله، او آمر بعبادة غيره).[٤٠]

وقدم وفد نصارى نجران الى المدينة فدخلوا مسجد رسول الله(ص) عليهم ثيـاب واردية خاصة، ولما حانت صلاتهم، صلوا في مسجده(ص) وتوجهوا الى بيت المقـدس، فقـال(ص) لاصحابه: دعوهم، وفي اليوم التالي جاءوا اليه(ص) وقالوا: (قد رأينا الا نلاعنك، وان نتركك على دينك، ونرجع على ديننا...).[٤١]

وكـان لغيـر المسلمين حق التجمع واقامة الجلسات والمهرجانات في بيوت

العبادة والاماكن الخاصة بهم، فكان لليهود مقر للتجمع يسمى بيت المدارس، وكان (ص) يدخل عليهم ليدعوهم الى الاسلام[٤٢] بالحكمة والموعظة الحسنة، وكانوا يقيمون المهرجانات في أعيادهم داخل دور العبادة بكل حرية، فقد أراد(ص) الدخول الى احدى الكنائس وكلم اهلها ثلاث مرات فلم يجيبوه وكرهوا دخوله فانصرف راجعا.[٤٣]

حسن الاخلاق والمسامحة في القتال:

من اهداف الاسلام اشاعة الامن والسلام في الارض بالقضاء على جميع الوان ومظاهر العدوان، اما القتال فهو ظاهرة طارئة ولم يكن باختيار المسلمين وانما هو امر مفروض عليهم، للدفاع عن عقيدتهم وعن انفسهم، يسعون دائما فيه الى الرجوع الى الاصل وهو السلام والامن في اقرب فرصة ممكنة، فقد نهى(ص) عن تمني لقاء العدو فقال: (لاتتمنوا لقاء عدوكم، فانكم لاتدرون عسى ان تبتلوا بهم، ولكن قولوا اللهم اكفناهم وكف عنا بأسهم، فاذا جاءوكم يعزفون ويصيحون فعليكم بالارض، وقولوا اللهم نواصينا ونواصيهم بيدك، وانما تقتلهم انت، فان غشوكم فثوروا في وجوههم).[٤٤]

وقال(ص): (لاتتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية).[٤٥]

وعند الاضطرار الى القتال وضع(ص) منهجا اخلاقيا في التعامل مع الجبهة المقابلة.

ومن وصاياه: (لاتغدروا ولاتغلوا ولاتمثلوا ولاتقتلوا الولدان ولااصحاب الصوامع... ولا امرأة ولاشيخا).[٤٦]

وفي معركة بدر نهى(ص) عن قتل جماعة من المشركين[٤٧] لدفاعهم عنه

اثناء دعوته في مكة.

ونهى(ص) ان يلقى السم في بلاد المشركين.(٤٨)

وكان يأمر اصحابه بالتعامل الحسن مع الاسرى: (استوصوا بالأسارى خيرا).(٤٩)

وكان يقدم الهداية على القتال، وليس هدفه من القتال الانتقام لذا كان اذا دخل شهر رمضان اطلق كل اسير.(٥٠)

وحرم(ص) الاعتداء على اموال غير المسلمين وعلى نسائهم وعلى ممتلكاتهم فقال: (ان الله عز وجل لم يحل لكم ان تدخلوا بيوت اهل الكتاب الا باذن منهم، ولا ضرب نسائهم ولا اكل ثمارهم...).(٥١)

وقال(ص): (لعلكم تقاتلون قوما وتظهرون عليهم فيفادونكم بأموالهم دون انفسهم وابنائهم وتصالحوهم على صلح فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فانه لا يحل لكم).(٥٢)

وأمر(ص) قادة جيشه عند فتح مكة ان لايقاتلوا الا من قاتلهم واخذ الراية من سعد بن عبادة واعطاها لعلي بن ابي طالب(ع) لانه سمعه يقول:

اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة(٥٣)

وحينما انتصر على هوازن اعاد نساءهم وابناءهم لهم وكانوا ستة آلاف(٥٤) وكان من حقه سبيهم طبقا لقوانين القتال.

وكان كثير العفو والمسامحة لانه يستهدف هداية الناس وارشادهم الى الطريق القويم، فعفى عن جماعة كثيرين ارادوا قتله.(٥٥)

وعفى عن قاتل عمه حمزة، وحينما دخل مكة خاطبهم بالقول: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).(٥٦)

حق الامن والحماية:

أقر رسول الله(ص) للمعاهدين له والقاطنين في دولته حق التمتع بالامن، فهم آمنون على انفسهم واعراضهم وممتلكاتهم، فلايجوز الاعتداء عليهم، والتعرض لهم بالاذى بجميع الوانه واصنافه، وأوجب(ص) على المسلمين الوفاء لهم بالعهد، وجعله من علامات الايمان، فقال: (حسن العهد من الايمان).(٥٧)

فلهم ما للمسلمين في اشاعة الأمن، فيحرم اذاهم كما يحرم اذى المسلم، وجعل رسول الله(ص) نفسه خصما لمن آذاهم وقال: (من آذى ذميا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة).(٥٨)

وقال(ص): (من آذى ذميا فقد آذاني).(٥٩)

وحرم(ص) الاعتداء عليهم بظلم واضطهاد وغلول وغصب فقال: (ألاّ من ظلم معاهدا وانتقصه وكلفه فوق طاقته او اخذ منه شيئابغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة...).(٦٠)

وقال(ص): (منعني ربي أن أظلم معاهدا ولاغيره).(٦١)

وجعل(ص) قتل المعاهد من الكبائر التي تستوجب دخول النار فقال: (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة).(٦٢)

وفي رواية: (من قتل رجلا من اهل الذمة حرم الله عليه الجنة التي توجد ريحها من مسيرة اثني عشر عاماً).(٦٣)

ولم يكتف(ص) بالارشاد والتوجيه وانما قام بخطوات عملية في اقرار هذا الحق، ومنها تثبيت المعاهدات في كتب ختمت بختمه الشريف، ومن هذه الكتب: كتابه الى يحنة بن رؤبة صاحب ايلة حيث جاء فيه: (هذه امنة من الله

ومحمـد النبي رسـول اللـه ليحنة بن رؤبة واهل ايلة سفنهم وسياراتهم في البـر والبحـر، لهم ذمة اللـه، وذمة محمـد النبي، ومن كـان معهم من اهل الشـام واهل اليمن واهل البحر...).(٦٤)

وكتب لأهل اليمن، واهل اذرح، وجربـا، ومقنـا، كل كتاب على حدة (انهم آمنون بأمان الله وامان محمد).(٦٥)

وكتب لكل قبيلة من قبائل اليهود كتاباً خاصاً بها.(٦٦)

فكانوا آمنين على عقائدهم وحرياتهم في التعبير عن آرائهم، وعلى انفسهم واعراضهم وممتلكاتهم.

حق التقاضي والتمتّع بالعدالة القانونية:

أقـرّ(ص) لغيـر المسلمين حق التقاضي والتحاكم الى حاكمهم او الى حاكم المسلمين المتمثل برسول اللـه(ص)، فقـد قـدم احـد اليهـود شكوى على احد الصحابة لانـه ضربـه على وجهـه وقـال: (يـا محمـد انظـر ما صنع بي صاحبك)، فحاسب(ص) الصحابي على ذلك.(٦٧)

وقـد كـان أهل الكتـاب يرجعـون اليـه للحكم بينهم في قضايـا الحـدود والتعزيـرات،(٦٨) حيث رجعـوا اليـه في الحكم على اثنين منهم متلبسين بجريمة الزنا، فحكم فيهم بحكم الاسلام.(٦٩)

وقد اجاز(ص) شهادة أهل الكتاب بعضهم على بعض.(٧٠)

وبعث(ص) احـد الصحابة الى البحرين فأصـاب بهـا دمـاء قـوم من اليهـود والنصـارى والمجـوس، فكتب الى رسـول اللـه(ص): اني اصبت دمـاء قوم من اليهود والنصارى، فوديتهم ثمانمائة ثمانمائة واصبت دماء من المجوس، ولم تكن

عهدت الي فيهم، فكتب اليه رسول الله(ص): (ان ديتهم مثل دية اليهود والنصارى).[٧١]

ووجدالانصار رجلا منهم مقتولاً في ساقية من سواقي اليهود، فقالوا: اليهود قتلوا صاحبنا، فلما لم يأتوا ببينة، ولم يقسموا، قال لهم(ص): فاليهود يقسمون، فرفض الانصار تحليف اليهود، فوداه(ص) من بيت المال[٧٢] ولم يلق المسؤولية على اليهود وان وجد مقتولا في ساقية من سواقيهم، تطبيقا منه للعدالة.

وقد استشعر اهل الكتاب عدالة الاسلام وعدالة رسول الله(ص) في الحكم بينهم وبين المسلمين، وفيما بينهم لذا نجدهم يلتمسون رسول الله(ص) ان يبعث معهم قاضيا من المسلمين، فقد جاءه وفد نجران وقالوا له: (ابعث معنا رجلا من اصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في اشياء اختلفنا فيها من اموالنا فانكم عندنا رضا).[٧٣]

اقرار الحقوق المدنية والشخصية:

كان اهل الكتاب وغيرهم من المشركين يتمتعون بحقوقهم المدنية والشخصية، فقد اثبت رسول الله(ص) عقد نكاح المشركين وطلاقهم.[٧٤] سواء كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم.

وأمر بصلة الرحم بين المسلم ورحمه المشرك، فقد استفتت احدى الصحابيات رسول الله(ص) في صلة رحم امها المشركة فأجابها(ص): (صلي امك).[٧٥]

واقر(ص) حق الوصية وان كان من مسلم الى غير المسلم، فقد أقر(ص) وصيّة زوجته صفية لقريب لها من اليهود.[٧٦]

وأقر(ص) صدقات بعضهم على بعض، وصدقات المسلمين عليهم.(٧٧)

واجاز لهم(ص) حق التملك والعمل الزراعي والصناعي والتجاري، فعن جابر بن عبدالله الانصاري قال: (كنا لا نقتل تجار المشركين على عهد رسول الله(ص))(٧٨) على الرغم من استمرار القتال بينهم وبين المسلمين قبل صلح الحديبية، ولم يمنع(ص) وصول المواد الغذائية والاستهلاكية الى قريش.(٧٩) على الرغم من اصرارهم على مواصلة الاعتداء على رسول الله(ص) وعلى المسلمين.

وفي مرحلة الانتصار الكبير بعد فتح مكة سأل(ص) صفوان بن امية عن مائة درع، فقال: اغصبا يا محمد؟ قال(ص)، لا، ولكن عارية مضمونة، فقال صفوان: لا بأس بهذا.(٨٠)

وكان لغير المسلمين حق العمل مع الحفاظ على ممتلكاتهم الخاصة، فقد اشترى(ص) طعاماً من يهودي الى اجل ورهنه درعاً له.(٨١)

فقد رهن(ص) درعه عند يهودي، ومافكّر قط في احراجه بما يملك من قوة وسلطان.

العلاقات الاجتماعية:

كان لرسول الله(ص) وللمسلمين علاقات اجتماعية مع أهل الكتاب وغيرهم، فكان التزاور قائما في منازلهم وفي اماكن لقاءاتهم، فقد كان(ص) يدخل عليهم في منازلهم ودور عبادتهم ويدخلون عليه ايضا، وكان(ص) يعقد جلسات طويلة للحوار معهم ولم يقطع الاواصر معهم.

وكان (ص) يعود المرضى من غير المسلمين،(٨٢) وكان يرسل بعض الطعام

الى جيرانـه من اليهود[٨٣] وغيرهم، وكان يوصي بحسن الجوار مطلقا سواء كان الجـار مسلما او كافـرا، ومما قالـه في ذلك: (الجيـران ثلاثة: فمنهم من لـه ثلاثة حقـوق: حق الجوار، وحق الاسلام، وحق القـرابة، ومنهم من لـه حقـان: حق الاسلام وحق الجوار، ومنهم من له حق واحد:الكافر له حق الجوار).[٨٤]

وقال(ص) في مطلق الجار: (احسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا).[٨٥]

وكـان(ص) يأمـر بالـرفق في علاقات المسلمين بغيرهم وكان يقول (ان الله يحب الرفق في الامر كله).[٨٦]

وكـان يراعي مشاعر غير المسلمين، فقد مرت به(ص) جنازة فقام لها، فقيل: انه يهودي، فقال(ص): (أليست نفسا).[٨٧]

وجـاء اصحابـه(ص) بسبي من اليمن، فلما بلغوا الجحفة نفـدت نفقاتهم فبـاعـوا جـارية كانت امهـا معهم، فلما قدموا على رسول الله(ص) سمع بكاءها فقـال: ما هذه؟ فقالوا: يا رسول الله احتجنا الى نفقة فبعنا بنتها، فبعث(ص) فأتي بها، وقال: (بيعوهما جميعا او امسكوهما جميعا).[٨٨]

فلم يقطع رسـول اللـه(ص) علاقاتـه الاجتمـاعية مع غيـر المسلمين، وكان يتعـامل معهم تعـامـلا حسنـا بالـرفق والمسـامحة والرحمة، فعاشوا في ظل دولته احـرارا كرمـاء، آمنين على انفسهم واعـراضهم وحقـوقهم وعقـائـدهم ودور عباداتهم، يتمتعون بالعدل والمساواة في الانسانية وامام القانون، فلم يتعرض لهم احـد بظلم او اضطهـاد، فقـد وفى(ص) لهم بالمعاهـدات والمواثيق التي قطعها معهم، فعاشوا الامن والطمأنينة والسلام في ظل دولته المباركة.

الفصل الثالث
حقوق الامم والأديان في عهد الخلفاء الراشدين

حق الاعتقاد وحرية الرأي وإقامة الشعائر:

اتّبع الخلفاء الراشدون تعاليم القرآن والرسول الاكرم(ص) في التعامل مع غير المسلمين، فأحسنوا معاملتهم ووفوا بالعهود التي قطعها رسول الله(ص) لهم على نفسه وعلى المسلمين، واقروهم على ما كانوا عليه في عهده(ص) من حقوق، وعقدوا معهم عقودا وعهوداً جديدة، فكانوا يتمتعون بحرية الاعتقاد في جميع مراحل العهد الراشدي، وكان لهم حق ابداء الرأي والتعبير عن متبنياتهم العقائدية والفكرية والسياسية، فلم يكره احد من الخلفاء احدا من اهل الكتاب او من غيرهم على ترك معتقداته، او تبني الاسلام، والشاهد على ذلك وجودهم المستقل في داخل الدولة الاسلامية، حيث كان يشار اليهم بانهم اهل ذمة.

ومن اروع صور اقرار حق الاعتقاد ان الخليفة الثاني اقر حتى مملوكة على دينه ولم يكرهه على الاسلام، عن اسبق الرومي قال: (كنت في دينهم مملوكا نصرانيا لعمر بن الخطاب، فكان يعرض علي الاسلام فآبي، فيقول (لا اكراه في الدين)، ويقول: يا اسبق لو اسلمت لاستعنا بك على بعض امور المسلمين).(٨٩)

وفي عهده صالح ابو عبيدة اهل الشام على الحفاظ على كنائسهم وعلى اقامة المهرجانات وان لا يمنعوا من اعيادهم.(٩٠)

وكان أهل الكتاب يدخلون في حوار طويل مع الخلفاء الراشدين، ويتمتعون بالحرية الكاملة في طرح عقائدهم وافكارهم، واثارة بعض الاشكالات، وكان

الخلفـاء يستمعـو ن اليهم بكل رحابة صـدر، واذاعجـز احـدهم عن جواب بعث على غيره ليجيبهم بدلا عنه.(٩١)

وقد اعترف النصارى في عهد الخليفة الثالث بتمتعهم بحرية الاعتقاد والرأي واقـامة الشعـائـر، واحتـرام المسلمين لمقـدساتهم وعـدم الطعن بهـا، وتقديم المعونات المادية للكنائس والاديرة.(٩٢)

وكـان بعض اهل الكتاب يحتجون على الخليفة الرابع بالمعاجز التي اعطيت لموسى(ع) دون رسول الله(ص) فيجيبهم برفق ورحابة صدر.(٩٣)

وكـان الخليفة الـرابع يستشهـد بمفاهيم وقيم التوراة غير المحرفة،(٩٤) تقديرا منـه لمقـدسـات أهل الكتـاب، وتشجيعـاً لهم على ترويجهـا ما دامت تشترك مع الاسلام في أفق العقيدة الرحب.

حسن الاخلاق والمسامحة في القتال:

لم تكن المعـارك التي قادهـا الخلفـاء الـراشـدون معـارك غلبة واستيـلاء واضطهاد، بل كانت معارك دفاعية لحماية العقيدة من الاعتداء المحتمل، ولم تقع معـركة بينهم وبين غيـر المسلمين الا بعـد القـاء الحجة واستنفـاذ جميع الطـرق السلمية لايقـاف العـدوان، حيث ان الـدولتين الفـارسية والـرومية قد اعدتا العدة للقضـاء على الاسـلام وعلى الكيان الاسلامي، فكانت المعارك حقا مشروعا تقره قوانين الدول القائمة آنذاك، ومع ذلك فقد تعامل الخلفاء مع غير المسلمين تعاملا تحكمـه الـرحمة والمسـامحة والصفح، وكانت اخـلاق الاسـلام هي الاساس في علاقات الحب والسلم، فقد اوصى الخليفة الاول امراء الجيش بالقول: (اوصيكم بتقوى الله عز وجل لاتعصوا ولاتغلوا ولاتهدموا بيعة ولاتفرقوا نخلا ولاتحرقوا

زرعـا، ولاتشجروابهيمة ولاتقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا شيخا كبيرا ولا صبيا صغيـرا وستجـدون اقواما قد حبسوا انفسهم للذي حبسوها فذروهم وما حبسوا انفسهم له....)، ونهى عن قتل الرهبان.[٩٥]

وامر ايضا بعدم التعرض للفلاحين.[٩٦]

ومن وصايـا الخليفة الثاني لامرائه: (لا تغلوا ولاتغدروا ولاتمثلوا ولا تقتلوا وليدا، واتقوا الله في الفلاحين الذين لاينصبون لكم الحرب).[٩٧]

ومن صـور حسن المعـاملة ان أهل بيت المقـدس طلبـوا من قائـد الجيش الاسـلامي ان يكون الخليفة هو المتولي لعقد الصلح،فسار الخليفة بنفسه ونفذ ما ارادوا.[٩٨]

وكان الصلح والسلم هو الاصل في علاقات الخلفاء مع غير المسلمين،فكثير من البلـدان فتحت عن طريق الصلح ومنهـا: الدينـور، سيروان، همذان، الماهين، اصفهـان، زويلة، الـري، ابهـر، قـزوين، جرجـان، طبـرستـان، وطرابلس الغرب، واغلب بلاد الشام ومصر.[٩٩]

وقـد فرح اهل فارس بقدوم المسلمين وكانوا يقولون انهم (اوفياء وهم اهل دين).[١٠٠]

ونصح ملك الصين ـ في عهـد الخليفة الثاني ـ يزدجـرد حينمـا اراد اللجوء اليـه قائـلا: (... فسالمهم وارض منهم بالمساكنة) بعد ان اطلّع على حسن المعاملة وحسن السيرة التي اتبعها المسلمون مع غيرهم.[١٠١]

وعـزل الخليفة الثـالث والي الاسكنـدرية لانه نقض العهد مع اهل الذمة دون مجوز شرعي.[١٠٢]

حق الامن والحماية:

كان غير المسلمين يتنعمون بالامن والحماية في ظل دولة الخلفاء الراشدين، فقد كتب الامراء لأهل البلدان غير الاسلامية الامان على دمائهم واموالهم وكنائسهم.(١٠٣)

وكان الخليفة الثاني يقول: (لو ان احدكم اشار باصبعه الى السماء الى مشرك فنزل اليه على ذلك فقتله لقتلته به).(١٠٤)

وكان القادة والجنود لايتخذون موقفا يتعلق بالامن الا وسألوا الخليفة عنه لكي لايصيبوا احدا بأذى، فقد نفذ الخليفة الثاني امانا كتبه عبد مملوك لاهل حصن بأكمله، وكتب الى امير الجيش: (ان العبد رجل من المسلمين ذمته ذمتكم).(١٠٥)

وكان لأهل الذمة حق الحماية والدفاع عنهم في حال تعرضهم للاعتداء على انفسهم واعراضهم واموالهم وجميع حقوقهم، وقد وفى الخلفاء الراشدون بهذا الحق في كثير من المواقف باستثناء حالة واحدة، حيث عجز والي الخليفة الثاني عن الدفاع عنهم، فأخبرهم بذلك واعاد الجزية لهم ـ لأهل الشام ـ لأنها اخذت منهم كضريبة للدفاع عنهم.(١٠٦)

وقد اوصى الخليفة الثاني بأهل الذمة بالوفاء بالعهد وحمايتهم، ومما جاء في وصيته: (اوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله(ص) ان يوفي لهم بعهدهم، وان يقاتل من ورائهم ولايكلفوا فوق طاقتهم).(١٠٧)

وعزل الخليفة الثالث واليه على الاسكندرية لانه نقض عهده مع اهل الذمة ـ كما تقدم ـ.

وقد اوصى الخليفة الرابع واليه على مصر باقرار الامن بين اهل الذمة، والوفاء

لهم بالعهـد، فجاء في كتابه الى مالك الاشتر: (... فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بـالامانة، واجعل نفسك جنة دون مـا اعطيت... فـلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهـدك.... وقـد جعل اللـه عهـده وذمتـه امنـا افضاه بين العباد برحمته، وحريما يسكنـون الى منعتـه، ويستفيضـون الى جـواره؛ فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيـه... ولا تعـوّلنّ على لحن قـول، بعـد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيق امر، لزمك فيه عهد الله، الى طلب انفساخه بغير الحق، فان صبرك على ضيق امر ترجو انفراجه وفضل عاقبته، غير من غدر تخاف تبعته...).(١٠٨)

وامـره باشـاعة الـرحمة في التعـامل مع المـواطنين مسلمين كانـوا ام غيـر مسلمين: (واشعـر قلبك الـرحمة للـرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولاتكونن عليهم سبعـا ضاريـا تغتنم اكلهم، فأنهم صنفان: اما اخ لك في الدين، او نظير لك في الخلق...).(١٠٩)

وكـان يستنهض النـاس لجهاد البغاة الذين اعتدوا على المسلمات ونساء اهل الـذمة، تطبيقـا منه لحق الامن والحماية، وكان يقول: (ولقد بلغني ان الرجل منهم كـان يـدخل على المـرأة المسلمة والاخـرى المعـاهـدة، فينتـزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعثيها، ما تمتنع منه الا بالاسترجاع والاسترحام ثم انصرفوا وافرين ما نـال رجلا منهم كلم ولا اريق لهم دم؛ فلو ان امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً...).(١١٠)

وكانوا في عهده آمنين وهو القائل: (انما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا واموالهم كأموالنا).(١١١)

والامن والحماية من الحقـوق التي اقرها الخلفاء الراشدون، وامروا بتنفيذها، ولـو لاتمتع اهل الـذمة بهـذه الحقوق لتركوا بلاد المسلمين والتجأوا الى البلدان

الاخـرى، ولم يحدثنـا التاريخ ان احدا منهم ترك بلاد المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين.

حق التقاضي والتمتع بالعدالة القانونية:

كـان غيـر المسلمين في عهـد الخلفـاء الراشدين يتمتعون بحق التقاضي الى قـاضي المسلمين او الى قـاضيهم الخـاص بهم، وقـد اعتمـد الفقهـاء المتقدمون والمتأخـرون على سيرة رسول الله(ص) وسيرة الخلفاء الراشدين في اثبات هذا الحق، ولم يحدثنـا المـؤرخـون الا قليـلا عن تقـاضي غير المسلمين عند قاضي المسلمين، ولعل ذلك نـاشىء من تقاضيهم الى قضاتهم، ومع ذلك كانوا يتمتعون بـالحماية القانونية، ففي عهد الخليفة الثاني اعتدى بعض الجند على مزرعة لاحد اهل الـذمة، بسبب مجـاعة اصابتهم، فقـدم الـذمي شكـوى اليـه، فقـام الخليفة بمحاسبتهم، وعوض الذمي عن الخسارة التي الحقت به.(١١٢)

وحينما كلف بعض المسلمين اهل الذمة من اهل الشام فوق طاقتهم، وخلافا لمعـاهـدة الجزية، قدمـوا شكـوى اليـه، فأعطاهم الحق، وامرهم بعدم الاستجابة لطلب المسلمين.(١١٣)

واختصم لديه (مسلم ويهودي، فرأى عمر ان الحق لليهودي فقضى له).(١١٤)

وسـأل والي مصـر الخليفة الـرابع عن رجل مسلم زنـا بنصـرانية، فأمره باقامة الحد عليه، وتسليم النصرانية الى النصارى يحكمون عليها بحكمهم.(١١٥)

وكـان يقـول: (يقتص للنصـراني واليهـودي والمجوسي بعضهم من بعض، ويقتل بعضهم ببعض اذا قتلوا عمداً).(١١٦)

وفي خلافتـه وجـد درعه عند نصراني فحاكمه الى شريح قاضي الكوفة فقال

النصراني: (ماهي الا درعي ولم يكذب امير المؤمنين؟)، فقال شريح للخليفة الرابع: ألك بيّنة؟ قال لا: وهو يضحك، فأخذ النصراني الدرع ومشى يسيرا ثم عاد، وقال: أشهد أن هذه احكام الانبياء.[١١٧]

الرعاية المالية وحق التكافل الاقتصادي:

صالح نصارى نجران رسول الله(ص) على ألفي حلة وشرط عليهم ان لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به، فلما استخلف ابو بكر عاملهم بذلك ولم يضف عليهم شيئا خارج معاهدة رسول الله(ص)، وفي عهد عمر طلبوا منه الاجلاء فأجلاهم واشترى منهم عقارهم واموالهم، وفي عهد عثمان اسقط عنهم مائتي حلة، وسمح لهم بارسال جباتهم الى الشام لجباية الحلل لهم.[١١٨]

وكانوا آمنين على اموالهم فلم يتعرض لهم احد من المسلمين بالاعتداء على اموالهم وممتلكاتهم، وكان لهم حق العمل في الزراعة والصناعة والتجارة.[١١٩]

وراعى الخلفاء في اخذ الجزية المستوى المعاشي لهم، فقد كتب عمر الى ولاته: (ان من لم يطق الجزية فخففوا عنه، ومن عجز فأعينوه).[١٢٠]

ولم يسمح لاحد من المسلمين شراء ما في ايديهم من الاراضي كرها.[١٢١]

وكان يتقيد في الاخذ ببنود المعاهدة فلا يزيد عليها.[١٢٢]

وان يأخذ من تجارهم مثلما يأخذ من تجار المسلمين.[١٢٣]

وتطبيقاً منه لمفهوم التكافل الاقتصادي كان يجري للعجزة منهم راتبا من بيت المال.[١٢٤]

ومنع الخليفة الرابع من تكليف أهل الذمة فوق طاقتهم في جباية الجزية ومنع

من اخذ ما يحتاجونه من مؤونة، وامر بحسن الخلق عند الجباية.(١٢٥)

وامـــر بالانفـاق على كبـار السن والعـاجزين عن العمل والمـرضى من بيت المال.(١٢٦)

فكانـــوا كـالمسلمين يتمتعـون بـرعاية الـدولة الاسـلامية في عهـد الخلفـاء الـــراشـدين، اضـافة الى تـوجيهاتهم وارشـاداتهم للمسلمين بـرعايتهم واشبـاع حاجاتهم.

وهنـالك حقـوق اخـرى لم نجـد لها نصوصا عند استقرائنا لامهات الكتب، سنذكرهـا في المواضيع القادمة ولعل الفقهاء اعتمدوا على سيرة الخلفاء في اقرار تلك الحقوق، او اعتمدوا على الاسس الثابتة في مصادر التشريع الاسلامي.

الفصل الرابع

حقوق الامم والاديان عند ائمة المذاهب

اولا: حقوق الامم والأديان عند أئمة أهل البيت(ع):

لا اختـلاف بين أئمة أهل البيت(ع) وأئمة المـذاهب الاخـرى في المفاهيم والقيم الثابتة في المنهج الاسلامي، حيث يشتركون في الافق الواسع؛ افق العقيدة والتشريع، والمصيـر والمصـالح والمواقف الواحدة ومن نقاط الاشتراك والاتفاق هي الاعتـراف بحقـوق الامم والاديـان من نـاحية الاحكـام النظرية والتطبيقـات والمواقف العملية، وهي اكثر النقاط اتفاقا بينهم.

وقـــد حـــدد الامـــام علي بن الحسين زين العابدين(ع) الاسس الكلية الثابتة المتعلقة بحقـوق اهل الـذمة في رسالتـه المعروفة برسالة الحقوق حيث جاء فيها:

(واما حقوق اهل الذمة: ان تقبل منهم ما قبل الله عز وجل منهم، ولا تظلمهم ما وفوا لله عز وجل بعهده، وكفى بما جعل الله لهم من ذمته وعهده، وتكلهم اليه فيما طلبوا من انفسهم، وتحكم فيهم بما حكم الله به على نفسك فيما جرى بينك وبينهم من معاملة، وليكن بينك وبين من ظلمهم من رعاية ذمة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله حائل، فانه بلغنا انه قال: (من ظلم معاهدا كنت خصمه) فاتق الله، ولا حول ولاقوة الا بالله).(١٢٧)

فقد ربط الامام(ع) حقوقهم بمصدر الوجود وهو الله تعالى، فهو تعالى جعلهم اهل ذمة وحدد لهم حقوقا وواجبات، ولذا فان رعايتهم هي رعاية للاوامر الالهية واداء للواجب الشرعي المكّلف به المسلم، فالمسؤولية اتجاههم مسؤولية اتجاه اوامر الله تعالى ونواهيه، وما جاء في هذه الرسالة يحدد الهيكل العام للحقوق الشاملة لجميع جوانب الحياة، ومنها: حق الاعتقاد، وحق ابداء الرأي، وحق العبادة واقامة الشعائر، وحق التمتع بالامن والحماية، والمساواة امام القانون، وحق الحفاظ على ارواحهم واعراضهم وممتلكاتهم، وحق التمتع بالعدل، وحق الكرامة وسائر الحقوق المدنية والشخصية، ومنها حق التنقل والسكن والعمل وسائر التصرفات المقيدة بمصلحة الاطار العام للاسلام.

ومن مظاهر مراعاة المشاعر والاحاسيس التي يحملها اتباع الاديان، واشاعة الالفة والوئام بين المسلمين وبينهم، والتركيز على نقاط الاشتراك الثابتة، وتوجيه الانظار الى وحدة المصدر ووحدة المفاهيم والقيم، ركز اهل البيت(ع) على الاستشهاد بما جاء في التوراة والانجيل وسائر الكتب الالهية، والاستشهاد بأقوال الانبياء السابقين، فقد ورد في احاديثهم استشهادات عديدة من هذا القبيل، ومن ذلك:

قـول الامـام علي بن الحسين(ع): (امـا بلغكم مـا قـال عيسى بن مـريم للحواريين؟

قال لهم: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها...).[١٢٨]

وقـول الامـام محمـد بن علي الباقر(ع): (قال موسى بن عمران... الهي فمن ينزل دار القدس عندك؟ قال: الذين لاتنظر اعينهم الى الدنيا،... ولا يأخذون على الحكومة الرشا، الحق في قلوبهم، والصدق على ألسنتهم...).[١٢٩]

وقول الامام جعفر الصادق(ع): (كان المسيح يقول لاصحابه... انما اعلمكم لتعلمـوا، ولا اعلمكم لتعجبـوا، انكم لن تنـالـوا مـا تريدون الا بترك ما تشتهون، وبصبركم على ما تكرهون).[١٣٠]

وقد استشهد الامام موسى بن جعفر الكاظم(ع) بذلك عدة مرات في حديث واحـد: (ان المسيح قال للحواريين... مكتوب في الانجيل... اوحى الله تعالى الى داود...).[١٣١]

وكـانـوا يذكـرون روايـات مطـولة في منـاجـاة اللـه تعـالى لمـوسى وعيسى(ع).[١٣٢]

ولعل مـا ذكـروه هو ارشاد وحث لاتباع الاديان لنشر المفاهيم والقيم الدينية التي وردت في كتب الانبياء السابقين، عن الله تعالى، أو رسله وانبيائه، وهذا قمة الاعتـراف بحق الاعتقـاد وبحرية نشـر المفـاهيم والقيم الصحـالة غيـر المحـرفة، والترويج لها داخل الكيان الاسلامي.

ومن اهم الحقـوق بعـد حق الاعتقـاد هو التمتع بالامن والحماية فهم آمنون على انفسهم وامـوالهم واعـراضهم، قـال الامـام الباقـر(ع): (... فاذا قبلوا الجزية على انفسهم حرم علينا سبيهم وحرمت اموالهم وحلت لنا مناكحهم).[١٣٣]

وقال ايضا: (ما من رجل آمن رجلا على ذمة ثم قتله الا جاء يوم القيامة يحمل لواء الغدر).[١٣٤]

واوجب الامام الصادق(ع) اقرار الامن والحماية بمختلف الاساليب، فقال: (لو ان قوما حاصروا مدينة فسألوهم الامان؟ فقالوا: لا، فظنوا انهم قالوا: نعم، فنزلوا اليهم، كانوا آمنين).[١٣٥]

ولعل تركيزه على الجهاد مع الامام العادل،[١٣٦] ناظر الى رعايته للارواح والممتلكات ووفائه بالعهود والذمم.

وحرّم الامام(ع) القتال مع الغادرين وان كان العدو مشتركا فقال: (لا ينبغي للمسلمين ان يغدروا او يأمروا بالغدر، ولا يقاتلوا مع الذين غدروا...).[١٣٧]

واستشهد ائمة اهل البيت(ع) بسيرة رسول الله(ص) المتعلقة باقرار حق الامن والحماية لغير المسلمين، وذكروا احاديثه الشريفة في هذا الخصوص.

واقروا حق التقاضي والتحاكم لغير المسلمين سواء كان عند قاضي المسلمين او عند قاضيهم، فلو قضي قاضيهم بحكم فيها جور على احد المتخاصمين واراد الواقع عليه الجور ان يرد الحكم الى حكم المسلمين، قال الامام جعفر الصادق(ع): (يرد الى حكم المسلمين).[١٣٨]

وجوز الامام الباقر(ع) حكم غير المسلمين فيما بينهم فقال: (تجوز على اهل كل ذي دين بما يستحلون).[١٣٩]

فلو اراق احد خمرا لغير المسلم او قتل خنزيرا فانه له ضامن لانه حق له مالية.

وجوّز أئمة أهل البيت شهادة أتباع كل دين بعضهم على البعض الآخر وتجوز الشهادة على غيرهم ان لم يوجد شاهد من نفس دينهم، قال الامام الصادق(ع): (... ان لم يوجد من اهل ملتهم جازت شهادة غيرهم، انه لا يصلح

ذهاب حق احد).[١٤٠]

ويحلّف اليهودي والنصراني والمجوسي بالله تعالى كما يحلّف المسلم، قال الامام الصادق(ع): (اليهودي والنصراني والمجوسي لاتحلفوهم الا بالله عز وجل).[١٤١]

ولهم حق القصاص اذا قتل بعضهم بعضا، قال الامام(ع): (ان امير المؤمنين(ع) كان يقول: يقتص للنصراني واليهودي والمجوسي بعضهم من بعض، ويقتل بعضهم ببعض اذا قتلوا عمدا).[١٤٢]

واذااظهر أهل الذمة العداوة للمسلمين وغشوهم، لايقتص من قاتلهم الا ان يكون معتادا على قتلهم، قال الامام الصادق(ع) في جوابه لسؤال حول ذلك: (لا الا ان يكون متعودا لقتلهم)،[١٤٣] ويدفع الدية اذا لم يكن معتادا.

ويجب تطبيق قانون الديات المتعلقة بالجنايات على المسلم وغير المسلم، قال الامام الباقر(ع): (يؤخذ من المسلم جنايته للذمي على قدر دية الذمي ثمانمائة درهم).[١٤٤]

ومن حقوقهم المالية والاقتصادية حق العمل في مختلف الحقول التي لايشترط فيها الاسلام كالزراعة والصناعة والتجارة، ولهم حق مشاركة المسلم في الاعمال المختلفة كما وردت في ذلك نصوص عديدة عن الامام جعفر الصادق(ع).[١٤٥]

وليس عليهم الا دفع الجزية ولايجوز للمسلمين ان يأخذوا منهم اكثر من ذلك، سئل الامام محمد الباقر(ع) عن اهل الجزية يؤخذ من اموالهم ومواشيهم شيء سوى الجزية؟ قال: لا.[١٤٦]

واوجب الامام الصادق(ع) التقيد ببنود المعاهدة معهم، ونهى عن مخالفتها

فقـال: (... فـان اخـذ من رؤوسهم الجزية فـلا سبيل على ارضهم وان اخـذ من ارضهم فلا سبيل على رؤوسهم).[١٤٧]

ومن اجل تحقيق التكـافل الاجتمـاعي واشبـاع حاجـات مطلق المحتاجين والمستضعفين جـوز الامـام الصـادق(ع) اعطـاء الصـدقة لليهـود والنصـارى والمجوس.[١٤٨]

وكان(ع) يقوم بنفسه في تطبيق ذلك.[١٤٩]

وحث(ع) على عدم اخذ الجزية من المعتوه والمغلوب عليه عقله.[١٥٠]

وتـأخـذ منهم الجزية كل حسب طاقتـه، قـال الامـام الصـادق(ع): (ذاك الى الامام ان يأخذ من كل انسان منهم ما شاء على قدر ما له بما يطيق...).[١٥١]

فلم يجـوز الامـام(ع) تكليفهم فوق طاقاتهم حفاظاً على مستواهم المعاشي وعدم دفعهم للحاجة والسؤال.

وأقـر أئمة أهل البيت(ع) الحقوق المدنية والشخصية لغير المسلمين، فأقروا قضايـا الـزواج والطـلاق وان كـان باطـلا في الشريعة الاسـلامية فلـو اسلمـا معا فنكاحهما الاول جائز، قال الامام الصادق(ع): (بل يمسكها وهي امرأته).[١٥٢]

واقـر(ع) الجمع بين اكثـر من اربع زوجات لغير المسلم، واقر صحة العقد ان كان المهر خمرا او خنزيرا.[١٥٣]

ونهى(ع) عن قـذف غيـر المسلم كافـرا كـان ام ذميـا بل نهى عن قـذف من يتزوج المحارم وكان يقول: (أو ليس ذلك في دينهم نكاحا).[١٥٤]

وأقر (ع) مسائل الميراث.[١٥٥]

وفي العلاقـات الاجتماعية حث الامام الباقر(ع) على حسن المجالسة معهم،[١٥٦] وحث الامـام الصـادق(ع) على حسن الصحبة وكـان يستشهد بسيرة رسول

الله(ص) وسيرة الامام علي(ع) في حسن الصحبة مع غير المسلمين.(١٥٧)

وجوّز(ع) مكاتبة غير المسلم وطلب العون منه.(١٥٨)

وجوّز الامام موسى الكاظم(ع) للمسلم ان يدعو لغير المسلم ان احتاج اليه.(١٥٩)

وكان الامام الصادق(ع) يجالس النصارى هو واصحابه.(١٦٠)

وكان بقية الائمة كذلك، فلم يقطعوا الاواصر الاجتماعية معهم، واقروهم على جميع الحقوق التي اقرها الله تعالى لهم.

ثانيا: حقوق الامم والأديان عند أئمة المذاهب الأربعة:

اتفق ائمة المذاهب الاربعة مع ائمة اهل البيت في اقرار حقوق الامم والاديان، ولم يختلفوا معهم في الاسس والقواعد العامة لاقرار هذه الحقوق، فأقروا لهم حق التمتع بالامان والحماية بعد اجراء معاهدة الامان ودفع الجزية ولهم حرية البقاء على دينهم، ويجب على المسلمين حمايتهم والدفاع عنهم في حال تعرضهم للعدوان.(١٦١)

وهم آمنون على انفسهم واموالهم ويجب حمايتهم من المسلمين وغيرهم.(١٦٢)

ولو دخل الحربيون منهم دار الاسلام لم يجز سبيهم عند مالك والشافعي واحمد.(١٦٣)

ويجب الوفاء لهم بمعاهدة الذمة، ولا ينتقض عهد الذمة عند أبي حنيفة بالاعتداء على المسلمين بالضرب او السرقة والغصب، ولا بقطع الطريق ولا بايواء جاسوس ولا بالزنا، وانما ينتقض بالتحاقهم بدار الحرب واعلانهم لحرب

المسلمين، وينتقض عنـد مالك والشافعي بمنع الجزية وعدم قبول حكم الاسلام ان حكم حـاكم المسلمين عليهم بحكم بعـد التـرافع اليـه، وينتقض عند الشافعي اضافة الى ذلك بقتالهم للمسلمين.(١٦٤)

وقـد افتى الائمة الاربعة باعفـاء بعض اصنـافهم من الجزية تخفيفـا لهم من الـدفع وتشجيعا على اجراء معاهدة الذمة، فلا جزية عندهم على النساء والصبيان والشيوخ واهل الصوامع ولا على العبيد والمرضى والفقراء.(١٦٥)

واذا تمت المعـاهـدة فانهم كالمسلمين لهم حق التحاكم الى حاكمهم او الى حاكم المسلمين.(١٦٦)

واذا لم يحتكمـوا الى حـاكم المسلمين فليس للحـاكم ان يستتبع شيئـا من امورهم.(١٦٧)

وتقبل شهادة بعضهم على البعض الآخر.(١٦٨)

ويـرى مـالك اقـامة الحـد على المسلم ان قتل ذميـاً أو معـاهـدااو مستأمناً بحيلة.(١٦٩)

ويـرى الشـافعي وجـوب اجـراء الحـدود والتعزيـرات على من اغتصبهم حقـوقهم مسلمـا كـان ام ذميـا من ظلم او اعتـداء على امـوالهم واعـراضهم وارواحهم.(١٧٠)

ولولي دم الذمي حق كما للمسلم.(١٧١)

وتقطع يد من سرقهم عند الائمة الثلاثة باستثناء ابي حنيفة.(١٧٢) وديتهم كدية المسلم في قتل العمـد والخطـأ عنـد ابي حنيفة، ونصف دية المسلم عنـد مـالك، وثلث الدية عنـد الشـافعي، امـا عنـد احمد فان ديتهم كدية المسلم في قتل العمد ونصفها في قتل الخطأ.(١٧٣)

وتجب الكفارة في قتل الذمي باستثناء رأي مالك فانها لاتجب عنده.[١٧٤]

وأقر الائمة حقوقهم المالية والاقتصادية، فلهم حق العمل في جميع موارده التي لم يشترط فيها الاسلام، باستثناء العمل في جباية الصدقات، باستثناء رأي احمد فانه جوز ذلك.[١٧٥]

وجوزوا للحربي وغير المعاهد حق مروره تاجرا في بلاد المسلمين.[١٧٦]

وللذمي حق الشفعة على المسلم وحق المشاركة له في سائر الاعمال التجارية وغيرها، باستثناء احمد لم يجوز حق الشفعة.[١٧٧]

ولايجوز الاعتداء على اموالهم وان كانت خمرا او خنزيرا.[١٧٨]

ومن اجل تطبيق التكافل الاقتصادي وضمان حاجات اهل الذمة جوز ابو حنيفة دفع زكاة الفطرة والكفارات الى الذمي.[١٧٩]

وحرم الشافعي حرمانهم من صيد البر والبحر والرعي وجلب الحطب.[١٨٠]

ولايجوز اخذ مال الذمي وان دخل دار الحرب.[١٨١]

واضافة الى هذه الفتاوى فان ائمة المذاهب الاربعة، اوصوا في كثير من ارشاداتهم وتوجيهاتهم بالاهتمام بالفقراء والمستضعفين - من مختلف الديانات - والسعي لبذل يد العون لهم، واشباع حاجاتهم المختلفة.

واقر الائمة لاهل الذمة ولمطلق الكفار حقوقهم المدنية والشخصية فحكموا بصحة عقودهم في الزواج، واقرار مسائل الطلاق والايلاء ولايكشفوا عما استحلوا من نكاح المحارم، باستثناء مالك فلم يحكم بصحة نكاح الكفار من غير اهل الذمة.[١٨٢]

ولذا فيعزر المسلم ان قذف كافرا بالزنا.[١٨٣]

وجعل احمد الذمية بمنزلة المسلمة في النفقة والقسم بين الزوجات.[١٨٤]

واقروا حقوقهم في الارث فيتوارثون فيما بينهم.(١٨٥)

وتصح الوصية للكافر سواء كان حربيا او ذميا باستثناء ابي حنيفة فمن رأيه انها تصح لاهل الذمة خاصة.(١٨٦) ولهم حق العتق والمكاتبة.(١٨٧)

ويرى الائمة ما عدا ابي حنيفة انعقاد يمين الكافر.(١٨٨)

ومن حق الذمي عند احمد ان يفدى ان وقع في اسر العدو اذا قاتل مع المسلمين.(١٨٩)

واذا اضر حائط المسلم بالآخرين بسبب ميله فيحق للذمي ان يطالبه بنقضه، وهو رأي أبي حنيفة.(١٩٠)

ومن حقوقهم الاجتماعية جواز عيادة المسلم لهم وخصوصا ان كانوا اقاربه او جيرانه.(١٩١)

ويجوز للمسلم تزوج نساء اهل الذمة باستثناء رأي احمد.(١٩٢)

وجوز الشافعي الصدقة على مطلق الكفار.(١٩٣)

وجوز احمد للمسلم اخذ الصدقة منهم.(١٩٤)

وجوز ايضا خروجهم مع المسلمين في المصالح العامة ومنها الاستسقاء.(١٩٥)

واوجب احمد تكريمهم بدفنهم ان ماتوا بين المسلمين.(١٩٦)

الفصل الخامس

آراء وفتاوى الفقهاء

آراء وفتاوى الفقهاء المتقدمين:

إتبع الفقهاء المتقدمون ائمة مذاهبهم في اقرار حقوق غير المسلمين من الذميين والمعاهدين والمستأمنين، وفي معرض استقرائنا لآرائهم وفتاواهم، نكتفي بذكر اثنين منهم، احدهما من الشيعة والآخر من السنة لتطابق الآراء والفتاوى عند اغلبية الفقهاء.

اولا: آراء وفتاوى الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)

لأهل الذمة والمستأمنين حق الأمن والحماية من قبل المسلمين، وقد جعلت الجزية لحقن دمائهم، والمنع من استرقاقهم، ووقاية لهم من جميع الوان الاعتداء على الانفس والاعراض والاموال، وهي ضريبة تؤخذ منهم على قدر استطاعتهم، فاذا دفعوها فليس على اموالهم وممتلكاتهم شيء بعدها.[(١٩٧)]

ولهم حق الحماية القانونية، ويجوز لهم التحاكم عند قاضي المسلمين او قاضيهم الخاص بديانتهم، وهم متساوون مع المسلمين في اجراء الاحكام القضائية، ولحاكم المسلمين الاختيار في الحكم عليهم بما يوجبه حكم الاسلام او تسليمهم الى حاكمهم بما يوجبه حكم دينهم.[(١٩٨)]

وتقبل شهادتهم بعضهم على بعض، ويستحلفون بما يرون في دينهم الاستحلاف به.[(١٩٩)]

ويعاقب المسلم ان اعتدى عليهم، ولكل عدوان عقوبة مناسبة له، فاذا قتل

المسلم واحـدا منهم فلأوليـائـه اخذ الدية من المسلم، ويقتل اذا كان معتادا على قتلهم جريئا على ذلك.(٢٠٠)

واذا قتل الذمي مسلما خطأً فديته على اوليائه.(٢٠١)

وديات اعضاء اهل الذمة بحسب ديات انفسهم.(٢٠٢)

ومن هجم عليهم في دارهم فلهم حق اخـراجـه، ومن اطلع عليهم لينظر الى عـوراتهم فلهم حق طرده وتخويفه ورميه بحجر أو غيره لاخراجه فلو مات على اثر ذلك فلا دية عليهم ولا قصاص.(٢٠٣)

واذا اعتـدى المسلم على اعـراضهم حداو عزر، فلو زنى بامرأة منهم عاقبه حاكم المسلمين، وعاقب المرأة المختارة، وله حق تسليمها الى اهل دينها ليقيموا عليها الحد حسب دينهم.(٢٠٤)

وفي الجانب الاقتصـادي لهم حق العمل في جميع المجـالات التي لايشترط فيها الاسلام، كالاجارة والمزارعة والمضاربة، وتعمير الارض وفي التجارة، سواء كان العمل مع المسلمين او مع ابناء دينهم.(٢٠٥)

وحرم الاعتداء على اموالهم بسرقة وغصب وخيانة في الوديعة.(٢٠٦)

ومن أتلف شيئـا من امـوالهم التي لهـا مالية عندهم كالخمر والخنزير وآلات اللهو كان عليه غرمه ودفع قيمته التي يحددها أهل دينهم.(٢٠٧)

واقـر لهم حقـوقهم المدنية والشخصية، فلايجـوز قذفهم، ومن قذفهم فعليه التعزير مسلما كان ام من اهل دينهم.(٢٠٨)

ويجوز لهم وقف اموالهم على عمارة بيعة او كنيسة او بيت نار.(٢٠٩)

ويجوز للمسلم وقف ماله على ابويه وأرحامه من الكفار.(٢١٠)

وتصح وصيتهم الى مثلهم، وتصح صدقة المسلم على ارحامه من الكفار ومن

اهل الذمة.[٢١١]

ويورث بعضهم بعضا وان اختلفوا في الدين، ولايفرق بينهم في المواريث.[٢١٢]

وتصح الوكالة فيما بينهم.[٢١٣]

ولهم حق شرب الخمر سرا.[٢١٤]

واذا خرج الذمي عن الذمة فأمره عائد للسلطان العادل، وليس للسلطان الجائر ولا للرعية الحق في اجراء الحكم بحقه.[٢١٥]

ثانياً: آراء وفتاوى القاضي أبي يعلي الفرّاء(ت ٤٥٨هـ)

لأهل الذمة ولأهل العهد والمستأمنين حق التمتع بالامن داخل حدود الدولة الاسلامية والمجتمع الاسلامي؛ فهم آمنون على ارواحهم واعراضهم واموالهم، ويمنع عنهم من تعرض لهم من المسلمين بسب او اذى ويؤدّب عليه من خالف.[٢١٦]

ويجب الدفاع عن اهل الذمة خاصة بعد اقرارهم بالجزية[٢١٧] حين تعرضهم للعدوان الداخلي والخارجي.

ولاهل العهد اذا دخلوا دار الاسلام الامان على نفوسهم واموالهم، ولهم ان يقيموا اهل من سنة بغير جزية.[٢١٨]

والمستأمن وهو الذي يدخل دار الاسلام بأمان نفس الحق، ويكون الامان صحيحا ان صدر من امرأة أو عبد أو طفل تجاوز السبع سنين.[٢١٩]

ولايجوز شراء اولاد اهل الذمة من ذويهم ولا استرقاقهم.[٢٢٠]

واذا نقض المعاهدون العهد لم يجز قتل من في ايدي المسلمين من رهائنهم، ولايجوز قتلهم وان قتلوا رهائن المسلمين.[٢٢١]

واذا دخل المسلم دار الحـرب بأمان أو كان اسيرا فأطلقوه و أمنوه لم يجز له ان يعتدي على انفسهم واموالهم، وعليه ان يؤمنهم كما امنوه.(٢٢٢)

واذا اشتـرط المسلمـون عليهم الضيـافة لا يجوز تكليفهم فوق طاقتهم وحد الضيافة ثلاثة ايام.(٢٢٣)

وفي مجـال القضـاء لهم حق التقـاضي والتـرافع الى حـاكمهم، او الى حاكم المسلمين، وان تشاجروا في دينهم لم يعارضوا فيه ولم يكشفوا عنه.(٢٢٤)

وهم متسـاوون مع المسلمين في القضـاء فلا يجـوز للحاكم ان يتبع هواه في الحكم.(٢٢٥)

وهم متسـاوون مع المسلمين في التعزيـر والتغريب، وفي قطع يـد السـارق، ورجم المحصن، ولا يفضل القاتل على المقتول تبعا لدينه.(٢٢٦)

ولهم حق الاقتصـاص في الاطـراف ان كان المعتدي مسلما وديتهم في قتل العمد كدية المسلم، وان اختلفت اديانهم اقيد بعضهم ببعض.(٢٢٧)

ولأهل الـذمة حق العمل في بـلاد المسلمين، كالـزراعة واصـلاح الاراضي والبيع والشراء.(٢٢٨)

وتبقى ارضهم ملكـا لهم ان صالحـوا المسلمين على ذلك، فلهم حق بيعهـا ورهنها.(٢٢٩)

واذا غلب المشركون المسلمين واحرزوا اموالهم اصبحت ملكا لهم.(٢٣٠)

وامـوال اهل الذمة، محفوظة، فمن هرب منهم الى دار الحرب لم ينقض امانه في ماله.(٢٣١)

ويحـرم الاعتـداء على امـوالهم وحقوقهم، فيحرم الاعتداء على الاجير في نقصان اجره[1] وغير ذلك من الوان الاعتداء.

ولاهل الـذمة حق العمل في مؤسسـات الـدولة الاسلامية التي لايشترط فيها الاسلام،فيجوز ان يكون وزير التنفيذ منهم.[٢٣٢]

ويجـوز اعطـاء الـذميين وغيـرهم من سهم المـؤلفة قلوبهم او من الفيء والغنيمة.[٢٣٣]

ولهم حق الضيافة على المسلم.[٢٣٤]

ولغيـر المسلمين حق الحفـاظ على حقـوقهم المدنية والشخصية ورعايتهـا، فيقـرّون على النكـاح،ويعـزّر من قـذفهم وإن كانـوا كفـارا لاجل الاذى وتبـرئة اللسان.[٢٣٥]

ويحرم التجسّس على بيوتهم واعراضهم وهتك استارهم.[٢٣٦]

ولايـجـوز للمسـلـم ان يبني دارا تشـرف على دورهم بحيث يطلع على داخلها.[٢٣٧]

آراء وفتاوى الفقهاء المتأخّرين

أولاً: آراء وفتاوى الامام الخميني(رض):

الامـام الخميني(رض) من مفـاخـر الفقهـاء، ومن المتقدمين عليهم في اداء المسـؤولية الشرعية، فقد استطاع ان يقيم دولة اسلامية تتبنى الاسلام قاعدة فكرية لهـا في تشريعاتها وقوانينها، وله الفضل والسبق في اقرار مبادىء الاسلام في واقع الحيـاة وجعلهـا هي الحـاكمة في افكـار المجتمع وعواطفه ومواقفه العملية، وقد حمل هموم المستضعفين والمحرومين في العالم على مختلف انتماءاتهم القومية والدينية، واتصف بالانفتـاح التام على مختلف الامم والشعوب والاديان في فكره

وعـواطفـه ومـواقفـه، لذا فمن الواجب على الجميع الاستنارة بافكاره ومفاهيمه وقيمه، ومنها ما يتعلق بحقوق غير المسلمين وخصوصا اهل الذمة.

فأقر حق الاعتقاد والتديّن لأهل الذمة سواء كانوا عربا او عجما، وكذلك من كان من نسلهم.[٢٣٨]

والطفل تابع لابيـه فـاذا بلغ فلـه حق الاختيـار في البقـاء في دار الاسلام او اختيار غيرها، ولو اختار دار الحرب رد الى مأمنه ولايجوز الاعتداء عليه.[٢٣٩]

وهم آمنـون على ارواحهم واعـراضهم وامـوالهم ان التزمـوا بشرائط الذمة ومنها:[٢٤٠]

١ ـ قبول الجزية.

٢ ـ ان لايفعلـوا مـا ينـافي الامـان مثل العـزم على حرب المسلمين، وامداد المشركين.

٣ ـ ان لايتظاهروا بالمنكرات عندنا كشرب الخمر والزنا واكل لحم الخنزير.

٤ ـ قبـول جريـان احكـام المسلمين عليهم من اداء حق، او تـرك محـرم او اجراء حدود الله تعالى، والاحوط اشتراط ذلك عليهم.

٥ ـ ان لايـؤذوا المسلمين كالزنـا بنسـائهم والسـرقة لامـوالهم وايـواء عين المشركين والتجسس لهم.

والشـرط الاول من مقـومـات عقـد الجزية، والثاني من مقتضيـات الامـان، والشروط الثلاثة الباقية تنقض العهد ان اشترطت فيه.

ولـو عين في عقـد الـذمة الجزية على الـرؤوس لايجـوز بعده اخذ شيء من اراضيهم وغيـرهـا، ولو وضع على الاراضي لايجوز بعده الوضع على الرؤوس، ولابد من العمل على طبق الشروط.[٢٤١]

ويرتب الامـام(رض) آثـار الصحة على العقـد وان كـان الحـاكم الذي تولى العقد جائرا.[٢٤٢]

واذا انتقل الـذمي من دين الى دين آخـر فالامر عائد الى اهل دينه، فاذا اقروه على دينه الجديد اقر عليه، واذا لم يقرّوه عليه فلا يقبل منه.[٢٤٣]

وفي حـالة عـدم اشتراط منع احداث المعابد، جاز لهم احداثها ولو انهدمت جاز لهم تعميرها وتجديدها.[٢٤٥]

ولهم حق التقيّد بمقتضى شريعتهم، فلو ارتكبوا ما هو جائز في شرعهم وغير جائز في شرع الاسلام لم يعترضوا ان كانوا متسترين به، ولو تجاهروا به عمل بهم ما يقتضي الجناية بموجب شرع الاسلام من الحد والتعزير.[٢٤٦]

ويحق لهم التـرافع الى حـاكم المسلمين او الى حكـامهم، واذا ترافعـوا الى حـاكم المسلمين فيجب عليـه العدل في الحكم سواء كان بين ذمي وذمي او بين ذمي ومسلم،[٢٤٧] فلهم حق التمتع في العدل والمساواة في الحكم.

وتترتب العقوبة على المسلم ان اعتـدى عليهم طبقا للقوانين الموضوعة في ابواب القضاء، ويرد الحق للمعتدى عليه منهم.[٢٤٨]

وهنـاك ممارسات يقتل فيها المسلم دون الكافر والذمي، وعلى سبيل المثال، العـامل بالسحـر يقتل ان كـان مسلمـا، ويـؤدب ان كـان كافـرا، ويثبت ذلك بالاقرار.[٢٤٩]

وليس بين اهل الـذمة معاقلة فيما يجنون من قتل او جراحة، وانما يؤخذ ذلك من اموالهم، فان لم يكن لهم مال رجعت الجناية على امام المسلمين.[٢٥٠]

واقـر الامـام(رض) لهم حقـوقهم المـالية والاقتصـادية، فلهم حق العمل في مختلف حقـولـه التي لم يشتـرط فيهـا الاسـلام، كالاجـارة، والبيع والشـراء

والمضاربة، والمزارعة، والشركة وغير ذلك من الاعمال.[٢٥١]

ويجب الوفاء لهم بجميع احكام البيع والشراء والتجارة، فلهم حق الخيار بجميع انواعه.[٢٥٢]

وتثبت الشفعة للكافر على الكافر وللمسلم على الكافر، ولا شفعة للكافر على المسلم.[٢٥٣]

ويجوز التبادل التجاري مع مطلق الكفار تجارا كانوا ام دولا ويراعى في ذلك مصلحة المسلمين، ويجوز في ذلك حتى بيع السلاح لهم.[٢٥٤]

وجوز الامام(رض) اعطاء السلاح مجانا للكافر ان كان يعود نفعه الى المسلمين.[٢٥٥]

ومن الامور التي خالف فيها الامام(رض) آراء كثير من الفقهاء هو جواز نقل القرآن الكريم الى الكفار وتملكهم له[٢٥٦] من اجل هدايتهم الى الاسلام.

واموال اهل الذمة محترمة يجب على المسلم ضمانها ان اتلفها، كالخمر وآلة اللهو وجميع ما يملكه الذمي في مذهبه، فلو كانت مستورة واتلفها المسلم يجب عليه ضمانها.[٢٥٧]

وجوز الامام(رض) اعطاء اهل الذمة من الزكاة.[٢٥٨]

وأوجب على المسلم الانفاق على الكفار واهل الذمة من ارحامه، كأبويه وآبائهما وامهاتهما، وعلى الاولاد واولادهم وان نزلوا.[٢٥٩]

واقرّ الامام(رض) لغير المسلم حقوقهم المدنية والشخصية، فعقد الزواج الواقع بين الكفار لو وقع صحيحا عندهم وعلى طبق مذهبهم تترتب عليه آثار الصحة عند المسلمين، سواء كان الزوجان كتابيين او وثنيين او مختلفين.[٢٦٠]

ولهم حق الهبة والصدقة والوقف والارث والوصية والوكالة.[٢٦١] فيصح

وقف الكافر والذمي على البيع والكنائس وبيوت النيران لجهة عمارتها وخدمتها وفرشها ومعلقاتها.

ولو وقف كافر على الفقراء انصرف الى فقراء نحلته.

وتجوز صدقة المسلم المستحبة على الذمي.(٢٦٢)

ويعزر من اعتدى على اعراضهم باللسان.(٢٦٣)

ثانياً: آراء المتأخرين من أهل السنة

اوجب علماء وفقهاء ومفكروا اهل السنة اقرار حقوق اتباع الاديان، واقامة العلاقات السلمية بينهم، ومن هذه الحقوق:(٢٦٤)

١ ـ انهاء الحرب واعادة العلاقات السلمية.

٢ ـ وجوب حمايتهم والمحافظة على ارواحهم واموالهم وحرماتهم ازاء اي اعتداء عليهم من المسلمين او من غيرهم.

٣ ـ عدم التعرض لكنائسهم القائمة، وما يتبعها من شعائرهم الدينية وخمورهم وخنازيرهم ما لم يظهروها.

٤ ـ لزوم عقد الذمة في حق المسلمين واستمراره، فلا يملك امام المسلمين او احد منهم نقضه لانه عقد مؤبد ما لم يصدر من اهل الذمة شيء يستوجب نقض العهد.

ولا يجوز للمسلم ان يكره زوجته الذمية على تغيير دينها او مضايقتها في اداء عبادتها.(٢٦٥)

ويجوز لهم الترافع الى حاكم المسلمين او الى حاكمهم.(٢٦٦)

ولهم حق التوارث على اختلاف مللهم، فيرث النصراني من يهودي ويهودي من مجوسي، ومجوسي من وثني.(٢٦٧)

ويصح الوقف للكافر وللذمي وللمعاهد والمستأمن.(٢٦٨)

ويجوز اعطاء الصدقات غير الواجبة اليهم.(٢٦٩)

ومن اروع ما ذهب اليه عدد من الفقهاء في احترام واقرار الحقوق ان اوجبوا على المتزوج من كتابية ان يصحبها الى المكان الذي تؤدي فيه الشعائر والعبادات اذا طلبت منه ذلك.(٢٧٠)

ولهم حق دق النواقيس في جوف كنائسهم، ولهم ان يفعلوا مالايثير العداء، ولايؤدي الى اضطراب وفتنة.(٢٧١)

ويجوز للمسلم شراء اراضي الذمي وبالعكس.(٢٧٢)

وتسقط عنهم الجزية لو قاموا بالدفاع او اشتركوا فيه.(٢٧٣)

ومن آراء الشيخ محمد (ابو زهرة):

يمنع الحاكم الاسلامي من التعرض لغير المسلمين الذين يعيشون في ظل الدولة الاسلامية.(٢٧٤)

وللزوجة الكتابة على زوجها المسلم جميع حقوق الزوجة المسلمة عليه.(٢٧٥)

ولاتبطل وصية غير المسلم الا اذا كانت محرمة في شريعته وفي الشريعة الاسلامية.(٢٧٦)

ويصح الوقف على ابناء دينهم.(٢٧٧)

وتصح وكالة المسلم لغيره، ووكالة غير المسلم له.(٢٧٨)

ويرى وجوب الانفاق على فقرائهم وسد حاجاتهم من بيت مال المسلمين.(٢٧٩)

ثالثاً: تجربة الجمهورية الاسلامية فى ايران:

أقـر نظام الجمهورية الاسلامية في ايران جميع حقوق الامم والاديان القاطنة في ايران وفي خارجها، سواء في دستوره او في التطبيقات والممارسات العملية، ففي ايام انتصار الامام الخميني(رض) على النظام البائد، لم يفرض النظام الاسلامي على الشعب الايراني بمختلف قومياته واديانه ومذاهبه، بل انه جاء نتيجة الاستفتاء العام، فقداختار الشعب الايراني الاسلام نظاما له بأغلبية ٩٨/٢٪ ممن كان له حق التصويت.

والدستور الاسلامي وفي مادته الثانية يؤكد على الايمان بكرامة مطلق الانسان وحريته، وتأمين القسط والعدل والاستقلال والتلاحم الوطني، ورفض اي نوع من الظلم والتسلط.

وفي المادة الثالثة يوجب الدستور على الحكومة تحقيق جملة من الامور، كما ورد في البنود التالية:

٧ ـ تأمين الحريات السياسية والاجتماعية في حدود القانون.

٨ ـ اشتراك عامة الناس في تقرير مصيرهم السياسي، والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

٩ ـ رفع التمييز الخاطىء، وايجاد الفرص المتكافئة للجميع وعلى جميع الاصعدة المادية والمعنوية.

١٢ ـ خلق الرفاه والقضاء على الفقر.

١٤ ـ تأمين كافة الحقوق للافراد ـ المرأة والرجل ـ وايجاد الضمانات القضائية العادلة للجميع، والمساواة في الحقوق امام القانون.

١٦ ـ تنظيم سياسة الدولة الخارجية على اساس: القيم الاسلامية، والمسؤولية

الاخوية تجاه كافة المسلمين، والدعم المطلق لمستضعفي العالم.

المادة ١٣: الايرانيون الزرادشت، واليهود، والمسيحيون هم الاقليات الدينية الوحيدة المعروفة التي تتمتع بالحرية في اداء مراسيمها الدينية، والعمل وفق مبادئهم في الاحوال الشخصية، والتعاليم الدينية.

المادة١٤: ان على حكومة جمهورية ايران الاسلامية، وعلى المسلمين ان يعاملوا غير المسلمين بالاخلاق الحسنة، والقسط، والعدل الاسلامي، وان يراعوا حقوقهم الانسانية.

المادة ١٥: يسمح الاستفادة من اللغات المحلية والقومية، في الصحافة، ووسائل الاعلام وكذلك تدريس ادبها في المدارس الى جانب اللغة الفارسية.

المادة٢٠: يتمتع جميع الافراد بحماية القانون، بصورة متساوية كما يتمتعون بكافة الحقوق الانسانية: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مع مراعاة الموازين الاسلامية.

المادة ٢٢: ان شخصية، وروح، ومال، وحقوق، ومسكن، وعمل الاشخاص مصونة من التعرض.

المادة ٢٣: يمنع تفتيش العقائد ولا يمكن مؤاخذة اي شخص او التعرض له لمجرد اعتناقه عقيدة معينة.

المادة ٢٨: لكل شخص الحق في اختيار اي عمل يرغب فيه ولا يتعارض مع الاسلام والمصالح العامة، وحقوق الآخرين، والحكومة مسؤولة عن توفير فرص العمل للجميع.

المادة ٢٩: ان حق التمتع بالضمان الاجتماعي في مجالات التقاعد، والبطالة، والشيخوخة، والعجز عن العمل وفقد القيم والانقطاع في الطريق، والحوادث

والطوارىء، والخدمات الصحية والعلاجية... هو حق عام.

المادة٦٤: ينتخب الزرادشت واليهود كل منهما نائبا واحدا ـ في مجلس الشورى ـ وينتخب المسيحيون والآشوريون، والكلدانيون معا نائبا واحدا، وينتخب المسيحيون الارمن في الجنوب والشمال، كل منهما نائبا واحدا، وفي حالة ازدياد نفوس اي واحدة من الاقليات، فانه يتم بعد عشر سنوات اضافة نائب واحد عن كل مائة وخمسين الف نسمة اضافية.

المادة٦٧:... نواب الاقليات الدينية يؤدون اليمين مع ذكر كتابهم السماوي.

المادة١٥٤: تعتبر جمهورية ايران الاسلامية سعادة الانسان في المجتمع البشري عامة، هدفها الرئيسي وتعتبر الاستقلال والحرية واقامة حكومة الحق والعدل هي من حق الناس في كافة ارجاء العالم، من هنا فان جمهورية ايران الاسلامية تقوم ـ في نفس الوقت الذي لاتتدخل في الشؤون الداخلية للشعوب الاخرى ـ بحماية الكفاح الشرعي للمستضعفين ضد المستكبرين في اية نقطة من العالم.

فالدستور يراعي حقوق الانسان بغض النظر عن انتماءاته الدينية والعقائدية والفكرية.

أما في التطبيقات العملية فان غير المسلمين يتمتعون بجميع حقوق الانسان فهم احرار في متبنياتهم العقائدية، وهم احرار في ممارسة شعائرهم وعباداتهم، ولهم حق الاجتماع وحق التدارس فيما بينهم، ويتمتعون بجميع حقوق المواطنة وهم آمنون على انفسهم واعراضهم وكراماتهم واموالهم، لهم حق العمل في جميع مرافقه بما فيها مؤسسات الدولة في المعامل والمزارع والمستشفيات والمهن الحرة، ومنهم من اصبح من التجار الكبار في ايران، وهم يفضلون العيش

في ايران على العيش في الدول غير الاسلامية، فلولا تمتعهم بالحقوق لما فضلوا ذلك.

وهم يتمتعون بجميع حقوقهم المدنية والشخصية، ولهم علاقات حسنة مع المسلمين، ويكاد الانسان لا يميز بين مسلم وغير مسلم هنا لانهم متساوون في الحقوق والواجبات، ولهم علاقات متينة وعميقة مع كافة ابناء المجتمع.

اما ابناء القوميات فهم يتمتعون ايضا بكافة الحقوق، ولهم عاداتهم وتقاليدهم القومية في الاعياد والمناسبات والمهرجانات، وقد وصل الكثير منهم الى وظائف متقدمة في الدولة، فمنهم الوزراء، والاعضاء في مجلس صيانة الدستور، ومجلس الخبراء، وفي الجيش وحرس الثورة وفي القضاء، لذا نجد ان الجمهورية الاسلامية في ايران اكثر البلدان استقرارا، وتعدد الاديان والقوميات فيها لم يؤثر على المحافظة على الامن العام والاستقرار العام كماهو الحال في بعض الدول ذات التعددية التي لازالت الصراعات السياسية والعسكرية قائمة فيها.

الهوامش

١ – الاحزاب ٤٥.

٢ – الانبياء ١٠٧.

٣ – ص ٨٧.

٤ – آل عمران ٩٦.

٥ – البقرة ٢٥٦.

٦ – مجمع البيان في تفسير القرآن ١:٣٦٤، الفضل بن الحسن الطبرسي، مكتبة المرعشي النجفي، قم ١٤٠٣هـ.

٧ – تفسير القرآن العظيم ١:٣١٨، اسماعيل بن كثير الدمشقي، دار المعرفة بيروت، ١٤٠٦هـ ط ١.

٨ – الغاشية ٨ .

٩ – النور ٥٤.

١٠ – يونس ٩٩.

١١ – الاسراء ١٦.

١٢ – آل عمران ٢٠.

١٣ – آل عمران ٦٤ .

١٤ – النمل ١٢٥.

١٥ – العنكبوت ٤٦.

١٦ – آل عمران ٦٥.

١٧ – النساء ١٥٣.

١٨ – البقرة ١٣٥.

١٩ – المائدة ٣٢.

٢٠ – الممتحنة ٨.

٢١ – الانفال ٦١.

٢٢ – البقرة ١٩٠.

٢٣ – التوبة ٦.

٢٤ – النساء ٥٨.

٢٥ – الحديد ٢٥.

٢٦ – النحل ٩٠.

٢٧ – المائدة ٨.

٢٨ – المائدة ٤٢.

٢٩ – المائدة ٤٨.

٣٠ – المائدة ٤٣–٤٤

٣١ – المائدة ٤٧.

٣٢ – السيرة النبوية لابن هشام ٢:١٤٨–١٤٩، السيرة النبوية لابن كثير ٢:٣٢١–٣٢٢.

٣٣ – السيرة النبوية: ٢/٢١٧، عبدالملك بن هشام، دار احياء التراث العربي، بدون تاريخ.

٣٤ – الروض الانف ٤:٣٥٣، عبدالرحمن السهيلي، دار احياء التراث العربي، بيروت. ١٤١٢ هـ ط ١.

٣٥ – الطبقات الكبرى ١:٢٦٦، محمد بن سعد الزهري، دار صادر، بيروت ١٤٠٥هـ

٣٦ – الكامل في التاريخ ٢:٢٩٣، علي بن محمد الشيباني، دار صادر بيروت ١٤٠٢هـ.

٣٧ – السيرة النبوية ٤:٦٠٤، اسماعيل بن كثير، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٣هـ

٣٨ – الروض الانف ٤:٣٤٨، ٣٥٠.

٣٩ – الروض الانف ٤:٣٥٠.

٤٠ – الروض الانف ٤:٣٥٦.

٤١ – الروض الانف ٤:٣٥٤.

٤٢ – مسند احمد ٧:٤٠، احمد بن محمد بن حنبل، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٤١٤ هـ ط ٢.

٤٣ – سنن سعيد بن منصور ٢:٢٠٤، دار الباز مكة، ١٤٠٥هـ ط ١.

٤٤ – م.ن ٢:٢٠٣.

٤٥ – مجمع الزوائد ٥:٣١٦، علي بن ابي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٤٦ – الروض الانف ٥:١٠٧.

٤٧ – الكافي ٥:٢٨، محمد بن يعقوب الكليني، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٣٨٨هـ

٤٨ – السيرة النبوية ٢:٢٩٩، ابن هشام.

٤٩ – الطبقات الكبرى ١:٣٧٧.

٥٠ – السنن الكبرى ٩:٢٠٤، احمد بن الحسين البيهقي، دار المعرفة، بيروت ١٣٥٦هـ
٥١ – م. ن ٩:٢٠٤.
٥٢ – السيرة النبوية ٤:٤٩، ٥١، ابن هشام.
٥٣ – م. ن ٤:١٣٢.
٥٤ – السيرة النبوية ٢:٤٨٧، ٣:٥٨٣، ٤:٣١، ابن كثير.
٥٥ – الكامل في التاريخ ٢:٢٥٠، ٢٥٢.
٥٦ – كنز العمّال ٤:٣٦٥، حسام الدين الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٥هـ ط ٥.
٥٧ – الجامع الكبير ١:٨٥، ٨٦.
٥٨ – من لايحضره الفقيه ٤:١٢٤، محمد بن علي الصدوق، جماعة المدرسين، قم، ١٤٠٤هـ ط ٢.
٥٩ – السنن الكبرى ٩:٢٠٥.
٦٠ – كنز العمّال ٣:٣٦٣.
٦١ – كنز العمّال ٤:٣٦٢.
٦٢ – مستدرك الوسائل ١١:١٣١، حسين النوري الطبرسي، مؤسسة آل البيت، قم، ١٤٠٨هـ ط ١.
٦٣ – السيرة النبوية ٤:٢٩، ابن كثير.
٦٤ – الطبقات الكبرى ١:٢٩٠.
٦٥ – اعلام الورى بأعلام الهدى: ٧٩، الفضل بن الحسن الطبرسي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ
٦٦ – السيرة النبوية ٢:٢٠٧، ٢٠٨، ابن هشام.
٦٧ – صحيح مسلم ٣:١٣٢٦، مسلم بن الحجّاج النيسابوري، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٩هـ ط ٢.
٦٨ – الروض الانف ٤:٣٦٩.
٦٩ – سنن ابن ماجة ٢:٧٩٤، محمد بن يزيد القزويني (ابن ماجة)، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٧٠ – الاستبصار ٤:٢٦٩، محمد بن الحسن الطوسي، دار الكتب الاسلامية، طهران، ١٣٩٠هـ ط ٣.
٧١ – من لايحضره الفقيه ٤:٩٩.
٧٢ – الروض الآنف ٥:٢١.
٧٣ – الام ٥:٥٥، الامام محمد بن ادريس الشافعي، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٣هـ ط٢.
٧٤ – صحيح مسلم ٢:٦٩٦.
٧٥ – سنن الدارمي ٢:٤٢٧، عبدالله بن بهرام الدارمي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٧٦ – الاموال: ٦٠٥، ابو عبيد القاسم بن سلام، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ ط ١.

٧٧ – مجمع الزوائد ٤:٧٣.

٧٨ – نصب الراية ٣:٣٩٢، عبدالله بن يوسف الزيعلي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ ط ٣.

٧٩ – اعلام الورى بأعلام الهدى: ١١٩.

٨٠ – نصب الراية ٤:٣١٩.

٨١ – المهذب في فقه الامام الشافعي ٢:٢٩٢، ابراهيم بن علي الفيروزآبادي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

٨٢ – مجمع الفوائد ٣:١٠٢، محمد بن محمد المغربي، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٤٠٨هـ ط ٢.

٨٣ – جامع السعادات ٢:٢٧٦، محمد مهدي النراقي، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط ٤، بدون تاريخ.

٨٤ – م.ن: ٢٧٦.

٨٥ – صحيح مسلم ٤:١٧٠٦.

٨٦ – م. ن ٢:٦٦١.

٨٧ – من لايحضره الفقيه ٣:٢١٩.

٨٨ – تفسير القرآن العظيم ١:٣١٨.

٨٩ – تهذيب تاريخ دمشق ١:١٧٩.

٩٠ – الخصال: ٣٦٥، ٣٨٢، ٤٥٦.

٩١ – روح الاسلام: ٢٩٥، امير علي، دار العلم، بيروت، ١٣٩٧هـ

٩٢ – مستدرك الوسائل ١١:١٣٣.

٩٣ – تهذيب تاريخ دمشق ١:١٣٤، نصب الراية ٣:٤٠٧.

٩٤ – الكامل في التاريخ ٢:٣٨٦.

٩٥ – سنن سعيد بن منصور ٢:٢٣٩.

٩٦ – فتوح البلدان : ١٤٤، احمد بن يحيى البلاذري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ

٩٧ – الكامل في التاريخ ٣:١٦ الى ٢٦.

٩٨ – م.ن ٣:٣٥، ٣٦.

٩٩ – م. ن ٣:٣٦، ٣٧.

١٠٠ – تاريخ اليعقوبي ٢:١٦٤.

١٠١ – سنن سعيد بن منصور ٢:٢٣٢، البدء والتاريخ ٥:١٨٥.

١٠٢ – م.ن ٢:٢٩٩.

١٠٣ – م.ن ٢:٢٣٣.

١٠٤ – الخراج: ٢٩٨، ٢٩٩، القاضي ابو يوسف، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٩هـ.

١٠٥ – الخراج: ١٢٥.

١٠٦ – نهج البلاغة: ٤٤٢، كتاب رقم ٥٣، تحقيق صبحي الصالح.

١٠٧ – م. ن: ٤٢٧، كتاب رقم ٥٣.

١٠٨ – م.ن: ٧٠، خطبة ٢٧.

١٠٩ – المغني ١٠:٤٨٩، عبدالله بن قدامة، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٧هـ

١١٠ – كنز العمال ٤:٤٩٠.

١١١ – المهذب في فقه الامام الشافعي ٢:٢٥١.

١١٢ – الموطأ ٢:٧١٩، الامام مالك بن انس، بيروت، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، بدون تاريخ.

١١٣ – وسائل الشيعة ٢٨:١٥٢، محمد بن الحسن الحر العاملي، مؤسسة آل البيت، ١٤١٢هـ ط ١.

١١٤ – الكافي ٧:٣٠٩.

١١٥ – الكامل في التاريخ ٣:٤٠١.

١١٦ – م.ن ٢:٢٩٣، ٢٩٤.

١١٧ – تهذيب تاريخ دمشق ١:٨٣.

١١٨ – م.ن ١:١٨٠.

١١٩ – م.ن ١:٨٣.

١٢٠ – الاموال: ١٥٨.

١٢١ – م.ن: ٥٣٠.

١٢٢ – م. ن: ٤٦، ٥٠، ٥١.

١٢٣ – السنن الكبرى ٩:٢٠٥.

١٢٤ – وسائل الشيعة ١٥:٦٦.

١٢٥ – شرح رسالة الحقوق ٢:٥٧١، حسن علي القبانچي، مؤسسة اسماعيليان، قم ١٤٠٦هـ

١٢٦ – الآمالي: ٤٣، المفيد، جامعة المدرسين، قم ١٤١٥هـ

١٢٧ – م. ن: ٨٦.

١٢٨ – م. ن: ٢٠٨.

١٢٩ – تحف العقول: ٢٩٢ الى ٢٩٧.

١٣٠ – تحف العقول: ٣٦٩ الى ٣٧٨.

١٣١ – تحف العقول: ٢١٠.

١٣٢ – الكافي ٥: ٣١.

١٣٣ – وسائل الشيعة ١٥: ٦٨.

١٣٤ – الكافي ٥: ٢٠.

١٣٥ – الكافي ٢: ٢٣٧.

١٣٦ – وسائل الشيعة ٢٧: ٢٩٧.

١٣٧ – م. ن ٢٦: ٣١٩.

١٣٨ – من لايحضره الفقيه ٣: ٤٧.

١٣٩ – الكافي ٧: ٤٥١.

١٤٠ – الكافي ٧: ٣٠٩.

١٤١ – من لايحضره الفقيه ٤: ١٢٤.

١٤٢ – الاستبصار ٤: ٢٧١.

١٤٣ – الكافي ٥: ٢٧٠، ٢٨٢، ٢٨٦؛ ٢: ٦٥٠.

١٤٤ – م. ن ٥: ٥٦٨.

١٤٥ – م. ن ٥: ٥٦٧.

١٤٦ – م. ن ٤: ١٤.

١٤٧ – م. ن ٤: ٥٧.

١٤٨ – وسائل الشيعة ١٥: ٦٥.

١٤٩ – الكافي ٥: ٥٦٦.

١٥٠ – م. ن ٥: ٤٣٥.

١٥١ – م. ن ٥: ٤٣٦.

١٥٢ – م. ن ٧: ٢٤٠.

١٥٣ – م. ن ٤: ١٩٣.

١٥٤ – الامالي: ١٨٥.

١٥٥ – الكافي ٢: ٦٧٠.

١٥٦ - م. ن ٢:٦٥١.

١٥٧ - م. ن ٢:٦٥٠.

١٥٨ - م. ن ٢:٦٥٦.

١٥٩ - الموطأ: ١/٢٨٠.

١٦٠ - الأم ٤:١٨٦،٢٠٧.

١٦١ - الميزان ٢:١٨١، عبدالوهاب اشعراني، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٤هـ ط ١.

١٦٢ - رحمة الامة في اختلاف الائمة ٢:١٨٣، محمد بن عبدالرحمن الدمشقي، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٤هـ

١٦٣ - الميزان ٢:١٨٨، رحمة الامة ٢:١٩٠.

١٦٤ - الميزان ٢:١٥٨.

١٦٥ - احكام اهل الملل: ١٢٢، ابو بكر احمد بن محمد الخلال، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م، ط ١.

١٦٦ - رحمة الامة ٢:٢١٣، اللباب ٤:٦٣.

١٦٧ - الميزان ٢:١٤٦.

١٦٨ - الام ٤:٢٠٨.

١٦٩ - الميزان ٢:١٥١.

١٧٠ - م. ن ٢:١٧١.

١٧١ - م . ن ٢:١٥٠.

١٧٢ - م. ن ٢:١٥٤.

١٧٣ - م. ن ٢:١٥.

١٧٤ - م. ن ٢:١٩٠.

١٧٥ - الميزان ٢:٩٩، الام ٤:٢١٣.

١٧٦ - الميزان ٢:٩٧، اللباب ٢:١٩٥.

١٧٧ - الميزان ٢:١٣٢.

١٧٨ - الام ٤:٢٠٧.

١٧٩ - الام ٤:١٨٣.

١٨٠ - الميزان ٢:١٢٠، ١٣١، ١٣٣، الام ٥:٥٠، ٤:٢١٣.

١٨١ – اللباب ٣:١٩٨، أحكام أهل الملل: ٢٦١، الميزان ٢:١٦٤.

١٨٢ – مسائل الامام احمد: ١٦٠، ابو داود السجستاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٥٣هـ.

١٨٣ – رحمة الامة ٢:٢٠٤.

١٨٤ – الميزان ٢:١١٣.

١٨٥ – الام ٤:٢١١.

١٨٦ – الميزان ٢:٣٦.

١٨٧ – احكام اهل الملل: ٢٣٦.

١٨٨ – اللباب ٣:١٦٨.

١٨٩ – احكام اهل الملل: ٢١٢.

١٩٠ – الميزان ٢:١١٨.

١٩١ – الام ٢:٦١.

١٩٢ – احكام اهل الملل: ٦١.

١٩٣ – م. ن : ٤٩.

١٩٤ – م. ن: ٢١٧.

١٩٥ – المقنعة: ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٤، محمد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد)، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ١٤١٠هـ.

١٩٦ – المقنعة: ٧٢٣، ٧٨٦، ٧٧٩.

١٩٧ – م. ن: ٧٢٦، ٧٣١.

١٩٨ – م. ن : ٧٣٩.

١٩٩ – م. ن: ٧٥٣.

٢٠٠ – م. ن : ٧٦٥.

٢٠١ – م. ن : ٧٤٢.

٢٠٢ – م. ن : ٧٧٩.

٢٠٣ – م. ن : ٢٣٨، ٦٢٣، ٦٣٧، ٦٤٠.

٢٠٤ – م. ن : ٦٢٦.

٢٠٥ – م. ن : ٢٧٩، ٧٧٠.

٢٠٦ – م. ن: ٧٩٢.

٢٠٧ – م. ن: ٦٥٤.

٢٠٨ – م. ن : ٦٥٣.

٢٠٩ – م. ن: ٦٨٨، ٦٧١.

٢١٠ – م. ن : ٧٠١.

٢١١ – م. ن: ٨١٧.

٢١٢ – م. ن: ٨٠٠.

٢١٣ – م. ن : ٧٤٠.

٢١٤ – الاحكـام السلطـانية: ٤٨، ١٦١، ٣٠٤، محمـد بن الحسين الفـراء، مكتب الاعلام الاسـلامي، طهران، ١٤٠٦هـ ط ٢.

٢١٥ – الاحكام السلطانية: ١٦١.

٢١٦ – م. ن : ١٦١.

٢١٧ – م. ن : ٤٩، ١٦١.

٢١٨ – م. ن : ١٤٥.

٢١٩ – م. ن : ٤٨، ٤٩.

٢٢٠ – م. ن : ١٥٢.

٢٢١ – م. ن : ١٥٦.

٢٢٢ – م. ن : ١٦٠– ١٦١.

٢٢٣ – م. ن : ٦٦.

٢٢٤ – م. ن : ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٧٢.

٢٢٥ – م. ن : ٢٧٦، ٢٧٤، ٢٧٣.

٢٢٦ – م. ن : ١٤٨، ١٦٤.

٢٢٧ – م. ن : ١٤٩.

٢٢٨ – م.ن: ١٤٥.

٢٢٩ – م. ن : ١٦٢.

٢٣٠ – م. ن : ٣٠٢.

٢٣١ – م. ن: ٣٢.

٢٣٢ – م. ن : ١٣٢.

٢٣٣ – م. ن : ١٥٨.

٢٣٤ – م. ن : ١٤٤، ٢٧٠.

٢٣٥ – م. ن : ٢٩٥.

٢٣٦ – م. ن : ٣٠٤.

٢٣٧ – تحرير الوسيلة ٢:٤٩٨، الامام الخميني (رض)، مطبعة اسماعيليان، قم، ١٤١٠هـ ط ٤.

٢٣٨ – تحرير الوسيلة ٢:٤٩٩.

٢٣٩ – م. ن ٢:٥٠١، ٥٠٢.

٢٤٠ – م. ن ٢:٤٩٩.

٢٤١ – م. ن ٢:٥٠١.

٢٤٢ – م. ن ٢:٥٠٦.

٢٤٣ – م. ن ٢:٥٠٤.

٢٤٤ – م. ن ٢:٥٠٦.

٢٤٥ – م. ن ٢:٤٠٩.

٢٤٦ – م. ن ٢:٤٦٤، ٥١٩، ٥٥٩، ٥٩٧.

٢٤٧ – م. ن ٢:٤٧٧.

٢٤٨ – م. ن ٢:٦٠٠.

٢٤٩ – تحرير الوسيلة ١/٥٠٧، ٥٠٨، ٥٧١، ٥٨٧، ٦٠٨، ٦٢٣، ٦٣٥.

٢٥٠ – م. ن ١:٥٥٢، وما بعدها.

٢٥١ – م. ن ١:٥٥٧.

٢٥٢ – م. ن ١:٤٨٦، ٤٨٧، ٤٩٦.

٢٥٣ – المكاسب المحرّمة ١:٢٢٧، الامام الخميني (رض)، مطبعة اعتماد، قم، ١٣٧٣هـ ش.

٢٥٤ – البيع ٢:٥٤٥، الامام الخميني، مطبعة اسماعيليان، ١٤١٠هـ ط ٤.

٢٥٥ – تحرير الوسيلة ٢:٦٠٤.

٢٥٦ – تحرير الوسيلة ١:٣٣٦.

٢٥٧ – م. ن ٢:٣١٩.

٢٥٨ – م. ن ٢:٢٨٥.

٢٥٩ – م. ن ٢:٥٦، ٩١، ٧١، ٣٦٤، ٥٠٧، ٤٠.

٢٦٠ – م. ن ٢:٩١.

٢٦١ – م. ن ٢:٤٧٤.

٢٦٢ – الفقـــه المنهجي ٨:١٤٣، د. مصطفى الخن، د. مصطفى البغـا، د. علي الشـربجي، دار القلم، دمشق، ١٤٠٩هـ

٢٦٣ – م. ن ٤:٣٣.

٢٦٤ – م. ن ٥:٢٤.

٢٦٥ – م. ن ٥:٧٩.

٢٦٦ – م. ن ٥:١٥، ٢٠.

٢٦٧ – م. ن ٢:٦٤.

٢٦٨ – الجهاد في التصوّر الاسلامي: ١١، ابراهيم النعمة.

٢٦٩ – دعـائم الحكم في الشريعة الاسـلامية: ١٧٦، د. اسماعيل البـدوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٠م، عن: السياسة الشرعية، لعبدالوهاب خلاف.

٢٧٠ – النظـام المـالي في الاسـلام: ١٤٨، ١٤٩، د. عبـدالخـالق النـواوي، المكتبـة العصرية، بيروت، ١٩٧٣م، ط ٢.

٢٧١ – م. ن : ١٥٢.

٢٧٢ – الاحوال الشخصية : ٢٥٩، محمد ابو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٣٧٧هـ ط ٢.

٢٧٣ – محاضرات في عقد الزواج وآثاره: ١٥١، محمد ابو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٩١هـ

٢٧٤ – قانون الوصية: ٤٩، محمد ابو زهرة، دار الفكر العربي ١٤٠٩هـ

٢٧٥ – محاضرات في الوقف: ٤١٢، محمد ابو زهرة، دار الفكر العربي، ١٣٩١هـ

٢٧٦ – الملكية ونظرية العقد في الشريعة الاسـلامية: ٣٤٥، محمـد ابـو زهـرة، دار الفكـر العربي، ١٣٩٦هـ

٢٧٧ – محاضرات في الوقف: ٤١٢.

إصلاح المجتمع الإنساني

ومكافحة الفساد

مبارك بن سيف بن سعيد الهاشمي

سلطنة عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـد :

الحمد لله الذي جعل الاسلام خير دين أنزل للناس و هدى و رحمة للعالمين ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، والصلاة و السلام على النبي الكريم و الرسول العظيم الذي بين ما أنزل اليه من ربه ليخرج الناس من الظملات الى النور وعلى آله و صحبه الذين حملوا دين الله و نشروا نوره في مشارق الأرض ومغاربها، فأقاموا العدل في الأرض وحققوا للانسانية عـزتها وكـرامـتها و خـلصوا البشرية من الظلم والطغيان والجور والفساد و طبقوا حكم الله و شريعته في أنفسهم وفي البلاد فسعدت الدنيا بقيادتهم فنعمت بالعدل والحرية و الرخاء.

أما بعد :

فإن رسالة الاسلام دائماً و أبداً هي : الهداية الالهية للبشرية جمعاء هدفها اجتثاث الشرور و المفاسد و القضاء على الانحراف و الفساد والدعوة الى الخـير والصـلاح بالكلمة الطيبة والعمل الصالح وبالحكمة والموعظة الحسنة التي توقظ القلب الغافل

و تنبه الضمير اللاهي وتهز الوجدان الوسنان والدين الاسلامي هو دين الفطرة متوائم مع ميول و طباع الانسان و متوافق مع اشباع ذاتيته الجسمية والنفسية في الحدود التي لا تضر به ولا تؤذى غيره، فهو ينظر الى الانسان على أنه أرقى مخلوقات الله في الأرض فهو مكرم بنعمة العقل الذي يميز به بين الخير والشر والحق والباطل والهدى والضلال وبنعمة الارادة التي تجعله مسئولاً عن كل ما يأتي أو يذر و يتحمل نتيجة عمله فكان جديراً أن يكون خليفة الله في أرضه و أهله أن يفتح منه من روحه ويسجد له ملائكته تكريماً لوجودة .

اقتضت حكمة الله أن يطلق للانسان يده في هذه الارض ومنحه من الاستعداد والطاقة ما يناسب هذه المهمة و يحقق المشيئة الالهية و تجعله يكابد في هذه الدنيا ويكد و يكدح و يصيب و يخطىء، و يفسد و يصلح فان رواج طبيعته وقدرته على أن يغالب نوازع الشر و دوافع الافساد و ارادته التي تجعله يختار طريقه و يوجه حياته هو سر تكريمه فضلاً عن تسويته على أكمل صورة و أحسن تقويم كما قال تعالى:

﴿ ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾ .

و الاسلام هو الدين الذي أراده الله عز وجل أن ينشيء أمة ذات طابع خاص متميز، قادرة على قيادة البشرية وتحقيق منهج الله في الارض وانقاذ البشرية مما تعانيه من العبادات الضالة والمناهج الباطلة والتصورات المنحرفة .

ولا يستطيع الانسان أن يدرك عظمة و قيمة هذا الدين إلاّ إذا أدرك ذلك الركام الهائل من الفساد و الانحلال في مختلف مجالات الحياة يوم ان اختارت البشرية منهجاً غير دين الله يقود حياتها و ينظم علاقتها بين الانسان و الكون والحياة ..

فالاسلام الذي يتم به اصلاح المجتمع الانساني و مكافحة الفساد لابد أن يستوعب من العناصر ما يسيطر به سيطرة تامة ...

أولاً : على النفس الانسانية في بواعثها و غاياتها.

ثانياً : على المجتمع في معاملاته و نظمه.

ثالثاً : على الحياة في نشاطها العمراني و الاقتصادي.

وعلى هذا الهدف جاء هذا البحث المتواضع ليقف مع غيره من البحوث والدراسات التي تلتقي في هذا الجمع الكريم لاظهار خصائص الاسلام العامة والعمل على آليته لتحريك هذه الخصائص لتكون في عالم الواقع و في الحقيقة ان الجانب الانساني فيه من أهم الخصائص التي يحتاجها في عصرنا هذا و ذلك بالنظر الى الفساد والانحراف والتدني الذي هبطت اليه الانسانية بعد فقدان المنهج الصالح لانقاذها بالانسانية غاية ضمن خصائص الاسلام العامة وعلى أساس هذه الغاية تأسست منه أوصرة النوع الانساني لانه من مصدر واحد ومن أصل واحد ومن هنا كان الانسان في حد ذاته و بمعناه الصحيح و حيثما كان قيمة كبرى بل ومن أجل القيم .

فالعناية به و اصلاح المجتمع الذي يعيش فيه وسلامة أمنه واستقراره وسعادته كما أراد الله عز وجل هو مطلب هذا البحث الذي بدأ بتعريف مفهوم الانسان في الفكر الانساني وفي القرآن ثم بصور من المجتمع الانساني وفق هذين المفهومين وانتهى بوسائل العلاج والاصلاح التي يجب أن تؤخذ بيد العناية والاهتمام حتى: يتحقق البعث الاسلامي من جديد في اصلاح المجتمع الانساني و مكافحة الفساد.

فان الحديث عن اصلاح المجتمع الانسان يجب أن يسبقه الحديث عن مفهوم الانسان الذي به تكون المجتمع، و لا يسع المقام هنا لبسط الحديث عن هذا المفهوم ولكن أشير اليه على وجه الاجمال ليكون مدخلاً للحديث عن المجتمع الانساني.

وقضية خلق الانسان و عناصر تكوينه و مبدأ نشأته قضية غيبية لا يمكن أن يهتدي اليها الانسان بمفرده لانها فوق مستوى العقل ولذلك تكفل الله بتعليم الانسان

كيفية خلق الانسان و بيان المهمة التي وجد من أجلها.

١ - تصور الانسان في الفكر الانساني

ويوم أن أراد الانسان أن يعتمد على عقله في مبدأ الخلق وأصل الوجود فقد وصل الى نتيجة اسطورية ليس لها واقع علمي هي : (الطبيعة الخالقة أو الخلق الذاتي وصارت هذه الاسطورة علماً يتداوله العلماء بغير برهان علمي، في الوقت الذي يرفضون فيه رد الامور الى الله بحجة عدم وجود برهان علمي على وجوده أو تدبيره لشئون الخلق .

و أعجب إن شئت لسريان هذه الاسطورة في عصر العلم و أعجب أكثر من أن العالم إذا ذكر الله في البحث العلمي سقط من أعين العلماء، و صار مضغة في أفواههم يتندرون بجهله وسذاجته وعدم علميته وعدم موضوعيته و تعلقه بالغيبيات فاذا ذكر الطبيعة رفعوه بذكرها و خروا لها ساجدين و صدق الله العظيم :

﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾[١].

ومن الاسباب الرئيسية التي من أجلها رفضت العقلانية التجريبية أن تعترف بوجود الله أو تعترف بالهيمنة على الكون هي أن الله ﴿لا تدركه الأبصار﴾[٢] وأنه قضية غيبية لا تدخل في عالم الحس . فما الطبيعة الخالقة ؟ هل تدركها الابصار ؟ أم أنها قضية غيبية لا تدخل في عالم الحس ؟ ان الذي تدركه الابصار هو الطبيعة المخلوقة لا الطبيعة الخالقة وهذه لا يختلف وضعها سواء آمنا بالله الحق . أم آمنت الجاهلية بالاهها

---

١) سورة الزمر : الاية ٤٥ .

٢) سورة الانعام – الاية ١٠٣ .

الزائف، فبأي حجة يحتج عصر العلم إذا وقع في أساطير الالحاد وخرافاته؟

على أن القضية لا تقف في خطورتها عند هذا الحد وهو خطير في ذاته انما تتعداه الى آثاره الكثيرة في حياة البشرية، فما من (وهم) في تاريخ البشرية كان له من الآثار المدمرة مثل ماكان من آثار هذا الوهم الذي اعتنقته الجاهلية المعاصرة لتسند به الحادها و تحللها و تفسخها..

فقد استندت اليه بادئ ذي بدء لتواجه به طغيان الكنيسة، و تسند به تمردها على ذلك السلطان فاذا به يهوى بها في مهاو من الفساد الفكري والفساد الخلقي لا يحصيها الحصر.

و نظرة سريعة الى المجتمع الغربي بعد الحاده بالله و اعطائه الشرعية للفساد الخلقي والفوضى الجنسية كفيلة بأن ترينا كم كان لانكار وجود الله و نفى الغائية من خلق الانسان من نتائج خطيرة ومثيرة أقلها انتشار الامراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والانتحار والخمر والمخدرات و الجريمة .

فالانسان بغير الايمان بالله واليوم الآخر و بان هناك غاية من خلقه لابد أن يصل الى العبثية التي عبر عنها شاعر جاهلي معاصر فقال :

جئت لا أعلم من أين ولكن أتيت   ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت

٢ – حقيقة الانسان في الاسلام[١]

أما كلمة الاسلام في الانسان فانها تتجلى في جملة من المواقف تظهر منها روعة هذا الدين وهو يتصدى الى كل المفاهيم المغلوطة، و يبين الفرق بين الحق والباطل

---

١) رؤية اسلامية لاحوال العالم المعاصر – محمد قطب ط . ١، ١٩٩١ م ، مكتبة السنّة القاهرة ص ٣٥ وما بعدها بتصرف .

ويكشف السليم من السقيم و يضع الموازين بالقسط، لأن المعايير و الموازين إذا اختلت لا يمكن الاحتكام اليها لأنها لا توصل الى نتيجة مرضية، والناظر لأحوالنا المعاصرة و المتأمل في أوضاعنا القائمة يرى أمثلة متعددة على هذا الاختلال وذاك الفساد وخاصة في النظر الى الانسان في العصر الحديث .

و موقف الاسلام في الكشف عن أسرار خلق الانسان و بيان حقيقته و المهمة التي خلق من أجلها و الغاية التي ينتهي إليها واضحة كل الوضوح، فهي من القضايا التي تكفل الله بتعليمها للانسان عن طريق الوحى مثل غيرها من الامور الغيبية كحقيقة الالوهية و حقيقة الخلق و حقيقة اليوم الآخر والتشريع والمنهج كحقيقةو اليوم الآخر والتشريع و المنهج الذي يحكم الحياة، فهذه لايقدر العقل أن يحكم فيها أو يجرب قدرته فيها يخطىء أو يصيب .

وقد ترك للعقل مجاله كالتعرف على السنن الربانية التي تحكم الحياة البشرية لتنظيم الحياة بمقتضاها، والتعرف على السنن الالهية التي تحكم الكون المادي لتحقيق ما سخره الله من طاقات السماوات و الأرض لتحسين الحياة وتجميلها والارتقاء فيها.

والحديث عن حقيقة الانسان كما يعرضها القرآن الكريم نرى أنه يقدم أنماطا من نماذج النفوس البشرية على نطاق واسع يشمل كل أنماط النفوس البشرية أو اصالتها الفطرية، وفي حالاتها المنحرفة كذلك في هداها و في ضلالها، في رشدها وفي غيها، في استقامتها وفي اعراضها، في قوتها وفي ضعفها، في سرها وفي علانيتها في فرديتها و جماعيتها، وفي شتى صورها و أشكالها و أوضاعها و أحوالها.

يعرض ذلك كله في حيز من التعبير يستحيل - لو لم يكن من عند الله - أن يسع هذا الحشد الكبير من الأنماط والنماذج والأحوال والأطوار، و أن يصوره في دقة وعمق

لا يبلغهما الاسلوب البشري ولا في اضعاف هذا الحيز من التعبير .

وفي بيان حقيقة الانسان في القرآن الكريم أنه مخلوق خاص لمهمة خاصة ذو كيان متميز تميزه عناصر تكوينه و مزود بخصائص منها:

ـ الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة، و مجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها و الاستجابة لها، ومن مجموع انفعالاته و استجاباته يتألف نشاطه الحركي للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته .

ـ ومن خصائصه انه كانه كريم على الله، ذو مركز عظيم في تصميم الوجود ـ على الرغم ما في طبيعته من الضعف والخطأ والقصور ـ واستعداده لحمل أمانة الاهتداء استحق تكريم الله له بارسال رسله و رسالاته إليه .

ـ ومن خصائصه أن يتعامل مع الكون كلّه ومن فيه وما فيه، وهو يتعامل مع ربه ومع الملائكة ومع الجن و الشياطين، ومع نفسه ومع سائر الاحياء الكونية ومع طاقات الكون الظاهرة والخفية وهو مهيأ للتعامل مع كل ذلك بما ركب فيه من روح وعقل و حواس و قوى و طاقات تناسب ازدواج عناصر تكوينه .

ـ ومن خصائصه استعداده ـ حسب تكوينه الذاتي ـ لأنه يرتفع الى أرقى الملائكة المقربين أو ينحط الى أدنى من دركات الحيوان البهيم، وذلك حسب مايبذله من جهد في تزكية نفسه أو اهمالها و حسبما يتلقى من عون الله و هداية ورعاية بسبب ما يبذله من جهد و رغبة في الارتباط بالله والاستقامة على منهجه .

ومن أجل ذلك وغيره فهو أعجب كائن و أغرب جهاز، يحتوي على هذه

الاستعدادات المتباعدة الآماد ولا نعرف ان هناك كائناً آخر له هذه الخصائص[١].

والاسلام حين يبين حقيقة النفس الانسانية فانه لا يجانب الواقع الذي يعيشه فهو يحشد له كل التقدير وأرقى مراتب الاكرام والاحترام ولايحتقر دوره الايجابي في الأرض ولا يهدر قيمته في أية صورة من صور حياته ولا يهمل دوافعه الفطرية فالانسان في التصور الاسلامي هو هذا الكائن الذي يدب على هذه الأرض بفرديته العميقة وجماعيته العميقة كذلك، بحوافزه الفرديةالتي لابد أن تراعى و أن تلبى، وحوافزه الجماعية التي لابد أن ترى و تربى ... بكينونته هذه المزدوجة الممتزجة المتنوعة الطاقات، والاستعدادات الجسمية والعقلية الروحية التي لا تنفصل ولابد أن تراعى و تلبى .

ومن أجل ذلك يأخذ الاسلام بيده ليرتفع به الى أقصى درجات الكمال المقدرة له بحسب تكوينه، و يضع له المناهج التي يتعامل معها وهو فرد، و يتعامل معها وهو عضو في جماعة، ومن خلال هذا المنهج استطاع الاسلام أن يصل بالناس في فترة من الفترات الى منزلة لم يبلغ اليها البشرية قط إنها فترة الخلافة الراشدة التي لم يعرف التاريخ أكمل و أجمل في جميع النواحي من تلك الفترة، فقد تعاونت قوة الروح والاخلاق والدين والعلم والادوات المادية في تنشئة الانسان الكامل وفي ظهور المدينة الصالحة كانت حكومة من أكبر حكومات العالم، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها، تسود فيها المثل الخلقية العليا وتحكم معايير الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة، و يساير الرقي والروحي اتساع الفتوحات ... وتحسن علاقة الفرد بالفرد والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد وهو دوركمالي لم يحلم الانسان

---

١) الانسان في القرآن الكريم د . محمد بن لطفي الصباغ – المكتب الاسلامي ط ١ - ١٩٩٢ ، بيروت ص ١٥ ، ومابعدها بتصرف .

بأرقى منه، ولم يفترض المفترضون أزهى منه .

فالاسلام هو رسالة الانسانية لأنه وحده فقط القادر على بناء انسان قوي متوازن متكامل الشخصية : يمشي على الأرض و يتطلع الى السماء، يعايش الواقع و يرنو الى المثال، يعمل للدنيا ولا ينسى الاخرة[1]، يجمع المال، ولا ينسى الحساب، يأخذ الحق ولا ينسى الواجب، يتعامل مع الخلق ولا ينسى الخالق، يعتز بماضيه ولا ينسى حاضره و مستقبله، يحب قومه ولا ينسى بني الانسان يصلح نفسه ولا ينسى اصلاح غيره، يهتدي و يهدي، يأتمر و يأمر و ينتهي وينهى، فهو دائماً داع الى الخير، آمر بالمعروف ناه عن المنكر، حافظ لحدود الله، يتواصى مع سائر المؤمنين بالحق والصبر كما أمر الله : ﴿ والعصر إن الانسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا و عملوا الصالحات وتواصوا بالحق و تواصوا بالصبر ﴾[2].

٣ - صورة المجتمع الانساني المعاصر :

قبل وصف العلاج في كيفية اصلاح المجتمع الانساني و مكافحة الفساد نحتاج الى تشخيص حالة المجتمع و معرفة نوع الفساد و أسبابه وقوة انتشاره و مدى خطورته حتى يكون الدواء على قدر الداء .

في الوهلة الأولى يبدو أن الانسان قد بلغ ذروة التقدم و أنه أدرك موقعه من الكون وقد أخذ يفسر الحقيقة مستخدماً منطقه و معرفته الحسيّة و ثقته بالعقل وقوى العلم والتكنولوجيا ومن أجل ذلك ترك صلته بالتقاليد وبالحقيقة المنزلة و بضروب الهداية

---

١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - لابي الحسن الندوي - ط ٦ دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٦٥ ص ١١٧ .

٢) سورة العصر ، كاملة .

الاسلام حضارة الغد . د . يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة ١٩٩٥ ص ١٦٧ .

كلها الخارجة عن نطاق ذاته.

هذا هو مكمن الخطر في المجتمع الانساني المعاصر ولا يقتصر ذلك على مجتمع معين في مكان محدود فالازمة التي تواجه الانسان المعاصر عالمية و شاملة لأنـها تتخلل جميع أنسجة العلاقات و المؤسسات الانسانية و تفدسها ... وليس في وسع أي مجتمع انساني أو فرد أو ركن من أركان الأرض مهما كان نائياً ومنعزلاً ومهما بلغ من قوة و موارد أن يهرب من الفوضى التي تفعل فعلها المعمورة بكاملها.

و وصف أحد الباحثين في التاريخ المعاصر أزمة هذا العصر فقال:

(إن الازمة الانسانية المعاصر على درجة من العمق والشمول بحيث أن كل محاولة لتحليلها ناهيك عن حلها ـ تبدو عصية على قدرة العقل والتصور الانساني وهـا هـي المعركة من أجل البقاء يخوضها الآن ملايين البشر الذين يتصف وجودهم المتقلقل بالفقر والقذارة وحتى الجوع و تترك محنة الانسان بصماتها على مستقبل أمم بأسرها يتهددها العدوان الخارجي والتمزيق الداخـلي، وتسيطر هـذه المـحنة عـلى شـبكة العلاقات الدولية الضخمة التي تقوم على بنيان هش الميزان الرعب، الخطر والمهزوز).

و يقول أيضاً :

(ولعل أفضل وصف يمكننا أن نطلقه على الازمة العالمية هو أنها خلل أساسي في التوازن يقيد بشدة قدرة البشر على التكيف البيولوجي والثقافي مع بيئتهم، وقد يؤدي هذا الخلل الى القضاء على هذه القدرة في نهاية الأمر ... ومن أكثر أنـواع السـلوك الاجتماعي شيوعاً في المجتمع الصناعي الحديث هذه المظاهر وهي:

ـ الانهماك في الامتلاك والاكتساب بدلاً من الاحساس بالوجود والاستقرار.

ـ الافتتان بالحصول على القوة من أجل السيطرة بدلاً من التحرير.

ـ الشعور العميق بالعزلة بدلاً من المشاركة في واقع اجتماعي أوسع.

ـ الاتجاه نحو جعل أوقات العمل و أوقات الراحة وسيلة لقتل الوقت بدلاً من قضائه في حياة مبدعة والعيش وسط مجتمع فاضل .

ـ الميل لحل الصراعات عن طريق استخدام القوة أو التهديد بها بدلاً من التعايش السلمي والمنفتح مع الآخرين .

وبهذا السلوك القليل أصبح مجرد بقاء الحياة البشرية، وليس نوعيتها فقط، في خطر .

و سيبدو أنه من أجل البقاء على التطور العضوي للجنس البشري لابد من تطوير منظورات و ردود جذرية و عالمية)[١].

وهذا النداء الذي ينتهى به هذا التحليل يجب أن يصل الى أسماع الامة التي تحمل معها هذا التطوير و العلاج الجذري لانقاذ ما يمكن انقاذه من أجل البقاء على الجنس البشري الى أن يرث الله الارض ومن عليها.

وفي تقرير آخر صادر عن نادي روما عام ١٩٩١ م يقول:

يبدو أن البشرية واقعة في أسر شعور بانعدام اليقين في آخر هذا القرن وعلى عتبة قرن جديد، إلاّ ان نهاية الالف الثاني بعد الميلاد تجلب في ثناياها مسحة أعمق من الغموض بما يلازمها من احساس بالتغيير السريع وما يرافقه من شكوك.

ويعترف التقرير أن أكثر من ٢٠ ٪ من سكان العالم يعانون من الامراض الخطيرة و يركز التقرير على الوضع المعاصر فيه شعور بأن البشر في لهائهم وراء المكاسب المادية عن طريق استغلال الطبيعة انما يسرعون نحو دمار هذا الكوكب ذاته.

وفي معرض تصويره لطبيعة التحدي و مداه يقول التقرير:

---

١) الحضارة في أزمة: آفاق انسانية في عالم متغير – جوزيف كاميللرى .

(لم يحدث من قبل في التاريخ ان واجه الجنس البشري هذا العدد الكبير من التهديدات والاخطار، وبعد أن قذف به، دون أن يكون مستعداً في خضم عالم تلاشى فيه الزمان والمسافات، وقع الانسان في براثن دوامة عالمية ناجمة عن عوامل غير مترابطة على ما يبدو، و تشكل أسبابها و نتائجها تيها لا سبيل الى الخروج منه في نهاية هذا القرن، وقد غرق في لجج ظاهرة تنتابه من كل حدب و صوب، لقد غرق - وليس في هذه الكلمة من مبالغة هنا - لان البنى والمؤسسات التقليدية لم تعد قادرة على مواجهة المشكلات في بعدها الحالي ، ومما زاد الوضع سوءاً ان البنى غير الملائمة التي عفا عليها الزمن محاصرة بازمة خلقية حقيقية.

فهناك اختفاء لنظم القيم، و تسأول حول التقاليد وانهيار في العقائديات، و غياب للرؤية العالمية ومحدودات الممارسات الديمقراطية الراهنة، وكلها تؤكد وجود الخوء الذي يقف للمجتمعات بالمرصاد، و يشعر الافراد بالعجز وكانما أخذ بخناقهم ظهور أخطار لم تعرف، و عجز عن اجابة تأتي في وقتها الملائم عن مشكلات معقدة و تتصدى لجذور الشر وليس لعواقبه فقط)[1].

٤ - صورة الاسرة في المجتمع الانساني المعاصر

أما على مستوى الاسرة التي هي الاساس في بناء المجتمع لأنها مستقر الانسان الذي يجد فيه الاستقرار والراحة والأمان وذلك احساس فطري لا يتحقق للانسان إلاّ في أسرة قائمة على المودة و الرحمة لأنها تتألف من أفراد متقاربين تجمعهم أواصر القرابة والنسب وهي المحضى الطبيعي الذي أوجده الله في الفطرة لتنشئة أطفال أسوياء يعمر بهم وجه الأرض، هذا ما يجب أن تكون عليه .

---

١) المصدر السابق ص ٦١٩.

ولكن واقع الاسرة في المجتمع الانساني المعاصر قد وصلت الى وضع خطير فقد جاء في بعض المصادر التي صنعت صورة المجتمع الحديث قولي:

(يجب وضع النساء بين سن العشرين والأربعين في غرف خاصة مع رجال بين سن خمس وعشرين وخمس و خمسين، والاطفال الذين يولدون نتيجة لذلك ينبغي تربيتهم و تعليمهم في معاهد الدولة ولا يسمح لهم بمعرفة آبائهم و أمهاتهم، ويسمح بالعلاقات الجنسية للنساء اللاتي يقل عمرهن عن عشرين سنة والرجال الذين يزيد عمرهم عن خمسين سنة ولكن نتيجة هذا الحب يجب ازالتها، و إذا ولد طفل من هذه العلاقة فيجب تركه حتى يموت جوعاً فالحياة الاسرية والحب الاسري لابد من ازالتهما)[1].

و يقول آخر:

(لكي يتم تحرير النساء لابد من تحقيق الشرط الأول لذلك وهو ادخال جميع النساء في النشاط العام، وهذا يعني الغاء الاسرة المنعزلة كوحدة اقتصادية اجتماعية .. و بتحويل وسائل الانتاج الى الملكية العامة تتوقف الاسرة عن أن تكون الوحدة الاقتصادية للمجتمع، و تصبح ادارة البيوت صناعة اجتماعية فتعليم الأطفال والعناية بهم يصبح شأنا من الشوون العامة .. و يرعى المجتمع جميع الاطفال بالتساوي سواء كانوا أبناء شرعيين أو غير شرعيين)[2].

وكاتبة أخرى تقول:

(ستظل المرأة مستعبدة حتى يتم القضاء على خرافة الاسرة و خرافة الامومة

---

١) الاسلام بين الشرق والغرب – على عزت بيجوفيتش – ط ١ ١٩٩٤ موسسة العلم بيروت – نقلاً من (جمهورية افلاطون) ص ٢٥٦.

٢) المصدر السابق. نقلاً عن (انجلز) ص ٢٥٧.

والغريزة الأموية)[1].

وكتابات و أقوال كثيرة في هذا الجانب النظري فقط لكان أهون ولكن الواقع الانساني المعاصر يفعل ذلك و يعمل على تطبيق هذه الاقوال النظرية: فقد كان الرجل أول من هجر الاسرة ثم تبعته المرأة وأخيراً الأطفال فقد جذبت الثورة الصناعية الرجال من القرى و الأرياف الى المدن الصناعية و فرحوا أول الأمر بالحرية والانطلاق من قبضة رجال الاقطاع ولكنهم وجدوا أنفسهم في عبودية جديدة لأصحاب رؤوس الأموال يشغلونهم فوق طاقتهم ويعطونهم من الاجر ما لا يسد رمقهم فضلاً عن أن يكونوا به اسرة أو ينفقوا على أسرهم التي تركوها، ثم وجدت نساء في الريف بلا عائل فاضطرت أن تقتفي أثر الرجل الى المدينة لتحصل على لقمة العيش و إلاّ تعرضت لأن تموت جوعاً، وهناك استغلها الرجل أسوأ استغلال فشغلها نفس ساعات العمل وأعطاها نصف الاجر فضلاً عن مساومتها على شرفها لتحصل على العمل وصارت (قضية المساواة) بين المرأة والرجل في الأجر حديث العصر ولم يستجب الرجل في أول الأمر لصراخ المرأة بطلب المساواة في الاجر فأقبل المحامون والكتاب و الخطباء يدافعون عن (قضية المرأة) و نصحت المرأة بأن الظلم الواقع عليها سببه جهلها و جلوسها في بيتها وخضوعها لقوامة الرجل وعدم اشتغالها بالقضايا العامة و عدم مشاركتها في أمور المجتمع فلابد من ازالة هذه الاسباب لرفع الظلم، وتوسعت القضية و طولب بحقها في التعليم و الوظائف والانتخاب والترشيح للبرلمان والولاية العامة، ومن خلال ذلك انفتحت أبواب كثيرة من الشر تولت وسائل الاعلام الترويج لها والدفاع عنها و تقديمها للناس على أنها أخلاقيات العصر

---

١) المصدر السابق نقلاً عن (سيمونه دی بوقوار) ص ٢٥٨ .

الصناعي الحضاري المتطور)[١].

و نستطيع أن نتتبع القضاء على الاسرة في كثير من الجوانب فعدد حالات الزواج في تقهقر متصل مع تزايد في نسبة حالات الطلاق و ازدياد عدد النساء العاملات والزيادة المطردة في عدد المواليد غير الشرعيين.

و في استبيان أجري في فرنسا بين طلبة المدارس كانت الرغبة في الاستقلال والحياة السائبة تاخذ المحل الأول بين الرغبات بينما جاءت الرغبة في الزواج آخر القائمة.

وقد نشر معهد استكهولم للبحوث الاجتماعية نتائج مسح أجراه سنة ١٩٧٢م نعلم منه أن النساء اللائي يذهبن الى دور الدعارة في أكثر الحالات نساء ميسورات الحال، و إنما أصبحن مدمنات للدعارة فقط لانهن يستعذبن هذا الاسلوب من أساليب الحياة السائبة[٢].

و طبقاً لبيانات مستقاة من المجلس الاجتماعي للامم المتحدة يقول:

(إن مشاركة المرأة في الحياة الاقتصادية قد نمت خلال الخمس والعشرين سنة الأخيرة نمواً أكثر مما كان متوقعا لها، ففي سنة ١٩٧٥كانت النساء المشتغلات في وظائف بالعالم ٣٥ ٪ من المجموع الكلي للعاملين ففي الاتحاد السوفيتي ٨٢ امرأة من كل مائة امرأة قادرة على العمل وفي ألمانيا ٨٠ ٪ و بلغاريا ٧٤ ٪ المجر ٧٣ ٪ رومانيا ٧٣ ٪ بولندا ٦٣ ٪ أما في مجموعة الدول التي تشغل انجلترا و سويسرا والنمسا و أمريكا فان حوالى نصف تعداد النساء من العاملات (بين ٤٩ و ٥٢ ٪) ونلاحظ أن نسبة تشغيل النساء أكبر في الدول الشيوعية و ذلك راجع الى موقفها من

---

١) رؤية اسلامية لأحوال العالم المعاصر - محمد قطب - دار السنة ص ٩٣ وما بعدها باختصار.

٢) الاسلام بين الشرق والغرب ص ٢٩٥.

الاسرة ومن توظيف النساء[1].

لقد أحالت الحضارة النساء الى موضوع اعجاب أو استغلال، و لكنها حرمتها من شخصيتها وهي الشيء الوحيد الذي يستحق التقدير والاحترام، هذا الوضع مشهود بشكل مطرد وقد أصبح أكثر وضوحاً في مواكب الجمال أو في مهن نسائية معينة مثل (الموديلات) في هذه الحالات لم تعد المرأة شخصية ولا حتى كائناً انسانياً و انما هي لا تكاد تكون أكثر من (حيوان جميل).

لقد ألحقت الحضارة الخزي بالامهات بصيغة خاصة فهي تفضل على الامومة أن تحترف الفتاة مهنة البيع، أو أن تكون موديلاً أو معلمة لاطفال الآخرين أو سكرتيرة أو عاملة نظافة، انها الحضارة التي أعلنت أن الامومة عبودية، و وعدت بأن تحرر المرأة منها، و تفخر بعدد النساء اللاتي نزعتهن (تقول حررتهن) من الأسرة والأطفال لتلحقهن بطابور الموظفات[2].

وكذلك تسير (بيوت المسنين) جنباً إلى جنب مع (بيوت الأطفال) المحرومين فهما ينتميان معاً الى النظام نفسه وهما في الحقيقة حالتان للنوع نفسه من الحلول فبيوت المسنين و بيوت الأطفال تذكرنا بالميلاد والموت الصناعيين، كلاهما تتوفر فيهما الراحة وينعدم فيهما الحب والدفء وكلاهما مضاد للاسرة وهما نتيجة للدور المتغير للمرأة في الحياة الانسانية وبينهما ملمح مشترك هو زوال العلاقة الأبوية: ففي الحضانة أطفال بلا آباء، وفي دور المسنين آباء بلا أطفال وكلاهما المنتج (الرائع) للحضارة[3].

---

١) المصدر السابق ص ٢٥٩ .

٢) المصدر السابق ص ٢٦٤ .

٣) المصدر السابق ص ٢٦٥ .

تلك صورة سريعة و مختصرة عن حالة الاسرة في المجتمع المعاصر وبعض مظاهر الفساد الذي وصلت اليه وحتى تكتمل صورة المجتمع نستكمل تشخيص بعض الظواهر والحالات الاجتماعية الأخرى وهي في غالبيتها نتيجة لفقدان أو تزعزع القاعدة الاساسية في تكوين المجتمع وهي الأسرة ومن الظواهر الاجتماعية الأخرى في العصر الحديث .

أ - الفساد والتحلل الاجتماعي والاقتصادي

نظام الاسرة في المجتمع الامريكي قد تغير بسبب حجم مشاركة المرأة في سوق العمل فعدد النساء العاملات قد بلغ في التسعينات إلى أكثر من ١٠٠ مليون نسمة سبب الحاجة لتحقيق دخل اضافي أكثر وهذا الأمر قد جلب معه بعض المشاكل الجانبية مثل الاهتمام بالأطفال و زيادة الارهاق النفسي والجسماني على الأب والأم والطفل ومن الأمثلة أن خمسة ملايين طفل يعيشون في معزل و خوف اثناء انتظار عودة آبائهم من العمل و ٤٠ ٪ من الذين يبلغون من العمر ٦٥ عاماً وما فوق يعانون من أمراض جسمية أو عقلية مزمنة، والاتجاه السائد هو تحويل عبأ الرعاية الشخصية الى مركز رعاية المسنين بدلاً من الأهل والأقارب[1].

ب - مشاكل الأطفال والمراهقين

١٠ ٪ من الاطفال يتعرضون للاعتداء الجنسي كل عام، و تعتبر مدارس الاطفال ومربيات الاطفال مسرحاً لهذه الجرائم .

---

١) امريكا تحرق نفسها - مختار خليل المسلاتي - الطبعة الأولى ١٩٩٦ م . نشر مؤسسة الدعوة الاسلامية في الجامعات الامريكية ص ٢٢.

والأغرب من ذلك أن محطة $A\ B\ C$ بثت مقابلة مع أحد الشاذين يدعو لممارسات جنسية حرة مع الأطفال الصغار وهو بذلك يدافع عن نظرة علمية فيها احترام لحرية الاختيار للاطفال وهاجم قوانين حماية الاطفال و اعتبرها نوعاً من الدكتاتورية و فرض الأمر وانتقد الآباء الذين يعاملون أبنائهم بقسوة، و أشار في نهاية المقالة أنه يعرف رجلاً ارتكب هذه الفاحشة مع مائة طفل و طفلة تتراوح أعمارهم بين ٩ و ١٩ عام و بامكانه أن يسمي عشرات الأشخاص على شاكلته، و ذكرت امرأة أخرى في نفس المقابلة انها التقت بشخص آخر زني مع أكثر من ثلاثة آلاف طفل[١].

وفي أمريكا يبلغ عدد الاطفال المفقودين كل سنة ١/٨ مليون طفل وتشير الاحصائيات أن ضحايا الاختطاف معظمهم يباعون في سوق البغاء أو سوق الاطفال السود لعائلات تبحث عن أطفال للتبني .

إن الجيل الامريكي الجديد و خاصة من المراهقين يعاني من مشاكل عميقة هو غير قادر على التعامل مع الضغوط المتزايدة أثناء مراحل النمو المختلفة فأصبح ينظر للعالم المحيط به على انه لاشيء وتقول احدى الدراسات الاجتماعية التي أجريت على آلاف المراهقين ان المشكلة تنحصر في حالات العزلة و عدم وضوح المعايير الاخلاقية وعدم القدرة على التعامل بايجابية مع المجتمع والحياة وهذه كلها تهدد حياة الفرد والأسرة والمجتمع[٢].

و يقول أحد مدراء البيت البديل للمراهقين : ان الآباء يقومون بطرد أبنائهم بشكل متزايد هذه الايام فالآن متوسط عمر الاطفال الذين يستقبلهم الملجأ ١٢ عاماً ... وأحد جوانب المأساة هي تلك الضغوط التي تدفعهم للانتحار والخمر وأعمال

---

١) المصدر السابق ص ٣٥ .

٢) المصدر السابق ص ٤٢ .

العنف وممارسة البغاء[١].

ومن أمثلة ذلك ـ ديفيد يبلغ من العمر ١٦ عاماً يبيع جسده للرجال والنساء منذ زمن بعيد بنيويورك وهو واحد من مليون طفل هارب من عائلته: كانت نصيحته : ابقى في البيت وكن طفلا أقصى مدة ممكنة، لا تنمو بسرعة ولا تحاول أن تنمو.

جني فتاة تبلغ من العمر ١٦ عاماً اختارت أن تكون بائعة لجسدها في الشوارع وهذا لم يكن باختيارها وانما لطبيعة التكوين الاجتماعي الغربي و شكل العلاقات السائدة فيه فتقول:

(إنه عندما يكون الخيار بين الجوع و ممارسة الجنس مع الغرباء مقابل المال فان حرية الاختيار هنا تكاد تكون معدومة).

وليندا تبلغ من العمر ١٤ عاماً هربت من بيتها بسبب اعتداءات والدها الجنسية عليها منذ أن كان عمرها خمس سنوات و تقول: ممارستي البغاء في الشواع أفضل بكثير من السكن مع أبي الذي أشعر بالتقزز منه[٢].

ج ـ أما عن استغلال الاطفال والمراهقين في أعمال الفساد فيقول أحد الكتاب: ان الأمة أصيبت بالفزع بسبب استغلال الأطفال في أعمال مشينة فبعضهم يبلغ من العمر ثلاث سنوات حيث استخدموه في أفلام جنسية و مجلات عارية.

و يقول آخر :

(كل سنة في منطقة لوس انجلس وحدها هناك ما يقارب من ثلاثين ألف طفل ومراهق تستغلهم شركات الافلام الجنسية و المجلات الفاضحة)[٣].

---

١) المصدر السابق ص ٤٢ .

٢) المصدر السابق ص ٤٥ .

٣) المصدر السابق ص ٤٧ .

و اكثر من مليون مراهقة كل سنة، نصفهن يخترن الاحتفاظ بالأطفال والسبب كما بينه استفتاء للرأي اتضح ان ٨٠ ٪ من فتيات الثانوية اللاتي تركن الدارسة قررن الانجاب رغبة في الحصول على المساعدات الاجتماعية[1].

و أما عن المراهقين والانتحار فان الخبراء يلقون باللوم على كثير من العوامل الاجتماعية من بينها ضغوط الحياة والعيش في ألم فهو يدفع مبكراً للاعتماد على نفسه فتصادفه مشاكل الجنس والمخدرات و رفاق السوء و يكتشف متاعب الحياة ليواجهها بمفرده في بيئة مادية منعزلة فيحاول الهروب فيلجأ للانتحار .

و أحد الشباب شنق نفسه على جذع شجرة و ترك ملاحظة تقول: يبدو لي أن الشجرة هي الشيء الوحيد الذي له جذور في هذا العالم[2].

د ـ انتشار الجريمة صارت من ظواهر المجتمع الانساني المعاصر ففي امريكا مثلاً في كل ٢٣ دقيقة جريمة قتل وكل عشر ثوان حادثة سطو على بيت و كل سبع دقائق تغتصب امرأة على ذلك فمن النادر أن تجد امريكي لا يعرف أحد سبق وأن سرق بيته أو تعرض لجريمة عنف . انتشر الارهاب و يبدو ان المواطن على أرض امريكا فقد حقه في أن يشعر بالاطمئنان في بيته و الشارع وإذا لم تتغير الحالة و يتم الاصلاح ـ وليس ذلك إلاّ بالاسلام ـ فإن مولوداً من اصل ٦١ مولوداً سوف يتعرض للقتل في أمريكا، ولهذا بدا كثير من الناس في تعليم وسائل الدفاع عن النفس وشراء صفارات الانذار و تركيب أنظمة حماية البيوت الالكترونية[3].

و ارتفاع نسبة الجريمة والعنف خلال العشرين سنة الماضية يعتبر الصراع رقم

---

١) المصدر السابق ص ٤٨ .

٢) المصدر السابق ص ٥٠ .

٣) المصدر السابق ص ١٠٠ .

واحد (١) للبوليس و كثير من المدن تعاني نقصاً في رجال البوليس نظرا لزيادة نسبة الجرائم فمثلاً استطاع البوليس في احدى السنوات القبض على ٧٣ ٪ من الذين ارتكبوا جرائم القتل و ٥٩ ٪ من الذين ارتكبوا جرائم عنف و ٤٨ ٪ من أصحاب جرائم الاغتصاب و ٢٥ ٪ من أصحاب جرائم السرقة و ١٥ ٪ من أصحاب جرائم السطو على المنازل[١].

و يكفي هذا كموشر خطير على أوضاع المجتمعات الانسانية المعاصرة وماتركته الكثير فما زال هناك الخمر والمخدرات والاجهاض والافلام الخليعة والفقر والشذوذ الجنسي والبطالة والأمراض بأشكالها و الخيانة الزوجية وما خفى كان أعظم.

و أخذت صور الانحراف والفساد للمجتمع الانساني من العالم العربي للأسباب التالية :

أولاً : أن موضوع البحث عن اصلاح المجتمع الانساني، فالقضية قضية انسان أينما كان .

ثانياً : ان المجتمع الغربي صار قبلة لكثير من الانظار و خاصة ضعاف النفوس الذين يتخذونه قدوة و أسوة ومثلاً يتحذى به فخطره أكثر من غيره .

ثالثاً : ان هذا المجتمع له وجود و حضور في كافة أقطار العالم وله تأثير على شعوب الارض و وسائل اعلامه التي ملأت ما بين السماء والأرض .

رابعاً : كثرة المترددين عليه من الافراد والجماعات .

خامساً : توفر الاحصائيات والدراسات الاجتماعية عنه هذا ما لا يتوفر لكثير من

---

١) المصدر السابق ص ١٠٤ .

المجتمعات الاخرى .

وبعد ذلك البيان عن فساد المجتمعات الانسانية وما وصلت اليه من الخراب والدمار أليس فيهم رجل رشيد ؟ هذا ما سنقف عليه فيما يلي:

٥ - عقلاء المجتمع الانساني يستغيثون و يدقون أجراس الخطر

لقد تفاقم الخطر، و تطاير الشرر و أوشك أن يحرق المجتمع الانساني العالمي بأسره انه شرر المادية واتباع الشهوات و آلية الحياة ولم يبق ذو عقل إلاّ أعلن شكواه من هذا البلاء الواقع والمتوقع الظاهر والكامن كمون النار في البركان يوشك أن ينفجر فيأتي على الأخضر واليابس، نعم أعلن العقلاء شواهدهم من مختلف الملل والنحل والأقطار والأوطان يستوى في ذلك العلماء والأدباء والفلاسفة والمفكرون والسياسيون والاداريون، ولكن استشهد هنا بأقوال أهل الغرب وحدهم، لأنه كما وصفت حالة الفساد في ذلك المجتمع فمن الافضل أن يكون الشاهد من أهلها .

يقول ألكسيس كاريل، صاحب الكتاب الشهير ـ الانسان ذلك المجهول :

(ان الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لانها لا تلائمنا فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولت من خيالات الاكتشافات العلمية، شهوات الناس و أوهامهم و نظرياتهم، و رغباتهم، و على الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلاّ انها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا)[١].

و يقول آخر :

(إن الحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الآن تخنق و تعطل التفاعلات الحيوية

---

١) الانسان ذلك المجهول الكيس كاريل - ترجمة شفيق أسعد فريد ، مكتبة المعارف - بيروت ط ١٩٨٦ ، ص ٣٧ .

الضروية لسلامة الانسان العقلية ونحو الامكانات الانسانية .

إن كل المفكرين قلقون على مستقبل الابناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية و محيطية سخيفة عابثة باطلة، نخلقها نحن له بدون أي تفكير ، و أكثر ما يزعج هو علمنا بأن الخصائص العضوية والفكرية للانسان تخططها اليوم البيئات الملوثة، والشوارع المتراصّة والأبنية الشاهقة، والخليط الحضري المتمرد، والعادات الاجتماعية التي تهم بالاشياء، و تهتم البشر)[١] .

و يقول (هنري لنلن) طبيب النفس الأمريكي : (لن نهتدي الى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة، ولن ننهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها، فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك و اضطراد التخبيط وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة، واخضاعها فلن تؤدي هذه العلوم الى تحرير العقول التي ابتدعتها و ابتكرتها بل ستقود حتماً الى انهيار هذه العقول و تعفنها، كما أن هذا التوصيه لابد أن يأتي عن طريق آخر غير طرق العلم أعني طريق الايمان[٢].

و يقول فيلسوف التربية الشهير (جون ديوس):

(ان الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها، ولا تثق بقوة هذا العلم في خلق فيم جديدة .. لهي حضارة تدمر نفسها بنفسها)[٣]

و يعلق جارودي على مؤتمر السكان الذي عقد في القاهرة (٥ - ٣ - ١٩٩٤ م)

---

١) من كتاب الاسلام حضارة الغد - دار القرضاوي ص ١٠١ نقلاً من كتاب انسانية الانسان لبروفسور دينيه دوبو ترجمة صبحي الطويل .

٢) المصدر السابق ص ١٠٤ نقلاً من كتاب العودة الى الايمان ترجمة ثروت عكاشة .

٣) الاسلام حضارة الغد - د . القرضاوي ص ١٠٥ .

فيقول:

(وهكذا يأتي الأغنياء الى القاهرة ليقولوا للفقراء : لا تنجبوا بعدا الآن أطفالاً كي نستطيع الاستمرار في نهبنا و افراطنا)[١].

كتب الرئيس ويسويه يقول:

(ان اختصار المسألة بأسرها هو ما يلي : ان حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية إلاّ إذا استردت روحانيتها)[٢].

و يقول رتشاد نيكسون :

(بلادنا قد تكون غنية بمصادرها وخيراتها، ولكنها فقيرة في روحانياتها، واليوم عدونا يكمن في أنفسنا)[٣].

و أخيراً كلينتون يقول:

(ان مشاكل العنصرية والفقر لا تزال باقية معنا، واليوم أضيفت لها مشاكل المخدرات وتفككت العائلة بمستوى لم تكن تتخيله من عشرين سنة مضت)[٤].

هذه هي شهادات أهل الدار و صرخات المكتويين والمشخصين والمراقبين وأولي الأمر في تلك المجتمعات و استمرار الحال على ما هو عليه يزيد من الفساد ويؤدي الى الكارثة، وفي مواجهة هذا التحدي الحقيقي للبشر لابد أن ينادي أبناء آدم جميعهم ذكوراً و اناثاً بملأ أصواتهم أن المشكلة الحقيقة ليست قضية نظام اقتصادي جديد أو ترتيب سياسي جديد، بل هي قضية نظام عالمي جديد يقوم على

---

١) المصدر السابق ص ١٠٨.

٢) المصدر السابق ص ١١٦.

٣) امريكا تحرق نفسها - مختار خليل ، ص ٧.

٤) المصدر السابق ص ٨.

مفهوم جديد للانسان و رؤية مختلفة للمجتمع الانساني ولابد أن يبدأ أي مسعى للاصلاح أن يستمد إلهامه من الاديان العالمية عامة ومن الاسلام خاصة بتصحيح هذا المنظور[١].

من أجل سلامة الارض و اصلاح المجتمع الانساني ومكافحة الفساد، قد جربت حلول كثيرة شرقية وغربية اجتماعية واقتصادية لأنها من صنع البشر وان انتسبت بعض الحلول إلى الأديان الالهية إلاّ أنها محرفة و مزيفة تدخلت فيها الاهواء والشهوات فكانت وضعية بشرية ومهما أوتي الانسان من فكر و عبقرية فانه بغير منهج الله عز وجل لا يمكن له اصلاح الفساد في الأرض مهما اعتقد أنه سينقذ العالم قال تعالى :

﴿ و إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألاّ إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾[٢].

فأين الامة التي تحمل منهج الله عز وجل و أمانته في الأرض والتي سلمها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مفتاح قفل سعادة البشرية وصلاح حال الدنيا والآخرة ومنحها الله وسام الخيرية في الأرض :

﴿ وكنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[٣].

إنها أمة الخير وخير الأمم بالمنهج الذي يقود الحياة البشرية الى السعادة الابدية ويعالج فساد الكون والحياة والفساد الذي ظهر في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

---

١) الانسان و مستقبل الحضارة – كتاب المؤتمر التاسع – عمان – ص ٦٢٠ .
٢) سورة البقرة / ١١ – ١٢.
٣) سورة آل عمران آية ١١٠.

ولكن هل يقبل العلاج والانقاذ من أمة ينظر اليها العالم أنها لا تملك لنفسها خيراً ولا نفعاً، و تعيش في هامش الحياة ؟كيف يمكن أن نلفت الانظار إلينا ونحن بعد لم نعرف قدر و قيمة ما عندنا .

انه حقاًكما قال الله تعالى:

﴿ والعصر إن الانسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق و تواصوا بالصبر ﴾(١).

فهل تستطيع هذه الأمة أن تقدم الاسلام الى العالم كما أنزل إليها بكماله وجلاله وجماله ليكون هادياً و بشيراً و داعياً إلى الله و سراجاً منيراً، و يرشد الحائرين الى منهج ربّ العالمين و ينقذ البشرية من الظلمات الى النور، وهل تستطيع هذه الأمة أن توصل الحق و المنهج الى الناس كما وصلها من الله عز وجل، و يشهد لها العالم بالفضل والعدل و الخير و بما نشهد به نحن لمحمد صلى الله عليه ويتحقق فينا الوعد الحق.

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا ﴾(٢).

هذا ما يجب عنه الموضوع التالي .

٦ – منهج الأنبياء في الاصلاح والتغيير :

إذا كنا نريد أن نكون خير خلف لخير سلف و نصف الدواء و نقدم العلاج لاصلاح المجتمع الانساني و مكافحة الفساد و انقاذ البشرية و مواجهة التحدى والخراب والضلال الذي يواجه الانسانية ويهلك الحرث والنسل، و ينذرها بالخطر

---

١) سورة العاصر كاملة .

٢) سورة البقرة آية ١٤٣ .

والدمار فلابد من العودة الى المنبع الأصلي والنبع الصافي والمصدر الأول الذي صلح به أمر الدنيا والآخرة، لنقف على الجانب التطبيقي من المنهج النظري الذي نحمله بين أيدينا ونأخذ منه الدرس المثالي والعبرة والعظة والقدوة الحسنة كما قال تعالى:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر﴾[1].

فلا ينبغي أن يحول طول الزمن و بعد المسافة بيننا و بينه، فمهما قطعت الحواجز المادية والمعنوية أو الزمانية والمكانية فسيبقى محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند ربه هو القدوة الحسنة والسراج المنير الى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولنستمع باصغاء الى الأثر السائد الذي يقول : لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح أولها.

فلننظر بايجاز كيف بدأ الاصلاح في بداية نشأة هذه الأمة التي أرداها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس، و مدى تشابه الأوضاع و الأحوال التي كانوا عليها والحال الذي وصل إليه هذا الزمان .

٧ - من الجاهلية إلى الاسلام[2]

بعث محمد بن عبدالله صلى الله عليه و سلم والعالم بناء أصيب بزلزال شديد فإذا كل شيء فيه في غير محله فنظر الى العالم بعين الانبياء فرأى انساناً قد هانت عليه انسانيته فيسجد للحجر والشجر، رأى انساناً فسدت عقليته فلم يعقل الجليات و فسد فكره فيستريب في موضع الجزم و يؤمن في موضع الشك و فسد ذوقه فصار يستحلي

---

١) سورة الممتحنة آية ٦.

٢) أعتمد في هذا العرض على كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - لأبي الحسن الندوي ص ٧٨ وما بعدها من شيء من التصرف والاختصار.

المر و يستطيب الخبيث و بطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم ولا يحب الصديق الناصح .

رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم كل شيء فيه في غير شكله فأصبح الذئب راعياً والخصم قاضياً و المجرم سعيداً و الصالح شقياً و المنكر معروفاً والمعروف منكراً وعادات فاسدة تستعجل فناء البشرية .

رأى معاقرة الخمر و الخلاعة والفجور و الربا والاغتصاب و السلب والنهب والطمع والجشع والقوة والظلم الى حد الوأد و قتل الأولاد (الاجهاض) .

رأى ملوكاً اتخذوا بلاد الله دولا، و عباد الله خولاً .

رأى المواهب البشرية ضائعة لم توجه التوجيه الصحيح فعادت و بالاً على أصحابها وعلى الانسانية فقد تحولت الشجاعة فتكاً وهمجية، والكرم اسرافاً وتبذيراً و الذكاء شطارة وخديعة والعقل وسيلة لابتكار الجنانات والابداع في ارضاء الشهوات .

رأى أفراد البشر كخامات لم تحظ بصائغ حاذق وكألواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة النجاة التي تشق بحر الحياة .

رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راع و السياسة كجمل هائج حبله على غاربه والسلطان سيف في يد سكران يجرح به نفسه ومن حوله، وما أشبه الليلة بالبارحة .

فلو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عامة رجال الاصلاح لاجتهد على اصلاح ناحية واحدة من نواحي تلك الحياة الفاسدة وظل طول عمره يعالج عيباً من عيوب المجتمع .

ولكن نفسية الانسان معقدة التركيب دقيقة النسج، فاذا زاغت أو اعوجت لا يؤثر فيها اصلاح عيب من عيوبها أو تغيير عادة من عاداتها حتى يغير اتجاهها من الشر الى

الخير ومن الفساد الى الصلاح وتقتلع جرثومة الفساد من النفس البشرية التي قد تنبت بفساد المجتمع واختلال التربية كما تنبت الحشائش الشيطانية في أرض كريمة .

ولو كان زعيماً قوميّاً و رجلاً اقليمياً لكون للأمة العربية امارة قوية موحدة وانضمت قريش والقبائل العربية تحت لوائها.

ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث لينسخ باطلاً بباطل و يبدل عدواناً بعدوان، ولم يبعث زعيماً وطنياً أو قائد سياسياً وانما أرسل الى الناس كافة بشيراً و نذيراً و داعيا الى الله باذنه وسراجاً منيراً .

و أرسل ليخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، و يخرج الناس من ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والاخرة ومن جور الأديان الى عدل الاسلام.

فلم يكن خطابه لأمة دون أمة أو لوطن دون آخر ولكن كان خطابه للنفس البشرية والضمير الانساني، فقد دخل الرسول صلى الله عليه وسلم بيت الاصلاح من بابه ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ذلك القفل المعقد الذي أعيا فتح جميع المصلحين، وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه .

لقد كان هذا الانقلاب الذي أحدثه النبى صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين و بواسطتهم في المجتمع الانساني أغرب ما في تاريخ البشر وقد كان هذا الانقلاب غريباً في كل شيء، كان غريباً في سرعته وكان غريباً في عمقه وكان غريباً في سعته وشموله، وكان غريباً في وضوحه وقربه الى الفهم فلم يكن غامضاً ككثير من الفلسفات العقلية، ولم يكن لغزاً من الألغاز ، لقد صنع هذا الاصلاح رجالاً خرج حظ الشيطان من نفوسهم و أصبحوا في الدنيا رجال الآخرة وفي اليوم رجال الغد، لا تجزعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ولا تستجفهم قوة ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وطأ لهم أكناف الأرض

وأصبحوا عصمة للبشرية و وقاية للعالم و داعية الى دين الله، واستخلفهم الرسول صلى الله عليه وسلم في عمله ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين من أمته ورسالته.

٨ - حاجة المجتمع المعاصر للاصلاح

تلك هي البداية التي أرادها الله سبحانه وتعالى لاصلاح الفساد في الأرض في صورتها الواقعية ومثالها الحيّ الذي يجمع بين النظرية والتطبيق والمنهج والحياة، ومن فضل الله على الناس أنه تكفل بحفظ المنهج من أن تصل إليه يد عابثة فيقول:

﴿ إنّا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون ﴾[١].

ليكون مرجعاً و ملاذاً للانسانية إذا ضلت الطريق أو خرجت عن مسارها الصحيح أو انحرفت عن الصراط المستقيم.

إن الانسانية اليوم في حاجة ضرورية لاعادة تشكيلها والقاعدة التي يجب أن ينطلق منها هذا التغيير تبدأ من قلوب الناس و عقولهم و ادراكهم للواقع و مكانهم في الوجود ورسالتهم في الحياة.

والاسلام بما فيه من خصائص الواقعية والانسانية والشمولية قادر على قيادة حركة التغيير الاجتماعي سواء على مستوى الفرد أو المجتمع أو العالم (وتتمثل الاستراتيجية الاسلامية في انطلاقها - لاصلاح المجتمع الاسلامي - من خلق وعي جديد لدى الفرد الذي يجاهد في العمل على اقامة حياة عادلة لا تقوم على النظرة النفعية أو السعي وراء مصالح فرد أو جماعة، بل على فعل ما هو حق و عدل)[٢].

---

١) سورة الحجر آية ٩.

٢) الانسان و مستقبل الحضارة - د. خورشيد أحمد - نشر فى كتاب المؤتمر التاسع لمؤسسة آل البيت - عمان ص ٦٤٣.

والاسلام حين يريد الاصلاح في الأرض فانه لا يحابي أو يجامل أمة دون أخرى أو يدافع عن الوضع الراهن بل هو ينقد الفساد والانحراف والضلال في الحياة الانسانية بما فيها حياة المسلمين، لأن وضع المجتمع الاسلامي الحالي قاصر كل القصور عن المعايير الاسلامية التي يصلح بها نفسه و ينفع بها غيره، وعلى ذلك لا غنى عن تغيير المجتمع الاسلامي حتى يتوافق مع منهج الاسلام وتستطيع بعد ذلك اقامة المؤسسات الاصلاحية التي تقيم العدل والحق والفضيلة في العلاقات الانسانية .

٩ – وفي هذا المجال يعبر الشيخ محمد الغزالي عن موقفه من الحضارة المادية المعاصرة وينقد الوضع الذي وصل اليه المجتمع الاسلامي ويعاتب من يملكون وسائل الاصلاح ولكن لا ينتفعون بها لانفسهم ولا ينفعون بها غيرهم فيقول:

(أريد أن أذكر الحضارة الحديثة بما لها و ما عليها، لاوكس ولاشطط وقد علمنا كتابنا إذا حكمنا بين الناس أن نحكم بالعدل، فلا يجوز أن ننحصر في جانب مظلم وننسى الجانب الآخر المضيء، أنا واحد من أهل الأرض الذين ينتفعون بثمرات هذه الحضارة في مأكلهم و مشربهم وصحتهم و مرضهم و سفرهم و مقامهم، ولا أنسى في طفولتي و صباي كيف كنا نطعم بأعواد الحطب، وكنا نقرأ على مصابيح الزيت وكنا نستخدم في تنقلنا الخيل والبغال وا لحمير ... صحيح ان الناس كانوا أطيب أخلاقاً و أكثر تعاوناً وأبعد اثرة ... و اناكنا نعمر المساجد بدءاً من غبش الفجر حتى أول الليل بعد صلاة العشاء ... ليكن ! فما يمنعنا من اداء حقوق الله ! إذا تمهدت مرافقنا وكثرت مرفهاتنا ! أما نؤدي لله حقه إلاّ ونحن متعبون ؟

إن الحضارة الواقدة حملت طبيعة الأرض التي جاء منها وهي أرض لا تحسن معرفة الله ولا تجيد القيام بحقه، و لم تسعد بالوحي الخاتم الذي يجعلها تكرم الروح

والجسد وتوفي للدنيا والآخرة، فلماذا لا نحسن نحن التوفيق بين الارتقاء المادي والمعنوي ونضم الى حركة العقل المتطلع حركة القلب الذاكر لربه المقر بعبوديته الموقن بأنه سوف يلقاه يوماً..

ان الحضارة الحديثة أماطت اللثام عن عظمة الكون الكبير، فلماذا عجزنا نحن - بالمنطق نفسه - أن نقول لهم الله أكبر ؟ أجل، إذا كان الملكوت ضخماً فخماً فمليكه أجل و أعظم .

ان السيادة في الدنيا و السوخ في علومها شرط لكسب الحياة والصدارة فيها، ولما صرنا هملا على ظهر الأرض وقعت أعاجيب، فان أربعة ملايين يهودي هزموا مائتي مليون عربي ... ان فقه الحياة في الفكر الديني من الاسس الاولى، كان داود - عليه السلام - فنانا يتغنى بأمجاد الله وكان في الوقت نفسه صانع أسلحة و فارس قتال ، قال تعالى :

﴿ ... و ألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴾[1].

والقتال في العصر الحديث يتطلب تفوقاً في علوم البر و البحر والجو، فهل هذا التفوق شذوذ في البيئة المؤمنة ؟ أم كان ظاهرة من ظواهر الايمان الحق تلحظها في سيرة ذي القرنين الذي سمع شكاية شعب متخلف بائس يشبه شعوب العالم الثالث في عصرنا فقال له في رسوخ واقتدار :

﴿ فأعينوني بقوة أجعل بينكم و بينهم رد ما آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين

---

١) سورة سبأ - الآيتان ١٠ - ١١.

الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال: آتوني أفرغ عليه قطراً ...)[١].

وهكذا بقدرة رائعة استطاع الرجل الصالح أن يصنع سداً يمنع الاعداء يشبه خطوط ماجينو وكفريد وبارليف التي صنعها الفرنسيون والالمان واليهود هل أولياء الله يجب أن يكونوا آخر من يفقه أسراره في ملكوته و آياته في كونه هل هذه الاسرار و الآيات حكر على أعداء الاسلام وحدهم ؟

ان القصور الاسلامي في هذا المجال فضيحة دينية و دنيوية يجب أن تمحى وأن تستغفر الله منها .

فالايمان المفهوم من القرآن الكريم هو ايمان النظر والتأمل في الكون والسياحة في ملكوت السموات والأرض ... إنّ الله يجب أن يتحدث عنه عالم به.

﴿ الرحمن فاسأل به خبيراً ﴾[٢].

فهل الامة التي يأتيها رزقها من ملاك الأرض وغزاة الفضاء تدري عن ربها شيئاً ذا بال ؟ انها لا تعرف ما حولها فكيف تعرف ربّ المشارق والمغارب ؟ فما الذي أوصل المسلمين الى هذا الحد ؟ و أسكنهم منازل الهوان ؟ فالمسلمون في الأغلب فقراء وجل دولهم ترزح تحت ديون ثقيلة والأنظمة الشائعة بينهم لا تؤذن بزوال هذا البلاء، والمحزن انّ هذا الفقر ليس طبيعة الأرض التي عليها، فالأمة الاسلامية تسكن أخصب البقاع و أحفلها بالخير و أجودها موقع، ولكن الفقر من صنع أيدينا وثمرة مرة لهم قاعدة و نظم فاسدة و الاسلام بريء من هذه الديون ومن البأساء التي دفعت

---

١) سورة الكهف ، الايتان ٩٥ ، ٩٦ .

٢) سورة الفرقان آية ٥٩ .

اليها[١].

١٠ - و حتى يصل المجتمع الاسلامي الى المستوى المطلوب الذي يستطيع فيه أن يقوم بدوره القيادي و يكون شاهداً على الناس وحارساً على الحق والعدل والخير والأمن والسلام في العالم فعليه بتحقيق عاملين أساسيين لابد منهما وكلاهما يضارع الآخر في القوة و اليقظة ..

الأول : داخلي .

الثاني: خارجي .

وفيما يلي بيانهما :

أولاً - العامل الداخلي:

وهو الذي يتحرك و يعمل في داخل المجتمع الاسلامي ويقوم على الأسس التالية:

١ - العقيدة الاسلامية الصحيحة :

هذا هو الاساس الأول الذي يقوم عليه بناء الانسان السليم و صلاحه في الحياة.

(فالايمان بالله، والاعتماد عليه والارتباط به وحده على أوثق ما يكون هو الذي يكوّن بداية اصلاح اجتماعي رفيع، وهو الذي يصلح أن يقيم مجتمعاً سعيداً لا يشقى، قوياً لا يقهر، آمنا لا يفزع ولا يخاف)[٢].

وتوحيد الله عزل وجل هو الاساس الذي تقوم عليه نظرة الاسلام الى العالم وخطته

---

١) نحو حضارة اسلامية - للشيخ محمد الغزالي - بتصرف نشر في كتاب المؤتمر العام التاسع - عمّان - يوليو ١٩٩٣ م.

٢) السلوك الاجتماعي في الاسلام . حسن أيوب - دار البحوث العلمية - الكويت . الطبعة الرابعة ١٩٨٥ ص ٣٣ .

في الحياة (فهو يضع قواعد العلاقات بين الله والانسان و بين الانسان و الانسان، وليس التوحيد مجرد قضية غيبية إذ أن الاتجاه الانساني نحو واقع اجتماعي جزء لا يتجزء من هذا الاعتقاد، و يعني الايمان بوحدانية الله وسيادته ان البشر جميعهم متساوون وأن حقوق العباد امتداد طبيعي لحقوق الله)[١].

فاذا اقترب المسلم من ربه بعقيدة خالصة و تضرع اليه و تذلل عنده ليرد عنه العوادي و يصرف عنه الفحشاء والمنكر، و يكشف عنه السوء و يرفع الفتن والمحن و ينقذه مما حلّ به من أخطار فان الله سميع قريب مجيب الدعاء كما قال عزّ وجل:

﴿ و إذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾[٢].

و بذلك يتحرر المسلم من وساطة الوسطاء و شفاعة الشفعاء . والعقيدة الصحيحة ترشد المسلم الى أن الله معه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لا تغيب عنه صغيرة ولا كبيرة، يطلع على السرائر والضمائر .

﴿ سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾[٣].

و بذلك يتحرر المسلم من نفسه فلا تدفعه الاسرار بغدر أو ظلم لان الله يستوى علمه السر والعلن والخفاء و الجهر[٤].

تلك هي بعض صور و نماذج العقيدة الصحيحة التي إذا باشرت القلب تصنع منه

---

١) الانسان و مستقبل الحضارة ، خورشيد احمد ص ٦٢٤.

٢) سورة البقرة آية ١٨٦.

٣) سورة الرعد آية ١٠ .

٤) الاسلام والانسان المعاصر د . محمد ظفر الله خان - دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١ م ص ٢٧٨ بتصرف .

انساناً سامياً في انسانيته مؤمناً كاملاً في ايمانه و صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد و إذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب».

٢ - العبادة والاخلاص لله عز و جل

من تفقد أحوال البشر و أمعن في تعاليم الاسلام أيقن أن شؤونهم لا تصلح إلاّ بـه، وأوضاعهم لا تستقر إلاّ عليه، وأن الاسلام في كل ما يشرع من حكم بين الناس وما يفرضه من العبادات ، وما يحذر منه من المحظورات يهدف الى اصـلاح الانسـان، ويراعي ما يجمع شمله، و يلملم شتاته، و يؤلف بين قلوب أفـراده، و يسـتأصل مـا يورث بينهم البغضاء و الاحقاد والكراهية ... و شعائر العبادة في الاسلام مـن أبـرز العوامل وأقوى الوسائل للتآلف والترابط و التواد و التعاطف بين أفراد الأمة المسلمة الذين يمارسون بأمانة واخلاص نابعين مـن الشـعور بـالمسؤولية أمـام الله سـبحانه وتعالى، ومما يؤكد ذلك الصيغة التعليمية التي جاءت في القرآن لارشادنا في توجيه العبادة الى الله عز وجل ونحن نذكرها في كل ركعة من ركعات الصلاة التي هي أم العبادات و أقدسها تلكم الصيغة هي ﴿إياك نعبد و إياك نستعين﴾ فان ضمير الجمع فيها يبعث في نفس العابد المستعين شعوراً باندماجه مع سائر العابدين الذين يشتركون معه في هذه العبادة.

وإذا كانت العبادات في الاسلام على اختلافها في الكيفية والاداء ذات أثر عميق وتأثير بالغ في سلوك العابد الشخصي ونظامه الاجتماعي فان الصلاة أبلغها أثراً فهي تجتث رذائل النفس وتـغرس فـيها روح الفـضيلة وتــفجر فـيها عـواطـف الرحـمة والاحسان ولذلك كانت أكثر العبادات تكراراً في عمل الانسان.

ونرى بالزكاة و فضائلها أكثر من أن تـحصر وهـي أهـم عـلاج لمـرض نـفسي

اجتماعي يفتك بالاخلاق و يقطع الأواصر و يستولي على العقل والقلب ذلك هو مرض شهوة المال التي قلما تسلم منها نفس، ومن أعظم جرائم هذه الشهوة الخفية السرقة والغش و الربا و أنواع التحايل على جمع المال، بل كثيراً ما تؤدي الى القتل والقطيعة وضروب من الفتن بين الأقربين والأصدقاء المتآخين، فكم من غني جنى عليه ماله فتعرض للقتل أو الضرب من المقربين اليه.

و من شأن الصيام أن يرهف الحس و يرقق الشعور و يذكي في النفس مشاعر الرحمة والاحسان وهو مدرسة يتربى فيها الضمير الانساني و تتهذب النفس وينجلي عنها صفاتها المذمومة وعاداتها السيئة، لأن الصوم ليس مجرد الكف عن المفطرات الثلاث المشهورة ولكنه مع ذلك كف الجوارح واللسان عن قبائح الأمال و الاقوال، والتجرد التام من رذائل الاخلاق، وإن كانت هذه العبادة مفروضة في شهر رمضان المبارك إلاّ أن تعود النفس عليها يجعلها تستمر على هذه الخصال والامال في سائر العام حتى تكون بعد من سجاياها التي جبلت عليها .

أما الحج فانه يتلقى في رحابه ضيوف الله الوافدون اليه من أصقاع العالم وما من بلد فيه جماعة من المسلمين إلاّ و يفد منه وافد لأداء هذه الفريضة، والحج فرصة سانحة للأمة الاسلامية لالتقاء وفودهم في كل عام و تدارس مشكلاتهم في رحاب بيت الله، حيث تصفو الانفس وتسمو الأرواح و تستنير البصائر و تتفاعل الانفس مع ذكريات الماضي العريق من عهد ابراهيم و اسماعيل عليهما السلام الى عهد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليهم وسلم و تربط الأمة بين سلفها و خلفها حتى تكون كحلقات سلسلة يشد بعضها بعضاً، وما أحوج الأمة في هذا العصر الى هذه اللقاءات

التي تمسح الخلاف و ترأب الصدع وتقيم الناس على سواء الصراط[1].

ولا يقتصر مفهوم العبادة في الاسلام على تلك الاعمال الظاهرة فحسب بل هي شاملة لكل ما يمكن ان يسأل عنه الانسان حين يقول: لماذا خلقت ؟

و الجواب عند المؤمنين حاضر لأن كل صانع يعرف سر صنعته ، ولماذا صنعها؟ والله تعالى هو صانع الانسان وخالقه و مدبر أمره، ولذلك بين الله في كتابه الخالد انه خلقه ليكون خليفة في الارض .

﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾[2].

و ليكون عابداً لله عز و جل

﴿ وما خلقت الجن والانس إلاّ ليعبدون ﴾[3].

ومعنى ذلك أن الله خلقنا لمهمة هي أن نكون وكلاء الله فيدور اهتمامنا الأول تنفيذ مشيئة الله، فنحن بمثابة أمناء في كل ما يوجد في الكون بقدر طاقتنا البشرية وبما في حوزتنا من ممتلكات فالعبادة هي الانقياد لمنهج الله تعالى و شرعه و سننه في هذا الوجود وأنه يخضع الانسان في كل أموره لما يحبه الله تعالى و يرضاه من الاعتقادات والاقوال والاعمال وأن يكيف حياته و سلوكه و فقاً لهداية الله وشرعه، فاذا أمره الله تعا لى أو نهاه أو أحل له أو حرم عليه كان موقفه في ذلك كلّه ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا و إليك المصير ﴾[4].

---

١) انظر (عوامل تقوية الوحدة الاسلامية في الشعائر الدينية) لسماحة الشيخ احمد بن حمد الخليلي – المفتي العام لسلطنة عمان – مطابع النهضة – مسقط ١٩٩٠ م من ص ٦ – ٣١ .

٢) سورة البقرة آية ٣٠ .

٣) سورة الذاريات آية ٥٦ .

٤) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

٣ - الاستقامة على الاخلاق الاسلامية

ان أي مجتمع من المجتمعات الانسانية لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء، ما لم تربط بينهم روابط متينة من الاخلاق الكريمة فمكارم الاخلاق لا يستغني عنها مجتمع فاضل، ومتى فقدت الاخلاق تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا و تناهبوا مصالحهم ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار ثم الى الدمار.

كيف يكون انساناً مؤهلاً لارتقاء مراتب الكمال الانساني إذا كانت أنانيته مسيطرة عليه صارفة له عن كل عطاء و تضحية و إيثار ؟

وقد دل الواقع المعاصر - كما سبق بيانه - أن انهيار القوى المعنوية للأمم وانحلال الشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، و متناسب معه، فبين القوى المعنوية والاخلاقية تناسب طردي دائماً صاعدين وهابطين، و ذلك ما دلت عليه التجربة الانسانية والاحداث التاريخية[١].

وإذا كانت الاخلاق في أفراد الأمم تمثل معاقد الترابط فيما بينهم فان النظم الاسلامية قد بلغت في أخلاقها الاجتماعية والفردية مبلغاً من الرقي العظيم، جعلها في مركز القمة بما اشتملت عليه من تفضيلات موثقة للروابط الاجتماعية بين الافراد، ومؤثرة تأثيراً عميقاً في تغذية وحدة الجماعة الاسلامية وتنمية روابط المودة والاخاء بين المسلمين.

و قاعدة الاخلاق الاجتماعية الكبرى تتلخص بأن يعامل الانسان الآخرين بما يحب أن يعاملوه به، انه يحب أن يعاملوه بالعفو إذا أساء، فليكن عفوّاً عن اساءاتهم،

---

١) الاخلاق الاسلامية وأسسها ، عبدالرحمن الميداني ، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة ١٩٩٢ ج ١ ص ٣٣.

ويجب أن يكونوا معه أمناء فليكن أميناً، و يجب أن يصدقوه ولا يكذبوه فليصدقهم ولا يكذبهم، ويحب منهم العفة عن محارمه فليكن عفيفاً عن محارمهم ... وهكذا.

و يكره منهم أضداد هذه الأمور فلا يعاملهم بما يكره أن يعاملوه به . وقد أبان الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القاعدة للاخلاق الاجتماعية بقوله:

«فمن أحب أن يزحزح عن النار و يدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، و ليأت الى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»[1].

و يمكنه ارجاع مفردات الاخلاق على شمولها تحت ثلاثة أصول عامة.

الأصل الاول:

حق الاعتراف بما للغير ولو كان فيه مساس بما يشتهي الانسان نفسه: ويندرج تحت هذا الاصل مثل: الاعتراف بحقوق الله و حقوق الوالدين و أهل الفضل والاعتراف لكل ذي حق حقه مهما كانت العوامل النفسية محرضة على الغمط والجمود .

الأصل الثاني:

حق الأداء الذي كان عليه كاملاً متجاوزاً عوامل نفسه الانانية.

الأصل الثالث:

الرضا والقناعة بما خص الله به عباده دون اعتراض أو حسد[2].

---

١) المصدر السابق ص ٥٧ ، والحديث الشريف رواه مسلم في رياض الصالحين رقم ٦٦٦ .

٢) المصدر السابق ص ٥٢ .

٤ - من العوامل الداخلية لاصلاح المجتمع الاسلامي الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر

من حرص الاسلام على اصلاح المجتمع أن جعل أو طلب من كل مسلم و مسلمة أن يقوم بدور الاصلاح و يجاهد بالقدرة والكفاءة الممنوحة له وفي حدود استطاعته فقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان).

فالرسول صلى الله عليه و آله و سلم يحمل المجتمع المسلم مسؤولية تقويم المنحرفين و حراسة حدود الاسلام بمستويات تتناسب مع مستويات لاستطاعة لكل فرد منهم و هذه المسؤولية دينية واخلاقية معاً فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مساهمة جليلة و خدمة عظيمة في صيانة المجتمع وتقويمه و اصلاحه و حمايته من الانزلاق في مهاوى الردى والانحراف.

و القيام باصلاح المجتمع واقتلاع جذور الفساد والمنكر من مرتبة حسب الاستطاعة والتمكن كما في الحديث الشريف أعلاها التغيير العملي لمن توافرت لديه وسائل النفوذ وهذه مهمة رجال الدولة وأولي الأمر عموماً ورجال الأمن خصوصاً الذين هم سمع الدولة و بصرها فعليها ملاحقة الانحراف والمنكر وتعمل على تنظيف البيئة من الفساد والانحلال بكل مظاهره وفي مختلف ميادينه.

المرتبة الثانية: باللسان وهذه مهمة الدعاة والمرشدون الذين يملكون ادوات التعليم والبيان ولا يملكون السلطة التنفيذ به فعليهم من خلال وسائلهم القيام بواجبهم

في تشخيص الداء والخلل والفساد و وصف الدواء والعلاج المناسب لكل حالة حتى تسير الامور في وضعها الصحيح .

المرتبة الثالثة : بالقلب وهي مرتبة العوام الذين لا سلطة لهم ولكنهم لابد من المساهمة في معرفة المعروف و انكار المنكر وهي أضعف مرتبة و لذلك وصف الرسول صلى الله عليه وسلم انكار القلب للمنكر بأنه أضعف الايمان مع اثباته انه عمل ايماني (وليس دون انكار القلب مرتبة ضعيفة فما دون انكار القلب للمنكر إلاّ الرضى بالمنكر، ثم استحسانه ثم المتابعة عليه و فعله ونشره بين الناس وكل ذلك ليس فيه من الايمان حبة خردل لأنه عمل لا يقتضيه الايمان بحال من الاحوال)[١].

وهنا لابد من تنبيه الى خطأ شائع حول التغيير المنكر بالقلب فكثيرون يظنون أن التغيير بالقلب معناه أن تكره الشر بينك و بين نفسك ولا ترضى عنه بقلبك دون أن يظهر عليك أدنى أثر لهذه الكراهية وعدم الرضا، والواقع أن هذا الفهم تحريف لمعاني الكلمات في اللغة العربية وتحريف لمقاصد الشريعة الاسلامية من حيث اللغة فلأن الانكار بالقلب المجرد عن كل مظهر ايجابي أو سلبي لهذا الانكار لا يسمى تغييراً لمنكر بل يسمى انكاراً للمنكر ولو كان ذلك هو المقصود لجاء في الحديث «فلينكره بقلبه» ويرى بعض العلماء أن المنكر في هذه الحالة قد يظفر بما يسمى اقراراً سكوتياً وتشجيعياً على المنكر .

وأما انه تحريف لمقاصد الشريعة فلأن أبطال الكراهية للمنكر مع بقاء المعاملة لصاحبه على وجه البشاشة والمجاملة والمحافظة على تكريمه واجلاله هذا هو صريح النفاق مع أن الحديث النبوي يجعل تغيير المنكر بالقلب مرتبة من مراتب الايمان[٢].

---

١) الاخلاق الاسلامية – للميداني – ج ٢ ص ٦٥٣ .

٢) علم النفس، نظرة علمية اسلامية. ا . د . محمود عبد المعطي بركات – دار سكرين اجنس . القاهرة

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسس الخيرية لهذه الأمة كما قال تعالى:
﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله ﴾[١].

كما أنه من أسس قواعد التمكين في الأرض كما قال تعالى:
(الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة و أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[٢].

فاذا غفلت الأمة عن هذه الخاصية من خصائص الاسلام التي تعتني بتقويم الانسان واصلاح المجتمع و مكافحة الفساد فان العواقب وخيمة والنتائج فادحة والخطورة الكبرى التي فيها المقت الرباني والعذاب الأليم هما في هذه الطائفة التي قال الله في شأنها:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[٣].

ان هذا التباين بين ما يدعو الانسان اليه من فضائل و بين ما يعمله في ذات نفسه ويمارسه من سلوك تباين يتنافى مع الفضيلة الخلقية والايمانية والاصلاحية .

لأن هذا الانسان اما أن يكون مؤمنا بما يدعو إليه أو غير مؤمن فإن كان غير مؤمن فهو كاذب مراء منافق اتخذ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صناعة يستدر منها مالاً أو جاهاً ولذلك فهو يستحق العذاب المهين، وإن كان مؤمناً بما يدعو إليه من

١٩٨٩ م ص ٢١٦.
١) سورة آل عمران آية ١١٠.
٢) سورة الحج آية ٤١.
٣) سورة الصف الآيتان ٢ - ٣.

خير فهو إذن عالم أحمق لأنه يعرف الخير وينحرف عنه ويعرف الشر وينغمس فيه وما ذلك إلاّ بسبب انهيار خُلقي في نفسه فإما أن يكـون بسـبب الكـبر عـن الطـاعة والمستكبر يستحق العذاب الأليم و إما أن يكون بسبب ضعف الارادة أمام سـلطان الشهوات والأهواء فلوكان صادقاً مخلصاً في عمله ونصحه للناس لاثرت فيه أقواله ونصائحه ومع التكرار يستقيم حاله و يصير مـن الذيـن يـعملون بـما يـقولون، لأن النصيحة الصادقة سلاح ذو حدين: أحدهما يؤثر بالنصاح و ثانيهما يؤثر بالسامع وإن هو استمر في انحرافه فهو انسان تبلد حسه و مات ضميره وتحول الى تاجر أقوال له منها مغانم و منافع دنيوية فتصير أقواله حجة عليه ولا ريب عندئذ أن يستحق العذاب المهين، فقوله تعالى للذين يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي فليس لديكم عقل يعقلكم عن اتباع أهوائكم و شهواتكـم التـي تـزين لكـم الاثـم والمعصية و جحود الحق الذي جاءكم به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم[1].

ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن لم يكن له مهمة صادقة وأثر فعال في المجتمع سواء على مستوى الفرد أو الجماعة فانه لا محالة ينذر بـخراب المـجتمع وظهور أنواع الفجوركما يشير الى ذلك حديث النبي صلى الله عليه و سلم حين قال:

«كيف بكم إذا طغى نساؤكم و فسق شبابكم و تركتم جهادكم ؟

قالوا : وان ذلك لكائن يا رسول الله ؟

قال : نعم ، و الذي نفسي بيده و أشد منه سيكون كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف و لم تنهوا عن منكر؟

قالوا: أوكائن ذلك يا رسول الله؟

---

١) الاخلاق الاسلامية - للمداني ج ٢ ص ٦٥٦ بتصرف و اختصار .

قال: نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون.

قالوا : وما أشد منه؟

قال :كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً و المنكر معروفاً؟

قالوا : أوكائن ذلك يا رسول الله ؟

قال: نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون،

قالوا: وما أشد منه ؟

قال:كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر و نهيتم عن المعروف ،

قالوا: أوكائن ذلك يا رسول الله ؟

قال: نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون .. يقول الله تعالى في الحديث القدسى: «بي حلفت لاتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيرانا»[1].

تلك هي بعض العوامل اللازمة لاصلاح المجتمع الاسلامي حتى يتمكن من القيام بدور السيادة والخلافة في الأرض وهذه العوامل بمثابة كليات عامّة تندرج تحتها فروع كثيرة من أصول و فروع هذا الدين التي تشكل في جملتها الانسان السوّي والمجتمع الصالح الذي يعيش في أمن و أمان و رخاء واستقرار وصلاح وفلاح ونجاح و بالتالي يكون قادراً على تحمل مسؤولية الأمانة التي جعلها الله في عباده الصالحين من العلماء العاملين ورثة الانبياء و المرسلين كلما خلا منهم سلف حميد خرج خلف جديد يحملون راية الحق و كلمة الصدق ونور الهدى الى العالمين ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور، ومن الفساد والفجور الى طهارة القلب وسلامة الصدور من كل الآفات والشرور وصدق الله العظيم :

---

١) رواه أبو يعلى .

﴿ والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا و عملوا الصالحات وتواصوا بالحق و تواصوا بالصبر ﴾[١].

ثانياً - العامل الخارجي

وهو واجب المجتمع الاسلامي في المجتمع الانساني العالمي و دوره في القيام برسالته الحضارية العالمية .

(فالمسلمون مكلفون بهداية الفكر الانساني والقلب الانساني والواقع الانساني في كل موقع من دنيا الناس ! وهل يستطيع ذلك جاهل بقضايا الفكر والقلب والواقع؟

وهل ينجح في ذلك غافل عن سنن الله في الأنفس والآفاق محجوب عن الاسرار والقوى التي أودعها الله بين يديه ومن خلفه ؟

ان عالمية الرسالة تكلف أمتنا كثيرا كثيراً وقد نهض الصحابة والتابعون بهذا العبث فكانوا امتداداً لاشعاع النبوة الخاتمة ثم أخذ الرجال الكبار يقلّون شيئاً فشيئاً حتى كادت الامة تصاب بالعقم و تعاركت البيوت العربية على الجاه و المال و الامارة والوزارة وكان ذلك على حساب هذا الدين و رسالته العالمية حيث غابت حقائق ما كان ينبغي لها أن تختفي عن اهتمام الأمة بهات.

و لنتساءل أولاً : ما القوى التي اعترضت الاسلام أول ظهوره ؟ وماذا عرض لها على اختلاف الليل والنهار؟

ان الوثنية العربية تلاشت في ارجاء الجزيرة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم نفسه وعادت لها صحوة الموت بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ولكن أصحابه و خلفاءه

١) سورة العصر كاملة .

أخمدوا أنفاسها إلى الأبد.

و المجوسية مزقت و الكسروية بادت و القيصرية هلكت و عمّ الاسلام في ربوع الأرض و قضى المسلمون على المستعمرات اليهودية داخل الجزيرة العربية، ولكنهم استأنفوا حرب الظلام بعدما خسروا الحرب المكشوفة، وعادوا بعد أربعة عشر قرناً يصيحون بالثار و يتحدثون عن أرض الميعاد التي كتبت لهم)(١).

و دارت قبل ذلك حروب صليبية و تتابعت الفتن والعقبات على الامة الاسلامية بالغزو الفكري والتبشير والاستشراق والاستعمار الى غير ذلك من وسائل المكر والخداع .

فما هو واجب الأمة الاسلامية الآن بعد هذه التراكمات التي حلت عليها و حبستها في أوكارها .

و يكشف بعضه أعلام الفكر الاسلامي عن السبب الذي وصلت اليه الامة الاسلامية فيقول: ذنبنا الحقيقي اننا لم نكن أوفياء لرسالتنا، ولا جادين في تعرف العقبات التي تعترضها، ولا طبائع الأجناس التي تقاومها ..

هل درس آباؤنا العلاقات بين البوابات والأباطرة ؟ هل درسوا اختلاف الكنائس شرقيها و غربيها وتابعوا هذا الاختلاف بعد ظهور (مارتن لوثر) و انشقاق أتباعه؟

هل درسوا التيارات الفكرية و نزعات الاصلاح الديني والمدني هناك ؟ هل يعلمون شيئاً عن عصر الاحياء، والنقلة الرائعة التي قفزت بها أوروبا من أوج إلى أوج؟

هل درسوا السمات الجديدة للفكر الفلسفي الحديث ؟

هل درسوا النشاط التبشيري بعد كشف الامريكيتين، وكيف انساحت الكثلكة في

---

١) سرّ تأخر العرب و المسلمين – محمد الغزالي – دار الصحوة – الطبعة الاولى ١٩٨٥ م .

أميركا الجنوبية والبروتستانتية في شمالها ؟

هل لفت انتباهم توغل الدب الروسي في آسيا مكتسحاً دار الاسلام و حاملاً الخراب و الكفر الى المدائن والقرى ؟

هل عرفوا لماذا قامت الثورة الفرنسية معلنة ما يسمى بحقوق الانسان ؟ و إن كان الفرنسيون أكذب أهل الأرض في الاعتراف لغيرهم بهذه الحقوق.

ان الدراسات الكونية والطبيعية نقلت العالم من عهد البارود إلى البخار الى الكهرباء الى الذرة الى عصر الفضاء، و المسلمون صرعى ثقافات و سياسات لا تهب حق الحياة والكلام إلاّ لمن يحرق بين يديها البخور .. أهذه أمة تحمل رسالة عالمية ؟ إن الذي يبتغي اصلاح الافكار والمشاعر لابد أن يدرس الفكر في كل قطر، وأن يستبطن أحوال الناس على أمل تزكيتها والتسامي بها.

و إذا لم نكن نعرف أنفسنا فكيف نعرف غيرنا؟

وإذا كنا قد نسينا ديننا فبم نذكر الآخرين ؟

فاقد الشيء لا يعطيه .

ولو كنا على مستوى الاسلام لكان لنا باع طويل في كل فن، ولزاحمنا بالمناكب في كل الكشوف المادية والادبية والعلمية .

إننا بحاجة إلى علماء عمالقة من جميع المعارف الانسانية لا فارق بين منقول ومعقول، ولا بين ماديات و ادبيات ولا بين غيبيات ومحسوسات .

وظيفة أولئك العلماء أولاً: صناعة المجتمع الاسلامي واصلاحه وايقاظه من غفلته بالصور التي أشرت إليها في العامل الأول الذي يمثل المهمة الأولى في اصلاح المجتمع الانساني العالمي ومكافحة الفساد.

ثانياً : النظر في أساليب الدعوة العالمية و طرق شرح الاسلام ـ الذي رضيه الله

للعاملين دينا ـ خارج أرضه و برد الشبهات التي مرد أعداؤه على ترديدها [١].

نقلت ذلك على طوله مع تدخل بسيط، لأنه معبر عما يدور في نفسي عن البحث عن هذا العامل الذي يجب أن يبرز في حياتنا واهتماماتنا، فالنتيجة المنشودة تظهر في العمل على ايجاد الاجابة الايجابية على تلك التساؤلات ، و أن تكون موضع اهتمام الأمة حتى يمكن لها أن تثبت هويتها و تظهر شخصيتها و تقف على قرار مكين أصلها ثابت و فرعها في السماء ينتفع بها الناس في مشارق الأرض و مغاربها يعجب بها كل من أوتي قلباً أو ألقى السمع وهو شهيد، و ذلك لما تفيض به على العالم من خير ومنافع يرتقون به في مستوى حياتهم و يسعد نفوسهم وتحقق لهم راحة البال وسعادة الحال و تتحول من هامش التاريخ الى قمته بل و إلى قيادته و ريادته وتحقق فيهم وعد الله عز وجل.

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ .

فاذا استطعنا أن نتربى على هذه المستويات والتي عرضناها في هذا البحث نكون قد استطعنا أن نخطو بمجتمعنا الاسلامي خطوات واسعة الى الامام لانقاذ البشرية والعالم من براثن الوحل والضلال والظلام والفساد الى خير الايمان و الصلاح والفلاح و النجاح في الدنيا والآخرة وإذا كنا لديننا كما كان سلفنا لدينهم سنصل بديننا كما وصل سلفنا بدينهم، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها و لا سبيل إلى ذلك إلاّ بامتثال الاسلام واتباعه و قبوله كاملاً فهو الدين الذي يهذب الغرائز و يوازن بين مطالب الروح والجسد ويقيم العدل ويهدي الى الصراط المستقيم و ينظم

---

١) المصدر السابق ص ٨١ – ٨٢.

العلاقات بين الافراد و الجماعات والدول والشعوب على أساس من الفضائل الانسانية العالية و يؤيد تحقيق الفضيلة والعدالة والاحترام لكل الناس في مختلف نواحي و مجالات الحياة الانسانية و يؤكد على نزاهة الفرد وكرامته و حقوقه الانسانية ذكراً كان أو انثى على انها حقوق كفلها الخالق (وتتألف استراتيجية الاسلام لاقامة عالم كهذا من دعوة بني البشر جميعهم لسلوك هذا السبيل بصرف النظر عن ألوانهم وأجناسهم و لغتهم و قومياتهم وأصلهم العرقي أو التاريخي ولا تتحدث بلغة مصالح الشرق أو الغرب، الشمال أو الجنوب، البلدان المتطورة أو البلدان المتخلفة انها استراتيجية تريد اقامة النظام الجديد للبشر جميعهم في أرجاء المعمورة كافة، ومن خلال هذا المنحى الشامل يريد الاسلام احداث وعي بالمثل العليا والمبادىء التي يجب أن يعاد بناء بيت الانسانية عليها، و تدعو هذه المثل والمبادئ الى اعلان مضامينها المتعلقة باعادة بناء الفكر الانساني والسياسة والاسلام تواق لاقامة النموذج الجديد في أية بقعة في العالم وإذا ما بنى الاسلام نظامه الاجتماعي على هذه المبادئ فانه يكون المثال الحي للعالم المنشود بيد أن الواقع الراهن للمسلمين بعيد غاية البعد عن المثل الأعلى، وما أن ترفع دعائم هذا النموذج الجديد في أي جزء من العالم حتى يصبح الباقي يتقاسمون هذه التجربة كما يتقاسم الناس جميعهم ضوء الشمس)[١].

فكما أن الشمس من الله فهي تصل الى جميع خلقه لا يقدر انسان أن يحتكرها أو يقصرها على نفسه أو يدعي السيادة أو السيطرة عليها فكذلك الاسلام يجب أن يصل إلى العالمين لأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده ولا يقبل منهم غيره .

---

١) الانسان و مستقبل الحضارة د . خورشيد احمد ص ٦٢٧ .

﴿ إنّ الدين عند الله الاسلام ﴾[١].

﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[٢].

وحتى يصل الاسلام الى جميع خلقه فلابد من تلك النخبة من العلماء العمالقة الذين يستطيعون حمله و ينفون عنه تحريف الغالين و تأويل الجاهلين و بدع المضللين حتى يصل الى العالمين تقياً نقياً كما أنزله ربّ العالمين .

وحتى يتفاعل كافة عناصر المجتمع في الاصلاح و مكافحة الفساد فإن الاسلام يفضل في أن تكون السلطة السياسية تحت سيطرة أهل الفضل والحلم و العلم وممن توفر فيهم الاخلاق الحميدة والآداب العالية والمثل الرفيعة والاستقامة في الحق والدين فإذا قام المجتمع والدولة على افراد من صنع المنهج الاسلامي عندئذ يصبح العالم الاسلامي في وضع يؤدي فيه دوره في العالم لاصلاح المجتمع الانساني ومكافحة طبقات الناس أعداء كانوا أو أصدقاء أقارب كانوا أو أباعد فلافرق بين عربي ولا أعجمي ولا بين أحمر ولا أسود إلاّ بالتقوى .

وإن كان غير ذلك فالحق يقول :

﴿ والعصر إنّ الانسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا و عملوا الصالحات و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر ﴾[٣] .

صدق الله العلي العظيم

وصلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين

---

١) سورة آل عمران الآية ١٩ .

٢) سورة آل عمران الآية ٨٥.

٣) سورة العصر كاملة .